

الحياة في الآخرة

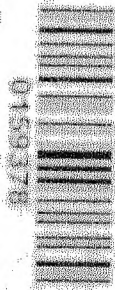
في القصص الباطنية

تأليف

د. محمد عبد المنعم خنساوي

دار الحديث

بيروت



الحياة في الإسلام

في العصر الجاهلي

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعيد بجامعة الأزهر

دار الحديث
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

مقدمة

هذه هي الطبعة الثالثة لكتاب « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » تصدر بعد الطبعتين السابقتين بوقت طويل، وبعد أن نفذت نسخ الكتاب، وتعذر الحصول عليه.

وفي هذه الطبعة زيادات كثيرة عن الطبعتين السابقتين، وفيها تحقيقات عديدة أضفناها إلى الكتاب.

ولا يمكنني أن أنوه بالجهد الذي بذلته، والعبء الذي حملته، في سبيل إصدار الكتاب في هذا الحجم الكبير.

ولكنني أعتمد على ثقة القراء وتقديرهم.

ومن الله أستمد التوفيق، وأطلب العون، وألتمس السداد، وما توفيقى إلا بالله.

المؤلف

تمهيد الأدب وأطواره

- ١ -

يطلق الأدب فنهم منه بادىء ذى بدء معناه ، الذى يدور حول الجيد
البليغ من الكلام أثره ونظمه .

فالأدب هو كل كلام عبر عن معنى من معانى الحياة ، وجلا صورة من
صورها بأسلوب جميل ، ولفظ بديع ، فتشير معانيه العاطفة ، وتستثير بلاغته
الاعجاب . فالكلام لا يكون أدباً إلا إذا اشتمل على : معان تبعث عواطف
القارى . والسماع ، وعلى ألفاظ جميلة تؤدى بها هذه المعانى والأفكار ، وإلا
إذا لام الذوق ، ووافق الطبع ، وأثر فى النفس ، وصور لك الأشياء كما تجدتها
أنت حين تخلو إليها وتفكر فيها .

وتمتلك الجمال فى الكلام قد يكون فى معانيه ودقتها وعمقها وروعها ،
وقد يكون فى ألفاظه وسحرها وفصاحتها وعذوبتها أو نخامتها ، وقد يكون
فى ألفاظه ومعانيه جميعا ، وذلك أتم لبلاغة الكلام ، وأجمع لسحره وتأثيره ،
وأدعى لخلوده وبقائه على أمد العصور .

وبعد ، فجودة الأدب هى مقياس حظه من القبول والاعجاب والخلود ،
ولنما تتأتى الجودة بحسن المعانى وتخير ما يتصل منها بالموضوع وما يناسبه فى
دقة وحسن ترتيب ، وبحسن الألفاظ والأساليب والملازمة بين الألفاظ
والمعانى ، وعلى أى حال فإن أجود البيان أثره ونظمه ما صدر عن الطبع ،
وجاء عنو القرينة من غير تكلف ولا استكراه ولا إغراب .

ومتى كان الكلام جيذا على هذا النحو ، فهو الذى نسميه أدباً ، ونعنى
بمحفظة روائته وتدوينه .

- ٥ -

- ٢ -

وقد مرّت كلمة أدب بأطوار تاريخية مختلفة في نشأتها اللغوية (١) مما
نلم به في هذا المقام . .

١ - وردت كلمة أدب في الشعر والنثر المأثورين عن العصر الجاهلي :

١ - قال الأعشى :

جروا على أدب منى بلا نزق ولا إذا شمريت حرب بأغمار (٢)

٢ - وقال عتبة بن ربيعة لا بلته هند عن أبي سفيان : «يؤدب أهله ولا
يؤدبونه» ؛ وقالت له : وسأأخذ به أدب البعل ، (٣)

(١) راجع الجزء الأول من العصر الجاهلي للرافعي ، ومقالات في الأدب
الزيات ، والأدب الجاهلي لطلح حسين ، والرد عليه للفمراوى وخضر حسين -
وأصول النقد الأدبي للشايب ، ولسان العرب مادة «أدب» ، وخزانة الأدب في بيت
سهم بن حنظلة : «حسن ذا أدبا» ، وكذلك ترجمته في الأغاني ، ٢٧ : ٢ أمالي
المرتضى ، ١٤٥ : ٣ شرح الحماسة للتبريزي ، وقصيدة كعب بن سعد التي فيها «شب
وهو أديب» في المفضليات ، وترجمته في الخزانة وشرح أمالي المرتضى (مع
ملاحظة أن القصيدة في الجمهرة منسوبة لمحمد بن كعب الغنوى - ص ٢٧٤ - وفي
الخزانة والسيوطي والعيني لكعب بن سعد الغنوى) ، وترجمة مزاحم العقيلي
في الخزانة والأغاني ، وبيته «الأديب المذلل» ، و١٣ شرح أدب الكاتب للجواليقي ،
و١٠٤ : ٢ الأمالي في حديث عتبة مع ابنته هند ، وحديث قيس بن زهير في الأغاني
وأمالي المرتضى ١٤٩ : ١ ، و١٦٠ : ٧ شرح الكامل ، ٦٣ : ٣ شرح الكامل للبيت
«أبعد ستين عندي يبتغي الأدبا» ، من قصيدة جاهلية لامرأة ، وص ١٧ ج ٦
تاريخ الطبري «يؤدبني الحجاج» ، ونهج البلاغة ، والأدب الصغير والأدب الكبير
لابن المقفع ؛ ورسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب .

(٢) البيت من قصيدة للأعشى في شرح راجع ص ١٤ من الروائع العدد
الخامس الخاص بالأعشى .

(٣) ٢ : ١٠٤ الأمالي

٣ - وقال النعمان الخطباء العرب الذين أوفدهم إلى كسرى : فلا يكون ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعنا ، (١) . وقال في رسالته إلى كسرى :

« وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وآدابهم » (١)

٤ - وورد في شعر جاهلي لامرأة : أبعد ستين تندي يبتغي الأدبا ؟

وهي في كل هذه النصوص لا تخرج عن المعنى الخلق المعروف .

ب - وجاء الإسلام بعد ظلمات من الجهل والضلالة والجاهلية ، فنجد كلمة أدب ترد في نصوص إسلامية كثيرة منها :

١ - جاء في الحديث الشريف « أدبني ربّي فأحسن تأديبي ، وهو حديث مشهور ، ويدعو أن التأديب هنا بمعنى التهذيب الخلق ، ولكن إذا رجعنا إلى الرواية في أصل ورود الحديث وهي (٢) أن أبا بكر قال لرسول الله (ص) ما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ فقال رسول الله (ص) : « أدبني ربّي فأحسن تأديبي » ، نجد أن التأديب هنا بمعنى التعليم وهو طور من أطوار كلمة أدب المشهورة بيننا الآن .

٢ - وفي حديث مشهور يروي عن عمر بن الخطاب : « طفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار » .

وعلى الجملة فالأدب في كل هذه النصوص بمعنى الخلق الكريم واصطناع السيرة الحميدة ، ودلت هذه الكلمة على ذلك في العصر الجاهلي ، كما دلت عليه في صدر الإسلام ، قال الجواليقي م ٥٤٠ هـ في شرح أدب الكاتب :
والأدب الذي كانت العرب تعرفه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل
المكارم (٣) ،

(١) ١٠١٦٩ : المقدط ١٩٣٥ القاهرة المطبعة التجارية

(٢) راجعها في ص ٣٤ من الأدب العربي وتاريخه في عضري صدر الإسلام والدولة الأموية للرحوم محمود مصطفى ط ١٩٣٧

(٣) ١٣ شرح أدب الكاتب للجواليقي ، ص ٢٧ شفاء الغليل للشهاب الخفاجي ط ١٢٨٢ هـ

ج - ثم جاء عصر بني أمية . ووردت كلمة أدب ورددت فيه كثيراً :

١ - من ذلك ما أنشده الجاحظ :

ولاني - على ما كان من عنجيتي ولونته أعرأيتي - لأذيب^(١)

٢ - وقول كعب بن سعد الغنوي :

حبیب إلى الزوار غشيان بينته جميل المحيا شب وهو أديب

٣ - وقول سالم بن وابصة الأسدي الشاعر من قصيدته التي ذكرها صاحب الحماسة (٢) :

إذا شئت أن تُدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أنت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لولته عذراً

٤ - وروى صاحب اللسان (٣) في مادة « أدب » ، لمواحم العقيلي - وهو شاعر أموي - قوله في صفة الإبل :

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذل^(٤)
٥ - وقال بعض الفراريين :

كذلك أدبت حتى صار من خلقي أنى وجدت ملاك الشيمة الأدبا
٦ - وقال سهم بن حنظلة ، ويظهر لي أنه أموي :

(١) البيت في ص ١٢٦ ج ١ البيان والتبيين ط ١٩٢٧ . العنجهية : الحق والجمل . اللوثة : الحق أيضاً ، والمراد بكل ذلك جفاء الأخلاق

(٢) ١٦ ج ٢ ديوان الحماسة الطبعة الثالثة ١٩٢٧ بمطبعة السعادة . وسالم بن وابصة تابعي وأبوه وابصة صحابي جليل ، وبعض هذه الآيات في الأمالى ص ٢٢٤ طبع دار الكتب .

(٣) ٢٠٠ ج ١ اللسان

(٤) رمل عالج : جبال متصلة يتصل أعلاها بالدهناء بقرب اليمامة وأسفلها بنجد وتوسع اتساعاً كثيراً . النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد وهي مؤنثة لاغير .

لم يمنع الناس مني ما أردت ، ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذالدا (١)
٧- وألف ابن المقفع م ١٤٣ هـ كتابين له ، سماهما . الأدب الكبير
والأدب الصغير ، وفي الأدب الصغير تتردد كلمة أدب كثيرا (٢) ، وكذلك
في الأدب الكبير .

٨- ومن خطبة للحجاج : هذا أدب ابن نهية (٣) أما والله لاؤدبكم
غير هذا الأدب . .

٩- ومن رسالة لعبد الحميد الكاتب : أحب (أمير المؤمنين) أن يعهد
إليك عهدا . . يحملك منه أدبه ، ويشرع لك عظته . .
وهي في كل ذلك بالمعنى الخلق العام المعروف .
ولكن وردت نصوص أخرى في هذا العصر منها :

١- قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي لمعلم ولده : أدبهم برواية
شعر الأعشى .

٢- وقال معاوية : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم (٤) .

٣- ووجدت طبقة المعلمين ، الذين كانوا يؤدبون الناشئين من أبناء
الخلفاء والأمراء والولاة ، ويعلمونهم الأخبار واللغة والشعر وغيره ،
وأطلق عليهم لقب « الأدباء » و « المؤدبين » ، مما يدل على أن الكلمة كانت
تستعمل بمعنى التعليم .

٤- وقال عبد الحميد الكاتب من رسالته للكتاب : « فتنافسوا يا معشر
الكتاب في صنوف الآداب » .

(١) وينسب البيت لطيفيل الغنوى وهو جاهلي (١٣) شرح أدب الكاتب ط
القدس ١٩٣٥ ، ٢٧ شفاء الغليل ط ١٢٨٢)

(٢) ص ٥٦ و ٥٣ و ٤٠ وسواها من الأدب الصغير ط ١٩١١ .

(٣) رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج

(٤) ٤١ ج ٢ وفيات الأعيان

٥ - وفي الأدب الصغير لابن المقفع م ١٤٣ هـ : جل الأدب بالمنطق ، وكل المنطق بالتعليم ، ليس حرف من حروف معجمه ، ولا اسم من أنواع أسمائه ، إلا وهو مروي متعلم مأخوذ من إمام سابق من كلام أو كتاب .

٦ - وقال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المتوفى عام ١٢٥ هـ : كماك من علم الأدب (١) أن تروى الشاهد والمثل .

وهي في أغلب هذه النصوص كلها ليست بالمعنى الخاقي المعروف ، إنما هي تدل على ما كان يلقبه المعلم إلى طلبته من الشعر والقصاص والأخبار والأنساب وكل ما من شأنه أن يثقف نفس الصبي ويهذبها من أنواع العلوم المختلفة الخاصة باللغة والشعر وما يتصل به .

ومن ذلك كان ملشأ السكسة المشهورة : « حرفة الأدب » ، وأول من قالها الخليل (٢) ، وذلك لأنهم كانوا يتكسبون بالتعليم .

فكلمة « أدب » في العصر الأموي كانت تطلق : على المعنى الخلقى المعروف ، وعلى رواية أشعار العرب وأخبارها وأيامها وأنسابها ، أو تعليمها للناشئين والمتعلمين .

وثقافة السكاتب - وهو أخص من الأديب - تجدها مبسوبة في رسالة عبد الحميد السكاتب إلى الكتاب .

٥ - وجاء عصر بني العباس ، فنشأت دراسات في النحو والصرف والعروض واللغة والبلاغة ، وشملت كلمة « أدب » هذه الدراسات جميعها ، كما كان يطلق لفظ الأدباء على الكتاب والشعراء لتكسبهم بالأدب ، ويقول الجواليقي

(١) في القرن الأول كانوا يطلقون على موضوعات علم الأدب : علم العرب ، أما اصطلاح علم الأدب فقد وجد في القرن الثاني .

(٢) ٥٢٩ هـ ثمار القلوب للشمالي

في شرح أدب السكاتب (١) ، اصطلاح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على أن يسموا العالم بالنحو والشعر وعلوم العرب « أدبياً » ، ويسموا هذه العلوم الأدب ، وذلك كلام مولد ، لأن هذه العلوم حدثت في الإسلام .

ولما اشتدت حركة التأليف وقويت النهضة العلمية استقلت هذه العلوم بنفسها وبحوثها وانعزلت عن الأدب ، وأصبحت منذ منتصف القرن الرابع كلمة أدب تدل على الكلام الجيد من المنظوم والمنثور وما يتصل به ويفسره من الشرح والنقد والأخبار والأنساب وعلوم العربية ؛ شملت الشعر كما شملت النثر الذي أجاد فيه فحول الكتاب في هذا العصر أيضاً ، كما شملت النقد الذي بدأ ينمو فيه . وكذلك الغناء (٢) ، قال ابن خلدون : « وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن - الأدب - لما هو تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه (٣) ، وصار لفظ الأدباء من ذلك الحين لا يطلق إلا على الشعراء والكتاب ، فانفردوا به ، وزال عن العلماء جملة لاستقلال العلوم يومئذ وضعف الرواية ونضوب مادتها ، حتى قيل . ختم تاريخ الأدب بشعلب والمبرد . وألفت في الأدب بهذا المعنى كتب مشهورة : كالبيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ م ٢٥٥ هـ ، والكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبردم ٢٨٥ هـ ، وكتاب العقد الفريد لابن عبدبربه الأندلسي م ٣٢٨ هـ ، والآمال لأبي علي القالي م ٣٥٦ هـ ، وكذلك الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني م ٣٥٦ هـ ، وسواها من أصول كتب الأدب ومصادره الأولى ، وكان الذين يقومون بدراسة علوم الأدب وروايتها

(١) ١٢ و ١٤ شرح أدب السكاتب للجواليقي ، ٢٧ من شفاء الغليل للشهاب الخفاجي ط ١٢٨٢ هـ

(٢) ٢٤ : ١ تاريخ آداب العرب للرافعي

(٣) ٤٨٩ المقدمة ط ١٩٣٠ بالمطبعة الأزهرية

يسمون « المؤذنين » ، إلى أن كان القرن الرابع الهجرى وانتشرت العجمة وضعفت العصبية العربية فانتهى عهد المؤذنين حتى قيل : ختم تاريخ الأدب بالمبرد ٢٨٥ هـ وتعلب ٢٩١ م (١) ، وصار لفظ الأديب يطلق على الشاعر أو الكاتب أو الناقد فحسب ، وأصبح الأدب يدل كما قدمنا حتى اليوم على الجيد من الكلام المأثور شعراً ونثراً وما يحتاج إليه من التفسير وتبيين ما فيه من مظاهر الجمال أو القبح ، وأصبح النحوى أو العالم بأصول البلاغة أو بأوزان الشعر وقوافيه لا يستطيع أن يسمى نفسه أديباً (٢) .

ويقول ابن خلدون في حد الأدب : هذا العلم لاموضوع له وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر على الطبقية ويجمع متساو فى الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة مع ذكر بعض من أيام العرب وذكر المههم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة (٣) .

والخلاصة أن :

١ - كلمة أدب وردت فى نصوص جاهلية وإسلامية بمعنى الخلق الكريم

(١) راجع ١٢٢ : ٥ معجم الأدباء الشعر فريد رفاعى

(٢) وذلك بعد أن كان اسم النحوى مرادفا لاسم الأديب حتى إن بعض العلماء قد ألف فى تراجم النحويين كتباً سميت باسم طبقات الأدباء كما فعل ابن الانبارى فى كتابه « نزهة الألبا فى طبقات الأدباء » والغرزذقى التقيروانى م ٤٧٩ هـ فى كتابه : « شجرة الذهب فى معرفة أئمة الادب » ، وهو تراجم للغويين والنحويين ، ولم يكن النحوى هو من عرف القواعد فحسب بل كان النحوى هو من عرف القواعد وحفظ أشعار العرب وعلم تخريجها وحفظ أيامهم وخطبهم وحكمهم ومساجلاتهم (راجع ص ٦٨ مشكلة اللغة العربية للاستاذ محمد عرفه ط ١٩٤٦)

(٣) ٤٨٨ المقدمة لابن خلدون .

٢- وأنها وردت في العصر الأموي بمعنى الخلق الكريم ، والتعليم والتشجيع اللذين يقودان إلى الكريم الفاضل من الأخلاق ، ثم استعملت في رواية النثر والشعر لأنهما يدعوان إلى الفضائل ومكارم الأخلاق .

٣- وأنها في صدر العصر العباسي إلى منتصف القرن الثالث استعملت بمعنى التعليم أيضاً ، وأصبحت فيه كلمة أدب تطلق على : رواية الشعر وما يتصل به من الأخبار والانساب وعلوم اللغة والعربية ، وعلى تعليمها (١) ، ثم استقلت هذه العلوم فأصبح الأدب منذ منتصف القرن الرابع لا يطلق إلا على الجيد المأثور من الشعر والنثر حتى العصر الحديث (٢)

وأطلق لقب الأدباء على الشعراء والكتاب لتكسيهم بالأدب كما كان يتكسب المؤدبون بصناعة التعليم .

ويجب أن يلاحظ مع ذلك أن كلمة أدب في العصر العباسي كانت تطلق من أواخر القرن الثالث أحياناً عند العظماء والكبراء وحاشيتهم وعلى سبيل التجوز على ما يشمل الثقافة العامة من غناء وسمر ، وحسن أدب المنادمة والحديث وخدمة الخلفاء والملوك ، والبراعة في الصيد وفي لعب النرد والشطرنج ، وقيل لهذه العلوم : آداب رفيعة وهي قريبة من الفنون الجميلة عندنا اليوم ، وكان الأدب يقابل لفظ المثقف : ومن هذا يمكننا أن نقول إن للأدب معنيين مختلفين : الأدب بمعناه الخاص وهو الكلام الجيد الذي

(١) في القرن الثاني كان تطلق كلمة الادباء والمؤدبين على المعلمين ، ومن ذلك كان منشأ الكلمة المشهورة «حرقة الادب» وأول من قالها هو الخليل أحمد م ١٧٤ هـ ، وإنما سموا بالادباء لانهم كانوا يتكسبون بالتعليم

(٢) يقول الرافعي : لم ينتصف القرن الرابع حتى كان لفظ الادباء قد زال عن العلماء جملة وانفرد به الشعراء والكتاب لاستقلال العلوم يومئذ ، على ما كان من ضعف الرواية ونضوب مادتها ، حتى قالوا : ختم تاريخ الادباء بشعوب والمبرد ٢٦٦ : ١ الرافعي .

- ١٣ -

يحدث في نفس قارئه وسامعه لذة فنية شعراً كان أو نثراً ، والأدب بمعناه العام وهو ما يشمل الثقافة العامة التي تسكوّن الرجل وترقي به إلى مستوى عقلي ممتاز .

- ٣ -

هذا ولقطة اطلاع بعض المستشرقين ومن تابعهم من أدبائنا ، زعموا أن كلمة الأدب لم ترد في نص جاهلي أو إسلامي ، ولما قيل لهم إن الحديث « أدبني ربّي » ينفي ما ذهبتم إليه ، قالوا إنه حديث ضعيف . ثم قالوا : وإذا كانت كلمة « أدب » لم ترد في نص جاهلي أو إسلامي موثوق به وبصحة روايته ، وليست مع ذلك في اللغة العبرية والسريانية كما يؤيده الباحثون في اللغات فمن أين إذا اشتقت هذه الكلمة وكيف استعملت في اللسان العربي ؟ اختلوا في الإجابة عن ذلك السؤال :

١ - فبعض الباحثين يذهبون إلى أن كلمة « أدب » بالفتح مأخوذة من كلمة « أدب » بسكون الدال بمعنى الدعاء يقال : أدب القوم يأدبهم أدبا : إذا دعاهم إلى المأدبة لتناول الطعام (١) ، واسم الفاعل منه « أدب (٢) » قال طرفة الشاعر الجاهلي الفحل :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدبَ فينا يلتقر (٣)

ويجمع على « أدبة » ، ومنه قول الإمام علي رضي الله عنه : « أما إخواننا بنو أمية فقادة أدبة (٤) » .

فقد تولدت كلمة « أدب » ، إذاً من كلمة « أدب » بمعنى الدعاء (٥) ، فالأدب

(١) ١:٢٠٠ اللسان

(٢) ١:٢٠١ اللسان

(٣) الجفلى : الدعوة العامة . النقرى : الدعوة الخاصة . انتقر : دعا النقرى

(٤) ٢:٢٠١ اللسان (٥) ويذكر ذلك الجواليقي في شرح أدب الكاتب

(ص ١٣) كما يذكر وجه آخر لاشتقاق كلمة أدب وهو أنها مأخوذة من الادب

يدعو إلى المحامد والأدب دعاء إلى الطعام ، وفي اللسان ما يؤيد ذلك قال ابن منظور م ٧١١ هـ في اللسان : « والأدب : الذي يتأدب به الأديب من الناس ، لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقايح (١) » .

وأخذ كلمة « أدب » من الأدب بالسكون رأى يعوزه الحجة ، فضلا عن أن الكلمة لم تنقل بنصها وسكون دالها والمعهود استعمال الكلمة عند نقلها من معنى إلى معنى هيئتها وشكلها (٢) .

٢ - ويرى الأستاذ تليو من المستشرقين أن كلمة « أدب » مشتقة من كلمة « آداب » جمع « داب » بعد أن دخلها القلب المكاني (٣) ، ومع مرور الزمن تنوسى الأصل وتوهم أنها جمع « أدب » .

ويضعف هذا أن « داب » لم تجمع على آداب ، وأن هذا الرأي مجرد حدس وظن .

٣ - وقيل إن كلمة « أدب » أخذت عن بعض اللهجات العربية من غير اللهجة القرشية (٤) وهي لهجات كانت لا تزال موجودة في العصر الإسلامي ثم ذاعت الكلمة بين الجميع ثم نقلت من المعنى الخلقى إلى المعنى الاصطلاحي

== وهو العجب فسكانه الشيء الذي يعجب منه لحسنه ، ولأن صاحبه الرجل الذي يعجب منه لفضله (١٣ و ١٤ شرح أدب الكاتب)

(١) راجع : ٢٠٠ : ١ اللسان

(٢) وفي اللسان (٢٠١ ج ١) الأدب مصدر قولك أدب القوم يأدبهم أدبا إذا دعاهم إلى طعامه والآدب الداعي إلى الطعام ، وقال سيويه : قالوا المأدبة كما قالوا الدماء وقيل المأدبة من الأدب . وفي اللسان أيضا : الأدب : الظرف وحسن التناول (٢٠٠ ج ١ اللسان)

(٣) ص ١٨ الأدب الجاهلي لطله حسين

(٤) ص ٢٠ من المرجع نفسه

- ١٥ -

المعروف في العصر الأموي للنسابة بين المعنيين ، قالوا : وهذا رأى قريب إلى العقل وهو أشبه بالصواب .

٤ - وهناك من الباحثين من يفرض أن كلمة أديب مأخوذة من لغة السومريين إذ كان معناها عندهم (إنسان) ، وبقيت في لغة العرب كما كانت في الأصل مرادفاً بها معنى الانسانية ، وغيرت في اللغات السامية الأخرى من أديب إلى آدم (١) .

وكل هذه الفروض والتأويلات ترينا مدى تخبط هؤلاء وهؤلاء .

إن كلمة أدب قد وردت في نصوص جاهلية وإسلامية وأموية بنصها حيناً وبمادتها حيناً آخر ، وإذا كان بعض اللغويين لم يرووا هذه النصوص ولا هذه الكلمة عن العصر الجاهلي كابن منظور فإنها مبثوثة في كتب الأدب وسواها فارجعوا إليها إن شئتم .

ولا حاجة لنا - بعد وجود هذه النصوص في الأدب الجاهلي - إلى أن نبني على استنتاج لا يؤيده الدليل آراء هي من صنع الوهم والخيال .

- ٤ -

وبعد فالأدب مظهر للبلاغة ، وصورة من صور التفكير والخيال والعاطفة والإحساس والشعور والذوق والفهم والحياة ، وهو وسيلة للمصلحين والمرسلين وأصحاب الدعوات العامة ، ولا يستغنى عنه إنسان في العصر الحديث ، فالصحافي والقاضي والمحامي والنائب والوزير والأمير والكتّاب والمصلح والواعظ والمرشد وغيرهم في حاجة ماسة إلى الأدب وتأثيره وقوته في التعبير والافتداع وإثارة المشاعر في نفوس الجماهير والطبقات .

هذا والأدب العربي من أغنى آداب الأمم جميعاً ، ولا يزال كما

(١) راجع الفصل الأول من الباب الأول من كتاب أصول النقد الأدبي للشايب

- ١٦ -

كان حافلا بأسباب القوة والبلاغة ، وعاملا كبيراً في المجتمعات العربية وإصلاحها .

- ٥ -

وينقد الدكتور طه حسين رأي من يذهب إلى أن كلمة أدب مشتقة من الأدب بمعنى الدعوة إلى الطعام كما ينقد رأي نليينو الذي ذهب إليه من أن الكلمة مأخوذة من آداب جمع دأب (١) ويذهب إلى أن الكلمة - أدب - استعملت في عصر بنى أمية بمعنى التعليم بطريق الرواية على اختلاف ألوان هذه الرواية (٢) ، وأنها قد دخلت في لغة قريش إبان العصر الأموي حيث انتقلت إليها من إحدى اللهجات العربية الغير القرشية التي ضاعت (٣) .

ويقول : إن الأدب في القرن الثاني والثالث والرابع كان يدل على ما يؤثر من الشعر والنثر ، وما يتصل بهما لتفسيرهما من ناحية ، ولتقدمهما من ناحية أخرى (٤) .. وهذا هو مدلول الأدب الآن عندنا ، وعند الأمم الأجنبية القديمة والحديثة على السواء (٤) .. فالأدب عنده هو مآثور الكلام ، والأدب يستطيع ألا يتجاوز مآثور الكلام نظماً كان أو نثراً ، ولكن مؤرخ الأدب لا يستطيع أن يكتفى بمآثور الكلام ولا بما يتصل به من علوم ، وإنما هو مضطر إلى أن يدرس تاريخ العقل الإنساني ، فيلم بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون وسواها (٥) .

ويدخل طه حسين النقد في الأدب ، ويخالفه هيكل في ذلك ، فيخرج النقد عن الأدب ، بدعوى أن القصيدة مثلاً تغلب فيها الذاتية أى تظهر فيها شخصية الشاعر وميوله وأهواؤه ، أما النقد فتغلب عليه الموضوعية ، أى تدمجى أو تكاد تدمجى فيه شخصية الناقد ولا تظهر فيه إلا أصول النقد وموازينه الدقيقة ، وهو من أجل هذا - عند هيكل - إلى أن يكون علماً أدنى منه إلى أن يكون أدباً .. من حيث يرى طه حسين أن الذاتية هى المؤثر

(١) ١٨ و ١٩ الأدب الجاهلى لطله حسين طبعة ١٩٢٧

(٢) ص ١٩ المرجع (٣) ٢١ المرجع

(٤) ص ٢٤ المرجع (٥) ٢٦ المرجع

الأول في النقد ، وأن الذوق هو المسيطر على الناقد ، فالذاتية هي الظاهرة في النقد لا الموضوعية ، فهو كالتقصيدة مثلاً سواء بسواء ، فن الغلو - كما يقول طه حسين - أن يقتصر لفظ الأدب على الشعر والقصة والرسالة دون ما يمس هذه الآثار كلها من النقد ؛ ويرى هيكل أن التاريخ الأدبي ليس من الأدب لأنه علم ، ولكن طه حسين يقول : إن كلمة الأدب لها معنيان : أحدهما خاص وهو يدل على الشعر والنثر الفني وكل كلام يقصد به إلى الجودة وإلى إحداث المتعة الفنية في نفس القارئ أو السامع ، والثاني عام يعمد إليه الذين يريدون تاريخ الأدب وهو يدل على كل ما تنتجه النفس الإنسانية من ثقافات ، فالأدب بمعناه الخاص عند طه حسين يدخل فيه النقد والتاريخ الأدبي وبعض كتب التاريخ وبعض كتب الفلسفة أحياناً .

وأدب لغة أية أمة من الأمم هو ذلك الفن البليغ من مآثور شعرها ونثرها مما يصدر عن الطباع ، ويؤثر في النفوس ، ويشير العواطف ، ويدعو إلى الإعجاب والاستحسان ، وما يتصل بذلك من شرح ونقد وقصص وأخبار وأنساب وثقافة عامة تعين على فهم الآثار الأدبية وتذوقها ، ولذلك يقول ابن خلدون م ٨٠٨ هـ في مقدمته : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ، وقد سبقه إلى ذلك ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ فقال : « من أراد أن يكون عالماً فليزوم فناً واحداً ، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم ، (١) » .

وأهم مصادر الأدب العربي : البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد والأغانى للأصفهاني ، والأمالى للقالى . وأمالى ابن الشجرى ، والعقد الفريد لابن

(١) ٤٨٨ المقدمة ط المطبعة الأزهرية . وهو مسبوق بكلام عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب حيث يقول منها في ثقافة الكاتب : « قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ،

— ١٨ —

عبد ربه، وبتيممة الدهر ، ومعجم الأدباء لياقوت م ٦٢٦ هـ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان م ٦٨١ هـ ، وزهر الآداب للحصري م ٤٢٣ هـ ، وبغية الوعاة للسيوطي م ٩١١ هـ ونفح الطيب للبكري وقلائد العقبان للفتح بن خاقان ، والمستظرف للأبشي من علماء القرن التاسع الهجري ، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي م ٨٣٧ هـ ، وسواها من الكتب والمصادر .

— ٧ —

أما تاريخ أدب اللغة العربية ، فهو علم جديد حديث للنشأة ، ابتكره الإيطاليون في القرن الثامن عشر (١) ، وعنى به المستشرقون في القرن التاسع عشر ، ونقله عنهم المغفور له الأستاذ حسن توفيق العدل إثر عودته من ألمانيا عام ١٨٩٢ وقيامه بتدريسه في مدرسة المعلمين العليا ودار العلوم ؛ ثم سار على أثره جورجى زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، ثم ألف فيه بعد ذلك عدد من بحول الأدباء من أمثال الاسكندري في الوسيط الذي اشترك معه في تأليفه الشيخ مصطفى العنانى ، وفي غير الوسيط من كتبه في تاريخ الأدب التي كانت تدرس في دارالعلوم ، والشيخ علام سلامة ، والمرحوم أستاذنا محمود مصطفى والدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي ، وأحمد حسن الزيات في كتابه « تاريخ الأدب العربى » ، والمغفور له مصطفى صادق الرافعى في كتابه « تاريخ أدب لغة العرب » الذى طبع بعد وفاته في ثلاثة أجزاء ، وأصحاب الفصل بمجزئيه - وقد كان علم تاريخ أدب اللغة العربية في أول القرن العشرين يسمى تاريخ أدبيات اللغة العربية :

كان منهج أدباء العرب في دراسة الأدب العربى (٢) ينحون نحو دراسة تراجم الأدباء والكتاب والشعراء ورواية آثارهم الادبية ونقدها والموازنة بينها وبين غيرها من الآثار مع تدوين مآثور أدب العرب شعراً ونثراً وشرحه

(١) على أن أول من ميز الأدب والفنون بالتاريخ هو باكون مؤسس الفلسفة الحديثة المنوفى ١٦٢٦ م فقد جعل التاريخ ثلاثة أنواع : التاريخ الدينى وتاريخ الاجتماع وتاريخ الآداب والفنون (٢) راجع كتابى « مذاهب الأدب » ص ٧٩

وتحليله ونقده والإلمام ببعض أصول الأدب والشعر في الأسلوب والطبع والروح والذوق ، ومن هؤلاء : الجاحظ في البيان والمبرد في الكامل ، وابن سلام في طبقات الشعراء ، وابن قتيبة في « الشعر والشعراء » ، وأبو الفرج في الأغاني ، والقالي في الأمالي ، وابن عبد ربه في العقد ، والآمدي م ٢٧١ هـ في الموازنة ، والقاضي الجرجاني م ٣٦٦ هـ في الوساطة . وابن رشيق م ٤٥٦ هـ في العمدة ، وأبو هلال في الصناعتين . ومن هذه الكتب : وفيات الأعيان لابن خلكان م ٦٨١ هـ ، وقيمة الدهر لشعالي م ٤٢٨ هـ ، ومعجم الأدباء لياقوت م ٦٢٦ هـ ، ونفح الطيب للمقري ، وقد تبع هذا المنهج في العصر الحديث الشيخان : المرصفي في الوسيلة الأدبية ، وحزرة فتح الله في المواهب الفتحية .

ويقول ابن خلدون : كتب الأدب أربعة : كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الكامل للمبرد وكتاب أدب السكاك لابن قتيبة وكتاب النوادر لابن قتيبة أيضاً .

ولكن المستشرقين (١) استمدوا من هذه الأصول والدراسات العامة المبتوثة المفرقة في أدبنا العربي ما أعانهم على بحث تاريخ الأدب العربي على ضوء بحوثهم في تاريخ آداب لغاتهم ، فأخذوا يبحثون عصور الآداب العربية وحالة اللغة والأدب في كل عصر وحلوا المؤثرات العامة التي أثرت في الأدب في كل فترة من هذه الفترات نهضة أو ضعفاً ، وعنوان تاريخ أعلام الأدب العربي في الشعر والنثر والخطابة والخطابة وترجموا لهم ودرسوا آنازهم الأدبية دراسة واسعة وذكر والخلاف بين المدارس الأدبية المختلفة وأثر كل مدرسة في الأخرى ، والتجديد والتقليد بين هذه المدارس المتنوعة ، إلى غير ذلك من جديد الدراسات التي لم توجد بهذا اللون في الأدب العربي القديم ، والتي

(١) راجع مقدمة الأدب الجمالي ومقدمة تجديد ذكرى أبي العلاء لطله

— ٢٠ —

لا تعد دراسات العمدة والمثل السائر وفهرست ابن التديم بجانبها شيئاً مذكوراً
وسميت هذه الدراسات « علم تاريخ أدب اللغة العربية » .

فهذا العلم جديد لذاً ، وهو يبحث في أحوال اللغة نثرها ونظمها في شتى
العصور المختلفة ، وفي المؤثرات العامة في الادب العربي في كل عصر ضعفاً
وقوة ، وفي ما كان لآعلام الادب العربي من الاثر فيه وفي اللغة ، وفي
حياتهم وتحليل أديهم ونقده .

ولهذا العلم منزلة كبيرة في دراسات الادب في العصر الحديث : فهو
يوقفنا على الاساليب الاولى التي أثرت في الادب العربي ارتقاء وضعفاً في شتى
العصور ؛ ويعرض علينا الآثار الادبية لكل عصر ، حتى لنكاد نلمس سمات
كل عصر في التعبير والبيان ، ونقف على الفروق بين الادب وأساليبه في كل
جيل ، وهو فوق ذلك لا يلمس أعلام الادب ورجاله ، فيؤرخ حياتهم ويدرس
آثارهم ، ويمحي ذكرهم على مر الاجيال .

— ٨ —

والتاريخ الأدبي لأداب أمة من الامم شديد الصلة بتاريخها الاجتماعي
والسيامي :

- ١ - فهو يؤرخ حياة الامم الادبية والفكرية والخلقية .
- ٢ - ويعين المؤرخ السيامي في فهم حقائق التاريخ وحالة الامة التي
يريد تدوين تاريخها العام .

وإذا كان التاريخ الأدبي مؤثراً في التاريخ العام فلا شك أنه يتأثر به إلى
حد كبير أيضاً ، فليس من السهل دراسة أدب الامة إلا بعد دراسة تاريخها
السيامي وأثره في حياتها الادبية ؛ وليس من السهل دراسة الادباء من شعراء
وكتاب ، إلا بعد دراسة عصورهم التي نشأوا فيها ، وأثر بيئاتهم وأحوال
مجتمعاتهم في حياتهم العامة والخاصة ، فضلاً عن أن الاحداث السياسية الكبرى
هي التي تؤثر في حالة الادب وحياته وضعفه أو قوته .

فكلا التاريخين في الحقيقة متأثر بصاحبه مؤثر فيه .

-- ٢١ --

- ٩ -

وتاريخ أدب اللغة العربية يمكنك أن تقسمه إلى عصور متعددة ،
تختلف حالة الأدب العربي في كل عصر منها عن حالته في الآخر اختلافاً
واضحاً ، لاختلاف الحياة السياسية في هذا العصر عنها في العصر الذي يليه
أو الذي قبله .

وهذه العصور هي :

١ - العصر الجاهلي : ويبتدىء باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف
القرن الخامس للميلاد ، وينتهي بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م .

٢ - العصر الإسلامي : ويبتدىء بظهور الإسلام وينتهي بقيام الدولة
العباسية سنة ١٣١ هـ ، وبعض الباحثين يقسم هذا العصر إلى قسمين :

١ - عصر صدر الإسلام : من ظهور الإسلام حتى قيام الدولة الأموية
عام ٤١ هـ .

ب - العصر الأموي : من عام ٤١ إلى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ

٣ - العصر العباسي : ويبتدىء بقيام الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ وينتهي
بسقوطها على أيدي التتار عام ٦٥٦ هـ .

وبعض العلماء يقسمه إلى عصرين :

١ - العصر العباسي الأول : ويبتدىء من قيام الدولة إلى عام ٣٣٤ هـ .

ب - العصر العباسي الثاني ، يبتدىء من عام ٣٣٤ هـ إلى آخر عهد الدولة .

٤ - العصر التركي : ويبتدىء بسقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وينتهي بحكم
محمد علي لمصر عام ١٢٢٠ هـ .

ويقسمه البعض إلى عصرين :

عصر المماليك ، وعصر العثمانيين :

٥ - عصر النهضة الحديثة : من قيام حكم محمد على في مصر عام ١٢٢٠ هـ حتى يومنا هذا .

ولعل من الجدير بالذكر أن ننوه هنا بأن الحياة الأدبية في أول عصر من العصور لا تنكاد تختلف عنها في نهاية العصر الذي قبله في كثير ، ذلك أن حياة الأمة وحالتها الاجتماعية والخلقية والعقلية والفكرية لا تتغير إلا ببطء ، وبعد مدة كبيرة تعمل فيها عوامل التغيير السياسي الجديد عملها ، وفي بدء الانقلاب السياسي لا تنكاد تشعر بفارق كبير بين الحياة الأدبية التي توجد في بدء الانقلاب وبينها قبيل الانقلاب ، فإذا ما مضى الزمن وسارت الأيام ظهر أثر هذا التغيير السياسي الجديد في حياة الأمة وتفكيرها وتراثها الأدبي بجميع فنونه وألوانه .

هذا والمؤثرات السياسية ليست وحدها هي العامل الرئيس في التغيرات الأدبية ، بل هناك عوامل كثيرة أخرى منها : نفس الإقليم الذي تعيش فيه الأمة ، ونوع الحضارة التي نحيها في ظلها ، ومقدار الثقافة التي تسميع فيها ، ومنها الدين الذي هو قوام الحياة النفسية والوجدانية للشعوب : ومنها مدى الاتصال بين هذا الشعب والشعوب الأخرى التي تجاوره أو البعيدة عنه ، ومنها استعداد الأمة الفطري الذي يلون ملكاتها العامة بألوان خاصة متميزة ومنها الحروب التي تقوم بين الأمة وغيرها من الأمم المجاورة لها ؛ إلى غير ذلك من شتى المؤثرات في الحياة الأدبية .

ومن ذلك نعلم أن الحياة السياسية لا يستلزم تحسنها نهضة الأدب والشعر في أي أمة من الأمم ، بل قد تسوء الحياة السياسية ومع ذلك ترقى الآداب وتنهض كما حدث في القرن الرابع الهجري فقد ارتقت الحياة الأدبية إلى حد كبير بتشجيع الملوك والأمراء للأدب والشعر واللغة ، وقد ترقى الحياة السياسية للأمة ومع ذلك يضعف أدبها كما في عصور الطغيان السياسي في حكم الملوك المستبدين .

الباب الاول

المؤثرات العامة

في الأدب الجاهلي

يتأثر الأدب عامة في شتى العصور بمؤثرات كثيرة (١)، أهمها : البيئة ؛ والدين ؛ وحياة الأمة السياسية، ومقدار حظها من البداوة أو الحضارة ، وما يؤثر في عقول أبنائها من ثقافة ومعرفة ، ومدى ما بينها وبين غيرها من الأمم المختلفة من اتصال وعلاقة ، وفطرة الأمة نفسها وما تدفعها إليه هذه الفطرة من اتجاهات وأهداف ، ومن المؤثرات في الأدب : التنافس الأدبي ؛ وظهور النقد، والأسواق الأدبية والأندية الثقافية ، وسوى ذلك مما ينهض بالأدب ويؤثر فيه .

وقد كانت هناك عوامل كثيرة تؤثر في الأدب الجاهلي ، منها هذه البيئة العربية . وحياة العرب السياسية والاجتماعية والدينية . ومعارفهم العامة ، ومدى اتصالهم بغيرهم من الأمم والشعوب ، ومنها هذه اللغة العربية نفسها . إلى غير ذلك من المؤثرات في الأدب الجاهلي (٢) مما سنلم به في هذا الباب في شيء من التفصيل .

(١) راجع المؤثرات العامة في الأدب بتفصيل في كتابي «مذاهب الأدب» ص ٦٩ وما بعدها ، وفي كتاب «الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام» تأليف : خفاجي وحسن حاد والمسلمات ص ٤٨ طبعة ١٩٥٥ ، وفي أصول الأدب كالزيات ، ولذلك آثرنا عدم التعرض لها بتوسع في هذا المقام .

(٢) راجع كتاب «قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي» - تأليف عبد الله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجي

الامة العربية

موطن العرب ، وصف للجزيرة العربية :

العرب هم سكان الجزيرة العربية . وتطلق على هذه البقعة اسم « جزيرة » مع أن الماء لا يحيط بها من كل حدودها . فبينما تجد أنه يحيط بها من الغرب بحر القلزم ، البحر الأحمر ، ومن الجنوب بحر الهند أو بحر العرب ، المحيط الهندي ، ومن الشرق بحر عمان وفارس ونهر الفرات ، نجد حدودها من الشمال أرضا متسعة شاسعة تشمل الجزيرة وبلاد الشام وفلسطين أيما هو خارج عن شبه الجزيرة ، وإن كان العرب قد سكنوا قبل الإسلام جزأ كبيرا من سوريا والجزيرة العربية وأرض فلسطين .

وتنقسم شبه جزيرة العرب إلى خمسة أقسام هي : تهامة ، ونجد والحجاز واليمن ، والعروض .

تهامة : هي الجزء الواقع غرب جبل السراة الذي يقسم شبه الجزيرة من الجنوب (اليمن) إلى الشمال (الشام) قسمين .

وهي أرض منخفضة ، وتسمى الغور ، وتمتد على شاطئ البحر الأحمر ، وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها ، من التهم وهو شدة الحرور كود الريح . ويسمى جبل السراة الحجاز لأنه حجز بين تهامة الواقعة غربيته وبين نجد الواقعة شرقيه ، ومن ذلك يقال : أغار وأنجد وأتهم .

وتهامة أقسام : تهامة اليمن ، وتهامة الحجاز .

وأما نجد : فهي الواقعة شرقي جبل السراة من أدنى حدود اليمن جنوبا إلى السماوة شمالا وتنتهى من الشرق إلى العروض ، وسميت نجدا لارتفاع أرضها .

وتقع اليمن جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند وتمتد شرقا إلى حضرموت

والشحر و عمان . وتشمل قسما من تهامة و قسما من نجد .

وأما العروض : فتشمل اليمامة والبحرين وما والاها وفيها مرتفعات ومنخفضات ومسائل أودية . وسميت عروضا لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

وأرض شبه الجزيرة كثيرة الجبال الجرد المختلفة اللون ومنها الحرار جمع حرّة . وهى الجبال السوداء اللون . يتخلل هذه الجبال : بعض الأودية التى تجرى فيها السيول أحيانا ، والصحارى الواسعة السكيرة .

وأشهر الأودية بشبه الجزيرة وادى الدهناء بنجد ، وهو فى مواطن تميم بالقرب من البصرة .

وتكثر فى بلا اليمن الأودية والرياض (١) . من حيث تقل فى الحجاز ، فيعتمد أهله على العيون أو ماء المطر الذى يلبث الكلاً فى بعض الأراضى القرية من الأودية . ولعدم نزول المطر فى مواعيد منظمة تعذر على العرب المكث فى مكان واحد . ومن أجل ذلك أكثروا الرحلة والانتجاع لمواقع الماء ومنابت الكلاً والعشب .

وجو شبه الجزيرة شديد الحرارة فى تهامة مع رطوبة شواطئها الواقعة على البحر الأحمر ، شديد أيضا فى الجبال صيفا وإن اشتد البرد بالجبال شتاء . أما نجد فمعتدلة الهواء ، وحول الأودية أكثر ، لارتفاعها ، ووجود بعض الأعشاب والحشائش والمزروعات فيها . وأما اليمن فمعتدلة شتاء ، شديدة الحرارة صيفا ؛ ينزل بها المطر بغزارة فى الربيع . وأطيب الرياح بشبه الجزيرة ريح الصبا ، وأشدّها حرارة ريح السموم .

وأهم مدن الحجاز : مكة وتقيم بها قريش وكنانة وبنو هواز . والمدينة وبها الأوس والخزرج وهم الانصار وبنو قريظة والنضير وقينقاع

(١) هى المواضع التى يستنقع فيها الماء

من اليهود وشمالها فدك وخيبر . وبمحاذاة فدك وادي القرى الذي يقول فيه جميل :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بوادي القسري لاني إذا لسعيد

ومن مدنه كذلك الطائف وتسكنها ثقيف وهي في الجنوب الشرقي لمكة ويقع شرقها سوق عكاظ ، وهي خصبة جيدة الجو والهواء تزرع بها الفاكهة وتقع جدة على البحر الأحمر في امتداد مكة . كما تقع يلبع عليه في امتداد المدينة .

وأشهر مدن اليمن نجران شمالا وقد اعتنق سكانها النصرانية ، وأراد ذو نواس إرغامهم على اليهودية فأبوا فأحرقهم في الأخدود الذي ورد ذكره في القرآن الكريم « قتل أصحاب الأخدود » . وبنجران بني أبرهة معبدا كبيرا ليصرف العرب عن الكعبة إليه ولكنه أخفق فيما أراد . ومن مدن اليمن : مأرب أو سبأ وكان في الجنوب الغربي منها السد الذي خربه سيل العرم عام ١٢٠ ق م وفيه يقول الاعشى :

وفي ذلك للبتوسي أسوة ومأرب عني عليها العرم

رُخامٌ بلمته لهم خمير إذا جاء مؤاره لم يصرم

فأروى الزرع وأعنا بها على سعة ماؤهم إذ قسم

فصاروا أيادي ما يقدر ن منه على شرب طفل فطم

ومن مدنها صنعاء وهي حاضرتها حتى اليوم ، وبها قصر غمدان وفي جنوبها خرائب مدينة ظفار ، حاضرة الحميريين . وفي المثل « من دخل ظفار حمر ، أي تكلم باللغة الحميرية . وتشمل اليمن : حضر موت ومهرة والشحر ، وشمال حضر موت الأحقاف مساكن عاده واذكر أبا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » ، وإلى مهرة تنسب الإبل المهرية وقيل إن نسبتها إلى مهرة حتى من قضاة من عرب اليمن ولغة المهرين حميرية مستعجمة لاتكاد تفهم وأهم القبائل باليمن : همدان وكان لها في الجاهلية صنان يغوث ويعوق .

وكذلك مذحج ومراد . والحضارمة ذو نشاط في التجارة والرحلة .
وبنجد مدينة الرياض ، ومن جبالها أجأ وسلى جبلاطيء ؛ وبها كثير
من القبائل العربية المشهورة كطيء وتميم وبكر وتغلب وقيس وعيلان
وعظفان ، ونجد : إقليم صحراوي تسكنها الدارات (الواحات) والاوذية
وجوها معتدل طيب الهواء ، وقد أشاد بها وبجوها الشعراء ، قال الشاعر :

ثُمَّ تَمَسَّحُ مِنْ شَمِيمِ عَرَّارٍ فَيَجِدُ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَّارٍ
أَلَا يَا حَبِذَا نَفْعَاتِ نَجْدٍ وَرِيَا رَوْضَةَ بَعْدَ الْقَطَارِ (١)

ولابن الصمة :

قَفَا وَدُّعًا نَجْدًا وَمِنْ جَلٍّ بِالْحَمَى وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُوَدَّعَا
بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرِّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا
وَأَمَّا العروض فتتظم اليمامة والبحرين وعمان .

وأما عمان فقطر جبلي على شاطئ البحر في الجنوب الشرقي للجزيرة وقد
اشتهر أهلها بالملاحة وكان يسكنها قوم من طيء من أشهرهم قبيلة بهان .
واليمامة في الداخل وتسبب إليها زرقاء اليمامة وتقع في الجنوب الشرقي لنجد
وكانت مسكنًا لطسم وجديس . والجزء الممتد في شرق الجزيرة إلى حدود
العراق على بحر فارس يسمى البحرين ومن أشهر مدنه : هجر وتشتهر بالتمر ،
وفي المثل : كناقل التمر إلى هجر ، وخرابها القرامطة وبتوا مكانها الإحساء ،
ومن مدنه كذلك قطر .

واشتهر أهلها بالنوص على اللؤلؤ . وقد كان يسكن البحرين قبائل من
عبد القيس و تميم .

أصل العرب :

العرب إحدى الأمم السامية التي تنسب إلى سام بن نوح ومن الأمم

(١) العرار : نبت طيب الرائحة : القطار : جمع قطر جمع قطرة

السامية البابليون والآشوريون والسبثيون والآراميون والانباط والاحباش
والعبرانيون والفيليقيون .

وقد اعتمد العالم ايشورون م ١٨٢٧ هـ هذا التقسيم وأقره وحشر هذه
الشعوب كلها في زمرة واحدة .

وقد استخلصت هذه التسمية « السامية » من التوراة (١)
فمجموعة الامم التي كانت تقطن بلاد آسيا الدنيا هي التي كانت تكون
هذه الوحدة الدموية واللغوية المستقلة .

ولكن هل كان لجميع الامم السامية موطن واحد ومهد أصلي نشأت كلها
فيه ثم تفرعت عنه وانتشرت في أنحاء المعمورة (٢) ؟

لم يتفق الباحثون من المستشرقين بعد على شيء في ذلك . فبعضهم يقول
بالإيجاب ، وبعضهم يجيب بالنفي ، والذين يقولون إنه كان للأمم السامية
موطن أصلي واحد يزعم بعضهم أن المهد الأصلي للساميين هو أرض أرمينية
بالقرب من حدود كردستان . والتوراة تؤيد أن هذا المهد الأصلي هو
أرض بابل ، ويؤيد ذلك المستشرق الإيطالي جويدي . والبعض يرون أن مهد
الساميين هو جزيرة العرب ، وآخرون يرونه في الحبشة . ومن الذين ينفون
هذا المواطن الأصلي المشترك للساميين نولدكه ويؤيد رأيه باختلاف
مسميات المشاهدات الأولى - من جبل وشجر وحيوان ونبات - في جميع
اللغات السامية .

ومهما يكن فأقدم الهجرات السامية كانت هجرة سكان الجزيرة الذين

(١) سفر التكوين الاصحاح العاشر

(٢) راجع : كتاب « اتجاه الموجات البشرية لمحج الدين الخطيب ، وفي مجلة
الرسالة عام ١٩٣٦ بحث لكاتب في أصل الحضارة العربية وهل نشأت في الجزيرة
العربية أو في العراق أو الحبشة ثم انتقلت اليها ، وراجع كذلك كتاب تاريخ
اللغات السامية .

اتجهوا نحو بابل وأسسوا لهم مملكة كبيرة في وادي الفرات .

الشعوب العربية :

يجتمع رأى المؤرخين على أن العرب ثلاث طبقات :

١ - الطبقة الأولى وقد بادت وتلاشت وتسمى العرب البائدة أو العاربة وقد درست آثارهم وأخبارهم إلا القليل . والمشهور منهم قبيلة عاد وكانت بلادها الأحقاف بين اليمن وعمان من البحرين إلى حضرموت والشحر ، وقبيلة ثمود وكانت منازلهم بالحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال ، وغير هاتين القبيلتين : كالعماقة ، وطسم بالأحقاف ، وجديس ، ويزعم بعض الباحثين أن الجورانيين من العرب البائدة وهو خطأ في البحث والرأى .

ب - والطبقة الثانية - التي بقيت آثارها وأخبارها - هي أولاد قحطان الذى يسمى فى التوراة باسم يارح بن يقطان وأبوهم يعرب بن قحطان أول من نطق بالعربية من هذا الجيل ، ويزعم العرب أنه أصل لسانهم وبذلك يفتخر حسان فى قوله :

تَعَلَّمْتُمْ مِنْ مَنطِقِ الشَّيْخِ يَعْرُبِ أَيْبِنَا فَصَرْتُمْ مُعَرَّبِينَ ذَوِي نَفْسٍ
وَكُنْتُمْ قَدِيمًا مَالِكُمْ غَيْرَ عَجْجَمَةٍ كَلَامٌ وَكُنْتُمْ كَالْبَهَائِمِ فِي الْقَفْرِ
وقد سكنوا اليمن بعد المعيليين مهاجرين اليها من بابل أو الحبشة . وهذه الطبقة فرعان :

١ - العرب المتعربة ، وقد ورثوا صفات العرب القديمة . وهم السبئيون والحيريون .

٢ - العرب المستعربة وهم عرب الشمال أو الاسماعيلية أو العدنانية الذين استفادوا اللغة من عرب الجنوب ، ونقلوا العادات والأخلاق عنهم بمصاهرة اسماعيل لقبيلة جرم الثانية اليمنية الى نزحت من الجنوب الى الشمال

وهي غير جرم الأولى إحدى القبائل البائدة . والعديان يرون أهل الحجاز وأصحاب اللغة الفصحى ومظاهر المدنية العربية إلى يومنا هذا . أما أهل الجنوب من ولد قحطان فقد بادت دولهم وطويت صحائفهم قبل البعثة بعدة قرون ، ومن بق منهم اندمج في عرب الشمال .

ويدهى نسب العدنانيين إلى اسماعيل عليه السلام الذي هاجر به أبوه إبراهيم إلى مكة بواد غير ذي ذرع هو وأمه هاجر المصرية وتزوج من جرم ثم كثر أولاده واستقلوا بهذه البلاد وطردها منها الجرهميين ، وأصبحوا عنصراً جديداً يخالف في الحياة والتقاليد واللغة عنصر القحطانيين .

ويبدأ تاريخ العدنانيين منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وسلسلة نسبهم إلى عدنان - من ذرية اسماعيل - معروفة أما ما بين عدنان واسماعيل فيختلف فيه علماء الأنساب اختلافاً كبيراً .

القبائل العربية (١) :

١ - القبائل القحطانية :

(١) راجع في هذا :

- أ - كتب التاريخ كابن خلدون والطبري والكمال لابن الأثير وسواها
- ب - كتب الأنساب وهي كثيرة لا يحصها العد
- ج - كتب الأدب : ومن أهمها : العقد الفريد (٢٠٨ - ٢٦٣ : ٢ العقد ط التجارية ١٩٣٥)

ملاحظة : قال ابن السكيت : الشعب أكبر من القبيلة ثم من الهارة ثم البطن ثم الفخذ ثم العشيرة ثم الفصيلة ، والفصيلة هي أهل بيت الرجل خاصة ، والعشيرة هي روط الرجل . وقال غيره : الشعوب العجم والقبائل العرب (راجع ٢٢٣ ج ٢ العقد ط ١٩٣٥ .. وراجع ١١٢ الشهاب الراصد للطبق جمعه ط ١٩٢٦ - والأحكام السلطانية للباوردي ص ٣٥٣ بون ط ١٨٥٣ ، ولسان العرب مادة نخذ ، وبلوغ الأرب ١٩٠ : ٣ وما بعدها)

قحطان (١) هو الجد الأول للقبائل القحطانية ، وأبؤهم هو يعرب بن قحطان .

وكان مهد شعب قحطان هو اليمن . وأشهر قبائلهم : كهلان وحير .
أما كهلان : فكان لهم ملك باليمن حيث شاركوا الحميريين في ملك هذه البلاد ، ثم انفرد الحميريون بالملك وصارت بطون كهلان تحت إمرتهم ونفوذهم ثم تضائل ملك حمير وبقيت الرياسة على العرب بالبادية لبني كهلان .

ومن بطون كهلان : « الأزد » ومنها : الأوس والخزرج سكان المدينة ، وغسان ملوك الشام ، و « طيء » وكانت منازلهم باليمن ثم هاجروا منها بعد سيل العرم وأقاموا بنجد بجبل أجأ وسلمى (٢) ، و « كندة » باليمن ونجد ، و « بجيلة » و « لحم » و « عاملة » شمالي الشام ، و « ومذحج » باليمن ، ومراد وهمدان بها أيضا ، و « جذام » على خليج العقبة .

وأما حمير : فكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما حولها . ومن قبائلهم : « قضاة » وكان قضاة مالكا لبلاد الشحر ، وقبره موجود بجبل الشحر واليه نسبت القبيلة . ويزعم بعض النسابين أن قضاة من القبائل العدنانية وهذا خطأ واضح . وانقسمت قضاة إلى بطون من أشهرها :

(١) راجع انساب اليمن في العقد (٢٤٢ : ٢ ط ١٩٣٥) . وفي كتاب تاريخ سني الملوك لحمة الأصفياني تفصيل لتاريخهم وانسابهم .

(٢) يقعان في الشمال الشرقي للمدينة ويخترقهما وادي الدهناء . ولما عنتهما عشر بنو طيء . في عز ومنعة قال شاعرهم عارق الطائي :

ومن مبلغ عمر بن هند رسالة إذا استحققتها العيس تنضي . من ألبعد
أيوعدني وأرمل بيبي وبينه تأمل رويدا ما أمامة من هند ؟
ومن أجأ حولي رعان كأنها قبائل خيل من كيت ومن ورد

و بلى ، شمالى الحجاز و د جهينة ، كذلك د وعذرة ، جنوب الحجاز
و د تنوخ ، قرب المعرة .

هذا وكان اليمينيون يسمون مقاماتهم باليمن مخالف جمع بخلاف ، ويضاف
إلى اسم القبيلة التى تسكنه .

وقد أثر فى حياتهم الاجتماعية والسياسية سيل العرم تأثير كبيراً . فقد
كانوا بنوا فى مارب سداً كبيراً بمثابة (الخزانات الحديثة المعروفة عندنا)
وأفادوا منه فى تجميع مياه السيول والأمطار وخزنها فيه وتصريفها عنه على
حسب الحاجة . ولما قلت العناية به وبالسهر عليه تصدعت جوانب هذا
السد ولم يستطع مقاومة هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة
الموجودة خلفه فأكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع
فأتلقتها ، وكان ذلك على ما حققه الباحثون عام ١٢٠ ق م وأدى ذلك إلى هجرة
أهل الجنوب إلى الشمال .

٢ - العدنانيون أو الاسماعيليون أو الحجازيون أو عرب أهل الشمال :

يلتهى نسبهم إلى اسماعيل بن إبراهيم الذى نزل مكة وجاور جرهما وصاهرم
وبنى هو وأبوه إبراهيم البيت الحرام ، ثم تناسل أبناؤه وكان منهم عدنان
وولده ، ومن عدنان تبتدىء سلسلة نسب العدنانيين المعروفة .

وقد انقسمت القبائل العدنانية من نزار بن معد بن عدنان . ومن بطونه :
إياد وربيعة ومضر وأنمار . وأشهرهم وأكثرهم ربيعة ومضر .

أما ربيعة فمنها قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم فى تاريخ العرب حيث
كانوا ينادون مضر فى الشرف والسيادة ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام
ومن ربيعة : عبد القيس ، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل ، ومن بكر حنيفة
وعجل ابنا لجيم .

وأما مضر (١) فانتقسمت إلى جذمين كبيرين :

١ - قيس عيلان بن مضر . ولها بطون كثيرة أشهرها : سليم وهوازن وغطبان ، وعبس وذبيان ، وأشجع ، وعدوان ، وغنى ، ومن قيس : عامر ابن صمصعة ومنه تفرعت بطون كثيرة .

٢ - إلياس بن مضر وقد تشعبت منه بطون كثيرة منها : تميم بن مر ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمه وبطون ، كنانة بن خزيمه . ومن كنانة : قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل كثيرة أشهرها : جمح ، وسهم ، وعدى ، وعنزم ، وبنو زهرة بن كلاب ، وعبد الدار بن قصي ، وأسد بن عبد العزى ابن قصي ، وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، وعبد المطلب ، وهاشم . وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم صلوات الله عليه ، ومنه العباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب وأما الأمويون فليسوا من بنى هاشم ، وإنما هم من بنى عبد شمس أخيه ، وبالجملة فهد شعب عدنان مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة ؛ ولما تكاثرت أولاد عدنان هاجروا إلى بلاد كثيرة .

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة - وبطون من بكر بن وائل إلى البحرين وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجئ الإسلام ، وهو المنذر بن ساوى التميمي .

وهاجرت بنو حنيفة - من بكر - إلى اليمامة ، ونزلوا بمجر حاضرتها ، وكان أميرهم حين مجئ الإسلام هو هوذة الحنفي وفيه يقول الأعشى .

(١) ويوجد مضر يفتخر شاعرهم ويقول :

إذا مضر الجراء كانت أرومتي وقام بنصرى خازم وابن خازم
عطست بأنف شاخ وتناولت يداى الثريا قاعدا غير قائم

(٢)

— ٣٤ —

من يرده هوزة، يسجد غير متثبٍ إذا تعمم فوق التاج أو وَضعا
له أكاليل بالياقوت فصلها صواغها، لا ترى عيبا ولا طبعا
وأقامت سائر بكر . وائل ما بين اليمامة والبحرين حتى أطراف
سواد العراق .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية . وسكنت بنو تميم ببادية البصرة .
وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة . وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوارن
في شرقي مكة . وبنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ، وأقام بهكة وضواحيها
بطون قریش .

حياة العرب الاجتماعية والسياسية والدينية

تمهيد :

العرب (١) اسم جمع واحد عربي، وأصل هذه المادة على اختلاف أوضاعها تدل على التحول والانتقال مثل «عبر»، و«برع»،... الخ. ويرى بعض المعاصرين أن هذه الكلمة كانت في أصلها تطلق على نوع خاص من القبائل التي كانت تسكن الخيام وتنتقل من موضع إلى آخر. وكان قدماء العبرانيين يطلقون هذا الاسم على صنف خاص من القبائل التي كانت تلتقل بجياعها في جهات طورسينا وبادية فلسطين والشام. وبهذا يتبين أن كلمة «عرب» لم تكن تدل في أصلها على كل من يتكلم باللغة المنسوبة إلى العرب وإنما كانت تدل على القبائل المتبدية التي كانت تسكن شمال الجزيرة. ثم شاعت لغة هذه القبائل وسار لها السلطان على أكثر قبائل الجزيرة العربية فأطلق لفظ «العرب» على كل من يتكلم بهذه اللغة من أولئك السكان سواء أكانوا بدوا أم حضرا. ويرغم آخرون أن لفظه «عربي» أو «عرب» يراد بها في اللغة السامية الأصلية «الغربيون»، ويريدون بهم سكان غربي الفرات من بدو وحضر إلى البحر المتوسط، وكانوا يسمون بلادهم «مات عربي»، أي بلاد الغربيين، فلفظ «العربي» مرادف للفظ «الغربي»، أي من يسكن غربي الفرات. ثم سرى هذا الاسم على جميع سكان الجزيرة عندما تغلبت عليها لغة الساكنين في هذه الجهات وما لبث العرب أن أفردوا لفظا يدل على سكان الخيام المتنقلين في البوادي وهو لفظ «الأعراب». فاذا أرادوا هذا الجيل مطلقا سواء كان حضريا أو بدويا أطلقوا عليه اسم «العرب»، وإذا أرادوا سكنة الخيام المتنقلين خاصة أطلقوا عليهم اسم «الأعراب»، فكل أعرابي عربي ولا عكس.

وقد كان الناس في العصر الثامن الهجري وما بعده يطلقون اسم «العرب»

ولا يريدون به إلا الأعراب خاصة فجري ابن خلدون في مقدمته على عرف أهل زمانه ، ولذلك اختلط على الناس فهم كلامه فاختلفوا في مراده . ففهم من قال إنه لا يريد بهذه الكلمة إلا المتنقلين من أهل البوادي خاصة ، ومنهم من قال إنها كلمة مطلقة فيجب إجراؤها على إطلاقها فهو يريد بهم هذا الجيل من الناس بدوهم وحضرهم . وقد أطنب الكتاب في هذا الموضوع وأسهبوا ، مع أن الأمر من الواضح بحيث لا يحتاج إلى إيضاح . فان أسلوب ابن خلدون يدل على أنه جارى عرف زمانه في إطلاق لفظ « العرب » على الأعراب خاصة . ولا يزال هذا العرف شائعا عند العامة من عرب هذا العصر في العراق والشام ومصر وغيرها فلا يفهمون من لفظ « العرب » إلا البدو أو القبائل التي تقطن الأرياف (١) . وبعض الناس اليوم يظن أن العرب والأعراب لفظان مترادفان لا يتميز أحدهما عن الآخر .

ولما أراد علماء العربية تدوين اللغة وضبط قواعدها في القرن الثاني الهجري استعانوا بالقرآن الكريم أولا وبكلام العرب الموثوق بعربييتهم ثانيا ، ولما كان العرب حينذاك منتشرين في الأرض يخاطبون حمراء الأمم وصفراءها وقد اضطربت سلاقتهم ولى علماء العربية وجوههم شطر الأعراب في وسط الجزيرة ، فنقلوا الكثير من أشعارهم وأخبارهم ودونوا أمثالهم وخطبهم وما يتعلق بأحسابهم وأنسابهم فاجتمع لهم من ذلك الشيء الكثير ، وأصبح ما نقلوه مادة الأدب ويلبسونه الشاهد في ضبط قواعد اللغة . وهذا هو الذى حدا ببعض الناس إلى الظن بأن الأعراب هم مصدر اللغة ويلبسونها ، ومنهم تستشهد أصولها وفروعها ؛ وأنهم الأكثرية في سكان الجزيرة العربية . وإذا أرادوا أن يمثلوا العرب لا يجدون له مثالا إلا الأعرابي . وهذا وهم شائع . لأنك إذا تقربت الجزيرة العربية في صدر الإسلام وجدت سكان الأرياف والقرى والمدن الذين يقيمون على المياه ويعيشون على الزراعة والتجارة هم الأكثرية وعليهم كان الاعتماد في الفتوح

(١) راجع ص ١٥٢ من كتاب صور من الفكر العربي للنخاسي

الإسلامية ، منهم القواد والقسم الأعظم من الأجناد . أما الأعراب فكانوا على الهامش لأشأنهم في الفتوح إلا تبعاً . ولم يبلغ فيهم من أهل الحسنة إلا القليل .

حياتهم الاجتماعية :

العرب بدو وحضر : فالبدو هم الذين يقيمون بالبادية ، والحضر هم سكان المدن .

وكان بالجزيرة العربية مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن : كعرب وصنعا وزبيد وعدن . ومن أشهر مدن الجزيرة العربية : مكة والمدينة والطائف . و فرق كبير بين حياة البدو وحياة الحضر :

فالبدو قوم رحل ، يرتادون منابت الكلاء ومواقع الغيث ، لا يستقر بهم مقام ، يرحلون بأغنامهم وأنعامهم إلى حيث تطيب لهم الإقامة حيناً ، غذاؤهم لحوم أنعامهم وألبانها ولباسهم من أصوافها وأوبارها ، وحياتهم كفاف وقناعة . اللبن والتمر واللحم هي ما كولاتهم . ومن أجل هذا الفقر والشقاء كثرت بينهم الغارات والحروب ، يأبون أن يكونوا أصحاب حرقة ويرون في ذلك عارا كبيرا . أهم ما يفتخرون به البطولة والقوة على النضال والنزال أما أهل المدن فعيشتهم مستقرة ، يعتمدون على الزراعة والصناعة في اليمن أو على التجارة في الحجاز ، يأوون إلى بيوت ومساكن ، ويعيشون في ظل أمن وسلام غالبا وكانوا أقل شجاعة وأشد حبا للبال وأكثر توفرا على وسائل الترف والنعيم . وكان اليمنيون أمعن في الحضارة وقد نقل المؤرخون كثيرا من أحوالهم بما يدل على إفراط في الترف من السيج الفاخر وأطباق الذهب والفضة وتزين قصور أغنيائهم بأنواع الزينة ، وقد أوصلهم إلى ذلك كثرة الأموال في أيديهم من طريق التجارة والزراعة . وكان أكثر الحجازيين تمحضرا قريش في مكة فقد أغنتهم التجارة ومن يأوي إليهم من الحجاج ، فنعموا بما لم ينعم به غيرهم من سكان الحجاز .

والقبيلة هي الوحدة التي بنيت عليها حياتهم ، وأفراد القبيلة ينتسبون إلى أب واحد (١) وقلَّ أن ينتسب إليها من لم يشاركها في نسبها إلا عن طريق الحلف (٢) أو الولاء .

والقبيلة تسمى غالباً باسم الأب كربيعة وضر والأوس والخزرج ، وقليلاً ما تنتسب إلى الأم كخندف وبجيلة ، وقد تعرف القبيلة بمحادث حدث كغسان وهو اسم الماء الذي نزلت به هذه القبيلة . ولكن الكثير الذائع نسبة القبيلة إلى الأب .

ويسود أفراد القبيلة العصبية والتناهر والتعاون ، وكل فرد يتعصب لقبيلته أصابت أم أخطأت :

وما أأما إلا من د غزيرة ، إن غوت غويت وإن ترشُد غزيرة أرشُد
والقبيلة تحميه من العدوان وتطالب بدمه إن جنى أحد عليه ؛ وإذا خرج فرد منها على تقاليد القبيلة أو جر عليها المغارم تخلت عنه وأعلنت براءتها منه وسمى « خليعاً » ، وقد يلتجئ فرد إلى غير قبيلته فيسمى « حليفاً » .
ولكل قبيلة رئيس هو سيدها ومرجعها وملاذها في الشدائد (٣) ؛

(١) ١٢٠ ج ٣ المخصص .

(٢) وكما كان الفرد يصير حليفاً لقبيلة غير قبيلته فقد كانت القبيلة تحالف قبيلة أخرى تحتوى بها ، وإن بقيت بعض القبائل معتزة بعصبيتها متجمرة بنفسها لانحلاف غيرها ، وجرات العرب ثلاثة : ضبة ونمير وعبس ، والبعض يزيد أربعة هي بنو الحارث بن عبد المدان .

(٣) وكان لرئيس القبيلة حق معلوم في الغنائم ، قال الشاعر يخاطب بسطام ابن قيس سيد شيبان :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

المرباع : ربع الغنيمة . والصفايا : ما يصطفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيطه : ما أصابه الرئيس في الطريق قبل الوصول إلى دار العدو . والفضول : ما فضل من الغنيمة مما لا يقبل للقسمة على عدد الغزاة .

ولها شاعر أو أكثر يتغنى بمفاخرها وشرفها ومجدها ، ويذود عنها أعداءها
وخصومها .

وعلاقة القبيلة بالقبائل الأخرى علاقة عداة غالباً : إغارة وسلب وحرب
وانتقام وأخذ بالثأر :

يُغار علينا واثرينَ فَيَشْتَتِي بنا إن أُصْبِنَا ، أو نُغِيرُ على وَثَرِ
قَسْمِنَا بِذَلِكَ الدَّهْرِ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا فَمَا يَنْقُضِي إلَّا وَنَحْنُ على شَطْرِ
وكانت القبيلة تنقسم إلى أسر ، والأسرة تخضع للأب خضوعاً مطلقاً
في كل شيء .

وللرأة شأن في الأسرة العربية . يبدأ بذكرها الشعراء قصائدهم ،
ويتغنون بحمائلها ويكنشونها بكنيتها ، ويحترمونها ، ويفخرون بلقبهم
إلى أمهاتهم كما يفخرون بالنسبة إلى الأب ، ويستمعون لمشورة
زوجاتهم ونسائهم وحسبك أن الحارث بن عوف أحد أشراف
العرب كانت زوجته الصغيرة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائي هي التي
أشارت عليه بأن يسعى في الصلح بين عبس وذبيان ففعل فاستحق بذلك
حمد الناس ومدح الشعراء ، وكانوا يستشيرونها في الزواج ويقبلون
رأيها (١) .

كانوا يتزوجون ويعددون بين الأزواج كما كانوا يطلقون ،
قال الأعشى :

أيا جارتى بينى فانك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقة

(١) راجع في ٢٠٤ ج ٢ الأملى أخذ عتبسة بن ربيعة لرأى ابنته هند في
زواجها وكانت قد شرطت عليه ذلك . ويرأيها وموافقتها تزوجت أباسفيان
ابن حرب .

وكانوا يحبون أولادهم ويحنون عليهم :
 وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
 وإذا كان بعض العرب قد أدوا البنات خشية الفقر أو العار ، فأنما كان
 ذلك في طبقة منحلة منهم في بعض بطون من تميم وأسد ، وقد كان بعض
 العرب يكره أن تلد امرأته بنتا (١) .
 وعلاقة الرجل بإخوانه من قبيلته علاقة محبة وتناصر وكفاي المثل ، انصر
 أخاك ظالماً أو مظلوماً . ويقول الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهائنا
 وكانوا يلهمون بالخمر (٢) وغناء القيان والقمار ، ويصيدون الوحوش
 بالخيل أو بالكلاب المعلقة ، وقد قالوا إن كليب بن وائل أول من اصطاد
 بالفهد - ويرد في شعرهم كثير من الآيات يصفون فيها صيد بقر الوحش
 وحمار الوحش وغيرهما ، والجود والكرم أهم خصائص العربي (٣) .
 وكانوا يتمدحون بالبرورة والأخلاق والشرف والشجاعة والكرم

(١) وفي ذلك تقول زوج عربي ولدت بنتا فغضب زوجها وتحول إلى
 بيت جاره :

ما لابي حمزة لا ياتينا يظل في البيت الذي يلينا
 غضبان ألا تلد البينا والله ما ذلك في أيدينا
 وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالارض لزراعينا

(٢) ومن العرب من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية (راجع ١٣٠٤ ج ١ الا الى)
 (٣) راجع أجواد أهل الجاهلية في العقد الفريد (١٤٥ ج ١ ط ١٩٢٨)
 وراجع حديث حاتم وما اشتهر به من الجود والنجدة وما وقع له مع زوجته
 ما وية في ذيل الامالي ص ١٥٢ . ومن أجواد العرب : كعب بن مامة
 الإيادي وأوس بن حارثة بن لام الطائي وهرم بن سنان (راجع بلوغ الارب)

والوفاء (١) .

والسكرم في حياة العربي حظ كبير ، ومن العرب أناس اشتبهوا بالجوذ
والسقاء وصاروا مضرب الأمثال كحاتم وسواه .

والإبل هي عماد الحياة في جزيرة العرب ، وكانوا يعنون بالخيول
للطعان والنزال .

وأشهر صناعاتهم الغزل ، وفي المدينة والطائف واليمن قامت الزراعة
وكذلك حول المياه والعيون (٢) .

وكانت التجارة دأب القرشيين الذين كانوا يغدون ويروحون في
الجزيرة العربية آمنين مطمئنين ، وكان لبني عبد مناف رحلات إلى
الشام واليمن ، والحبشة وفارس ، لأخذ العهود من ملوكها وتأمين السبل
لتجار قریش (٣) .

(١) وقصة وفاء السموال معروفة ، ومن وفاتهم انهم قتلوا أخاهم وفاء بعهد
الجار قال الشاعر :

قتلنا أغانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجبر مقابره

(راجع ٥٩ : تاريخ الامم الاسلامية للخضري بك ط ١٩٢٦) . وكذلك
قصة وفاء هانيء بين قبضة لأمانات النعمان بن المنذر التي أودعها عنده والتي
تعرض بسببها هو وقومه والعرب لحرب كسرى في يوم ذي قار ، قصة معروفة
مشهورة (راجع ٣٣٧٤ من العقد الفريد ط ١٩٢٨)

(٢) والبيت الذي رواه سيدي في شواهد (١٣٥٩ ج ١ الكتاب لسيدي) وهو :
إلا رجلا جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبيت

يدل على أنهم كانوا يعرفون استخراج الذهب ، ولا شك أن ذلك كان في اليمن
إذا صح أن هذا البيت جاهلي . والمحصلة : المرأة التي تحصل الذهب من تراب
المعادن وتخلصه منه وطلها للبيت لغرض التحصيل طبعاً .

(٣) ١٩٩ النوادر ملحق بكتاب الأماي . ويقول الشاعر :

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد منافع

وامتدت تجارة قريش إلى اليمن والشام ، وكانت لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء ورحلة إلى الشام صيفاً ، وقد تقسم أولاد عبد مناف البلاد التي يتاجرون معها ، فكان هاشم يذهب إلى الشام ونوفل إلى فارس وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن ، ولم يكن يتعرض لهم أحد لأنهم أهل بيت الله وحماة .

وامدت هذه الرحلات الهاشميين بثقافة واسعة وصقلت أفكارهم وأذواقهم وأسلوبهم وجعلتهم أرقى عرب الشمال ذكراً وأبهـدم نظراً وأحصفهم عقلاً .

حياتهم السياسية :

(١) المجتمع العربي يتحكم فيه رؤساء القبائل وساداتها ، فكل قبيلة تأتمر بأمر سيدها وتخضع لإرادته في السلم والحرب جميعاً :

دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

وهو الحكم والمرجع في كل ما شجر بين أفرادها من خلاف . وللقبيلة بجانب رئيسها حكم امتازوا بأصالة الرأي وحصافة العقل وصدق النظر يفرع اليهم في الخصومات الأدبية كالمفاخرة في المنسب ونحوها (١) .

وهذا النظام هو الذي كانت تسير عليه أغلبية العرب من البدو في نجد والحجاز وتهامة . ويستثنى من ذلك مكة والإمارات التي على النخوم واليمن .

= الأخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف

والخالطون غنيهم بفقرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

(١) وكان عمرو بن حممة الدوسي أحد حكام العرب (راجع ١٤٣ج ١٢٣ المال)

(ب) والقرشيون لثرائهم من التجارة ، ولا تصالهم بالأمم المتحضرة كفارس والروم ، ولنضوج عقليتهم وثقافتهم وتفكيرهم ، كانوا يحكمون مكة حكماً أدق وأنضج من هذا النظام البدوي السائد ، وقد وضع قصى في القرن الخامس الميلادي أساس هذا النظام الجديد ، فقد جمع شتات القرشيين ووجد كلمتهم وأخذ ولاية البيت الحرام وجدد بناء الكعبة وبني دار الندوة ليجتمع فيها الرؤساء الذين لا تقل أعمارهم عن الأربعين ليتشاوروا ويعقدوا أنكحاتهم وألويتهم ويفصلوا في خصوماتهم .

وأصبح لقصى السيادة التامة في مكة ، كما صار الرئيس الديني للبيت ؛ وكان له رئاسة دار الندوة ، واللواء ، فلا تعقد راية الحرب إلا بيده ، والحجاجة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها إلا هو وهو الذي يلى أمر خدمتها ، وسقاية الحاج ورفادته ، والسقاية هي الحياض التي كانوا يملأونها بالماء ويحلوها بشيء من التمر والزبيب ليشرب منها الناس إذا وردوا مكة ، والرفادة هي الطعام الذي كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة ، وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه من خراج سنوى .

وورث أولاد قصى هذه المآثر والمفاخر ، وتنافسوا عليها ، ثم استقر رأيهم على اقتسامها بينهم (١) .

١ — فكانت السقاية في بني هاشم ويقوم بها العباس بن عبد المطلب .

٢ — والعقاب - راية قريش - كانت في بني أمية عند أبي سفيان بن حرب وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وإلا رأسوا صاحبها فقدموه .

٣ — والرفادة كانت في نوفل عند الحرث بن عامر ، والرفادة هي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج .

(١) راجع العقد الفريد ، ١٦٢٤٩ بلوغ الأرب

٤ - والسدانة لبني عبد الدار يقوم بها الحرث بن طلحة وكان اليه السدانة مع الحجابة ، والسدانة خدمة الكعبة وحجابتها ويبد صاحبها مفتاح الكعبة ولها المقام الأول عندهم .

٥ - والمشورة لبني أسد وصاحبها يزيد بن زمعة بن الأسود وكان يستشار في الأمور الكبيرة .

٦ - والندوة في بني عبد الدار أيضاً ، وهي الاشراف على دابر الندوة .

٧ - والأشناق وهي الديات والمغارم وهي في بني تميم ونهض بها أبو بكر الصديق ، وكان صاحبها إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه .

٨ - القبة والأعنة ، والقبة هي الخيمة التي كانوا يضربونها ويجمعون اليها أدوات الحرب ، والأعنة هي تولى أمر الخيل في الحرب ، وكان ذلك لبني مخزوم ونهض بهما خالد بن الوليد ؛ وقيل إن الأعنة كانت في بني عدى .

٩ - السفارة وهي لبني عدى ونهض بها عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة في الجاهلية وهي التوسط بين قريش وغيرها في الحرب وفي السلم معاً

١٠ - الأيسار وهي تولى أمر الأزام وكانت في بني جمح وقام بها صفوان بن أمية .

١١ - الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لأهلهم وهي لبني سهم ويقوم بها الحارث بن قيس ... وبما وضعت قريش ، حلف الفضول ، فقد اجتمعت بطون قريش وتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان على رد المظالم بكه ولا يظلم أحد إلا ممنوعه وأخذوا للظلم بحقه ، وحضره الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في الخامسة والعشرين من عمره وقال فيه : « لقد شهدت حلف الفضول وما أحب أن لي به حمر النعم » .

(ج) ولقد قامت في اليمن دول متحضرة منظمة من أشهرها :

١ - دولة (١) المعيليين : ما بين ١٢٠٠ - ٨٠٠ ق م .

نزحوا من العراق إلى اليمن واستوطنوا بها وشادوا القصور والمحامد .

٢ - دولة سبأ : من القرن الثامن قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد أيضا ، وقد ورد ذكرها في التوراة ، وفي القرآن الكريم ما يدل على رفاهيتها : وقد ازدهرت مدينة سبأ قبل الميلاد بقرون وتدل النقوش والآثار التي عثر عليها على أنها كانت في القرن الثامن قبل الميلاد .

وحاضرة هذه الدولة هي مأرب وكانت تمر بها التجارة بين الهند والحبشة والعراق ومصر والشام في بعض العصور ، فازدهرت المدينة والدولة . ووجدت صلات تجارية بين بلقيس ملكة سبأ والملك سليمان بن داود ملك أورشليم . إلا أنه أثر في حياة دولة سبأ أمران :

أولهما : انتقال التجارة إلى الطريق البحري واقطاع مرورها بسبأ .
وثانيهما : سيل العرم الذي حطم سد مأرب فأغرق البلاد ، وهاجر أهلها منها وتفرقوا في أرجاء الجزيرة العربية .

٣ - الدولة الحميرية : ١٢٠ ق م - ٥٥٠ م .

وعاصمة هذه الدولة ظفار ، وامتازت بالفتوحات ومحاربتها الفرس

(١) راجع ص ٢٢٧ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية لولفسون ط القاهرة سنة ١٩٢٩ في الحديث عن اليمن ودولها وتاريخها والمصادر التاريخية التي تتحدث عنهم . وراجع كتاب تاريخ المدن الإسلامي

والجيشة ، وتضارب المؤرخون في أسماء ملوكهم (١) وعددهم ومدة حكمهم .

وتنقسم هذه الدولة إلى طبقتين :

- ١ - الأولى ينتهى حكمها فى أواخر القرن الثالث الميلادى (٢) .
 - ٢ - والثانية مدت سلطانها على الشجر وحضر موت ويسمى ملوكها التبابعة (٣) وآخرهم ذو نواس (٥١٥ - ٥٢٥ م) .
- وذو نواس صاحب الاخدود الذى عذب فيه أهل نجران لعدم تركهم النصرانية واتباعهم دينه الرسمى (اليهودية) وأحرق الكتاب المقدس مما دعا إلى غضب الجبشة فقامت بحملة حربية على اليمن دفاعا عن النصرانية (٤) وكانت بقيادة أرياط وأبرهة فاستولوا على اليمن عام ٥٢٥ م وحكمها أرياط ثم أبرهة ، وأبرهة هو الذى بنى كنيسة عظيمة بصنعاء، اصرف العرب عن السكبة إليها ، ثم غزا مكة ليهدم الكعبة فأهلكه الله ، وملك بعده ابنه يكسوم ؛ ثم قام سيف بن ذى يزن وحارب الحبشيين وأخرجهم من

(١) راجع اجتماع العرب عند ملك من ملوك حمير (٢٦١ ج٢ الأمالى) ، وتعمية وفود العرب لسلامة ذى فائش فى ابنه (٩٩ ج٢ الأمالى)

(٢) ومن ملوكها : ربيعة وهو الذى قص رؤيته على شق سطيج وأقام بعض أبنائه بالحيرة ومنهم النعمان بن المنذر

(٣) فتبع الأول اسمه زيد ، وتبع الآخر هو أسعد أبى كرب وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن مضر ، وذلك من ٣٨٥ - ٤٢٠ م ، وقالوا : إنه غزا المدينة وكسا الكعبة فى مكة وأنه أول من تهود من العرب

(٤) ويعمل المؤرخون اليونانيون هذه الحملة الحربية بتعليل آخر (١١٦ الشهاب الراصد)

الذين بمساعدة الفرس له الذين أمدوه بجيش بقيادة وهرز (١) .

وكانت مدة حكم الحبشة لليمن اثنتين وسبعين سنة ، وكتاب الإكليل للهمداني أحسن مرجع قديم عن اليمن وتاريخها .

(د) إمارة الحيرة : من القرن الثالث الميلادي إلى ٦٣٢ م

وهي إمارة عربية أقامها الفرس على حدود بلادهم بالقرب من الكوفة لتحميهم من غارات العرب وليحاربوا بها أعداءهم الروم . فقد وضع أردشير يده على هذه البلاد واستولى عليها وحكم العرب المقيمين فيها بما أدى إلى هجرة قضاة عنها إلى الشام ، ورأى أردشير أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه إلا بأن يملك عليهم رجلا منهم . فاختار جديمة الوضاح ملكا على الحيرة وسائر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة وهضر ، وجديمة هو الذي قتلته الزباء نحو عام ٢٦٨ م انتقاما منه لقتله والدها ، فاحتال ابن أخت له اسمه عمرو بن عدى حتى قتلها (٢) .

(١) راجع ١٦٦٧هـ الأغانى ، ٢: ٥٣ الأغانى أيضا . وراجع وفود قريش على سيف بن ذى يزن في العقد الفريد (ص ١٧٥ ج ١ ط ١٩٢٨)

(٢) المصادر الافرنجية تذهب إلى أن الزباء كانت ملكة تدمر من قبل الرومانيين ، ثم حاربها الرومان وأسروها وماتت في روما نحو عام ٢٧٣ م ، وكان اسمها عندهم زنوبيا . وكان سابور قد هاجم تدمر بعد أن أسر الامبراطور فالريان امبراطور الروم ، ولكن ملكة تدمر قاومته بما سارت عليه من حرب العصابات حتى هزمتها ومنحت روما ملك تدمر لقب د أمير الشرق وملك تدمر ، وكان اسمه د اودناتوس ، ثم قتل وتولى الملك بعده ابنه الطفل وقامت زوجته وصية على ولدها وكانت تلك الزوجة هي زنوبيا . أرادت زنوبيا التوسع فأرسلت جيشا ليفتح مصر ويخرج الرومان منها فأفلح في ذلك ، ثم غزت الاناضول واستولى جيشها عليها عام ٢٧٠ م واعترف بها الامبراطور شريكه له في الامبراطورية وأصبحت تدمر عاصمة مملكة . ثم تولى د كلوديوس ، امبراطورية =

ثم ولى على الحيرة عمرو بن عدى بن نصر اللخمى أول ملوك اللخمين بالحيرة ، وملكهم ما بين عامى (٢٦٨ ، ٦٣٢ م) أى حتى فتح خالد ابن الوليد للحيرة .

ومن ملوكها : النعمان بن امرئ القيس صاحب الخورنق والسدير (١) . والنعمان بن المنذر الذى مدحه النابغة وقد قتله كسرى وقامت من أجله موقعة ذى قار عام ٥٨٠ م (٢) .

وولى على الحيرة بعد النعمان بن المنذر إياس بن قبيصة الطائى ، وحارب هانىء بن مسعود الشيبانى طلباً لودائع النعمان بن المنذر التى أودعها عنده وانتصر بنو شيبان وهزموا الفرس هزيمة منكرة ، ثم عاد الملك إلى آل لخم .

== الرومان تخلف لمحاربة زنوبيا فهزمها فى الاناضول ثم على حدود تدمر وحاصر عاصمتها تدمر . ثم أخذوها أسيرة هى وابنها واستولوا على تدمر وخربوها عام ٢٧٢ م .

(١) بناءهما له سنجار الذى قتله الملك خوفاً أن يبني مثلهما ف قيل فى المثل : جزاء جزاء سنجار ،

(٢) راجع خطبة هانىء بن قبيصة فى قومه يحرضهم على الحرب فى يوم ذى قار فى الامالى (١٦٩ ج)

وراجع فى الامالى (١٩٥ النوادر الملحق بالامالى) خير المنذر بن ماء السماء وقتله نديمه وجعله لنفسه فى كل سنة يوم يؤس ويوم نعيم وقتله عبيد بن الابرص يوم يؤسه .

ولهند بنت النعمان بن المنذر لرجل أولها يدا فدعت له : شكرتك يد نالتها خصاصة بعد ثروة ، وأغناك عن يد نالتها ثروة بعد فاقة (٢٧ : ٤ زهر الآداب) وراجع اجتماع وفود العرب عند النعمان فى العقد (٢٥٦ : ١ ط ١٩٢٨) ، وفود العرب على كسرى فى العقد (١٦٦ : ١) ، وفود حاجب بن زرارة على كسرى (١٧٤ : ١ العقد) ، وفود أبى سفيان على كسرى (١٧٤ : ١ العقد) وفود حسان بن ثابت على النعمان (١٧٥ : ١ العقد)

وقد تأثرت إمارة الخيرة بحضارة الفرس وثقافتها ومعارفها تأثراً كبيراً
وكان ملوكها في استقلال داخلي .

ووفادة العرب على كسرى مظهر للنفوذ الفارسي في بلاد العرب ، حدث
ابن القطامي عن السكابي قال :

« قدم النعمان بن المنذر على كسرى ، وعنده وفود الروم والهند والصين ،
فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع
الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها . »

فقال كسرى - وأخذته عزة الملك - : « يانهان ، لقد فسدت
في أمر العرب وغيرهم من الأمم ؛ ونظرت في حال من يقدم على من وفود
الأمم ، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانتها ، وكثرة
مدائنها ، ووثيق بليانها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ويرد سفهها ،
ويقيم جاهلها . ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار
بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة
عددتها . وكذلك الصين في اجتماعها ؛ وكثرة صناعات أيديها وفروسياتها ،
وهمتتها في آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملسكاً يجمعها . والترك
والخزر - على ما بهم من سوء الحال في المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون
وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس - لهم ملوك تضم قواصيمهم
وتدبر أمرهم .. ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير ، في أمر دين ولا دنيا ،
ولا حزم ولا قوة ، ومع أن بما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها لمحتهم التي
هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ،
ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة . قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها
ومشاربها ، ولهوها ولذاتها : فأفضل طعام ظنر به ناعمهم لحوم الإبل التي
يعافها كثير من السباع لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها . وإن قرى

أحدهم ضيفاً عدّها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة - تنطق بذلك أشعارهم ، وتفخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التثوية التي أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، فجى لها ذلك إلى يومنا هذا وإن لها - مع ذلك - آثاراً ولبوساً ، وقرى وحصوناً ، وأموراً تشبه بعض أمور الناس (يعنى اليمن) . ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان : « أصلح الله الملك ! حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها . إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ، ولا تكذيب له . فإن أمتي من غضبه ، نطقت به » . قال كسرى : « قل ، فأنت آمن » . قال النعمان : أما أمتك - أيها الملك - فليست تذازع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها ، وبسطة محلها ، وبمحبوة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التي ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلها ، قال كسرى : « بماذا ؟ » قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوها ، وبأسها ، وسخاها وحكمة أسلتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها . . . فأما عزها ومنعتها ، فإنها لم تزل مجاورة لأبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك ، وقادوا الجند . ولم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل . حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر : إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوها وألوانها . فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم ، من الهند المنعرفة ، والصين المنخفضة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة . . . وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأعمولها ، وكثيراً من أولها ، حتى إن أحدهم ليسأل عن وراء أبيه دنيا ، فلا يدسبه ولا يعرفه . وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أباً فأباً ، أحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه

ولا ينتسب إلى غير نفسه ، ولا يدعى إلى غير أبيه . وأما سخاؤها ، فإن أديانهم رجلاً تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حمله . وشبعه وريه فيطرقة الطارق الذي يكتفي باللذة ويجتري بالشرية ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدثة ؛ وطيب الذكر . وأما حكمة ألسنتهم . فإن الله تعالى أعطاهم في أشع'هم ، وروى كلامهم ، وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالآشياء وضررهم للأمثال ، وإبلاغهم في الصفات - ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس ، ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء . ولباسهم أفضل اللباس ومعادهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع ، ومطايهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر . وأما دينها وشرعتها فإنهم متمسكون به ، حتى يبلغ أحدهم من نسكه أن لهم أشهراً حراماً ، وبلداً محرماً ، ويبتأ محجوجاً ، يمسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره ، وإدراك رغبته منه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . وأما وفاؤها ، فإن أحدهم يلحظ اللحظة ، ويومئ الإيماء ، فهي واث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهنأ بدينه ، فلا يعلق رهنه ولا تحفر ذمته . وإن أحدهم ليبلفه أن رجلاً استجار به ؛ وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى ينفي تلك القبيلة التي أصابته أو تنفي قبيلته ؛ لما أخفر من جواره ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث ، من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

أما قولك ، أيها الملك يتدون أولادهم ، فإنما يفعل من يفعل منهم بالإناث أنفة من العار ، وغيره من الأزواج . وأما قولك : « إن أفضل طعامهم لحوم الإبل ، على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا إلى أجلبها وأفضلها . فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ؛ وإنه لا شيء من

اللعمان يعالج ما يعالج به لحما إلا استبان فضلها عليه . وأما تحاربهم ، وأكل بعضهم بعضاً ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم ، إذا أنست من نفسها ضعفاً ، وتخوفت من نهوض عدوها إليها بالزحف . وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد ، يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأمرتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفقتهم من الخراج .

وأما اليمن التي وصفها الملك ، فإنما أتى جده الملك الذي أتاه ، عند غلبة الجيش له على ملك متسق ، وأمر مجتمع . فأتاه مسلوباً طريداً مستحضراً قد تقاصر عن إيوانه ، وصغر في عينه ما شيد من بنائه . ولولا ما وتر به من يليه من العرب ، لمال إلى مجال ؛ ولو وجد من يجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار .

فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : « إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل أقليمك ؛ ولما هو أفضل ، ثم كساه من كسوته وسرخه إلى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة ، وفي نفسه ما فيها ، بما سمع من كسرى من تنقص العرب ، وتهجين أمرهم . بعث إلى أكنم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة التميميين ، وإلى الحرث بن عباد وقيس بن مسعود البكرين ، وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المري - فلما قدموا عليه في الخورنق ، قال لهم :

« قد عرفتكم هذه الأعاجم ، وقرب جوار العرب منها . وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور ، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأتيم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله . فقص عليهم مقالات كسرى وما رد

عليه . فقالوا : أيها الملك ، وفقك الله ! ما أحسن ما رددت ! وأبلغ ما
 حججت به ! فرنا بأمرك ، وادعنا بما شئت . قال : « إنما أنا رجل منكم ،
 وإنما ملكك وعزرت بمكانكم ، وما يتخوف من ناحيتكم . وليس شئ .
 أحب إلى مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام عزكم ، والرأى
 أن تسيروا بجماعتكم - أيها الرهط - وتنطلقوا إلى كسرى . فإذا دخلتم
 نطق كل رجل منكم بما حضره ، ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو
 حدثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه ، فإنه ملك عظيم السلطان
 كثير الأعوان ، مترف معجب بنفسه . ولا تنخذلوا له انخزال الخاضع
 الذليل . وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منازلكم
 وعظيم أخطاركم . وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي لسن
 حاله ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها ، فإنما دعاني إلى
 التقديم إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكون
 منكم ذلك فيجد في آدابكم مطعناً ؛ فإنه ملك مترف ، وقادر متسلط » .
 دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك ، لسكل رجل منهم حلة
 وعممه عمامة ، وختمه بياقوته . وأمر لسكل رجل منهم بنجية مهرية وفرس
 نجبية ، وكتب معهم كتاباً : « أما بعد ، فإن الملك ألقى إلى من العرب ما قد
 علم وأجبت به بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتلجلج في
 نفسه أن أمة من الأمم التي احتجرت دونه بمملكته ، وحت ما يليها بفضل
 قوتها ، تبلغها في شئ من الأمور التي يعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير
 والمكيدة . وقد أوفدت - أيها الملك - رهطاً من العرب لهم فضل من
 أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغض عن جفاء ،
 إن ظهر من منطلقهم وليسكر مني بإكرامهم وتعجيل سراحهم . وقد نسبتهم
 في أسفل كتابي هذا إلى عشائريهم ، فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب
 كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان . فقرأه وأمر بإيصالهم إلى أن
 يجلس لهم مجلساً يسمع منهم فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر الرؤساء

ورجوه أهل مملكته ، فحضرُوا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله . ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه ، وأقام الترجمان يؤدى إليه كلامهم . ثم أذن لهم في الكلام . فتكلم كل رجل بما حضره ، وكسرى يسمع فيقبل ما يعجبه ويقوم ما يراه معوجا ، حتى انتهوا . فقال : « قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم . ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يشقف أودكم ، ولم يحكم أمركم ، وأنه ليس ملك يجمعكم فتتلقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم - لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به : وإنى لا أكره أن أجبه وفودى ، أو أحقق صدورهم ، والذي أحب لإصلاح مدبركم . وتألف شواذكم ، والاعذار إلى الله فيما بينى وبينكم . وقد قبلت ما كان فى منطقكم من صواب ، وصفححت عما كان فيه من خلل . فأنصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته . واردعوا سفهاكم وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أدبهم - فان فى ذلك صلاح العامة . »

(هـ) إمارة غسان :

هاجرت قبائل من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها لخصبها ، وكانت هذه البلاد تحت حكم الرومان فاصطنعهم الرومان لينعوا غارات العرب عن ملكهم وليكونوا عدة ضد الفرس واللخمين ، ثم تغلب على هذه البلاد بنو جفنة الغسانيون ورئيسهم جفنة بن عمرو فولته الروم ملكا على الشام ، وشمل حكمهم مقاطعتى حوران والبلقاء ، وعاصمة ملكهم هى جولان أو الجابية أو جلق بالقرب من دمشق .

وقد تأثرت هذه الإمارة بالحضارة الرومانية ، ومن أشهر (١) ملوكها الحارث بن جبلة وقد عينه الامبراطور جوستينيان عام ٥٢٩ م أميرا على

(١) ومن ملوكها الحارث بن أبى شمر الغسانى . راجع حديثه مع قيس بن رفاعة فى الامالى (١:٢٥٧)

جميع قبائل العرب في الشام ومنحه لقب بطريق وكان الحارث نصرانيا على مذهب اليعاقبة وقد سافر إلى القسطنطينية عام ٥٦٣ م وهو الذي توسط لامرئ القيس في الذهاب إلى قيصر في القسطنطينية ليستعين به . وآخر ملوكهم هو جبلة بن الأبرم ، وقد اشتهر الغسانيون بالكرم ومدحهم الشعراء كحسان والأعشى والنابغة وعلقمة الفحل .

وقد حارب الغساسنة الفرس واللخمين وكانت لهم أيام انتصروا فيها على اللخمين .

الحياة الدينية عند العرب :

الحياة الدينية عند العرب مختلفة الألوان والمظاهر والعقائد فمن وثنية إلى يهودية ونصرانية إلى حنيفية وتحت : ويهمننا هنا أن نلم بكل هذه الألوان المختلفة من التدين عند العرب .

وكانت الوثنية هي الدين السائد في جزيرة العرب ، وهي عبادة الأصنام والأوثان .

والأصنام هي تماثيل الإنسان من المعادن أو الخشب ، والأوثان هي تماثيل الإنسان من الحجر

وكان بدء عبادة الأصنام عند العرب أنهم كانوا يعظمون الكعبة تعظيما شديدا فلما تكاثروا وضائق بهم مكة وهاجروا منها كان لا يظعن ظاعن إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما له وحبا لمكة فحيثما حل وضعه وطاف به كما كان يطوف بالكعبة . واستمروا على تعظيم هذه الحجارة حينما تأصل فيه حبهم لها وتعظيمهم إياها ثم استحال هذا التعظيم عادة لعبادة ، ثم عمت هذه العبادة حتى وصلتته إلى مكة مقر التوحيد .

وكان أول من غير دين إبراهيم وإسماعيل فوضع الأصنام في الكعبة عمرو بن لحي ، وكان حاجب البيت الحرام ، شاهد أهل البلقاء يعبدون

الأصنام فنصب صنما في الكعبة سماه « هبل » وجعل عبادته إليه ، ومن أشهر الأصنام عند العرب :

مناة : وكان منصوبا على ساحل البحر بين المدينة ومكة وكانت العرب تعظمه وتذبح حوله وكان الأوس والخزرج يعظمونه وقد ذكرت «مناة» في القرآن الكريم « ومناة الثالثة الأخرى » وكان من أسماء العرب « عبد مناة » و « زيد مناة » . قيل كان يعبد مناة خزاعة ، قيل : وهذيل أيضا ، وقيل أنها كانت لبني كعب . والصحيح أنها كانت للأوس والخزرج . وفي سنة ٨٨ هـ وهي عام الفتح بعث الرسول (ص) عليا رضي الله عنه فهدمها .

واللات وهي صخرة مربعة بنت عليها ثقيف بناء بالطائف وكانت ثقيف تعبدنها ومن سدنّها عتاب بن مالك ، ومن أسماء العرب : زيد اللات وتيم اللات . وورد ذكرها في القرآن الكريم : أفرأيتم اللات والعزى . ويقول عمر بن الجعيد :

فاني وتركي الكأس عمدا لكالذي تبرأ من لات وكان يدينها

وبقيت إلى أن أسلمت ثقيف فبعث رسول الله المغيرة بن شعبه فهدمها وحرقها بالنار ، وفي ذلك يقول شداد بن عارض ينهى ثقيفا عن العودة إلى عبادتها :

لَا تَنْصَرُوا اللَّاتَ إِنَّ اللَّهَ مَهْلِكُهَا وكيف نصركم من ليس يلتصرُ
إِنَّ الَّتِي حَرَقْتَ بِالنَّارِ فَاشْتَعَلَتْ ولم تقاتلْ لدى أحجارها هدرُ
إِنَّ الرَّسُولَ مَتَى يَنْزِلْ بِسَاحَتِكُمْ يَظُنُّ وَلَيْسَ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا بَشَرُ

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إِنَّ اللَّهَ مِنْهُنَّ أَكْبَرُ

والعزى : وهي شجرة وكانت أعظم الأصنام فكانت قریش تخصها بالزيارة والهدايا والنحر عندها . وكانت العزى بواد من نخلة بأرض الشام

يقال له حرض وقيل بالقرب مكة وسدنتها من بنى مرة من سليم ، ومن أسماء العرب عبد العزى . وبعد ظهور الإسلام أرسل الرسول صلوات الله عليه خالد بن الوليد وذلك عام الفتح فقطعها .

وكان من العرب من يقولون إن الثلاث — اللات والعزى ومناة — بنات الله .

ومن أصنامهم : ود ، وسواع ، ويعوق ، ويعوق ، ونسر . وكان ود لكعب ، ومعوغ لهذيل : قال الشاعر :

تراهم حول قبيلتهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سُواع

ويعوق المذبح ، ويعوق لعمدان وقيل لمراد ، ونسر لمخير قبل أن يدينوا باليهودية . ومن أصنامهم : « هبل » وهو أعظم الأصنام التي كانت حول الكعبة وكانوا يستقسمون عنده بالأزلام ، « وذو الخلص » وهو الخشم وهو مروة بيضاء منقوش عليها مثل هيئة التاج وقد بنى له بيت بين مكة والمدينة على مسيرة سبعة ليال من مكة . وروى أن امرأ القيس استقسم عنده في الأخذ بشار أبيه فنهى عن ذلك فرمى بالقدح في وجهه وقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبوراً

لم تنه قتل العدا زورا

وقيل إنه وجد حول الكعبة بمكة يوم الفتح ستون وثلاثمائة صنم حطمها الرسول (ص) بيده كلها . وكان لأهل كل بيت صنم في بيتهم يعظمونه . وكان لغير قريش بيوت عبادة كالكعبة وتسمى الطواغيت وكانوا يضعون فيها الأصنام ويطوفون بها ويهدون إليها الهدايا ويذبحون الذبائح ويستقسمون عندها بالقداح ولها سدنة وحجاب .

وهكذا كانت حياة العرب متأثرة بهذه الأصنام أيما تأثر (١) إلا أن

(١) ومن القرابين - الذبائح - التي كانوا يذبحونها عندها : البجيرة والسائبة والوصيلة والحام . وهي مذكورة في القرآن الكريم .

الشعر العربى الذى يصور هذه الناحية الديلية من نواحى حياة العرب العامة غير كثير ، وقد يكون ذلك لأن رواة الشعر الجاهلى بعد الإسلام قد أهملوا ما ظهرت فيه الوثنية تديناً وارضاء لله

ودخلت اليهودية إلى جزير العرب فانتشرت فى يثرب وحولها فى ذلك وخيبر ، وفى اليمن ومن أول ملوكهم الذين تهودوا ذو نواس ، وقد تعصب لليهودية وحاول جعلها الدينى الرسمى وأحرق نصارى نجران فى الأخدود تعصباً يهوديته مما أثار الحبيشة النصرانية فغزت اليمن بلاد وملكتها وكان ذلك فى أوائل القرن السادس الميلادى كما تقدم

وتهود كذلك بعض أناس من كندة وكفانة وأشهر شعراء العرب من اليهود السموأل بن عاديا .

ودخلت النصرانية إلى الجزيرة أيضاً حيث استقرت فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة وطىء لنددهم على الروم وفى قبائل العباد ، بالحيرة وكان بنو تغلب من نصارى العرب أيضاً ، وأشهر مواطن النصرانية فى اليمن « نجران » وكان أهلها على مذهب اليعاقبة كالحيشة

وكانت اليهودية والنصرانية قليلتين بالنسبة إلى الدين السائد فى الجزيرة وهو الوثنية . وكان القسوس والرهبان يردون العرب ويدعون إلى دينهم ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، وأشهر شعراء النصرانية قس بن (١) ساعدة وأميرة ابن أبى الصلت وعدى بن زيد .

ومن العرب من كان يعبد الكواكب ، فقد كان بين اليمنيين من عبد الشمس ، وعبدت كنانة القمر ، وعبد قوم من لحم وخزاعة وقريش نجم الشعرى ، وروى أن قوماً من قريش اعتنقوا الزندقة أخذوها عن بعض أهل الحيرة الذين أخذوها عن الفرس ، والزندقة تسير على مذهب

(١) راجع حديثه مع قيصر (٢: ٣٧ الأمالى)

مانى وتقول يالهيـن : إله النور وهو أصل كل خير وإله الظلام وهو منبع كل شر .

ووجد من العرب من أنكر هذه الأديان كلها وقالوا ما حكاها الله عز وجل عنهم « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

وكانت قریش لها ولاية البيت وبعض ميزات دينية كعدم الوقوف بعرفة أو الإفاضة منها وسوى ذلك . وكان بعض قليل من العرب يعبدون الله على ما يتصورون من دين الحنيفية البيضاء دين ابراهيم واسماعيل .

وبعضهم أنكروا الأديان وغابت عنهم حقيقة الحنيفية ففترقوا في البلدان يلتمسونها ويطلبون التوحيد ، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل الأسدي وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي وعثمان بن الحويرث بن خزيمه وعبيد الله ابن جعش الأسدي ، فأما ورقة فتنصر ، وأما زيد فاعتزل الأديان كلها وقال أعبد رب ابراهيم ، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم وتنصر ، وأما عبيد الله فأقام على ما هو عليه من الشك حتى جاء الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة فلما قدمها تنصر فيها .

وكان في العرب كهان مشهورون ، لهم قصص كثيرة وكان العرب يأخذون رأيهم في المشكلات . . ومنهم : سطيح ، وطريفة ، وزبراء الكاهنة (١) ، وسواد بن قارب (٢) .

وكان منهم الطوارق بالخصى (٣) ، ومن الكهان ابنة الخنس (٤) .

(١) راجع حديث زبراء مع بني رثام من قضاة في الامالى (١: ١٢٦) ، وقرأ وفود عبد المسيح على سطيح في العقد الفريد (١: ١٧٨ ط ١٩٢٨)

(٢) ٢: ٢٨٩ الامالى

(٣) راجع الامالى (١: ١٤٢)

(٤) راجع حديثها مع أبيها في (ذيل الامالى ص ١٠٧)

معارف العرب في الجاهلية

١ - كان التبابعة في اليمن ، والمناذرة والغساسنة في الحيرة والشام على حظ من المعرفة والثقافة يدلنا على ذلك ما وصلوا لآليه من بناء السدود وحفر المجارى المائية وتخطيط المدن وتنظيم الجيوش وهندسة الأمواه ، ولا شك أنهم تأثروا بالفرس والروم وسواهم من الأمم المتحضرة وأخذوا عنهم الطب والحساب والزراعة .

ب - أما سواد العرب فأميون بدو لاعهد لهم بعلم أو ثقافة ولا بتعليم أو تدريس ، وإنما كانت لهم معارف وصناعات أفادوها بتجارهم أو باتصالهم بالأمم الأخرى عن طريق التجارة أو الأمارات القائمة على الحدود أو البعث الدبلوماسية ، ومن أشهر معارفهم :

١ - النجوم والمطر والرياح :

ففي اللغة العربية أسماء متعددة للنجوم ، وللرياح على اختلاف أنواعها ، وللمطر . وتشابه أسماء البروج والكواكب في العربية والكلدانية كثير .

وبعض هذا وصلهم عن الكلدانيين أهل بابل القديمة ، وبعضه اهتموا إليه بفطرتهم لحاجتهم إلى معرفة الوقت والعلم بزمان الخصب والمحل وأوقات الرياح والمطر سواء كانوا في البر أو البحر ، وساعدهم على ذلك صفاء جو الصحراء وحدة فطنتهم ، وحاجتهم إلى المطر والسحاب .

ويتصل بهذا ما كان عليه بعض عرب السواحل كأهل اليمن والبحرين من معرفة بالملاحة البحرية وسير المراكب في البحار ، وفي اللغة العربية ألفاظ كثيرة لذلك ، ويقول طرفة :

كَانَ حُدُودَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُودَ
عَدُوِّ لَيْثَةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنْ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشْتَقِي حَبَابَ الْمَاءِ حِينَ وَمُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التَّرْبَ الْمُتَفَائِلُ بِالْيَدِ

٢ - الطب

وقد وصلهم بعض 'معلومات عنه من الفرس والروم واليونان وكان
الحارث بن كلدة طبيب العرب في الجاهلية م ١٣ هـ قد تعلم في بلاد الفرس
وكان من ثقيف وعاش حتى جاء الإسلام وكان الرسول صلى الله عليه وسلم
يشير على المرضى أن يذهبوا إليه ، ويضرب المثل بابن حذيم الطبيب قال
الشاعر أوس بن حجر :

فهل لكمو فيها إلى ، فاني طبيب بما أعيى النطاسي حذيمًا (١)
وتروى عنه الحكمة المشهورة « البطنة بيت الداء والحمية رأس الدواء ،
وهو من تيم وكان يقال « أطب من ابن حذيم » .

كما استمدوا بعضه من تجاربهم العامة . وكان للكي بالنار حظ كبير في
علاجهم . وكانوا يعالجون إبلهم وخيولهم بالكي وبالقطران إلى غير ذلك
من العلاج .

وفي اللغة الغريبة أسماء لكثير من الأمراض ولكثير من الأدوية النباتية
وسواها ، ولكثير من أوصاف الإبل والخيول .

ويضرب بطب الحارث بن كلدة المثل ، وقد وفد الحارث (٢) بن كلدة

(١) الضمير يعود للبعزى أى فهل لكم ميل في رد المعزى إلى وهى معزى على
إغتنصها فضيقوه . النطاسي : العالم

(٢) كان الحارث من الطائفة طبيب العرب في عصره ، وقد سافر إلى فارس
وتعلم الطب ، وعرف الداء والدواء ، وكان يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس
والين ، وبقي أيام رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية توفي نحو
سنة ٥٠ هـ راجع ٣٢٨ : ٣ بلوغ الأدب ، ٣٤١ : ٤ العقد القرير

الشفقي على كسرى أنوشروان ، فأذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا الحرث بن كلدة الشقي . قال : فما صناعتك ؟ قال : الطب ، قال : أعرابي أنت ؟ قال : نعم من صميمها ، وبمحبوبة (١) دارها ، قال : فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها ، وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك ؛ إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ، ويقوم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها (٢) ؛ فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه !

قال كسرى : فكيف تعرف ما تورده عليها ؟ ولو عرفت الحلم لم تلصق إلى الجهل !

فقال : أيها الملك ، العقل من قسم الله تعالى ، قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم ، فكل من قسمته أصاب ، فمنهم مثرو معدم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقدير العزيز العليم ! فأعجب كسرى من كلامه .

ثم قال : فما الذي تحمد من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟ قال الحرث : أيها الملك ؛ لها أنفوس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق (٣) من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرام (٤) ، أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل المعين (٥) ؛ مطعموا الطعام في الجذب ، وضاربو الهام في الحرب ، لا يرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون بفضل للأنام ، إلا للملك الهام ، الذي لا يقاس به أحد ، ولا يوازيه سوقة (٦) ولا ملك !

(١) بمحبوبة : صميم (٢) الأمشاج : الأخلط :

(٣) يمرق : يخرج . (٤) الرام شجر

(٥) السلسبيل : اللين الذي لا خشونة فيه ، والمعين : الماء الجاري

(٦) السوقة : خلاف الملك .

فاستوى كسرى جالساً ، وسر لما سمع من محكم كلامه ؛ وقال لجلسائه :
لانى وجدته راجحاً ، ولقومه مادحاً ، وبفضيلتهم ناطعاً ، وبما يورده من لفظه
صادقاً ؛ وكذا العاقل من أحكامه التجارب ! ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال له :
كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك !

قال : فما أصل الطب ؟ قال : ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، قال :
أصبحت ! فما الداء الدوى ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام ، هو الذى يفنى
البرية ، ويهلك السباع فى جوف البرية ، قال : فما الجرة التى تلب منها
الأدواء ؟ قال : هى التخمة ، إن بقيت فى الجوف قتلت ، وإن تملكت أسعت .
قال : صدقت .

فما تقول فى الحجامة ؟ قال : فى نقصان الهلال ، فى يوم صحو لا غيم فيه ،
والنفس طيبة ، والمروق ساكنه ، والسرور يفاجئك ، وهميباءك ، قال : فما
تقول فى دخول الحمام ؟ قال : لا تدخله شعبان ، ولا تقم بالليل عريان ، ولا تقعد
على الطعام غضبان ، وارفق بنفسك ، يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك ،
يكن أهنأ لنومك .

قال : فما تقول فى الدواء ؟ قال : ما لزمك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء
فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ؛ فإن البدن بمنزلة الأرض ؛ إن أصلحتها
عمرت ، وإن تركتها خربت .

قال : فما تقول فى الشراب ؟ قال : أطيبه أهناه ، وأرقه أمراه ؛ وأعذبه
أشهاه ، لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً ، ويشير عليك من الأدوية أنواعاً .

قال : فأى اللحم أفضل ؟ قال : الضأن الفقى ؛ والقديد المالح مهلك الآكل
واجتنب لحم الجزور والبقر .

قال : فما تقول فى الفواكه ؟ قال : كلها فى إقبالها وحين أولانها ، واطركها إذا
أدبرت وولت وانقضت زمانها ؛ وأفضل الفواكه الرمان والأترج ، وأفضل

الرياحين الورد والبنفسج . وأفضل البقول الهندباء (١) والخس .

قال : فما تقول في شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوامه ،
يذبح ما شرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله أمراه ،
وأرقه أصفاه .

قال : فما طعمه ؟ قال : شيء لا يوصف ، قال فما لونه ؟ قال : اشتبه على
الابصار لونه ، لأنه يحكى لون كل شيء يكون فيه .

قال : فما النور الذي في العينين ؟ قال : مركب من ثلاثة أشياء : فالبياض
شحم ، والسواد ماء ، والناظر ريح .

قال : فعلى كم جبل وطبع البدن ؟ قال : على أربعة طباع : المرة السوداء
وهي باردة يابسة ، والمرة الصفراء وهي حارة يابسة ، والدم وهو حار رطب ،
والبلغم وهو بارد رطب ؛ قال : فلم يكن من طبع واحد ؟ قال : لو خلق من
طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ؛ ولم يمرض ولم يملك ؛ قال : فمن طبيعتين ؟ لو كان
اقتصر عليهما ؛ قال : لم يجز لأنهما ضدان يقتتلان ؛ قال : فمن ثلاث ؟ قال :
لم يصلح موافقان ومخالف ؛ فالأربع هو الاعتدال .

قال فأجل لي الحار والبارد في أحرف جامعة ؟ قال : كل حلو حار ، وكل
حامض بارد ، وكل حريف حار ؛ وكل مر معتدل ، وفي المرحار وبارد ، قال
فأفضل ما عولج به المرة الصفراء ؟ قال : كل بارد لين ، قال : فالمرة السوداء ؟ قال
كل حار لين ، قال فالبلغم ؟ قال : كل حار يابس ، قال فالدم ؟ قال : لإخراجه
إذا زاد ، وتطاعته إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة ، قال فالرياح ؟ قال بالحقن
الليينة ، والأدهان الحارة الليينة ، قال أفتأمر بالحقنة ؟ قال : نعم قرأت في بعض
كتب الحكماء أن الحقنة تنقى الجوف ، وتكسح الأدواء عنه ، والعجب لمن

احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد ! وإن الجاهل من أكل ما قد عرف مضرته ؛
ويؤثر شهوته على راحة بدنه .

قال : فما الحمية ؟ قال : الاقتصاد في كل شئ . ، فإن الأكل فوق المقدار
يمنع على الروح ساحتها ، ويسد مسامها .

قال : فما تقول في النساء (١) . . وأين القلب اليها أميل ، والعين
برؤيتها أسر ؟

قال : إذا أصبتها مديدة القامة ، عظيمة الهامة (٢) ، واسعة الجبين ،
قنواء العينين (٣) ، كحللاء (٤) لعساء (٥) ، صافية الخد ، عريضة الصدر ،
مليحة النحر (٦) ، في خدها رقة وفي شفيتها لعس ، مقرونة الحاجبين ، ناهدة
الثديين ، لعينة الخصر (٧) والقدمين ، بيضاء ، فرعاء (٨) جمعدة (٩) ، غضة
بضة (١٠) ، تغالها في الظلمة بدرأ زاهراً . تبسم عن أقحوان (١١) ، وعن
مبسم كالأرجوان (١٢) ، كأنها بيضة مكنونة ، ألين من الزبد ، وأحلى من
الشهد ، وأنزه من الفردوس والخلد ، وأزكى ريحاً من الياسمين والورد ،
تفرح بقرها ، وتسرك الخلوة معها .

فاستضحك كسرى حتى اختلجت كنفاه ! وقال : لله درك من أعرابي ، لقد
أعطيت علماً ، وخصصت فطنة وفهماً ! وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به .

-
- (١) عبارات نابية في الأصل حذفت هنا (٢) الهامة : الرأس
(٣) قنواء : بيضة القنأ ، هو ارتفاع أعلى الأنف واحديداب وسطه وسبوغ
طرفه ، والعينين : الأنف كله أو ما صلب منه .
(٤) الكحللاء : التي كأنها مكحولة ولم تكحل (٥) لعساء : في شفها سواد
(٦) النحر . أعلى الصدر (٧) الخصر : وسط الإنسان
(٨) الفرعاء : التامة الشعر (٩) جمعدة : غير سبطة الشعر
(١٠) بضة ناعمة (١١) الأقحوان : نبت من نبات الربيع ، له نور
أبيض ، كأنه ثغر جارية حديثة السن (١٢) الأرجوان : صبيغ أحمر ،
(٥)

٣ - الأنساب والأخبار (١) :

أما الأخبار فمصدرها عندهم قصص التوراة والإنجيل وأساطير الفرس والروم والأخبار المتوارثة عن آباءهم وأجدادهم وعن الأمم الأخرى المجاورة لهم .

وأما الأنساب فكانوا على جانب كبير من النبوغ فيها لأنهم كانوا شديدي العناية بمحفظ أنسابهم لاعترازم بعنصرهم ودمهم .
وكان في كل قبيلة نسابون يعرفون الكثير من أنساب العرب وقبائلهم وبطلانهم ومفاخرهم وتاريخهم وأيامهم ووقائعهم .

ومن أشهر النسابين : « دغفل » السدوسي وقد ضرب به المثل وأدرك زمن الرسول وعاش إلى زمن معاوية ، ومن أشهرهم أيضاً : ابن لسان الحمرة من بني تيم اللات ابن ثعلبة ، ومن أشهرهم أيضاً « زيد ابن الكيس النمرى » وسيدنا أبو بكر الصديق .

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين :

ومن رؤساء النسابين : دغفل بن حنظلة وزيد بن الكيس النمرى (٢) .
ويذكر أسماء بعض النسابين (٣) ، وفي مختصر العقد ذكر لأخبار عن أبي بكر الصديق ودغفل في هذا الباب (٤) .

(١) أشهر النسابين :

- ١ - دغفل ، وابن الاشر (الراعى - الفهرست - أديان العرب ٢٢٦ ج ١ و ٩٦ ج ٣ البيان والتبيين - الميداني)
- ب - ابن لسان الحمرة وهو من علماء زمانه من بني تيم ومن أنساب العرب كان في السكوة أيام المغيرة بن شعبة (١٣٨ ج ١٤ الأتاني)
- (٢) ٢١٠ ج ١ البيان والتبيين
- (٣) ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ ج ١ البيان
- (٤) ٢٠١ - ٢٠٤ مختصر العقد

٤ - الفراسة والقيافة :

والمراساة هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الخفية كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه ، وللعقل فيها بصيب كبير .

والقيافة قسمان : قيافة الأثر وهي الاهتداء إلى الهارب بآثار أقدامه ، وقيافة البشر وهي الاستدلال بهيئة الرجل وشكل أعضائه على نسبه .

اشتهر بنو لُحَب بالقيافة وكذلك بنو مُدَج ، كما اشتهروا أيضاً بالزجر وهو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته على الحوادث ، وكانوا يتفاملون بالطير الذي يمر من ميامن الإنسان ويتشاءمون بالطير الذي يمر من مياسره ويسمون الأول سانحاً والثاني بارحاً ، ويقول النابغة :

زعم العواذل أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ
وفي بني لُحَب يقول الشاعر :

خبيرُ بنو لُحَب فلاتك مُلغياً مقالة لُحَيٍّ إذا الطيرُ مرَّتْ

٥ - الكهانة والعرافة :

وهما الأخبار عن الأمور المغيبة ماضية كانت أو مستقبلية . وقيل الكهانة الإخبار عن الماضي والمستقبل والعرافة خاصة بالماضي . وكان في العرب كهان ولهم فيهم اعتقاد . ومن أشهرهم (١) : سطيح الذئبي . وطريقة الخير ، ومن أشهر العرافين الأبلق الأسدي عراف نجد ، ورباح بن عجلة عراف اليمامة ويقول عروة بن حزام :

جعلتُ لعرافِ اليمامة حِكْمَهُ وعرافِ نجدٍ إن هما شفياي
وكان العرب يفزعون إلى كهانهم في كل ما يطرأ عليهم من أمر أو

(١) راجع ص ٤٩ من هذا الكتاب . هذا والكهانة بالفتح والكسر، والعرافة بالكسر في الحرف الاول

يستعصى عليهم من مشكلات وأزمات وشدائد .

ومن السكمان المشهورين : طريفة (١) ، ويروى أنه كانت العمارة في أرض سبأ أزيد من مسيرة شهرين للراكب المجذ ، وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر ؛ ثم مزقوا كل عروق .

وكان أول من خرج من اليمن في أول الأمر عمرو بن عامر مزقياء (٢) وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال لها طريفة الخير ، وكانت رأت في منامها : أن سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، ثم صعدت (٣) فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففرعت طريفة لذلك فرعاً شديداً وأتت الملك عمراً ، وهي تقول : ما رأيت كالأيوم ، أزال عني النوم ، رأيت غيماً أرعد وأبرق ، وزجر وأصعق ، فما وقع على شيء إلا أحرق . فلما رأى ما دخلها من الفزع سكنها .

ثم إن عمراً دخل حديقة له ، ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فخرجت إليه ، وخرج معها وصيف (٤) لها اسمه سنان ؛ فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجد (٥) ملتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، ففعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجيد فأخبرني . فلما ذهبت أخبرها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها الخليج الذي في حديقة عمرو وثبت من الماء سلحفاة ،

(١) شرح مقامات الحريري ص ٢٦٥ ج ١ ، بلوغ الأرب ص ٢٨٣ ج ٣ ،
 مجمع الأمثال ص ٢٥٢ ج ١ ، المسعودي ص ٣٤٤ ج ١ ، معجم البلدان (مأرب)
 (٢) ملك اليمن ، ومزقياء : لقبه ، فقد كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما
 بالعشى ، يكره العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره (٣) أصابت بصاعقة :
 وهي نار تسقط من السماء مع الرعد الشديد (٤) الوصيف : الخادم ، غلاماً كان
 أوجارية (٥) هي دواب تشبه اليرابيع ، واليربوع : دويبة نحو الفأرة ، لكن
 ذنبه وأذنيه أطول منها ، ورجليه أطول من يديه .

فوقعت في الطريق على ظهرها ، وجهـلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها فتحشو التراب على بطنها من جنباته ، وتقذف بالبول قذفا .

فلما رأته طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو ، وذلك حين انتصف النهار في ساعة شديدة حرها فإذا الشجر يتسكفا (١) من غير ريح ، فلما رآها استبحيا منها ، وأمر الجارينين بالانصراف إلى ناحية ؛ ثم قال لها : هلمى يا طريفة ، فكمننت (٢) له ، وقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، ويعودن الماء كما كان في الزمن السالك .

قال عمرو : من أخبرك بهذا ؟ قالت : أخبرني المناجد ، بسنين شديدة ، يقطع فيها الولد الوالد . قال : ماتقولين ؟ قالت : أقول قول الندمان لهفا ، لقد رأيت ساحفا (٣) ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ؛ فدخلت الحديقة ؛ فإذا الشجر من غير ريح يتسكفا !

قال : ماترين في ذلك ؟ قالت : هي داهية دهياء (٤) من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة ! قال : وما هو ؟ ويلك ! قالت : أجل ! إن فيه الويل ! وما للـ فيه من قيل (٥) ، وإن الويل فيما يجي به السيل !

فالتى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : خطب جليل وحزن طويل ، وخلف (٦) قليل ! قال : وما علامة ماتذكركين ؟ قالت : اذهب إلى السد ، فإذا رأيت جرذا (٧) ؛ يكثر يديه في السد

(١) يميل (٢) كمن له : قضى له بالغيب (٣) السلحفاة (٤) داهية دهياء : شديدة (٥) قال قتيلا : نام في القائلة ، وهي نصف النهار ، والمراد الإقامة والمسك .

(٦) الخلف : ما استخلفته من شيء .

(٧) ضرب من الفهران

الحفر ، ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن غمر الغمر (١) . وأن قد وقع الأمر .

قال : وما الذى تذكرين أنه يقع ؟ قالت : وعد من الله تعالى نزا وباطل بطل ، ونسكال بنا نكل ؛ فبغيرك يا عمرو يكون الشكل (٢) !

فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا ، فرجع إلى طريقة فأخبرها الخبر ، وهو يقول :

أبصرت أمراً عادني منه ألم وهاج لي من هوله برج (٣) السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم (٤) أو كبش صرم (٥) من أفاريق (٦) الغم
يسحب صخرأ من جلاميد العرم له مخالب وأنياب قصم (٧)
ما فاته سحلا (٨) من الصخر قصم (٩)

فقال طريقة : وإن علامة ذلك الذى ذكرته لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك فإن الريح تملؤها من تراب البطحاء من سهلة (١٠) الوادى ورملة ، وقد علمت أن الجنان مظلمة لا يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ، ولم تمكث إلا قليلا ، حتى امتلأت من التراب ، فأخبرها بذلك ، وقال لها : متى يكون ذلك الخراب الذى يحدث فى السد ؟ قالت : فيما بينى وبينك سبع سنين ! قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته ، وإنه

(١) الغمر : الماء الكثير

(٢) الشكل : كسبب وقفل : الموت والحلاك (٣) البرج : الشدة

(٤) الأجم : جمع أجمة ، وهى الشجر الكثير الملتف (٥) الصرم : الجماعة

(٦) الأفاريق : الفرق تجمع على فرق وجمعت فى الشعر على أفارق وجمع الجمع

أفراق وجمعه أفاريق (٧) قصم قصيا : أكل بأطراف أسنانه (٨) سحله :

قشره ونحته (٩) قصم : كسر (١٠) السهلة : تراب كالرمل يجىء به الماء .

لأتأتى على ليلة فيما بينى وبين سبع السنين إلا ظننت هلاكه فى غـدها
أو فى مسائها ١

ثم رأى عمرو فى منامه سيل العرم (١) ، وقيل له : إن آية ذلك أن ترى
الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ؛ فنظر إليها فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ،
فعلم أنه واقع . وأن بلادهم ستخرب .

فـكنتم ذلك ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب وأن يخرج منها
هو وولده ؛ ثم خشى أن تنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده لإذاعه
لما يدعو إليه أن يتأبى عليه (٢) ، وأن يفعل ذلك به فى الملامن الناس ؛ وإذا لطمه
يرفع هو يده ، ويلطمه .

ثم صنع عمرو طعاماً ، وبعث إلى أهل مأرب : إن عمراً قد صنع طعاماً
يوم مجد وذكر ، فأحضروا طعامه ١

فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بما قد أمره ، فجعل
يأمره فيتأبى عليه ؛ فرفع عمرو يده فـلطمه ، فـلطمه ابنه فصاح عمرو : واذا له يوم
نفر عمر ويهيج به صبى ويضرب وجهه ١ وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا به حتى
تركه ، وقال : والله لا أقیم بموضع صنع هذا أبى فيه ١ ولأبيعن أموالى ، حتى
لا يرث بعدى منها شيئاً ١ .

فقال الناس بعضهم لبعض : اغتصموا غـضبة عمرو ، واشتروا منه أمواله
قبل أن يرضى ؛ فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه
فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ؛ فلما
أكثروا البيع استنكر الناس ذلك فأمسكوا عن الشراء ١ فلما اجتمعت إلى عمرو
أمواله أخبر الناس بشأن السيل وخرج نفر من لـخـروجه منها بشر كثير .

(١) العرم : السيل الذى لا يطاق ، وقيل هو المطر الشديد ، وقيل هو اسم واد
(٢) تأبى عليه : امتنع .

٦ - ومن معارفهم الخط والكتابة وستحدث عنهما بتفصيل .
وكان الشعر ديوانهم ومظهر معرفتهم وأهم ثقافة لهم .

٧ -- وفوق ذلك فقد كان العرب يعرفون بعض الصناعات كالغزل وصناعة الرماح وكانت تصنع في الخط بالبحرين . أما السيوف فكانوا يجعلونها من العراق والابلة وكانوا يسمون الابلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ، إلى غير ذلك من صناعاتهم الصغيرة . واشتهرت اليمن والحيرة ومشارف الشام بألوان كثيرة من الصناعات .

الخط العربي (١) في الجاهلية

١ - كان العرب أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، كان ذلك هو الغالب عليهم والذائع فيهم والمشهور عنهم . ذلك أن الكتابة أثر من آثار الحضارة والعرب كانوا لا يزالون يعيشون على الفطرة والبداوة كما كانوا من قديم الأزمان والعصور .

٢ - وأول الخطوط المعروفة وأقدمها هو « الخط المهرى » ، القديم ، وهو مبدأ سلسلة الخط العربي . وقد استمد الفيلقيون منه « خطهم الفيلقي » ، والفيلقيون هم سكان ساحل الشام ، وكانوا يترددون على مصر للتجارة وغيرها كما خضعوا لحكم الفراعنة قديماً ، وعن الخط الفيلقي أخذت أمم كثيرة أصول خطوطها كالآراميين (سكان فلسطين والشام والعراق) والحميريين (سكان اليمن) .

(١) راجع ١٩٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط القاهرة ١٩٢٩ - ص ٥٨ وما بعدها ج ١ من تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد بك دياب - وكتاب الخط الخط لمرفان بك - ٤٣٠ ج ٢ صبح الاعشى وج ٣ ص ٥ من صبح الاعشى أيضا - و ٢١٤ - ٢٢٢ ج ٢ المزهري للسيوطي طبع صبيح

فسكان اليمن من معيليين ثم سبئيين ثم حميريين قد أخذوا خطهم عن الفيلقيين وأدخلوا عليه شيئاً من التنقيح والتحوير فسمى بالخط المسند أو الحميري .

وهذا عمل اتفاق بين المؤرخين من العرب والمستشرقين وبعد ذلك يختلف الفريقان اختلافاً كثيراً :

١ - مؤرخو العرب :

يرون أن النبط (١) أخذوا خطهم من الخط الحميري (المسند) مستدلين على ذلك بالآثار التي عثر عليها في بلادهم وعليها خطوط حميرية ، ويشرح ذلك أن النبط كانوا متصلين باليمن تجارياً وكانت اليمن على جانب كبير من الحضارة .

وعن النبط وعن كنده التي ترجع إلى أصل حميري أخذ أهل الحيرة والآبار خطهم المعروف بالخط الحميري وعنه أخذ الحجازيون خطهم وهو الخط العربي وعن الخط الحجازي أو العربي أخذ الخط الكوفي مع شيء من التحسين .

فلسلسلة الخطوط المعروفة على هذا الرأي هكذا :

الخط المصري - الفنيقي - الآرامي والحميري - النبطي وهو مأخوذ من الخط الحميري - الحميري - الحجازي فالكوفي . وعلى هذا الرأي يسير

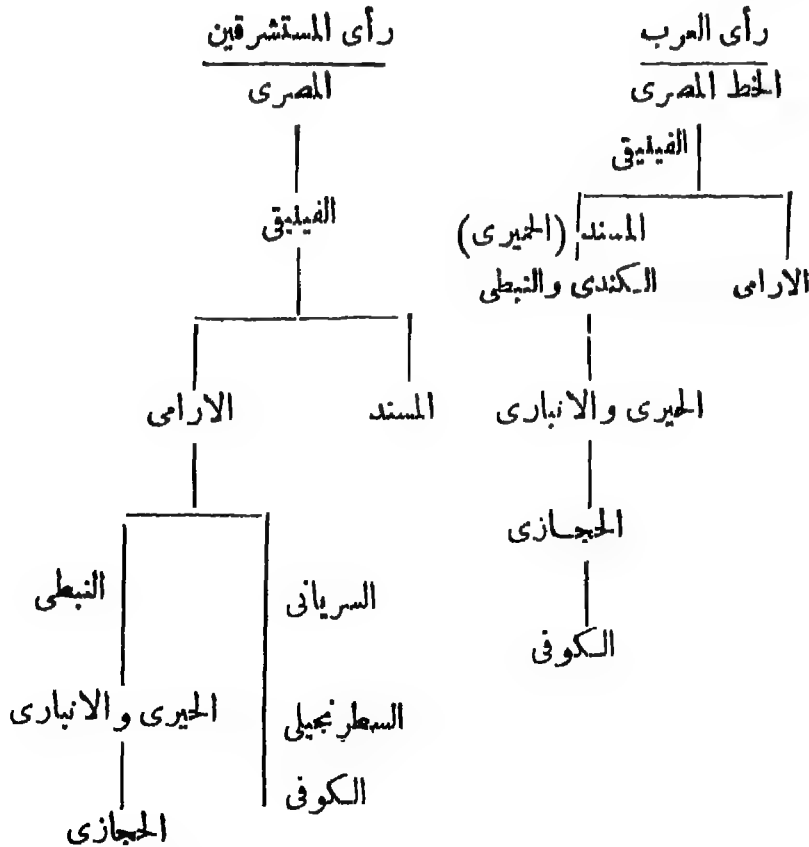
(١) عنصر سامي ظهر في شبه جزيرة طور سينا وامتد إلى صحراء سوريا حتى شملت دولتهم دمشق وتوغلوا في بلاد الحجاز نحو عام ٨٠ ق م ثم استولى الرومان على بلادهم عام ١٠٦ م (راجع ١٣٤ تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩) ويرى المستشرقون أن النبط ليسوا آرمين خالصين وهناك ميل عند طائفة من المستشرقين إلى أن النبط من سلالة العرب وكانوا يستعملون الكتابة الآرامية في النقوش وسائر الشؤون العمرانية

الأستاذ محمد هاشم عطية في كتابه تاريخ الأدب الحاهل (١)

ب - والمستشرقون :

يرون أن النبط أخذوا خطهم من الخط الآرامى لقرب بلادهم بعضها من بعض ، والخط السكونى فى رأيهم متولد من نوع من الخط السريانى يسمى السطر نجيبى قبل الإسلام . وسلسلة الخطوط على هذا الرأى هكذا :

المصرى - الفينيقي - المسند والآرامى - النبطى وهو مأخوذ من الآرامى - الحيرى - الحجازى وعلى هذا الرأى يسير الزيات فى كتابه تاريخ الأدب العربى (٢) .



(١) مقتبساً ذلك عن تاريخ الادب احفنى ناصف (٤٢ ط ١٩٣٦ محمد هاشم)

(٢) ص ٧٦ ط ١٩٣٥

٣ - وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر رجلاً (١) وفي غزوة بدر جعل الرسول فداء الأسير تعلم عشرة من صبيان المدينة وشيخ الرسول ﷺ الكتاب واتخذ كتاباً له، وكان زيد بن ثابت يعرف الفارسية والحبشية والتبعية والزومية (٢). وكان عدد كتابه ثلاثة وأربعين كتاباً وكان العرب يكتبون في الرق والعظام والاحجار حتى انتشر بينهم الورق عام (٢) ١٢٠ هـ والظاهر أن انتقال الخط الحيري إلى الحجاز كان على يد التجار من الحيرة .

ويروى أن الذي نقل الخط الحيري إلى الحجاز هو حرب بن أمية وأنه كان قد صادق في رحلاته التجارية بشر بن عبد الملك أخا أكيدر صاحب دومة الجندل واستصحبه إلى مكة وزوجه ببلته الصبية فأقام بشر بمكة مدة علم فيها نفراً من أهلها الكتابة منهم حرب وقيل إن الذي علمه هو عبد الله بن جدعان وقيل غير ذلك . ويقول بعض الشعراء : من دومة الجندل من كندة يمن على قریش بذلك :

ولا تبحدوا نعاء بشر ، عليكم
أناكم بخط الجزم (٤) حتى حفظتم
فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
من المال ما قد كان شتى مبعثراً

(١) ص ٤ : ٣ العقد

(٢) (راجع ص ٦ ج ٣ للعقد الفريد ط ١٩٣٥) . وفي العقد يروى أن ثلاث فقر من طيء اجتمعوا ببيعة وهم : مرازم بن مرة . واسلم بن سدره . وعامر بن جدرة ، فوضعوا الخط وقاضوا هجاء العربية على هجاء السريانية فنقله قوم من الانبار (٢ ج ٣ العقد) وذلك رأى جد خطير

(٣) أسس أمير سمرقند العربي مصنعا للورق في سمرقند اشرف عليه بعض الاسرى الصينيين وذلك سنة ٧٥١ م . وفي سنة ٧٩٣ م استقدم الرشيد بعض صناع سمرقند إلى بغداد فأسسوا مصنعا آخر للورق . وانتقلت الصناعة إلى دمشق التي صارت تورد إلى العالم الغربي الورق

(٤) سمي بالجزم لانه مقتطع من الخط الحيري

-- ٧٦ --

فأجريت الأقلام عوداً وبداة وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصر
ونخط الجزم هو الخط الذي تفرع من الخط المسند الحميري (١)
أو قل هو الخط الحميري ؛ وبشر هو بشر بن عبد الملك الذي ذكرنا قصته
فيما سبق آنفا .

(١) سمي بالجزم لأنه مقتطع من الخط الحميري

أيام العرب^(١) وأثرها في الأدب

- ١ -

١ - كانت العرب تعيش قبائل وشعوبا متنافرة متخاصمة ، تنز كل قبيلة بشرفها وكرامتها وعصبيتها ، ونحاول أن نقيم على مواقع الغيث ومنابت السكلا ولو اغتصبته بالرماح والسيوف من قبيلة أخرى ، وكانوا يقدسون الحرية ويعيشون في ظلال الفوضى . وكما يقول حافظ :

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيه مسيطر أو أمير
وأسباب الحرب عند العرب كثيرة : ترجع إلى التنازع حول الرياسة ، وعلى أما كن المياه والعشب ، أو إلى الاعتزاز بالعصبية والانتصار لها . أو إلى المحافظة على الشرف والكرامة والدود عنهما . أو إلى الأخذ بالتأروحية الجار ومساعدة الحليف أو إلى الدفاع عن الملك والتعصب لذي سلطان أو إلى التنازع في مفاخرة من المفاخرات أو منافرة من المنافرات . أو إلى الفقر الذائع الذي يدفع إلى النهب والعدوان .

ونفس العربي وما فطرت عليه من شجاعة وإباء وشمم وفروسية كانت تجعل الحرب قريبة منه مألوفة لديه بل محبوبة عنده في كثير من الأحيان . وكانوا يغيرون على أعدائهم فإن لم يجدوا لهم أعداء أغاروا على الأقرباء :

(١) راجع في ذلك كتب التاريخ العامة وراجع العقد الفريد (٣٠٣ - ٣٧٨ : ط ١٩٢٨ م) والجزء الأول والثاني من تاريخ ابن الأثير ، وأمثال الميساني والجزء الأول والثاني من تاريخ الطبري ، والاغاني . وبلوغ الأرب وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان . ومعجم البلدان في الكلام على أسماء البلدان . والنقائض وقصة الأدب الحجاز في العصر الجاهلي

أغرّن (١) من الضباب على حلال وصبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أخانا

وأيام العرب كثيرة جدا (٢) ، منها ما كان بين العرب والفرس كيوم
ذى قار . ومنها ما كان بين التزاريين واليمنيين كيوم خزازى (٣) وما كان
بين اليمنيين بعضهم مع بعض كبعاث بين الخزرج والأوس . وما كان بين
التزاريين ربيعة ومضر . ومنها ما كان بين الربيعيين بعضهم مع بعض كحرب
البسوس بين بكر وتغلب ، وما كان بين المضريين كحرب داحس والغبراء
بين عيس وذبيان .

٣ - وهذه الأيام كانت أكبر ميدان تنسابق فيه العقول والبلاغات
والملايكات .

فشعراء القبائل المختلفة طالما نظموا الشعر للتمدح بشجاعة الأبطال
وظفرهم في الحرب . ووصفوا المعارك المختلفة وأحوالها . والقتال وأدواته
وأسلحته . والأسرى وذلمهم . ورثوا القتلى .

كما كانوا ينظمونه طلبا للأخذ بالتأثر : أو دعوة إلى السلام ومدحا
لدعاة السلم والعاملين على إنهاء الحرب كما فعل زهير ، مع ما اتصل بذلك من
صلح ووفاء ومغامر ومحامل في الديات .

(١) الضمير يعود إلى الافراس المذكورة في بيت سابق ، والايات للقطامي ،
وهي في الحماسة ١٣٥ - ١ : الضباب عدة قبائل منهاضبة ومحسل ، الحلول : الذين
يكونون في مكان واحد

(٢) ويروى أن أبا الفرج الاصفهاني صاحب الاغانى ألف كتابا في أيام العرب
يشمل ألفا وسبعائة يوم . وأن أبا عبيدة ألف فيها كتابا صغيرا حوى خمسة
وسبعين يوما ، وآخر كبيراً جمع فيه ألفا ومائة يوم . وقد ألف جماعة من الأدباء
المعاصرين كتابا في أيام العرب

(٣) هو أسم جبل ما بين البصرة إلى مكة

- ٧٩ -

فليس بعجيب إذا أن نقول إن شعر الخناسة وهو أغلب فنون الشعر عند العرب في جاهليتهم وكذلك جزء كبير من شعر الرثاء والدفن والمدح كان أمراً لهذه الأيام التي اشتعلت فيها الحروب وتصاروت الأبطال من شتى القبائل في الجاهلية . كما يشغل ذلك جزءاً كبيراً من النثر الجاهلي أيضاً ، كما تجدد في خطبة هانيء بن قبيصة في قومه يحرضهم على الحرب يوم ذي قار (١) وسواها .

وغناية العرب بأنسابهم وبخيولهم وأسلحتهم وأنواع الحيوان المشهورة بالبطش والقوة كالأسد والذئب ؛ كل ذلك من آثار شعورهم بالحاجة إليها حين الخصام والنضال وفي الممارك والحروب .

- ٢ -

وبعد فسنستحدث عن أهم هذه الأيام وأكثرها أثراً في اللغة والأدب والشعر بما يكون قد اشتمل على خطبة بليغة أو قصيدة رائعة أو حكمة سائرة أو شعر قيل في أثناء النضال والخصام :

١ - حرب داحس والغبراء (٢)

وكان السبب الذي هاجمها أن قيس بن زهير وحمل بن بدر ، تراخا على فرسيهما : « داحس » و « والغبراء » أيهما يكون له السبق . وكان داحس لقيس وكانت الغبراء لحمل بن بدر وجعلا الرهان مائة بعير وجعلتا منتهى .

(١) ١٦٩ : ١ الأمالى

(٢) راجع ٣٨ : ٢ الميداني . و ٢٠ : ١٦ الأغاني . والجزء الثالث من خزائن الأدب . ومعجم البلدان . والنقائض . والجزء الثاني من العقد . ٥٣ : ١ أمالى المرتضى ، والجزء الأول من ابن الأثير . والروض الانف . وتاريخ ابن كثير . وقد كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان من مضر

الغاية مائة غلوة (١) .

ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضروهما أربعين ليلة وفي طرف الغاية شعاب كثيرة فأكن حمل بن بدر في تلك الشعاب فتبانا على طريق الفرسين وأمرهم إن جاء داحس سابقا أن يردوا وجهه عن الغاية فأرسلاهما فلما جرى سبقت الغبراء فقال حمل بن بدر : سبقتك يا قيس ، فلما أو غلا في الجرد (٢) وخرجنا إلى الوعث (٣) برز داحس عن الغبراء فقال قيس : جرى المذكيات غلاء (٤) ، فذهبت مثلاً ، فلما شاف داحس الغاية ودنا من النتبة وثبوا في وجه داحس فردوه عن الغاية ففى ذلك يقول قيس بن زهير :

كما لا قيت من حمل بن بدر وإخوته على ذات الأصاد
همو تغروا على بغير نقر وردوا دون غايته جوادى

وئارت الحرب بين عبس وذبيان ابني بنيض أربعين سنة لم تلج لهم ناقة ولا فرس لاشتغالهم بالحرب . بعث حذيفة بن بدر ابنه مالكاً إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبق ، فقال قيس : كلا . لا مطلتك به ، ثم أخذ الرمح قطعنه به فوق صلبه ، ورجعت فرسه عائرة فاجتمع الناس فاحتملوا دية مالك مائة عشاء ، وزعموا أن الربيع بن زياد حملها وحده فقبضها حذيفة وسكن الناس ، ثم أت مالك بن زهير أخا قيس نزل اللقطة من أرض الشربة فأخبر حذيفة بمكانه فعدا عليه فقتله . ففى ذلك يقول عتبة الفوارس :

فلله عينا من رأى مثل مالك تقيرة قوم إن جرى فرسان
فليتهدما لم يجرى قيس غلوة وإيتهدما لم يرسل لرهان
فقال بنو عبس : مالك بن زهير بمالك بن حذيفة وردوا علينا مالدا ،

(١) توازى أربع مائة ذراع

(٢) القضاء لانبات به (٣) الطريق تفرق فيه الأقدام

(٤) ويرى غلاب والمذكية من الخيل المسنة

فأبى حذيفة أن يرد شيئاً . وكان الربيع بن زياد القيسى عم قيس مجاوراً
لبنى فزارة ولم يكن في العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم الكلمة .

وكان بينه وبين قيس بن زهير بغضاء وخصام ، فلما قتل مالك بن زهير
قامت بنو فزارة يسألون ويقولون : ما فعل حماركم قالوا صدناه ، فقال
الربيع : ما هذا الوحى ؟ قالوا : قتلنا مالك بن زهير ، قال : بئس ما فعلتم
بقومكم ، قبلتم الدين ثم رضيتم بها وغدرتم ، قالوا : لولا أنك جارنا لقتلناك
وكانت خفرة الجار ثلاثاً ، فقالوا له : بعد ثلاث ليال أخرج عنا ، فخرج
واتبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه ، وأثناء قيس بن زهير فعاقده وفي ذلك
يقول الربيع :

فإن تك حربكم أمست عواناً فإنى لم أكن بمن جناها
ولسكن ولد سودة أرثودا وحنوا نارها لمن اصطلاها
فإنى غير خاذلكم ولكن سأسعى الآن إذ بلغت مداها
ورثى الربيع مالك بن زهير فقال :

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت فسوتنا بوجه نهار
ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بنى فزارة
وذيان ورئيسهم الربيع بن زياد ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر واستمرت
الحرب بين الفريقين وظلت أربعين سنة . ومن أشهر أيامها :

يوم المريقب : لعبس على ذييان ، وفيه قتل عنبرة ضمضها المرى فتوعدة
وقال في ذلك عنبرة من معلقته :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشامي عرضي ولم أشتهما والناذرين إذا لقيتهما دى
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم
ويوم ذى حسا : وهو لذييان على عبس

ويوم الهياة: لعيس على ذبيان ، وقتل فيه حمل بن بدر وأخوه حذيفة
ولما اشتد الكرب بحمل قال : ناشدتك الله والرحم يا قيس ، فقال : ليبيكم
ليبيكم ، فعرف حذيفة أنه لن يدعهم ، فانتهر حملا وقال : « إياك والمأثور
من الكلام ، فذهبت مثلاً ، وقال لقيس : لئن قتلتني لا تصلح غطفان بعدها
فقال قيس : أبعدها الله ولا أصلحها ؛ ولما قتلا قال قيس يرثي حمل
ابن بدر :

تعلم ان خير الناس ميت	على جفر الهباة ما يريم
ولولا ظله ما زلت أبكي	عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن القتي حمل بن بدر	بغى والبغى مرتعه وخيم
أظنّ الحلم دل على قومي ؟	وقد يستضعف الرجل الحليم
وما رست الرجال وما رسوني	فموج على ومستقيم

ومثلوا بحذيفة .

فما أصيب أهل الهباة واستعظمت غطفان قتل حذيفة تجمعوا ،
وعرفت بنو عيس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان . فخرجوا إلى
اليمامة ، فنزلوا بإخوانهم بنى حنيفة ، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببني سعد بن
زيد مائة .

وقال قيس أيضاً يرثي حذيفة وأخاه :

شغيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
فإن أن قد بردت بهم غليلى فلم أقطع بهم إلا بناني
يوم الفروق : ولما امتد لهيب الحرب وطال أمدها ، سعى الحارث بن
عوف وهرم بن سنان المريان في الصلح وتحملا ديات القتلى ، وفي ذلك قال
زهير معلقته .

أمن أم أو في دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتمسلم
ومنها :

لعمري لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سجيل ومبرم
تداركنما عبساً وذيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (١)

(١) ويروى أن الحارث بن عوف قال لصديق له : أتراني أخطب إلى أحد
فيردني قال، نعم قال ومن ذلك قال : أوس بن حارثة بن لام الطائي فقال الحارث
لغلامه ارحل بنا ففعل فركبا حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده فوجداه في منزله
فلما رأى الحارث بن عوف قال مرحباً بك يا حارث وراك ربك ما جاء بك يا حارث
قال جئتكم خاطباً قال لست هناك فأنصرف ولم يكلمه . ودخل أوس على امرأته
مغضباً وكانت من عبس فقالت : من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال ذلك
سيد العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري قالت فمالك لا تستنزه قال : إنه
استحمق قالت وكيف ؟ قال جاءني خاطباً قالت أفتريد أن تزوج بناتك قال نعم ،
قالت فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك قال
فماذا ؟ قالت تلحقه فترده قال وكيف وقد فرط مني ما فرط اليه قالت تقول له إنك
لقتيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت
فأنصرف ولك عندي كل ما أحببت فانه سيفعل فركب في أثرهما . قال خاروجة بن
سنان والظاهر إنه غلام الحارث (: فوالله إنني لأسير إذ حانت مني التفاتة فرأيت
فأقبلت على الحارث يكلمني غماً فقلت له : هذا أوس بن حارثة في أثرنا . قال وما
نصنع به امض فلما رأنا لا نقف عليه صاح : يا حارث ، اربح على ساعة فوقفنا
له فبكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته
ادعي لي فلانة لا أكبر بناته فأنته ، فقال يا بنية هـ هذا الحارث بن عوف سيد من
سادات العرب قد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجه منه فما تقولين ؟
قالت : لا تفعل ، قال : ولم ؟ قالت : لأنني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض
العهد ولست بابنة همه فيرعى رحي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن
أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون على في ذلك ما فيه ، قال : قومي بارك الله فيك
وادعي لي فلانة لابنته الوسطى فدعتها ثم قال لها مثل ما قال لاختها ، فأجابته بمثل
جوابها وقالت إنني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره
فيطلقني فيكون على في ذلك ما تعلم وليس بابن عمي فيرعى حق ولا جارك في بلدك
فيستحييك ، قال قومي بارك الله فيك ادعي لي بهية يعني الصغرى فأتى بها فقال لها

كما قال لها فقالت أنت وذاك فقال لها إني قد عرضت ذلك على أختيك فابتاه ولم يذكر لها مقالتهما فقالت : لكني والله الجليلة وجها الصناع يدا الرفيعة خلقا الحسنية أبا فان طلقني فلا أخلف الله عليه بخير فقال بارك الله عليك . ثم خرج إلينا فقال قد زوجتك يا حارث بهية بنت أوس قال قد قبلت فأمر أمها أن تهيتها وتصلح من شأنها ثم أمر بيوت فضرب له وأزله إياه فلما هيئت بعث بها إليه فلما أدخلت إليه لبث هنيئة ثم خرج فقلت أفرغت من شأنك؟ قال لا والله قلت وكيف ذلك؟ قال لما مددت يدي إليها قالت مه أعند أبي واخوتي هذا والله ما لا يكون قال فأمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا فسرنا ما شاء الله ثم قال لي تقدم فتقدمت وعدل بها عن الطريق فإلبث أن لحق بي فقلت أفرغت قال لا والله . قلت ولم؟ قال : قالت لي أكما يفعل بالامة الجليلة أو السبية الاخيذة؟ لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي قلت والله إني لأرى همة وعقلا وأرجو أن تسكون المرأة منجبة إن شاء الله فرحلنا حتى جئنا بلادنا فاحضر الإبل والغنم ثم دخل عليها وخرج إلى فقلت أفرغت قال لا والله قالت لي لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك قلت وكيف قالت أفرغت لنسكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضا وذلك في أيام حرب عيس وذبيان قلت فيكون ماذا قالت اخرج إلى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك فقلت والله إني لأرى همة وعقلا ولقد قالت قولا . قال فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فشينا فيما بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتل فيؤخذ الفضل من هو عليه فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين فانصرفنا بأجل الذكر ، قال محمد بن عبد العزيز : فمدح بذلك وقال فيه زهير ابن أبي سلمى (راجع ٢٩٤ : ١٠ : الأغاني ، ٢٢٢ : ٢ المستطرف) :

آمن أم أوفى دمنة لم تسكلم

ومنها :

تداركتنا عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر ومنهم
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم مضانهم شتى من إفال مزمن
ينجمها قسوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

٢ — حرب البسوس بين بكر وتغلب من ربيعة

١ — مجد كليب (١) :

لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب ، وم : عامر وربيعة ، وكليب ، فالأول عامر بن الظرب ، والثاني ربيعة بن الحارث ، والثالث كليب بن ربيعة ، وقاد معدا كلها يوم خزازى ففرض جوع اليمن وهزمهم . فاجتمعت عليه معد كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيته ، وأطاعته معد بذلك حيناً من دهره ، ثم دخله زهو شديد ، وبقي على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معد له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحصى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويحير على الدهر فلا تخفر ذمته ، ويقول : وحش أرض كذا في جوارى فلا يهاج ، ولا تورداً بل أحد مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، حتى قالت العرب : أعز من كليب وائل . وكانت بنو جشم وبنو شيبان في دار واحدة بتهامة ، وكان كليب قد تزوج بنت مرة بن ذهل بن شيبان ، وأخوها جسساس . وكانت البسوس بنت منقذ التيمية خالة جسساس ، وكانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس ، وكان لها ناقة يقال لها سراب ، ولها تقول العرب أشأم من سراب وأشأم من البسوس ففرت إبل لكليب بسراب ناقة البسوس وهي معقولة ، فلهما رأت سراب الإبل نازعت دفاها حتى قطعته وتبعته الإبل ، واختلطت بها ، حتى أتت إلى كليب وهو على

وذكر قيامهم في ذلك فقال :

صحا القلب عن سلى وقد كاد لا يسلو

وفي قصيدة يقول فيها :

تداركتها الأحلاف قد نل عرشها وذيان قد ذلت بأقدامها النعل
وهذا لهم شرف إلى الآن . ورجع فدخل بها فولدت له بنين وبنات

(١) اسمه وائل ، وكليب لقبه (٤٤٠ - ٤٩٤ م)

الحوض معه قریش وكنانة ، فلما رأها أنكرها فشد عليها بسهم فخرم
ضربها ، فنفرت الناقة وهي ترغو ، فلما رأتها البسوس قد دفنت خمارها عن
رأسها وصاحت : واذلاء واجاراه .

٢ - مقتل كليب :

فأحسست جساسا ، فركب فرسا له مغرورا به ، وأخذ آلتها ، وتبعه عمرو
ابن الحرث بن ذهل على فرسه ومعه ربحه ، حتى دخلا الحى على كليب فقال
له : يا أبا الما جدة . عمدت إلى ناقة جارتى ففقرتها ، فقال له : ما مانع من
أن أذب عن حماي ؟ فأحسسه الغضب ، فطعن جساس فقصم صلبه ، وطعنه
عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يهجم برجله ،
وقال لجساس : أغشى بشربة ماء فقال : تجاوزت شيبنا والأحص ، وأجهز
عليه . وفى ذلك يقول الشاعر :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالدار

فلما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلت بماء يقال له النهى ، وتشمر
المهلل أخو كليب واسمه عدى بن ربيعة ، واستعد لحرب بكر ، وترك النساء
والغزل وحرم القمار والشراب على نفسه ، وجمع إليه قومه فأرسل
رجلا منهم إلى بنى شيبان يعذر إليهم فيما وقع من الأمر . فأتوا مرة بن
ذهل وهو فى نادى قومه ، فقالوا له : إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بناب
من الإبل ، فقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة ، وإنا كرهنا العجلة عليكم دون
الإعذار اليكم ، ونحن نعرض عليكم خلا لا أربع . لكم منها مخرج ، ولنا
فيها مقنع ، فقال مرة : وما هي ؟ قال : تحي لنا كليباً ، أو تدفع إلينا جساسا
قاتله فنقتله به ، أو هما ما فإنه كفء له ؟ أو تمكنتنا من نفسك فان فيك
وفاء من دمه .

فقال : أما إحيائي كليباً فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام
طعن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدري أى البلاد احتوت عليه ، وأما

همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وكاهم فرسان قومهم فلن يسلموه
لى فأدفعه اليكم يقتل بجزيرة غيره . وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل
جولة غداً فأكون أول قتيل فيها فما أتعجل من الموت ؟ ولكن لكم عندي
خصلتان : أما إحداهما فهؤلاء بنى الباقون فعلقوا في عنق أيهم شتمت نسعة
فانطلقوا به إلى رحالك فاذبحوه ذبح الجزور ، وإلا فألف ناقة سوداء
المقل أقيم لكم بها كفيلاً من بنى وائل فغضب القوم وقالوا : لقد أسأت ،
تبذل لنا ولدك وتسومنا اللين من دم كليب .

٣ - اشتعال الحرب :

ووقعت الحرب بينهم ، ولحقت جليلة زوجة كليب بأبها وقومها وانزات
قبائل بكر بن وائل وكرهوا معاونة بني شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم
وأعظموا قتل جساس كليبا بناب من الإبل ، وانقبض الحارث بن عباد
في أهله ، وهو أبو بجير وفارس النعامة ، وقال المهلهل يرثي كليبا :

بت ليلى بالإنعمين طويلاً أرقب النجم ساهراً أن يزولا
كيف أهدا ولا يزال قتيل من بنى وائل يلسى قتيلاً
إلى أن قال :

قتلوا ربهم كليبا سفها ثم قالوا : ما إن نحاف عويلاً
كذبوا والحرام والحلل حتى يُسلب الخدر بيضته المحجولا
ويموت الجنين في عطف الرحم وتروى رماحنا والخيولا
وقال أيضاً يرثيه :

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها إذ أنت حليتها فيمن يخليها ؟
نعم النعامة كليبا لى فقلت لهم مالت بنا الأرض أوزالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من طبيعته ما كل آ لانه يا قوم احصيا
القائد الخيل تردى في أعنتها زهواً إذا الخيل لجت في تعاذيا

من خيل تغلب ما تلقى أسلتها إلا وقد خضبوها من أعادها
ليت السماء على من تحتم وقعت وانشقت الأرض وانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصلحكم ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

٤ - يوم النهى (لتغلب على بكر) :

وأول وقعة بينهم كانت على ماء يقال له النهى كانت بنو شيبان نازلة
عليه ، ورئيس تغلب المهلهل ، ورئيس شيبان الحارث بن مرة ، فكانت
الدائرة لبني تغلب وكانت الشوكة في شيبان ، واستمر القتل فيهم إلا أنه لم
يقتل في ذلك اليوم أحد من بني مرة - وكان هذا اليوم لتغلب على بكر .

٥ - يوم عنيزة :

ثم التقوا بعنيزة فظفرت بنو تغلب . ثم كانت بينهم معارك ووقائع
كثيرة وكانت الدائرة لبني تغلب على بني بكر فيها كلها . وقال مهلهل يهف
هذه الأيام وينعى على بكر في قصيدة طويلة أولها :

أليستنا بذى حُسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى
وإن يكُ بالذئاب طال ليلي فقد أبكى من الليل القصير
وفيه يقول :

فلو نبش المقابر عن كليب لأنخبر بالذئاب أى زير
كأننا غُدوةً وبني أيننا بجنب عنيزة رَحياً مُديرَ
وإنى قد تركت بواردات بُجيراً فى دم مثل العبير
هتكتُ به يـسوت بنى عباد وبعض القتل أشقى للصدور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا برزت مخبئات الخدور
ولولا الريح أسمع من بُحجرٍ صليل البيض تُقرعُ بالذكور
وقال مهلهل لما أسرف فى الدماء :

أكثرْتُ قتلَ بنى بكر برَّهم حتى بكيت وما يبكى لهم أحد

آيتُ بالله لا أرضى بقتلهم حتى أُبهرجَ بكرا أينما وجدوا
 قال أبو حاتم : أبهرج : ادعهم بهرجا ، لا يقتل فيهم قتيل ، ولا يؤخذ لهم
 دية ، وقال : أبهرج من الداهم من هذا . وقال المهلهل :
 يالَ بكرٍ أنشِرُوا لى كليباً يالَ بكرٍ أين أين الفرار ؟
 وقال :

قتلوا كليباً ثم قالوا اربعوا كذبوا ورب الجل والإحرام
 حتى تبسّد قبيلةٌ وقبيلةٌ ويمسّ كلّ مثقّف بالمقام
 وتقوم ربّاتُ الخدور حواسراً يمسحن عرض ذوائب الأيتام
 حتى يعصّ الشيخُ بعد حيمه بما يرى ندما على الإبهام

٦ - يوم قضّة :

ثم إن مهلهلاً أسرف في القتل ولم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر ، وكان
 أكثر بكر قعد عن نصره بنى شيبان لقتلهم كليب بن وائل ، فكان الحارث
 ابن عباد اعتزل تلك الحروب حتى قتل ابنه بجير ، فلما بلغ الحارث قتله قال :
 نعم القتل قتيلاً أصلم بين ابني وائل ، وظن أن المهلهل قد أدرك به فأر
 كليب وجعله كفواً له فقبل له إنما قتله بشسع نعل كليب ، وذلك أن المهلهل
 لما قتل بجيراً قال : « يؤشسع نعل كليب » ، فغضب الحارث بن عباد ، وكان
 له فرس يقال لها النعامة . فركبها ، وتولى أمر بكر ، فقتل من تغلب حتى
 هرب المهلهل ، وتفرقت قبائل تغلب ، فقال في ذلك الحارث بن عباد :

قرّباً مربطاً النّعامَةِ منى كَلِمَتِ حَرْبٍ وائل عن حيال
 لم أكن من جنانها علم الله وإنى بحرّها اليوم صالى
 قرّباً مربطاً النّعامَةِ منى إن قتل الكريم بالشّسع غالى
 وكان اليوم الذى شهده الحارث بن عباد يوم قضّة وهو يوم تحلاق اللحم (١)

(٢) سمي بذلك لأن بنى بكر حلقوا فيه جميعاً رؤسهم وكان لبكر على تغلب .

وفيه يقول طرفة :

سائلوا عنا الذي يعرفنا بقوانا يوم تحلاق اللهم
وفيه أمر الخارث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه ، فقال الخارث له :
دلتني على عدى (اسم المهلهل) وأخلى عنك فقال له عدى : عليك اليهود بذلك
إن دلتك عليه ، قال نعم ، قال فأنا عدى . فجزّ ناصيته وتركه .
ثم إن المهلهل فارق قومه ونزل في بني مذحج فخطبوا إليه ابنته فمنعهم ،
فأجبروه على تزوجها وساقوا إليه في صداقها جلوداً من آدم ، فقال في ذلك :
أعزز على تغلب بما لقيت أخت بني الأكرمين من جشم
وعاش مهلهل باليمن (١) حيناً . ثم ملئت تغلب الحرب فاصطلحت هي
وبكر على ترك القتال ولم يحضر المهلهل صلحهم ، ثم اشتاق إلى دياره فعاد
إليها ومات بعد قليل .

٧ - وكانت جميلة بنت مرة أخت جساس زوجا لكليب (٢) بن ربيعة ،
فلما قتل جساس (٣) كليياً اجتمع نساء الحى للأنتم ، فقلن لأخت كليب :
رحلى جميلة عن مأمك ؛ فإن قيسامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ؛

(١) راجع أخذ المهلهل بثأر أخيه كليب وقصيدته (اليلتنا بذى حرم أنيرى)
في الامالى ٢ : ١٢٩ .

(٢) كان كليب بن ربيعة سيد ربيعة ، ينزلهم ويرحلهم ، ولا يصدرون في
شيء إلا عن أمره ، ولا يجير أحد من بكر وربيعة إلا بأذنه ، وكان يحمى الصيد
وحياض الماء . وضرب به المثل فقالوا : أعز من كليب .

(٣) كان لجساس خاله من بنى سعد جاورت بنى مرة ، فنزلت على جساس
ابن أختها ، ومعها ناقة فندت الناقة يوماً ، فدخلت في إبل كليب ترعى في حماء ،
فنظر إليها فأسكرها ورماها بسهم في ضرعها ، فولت حتى بركت بفناء صاحبها
وضرعها يشخب دماً ، فصاحت : واذا له : فقتل جساس كليياً لذلك ، وقتل
جساس نحو سنة ٨٥ ق . هـ

فقلت لها : يا هذه اخرجى عن مأتمنا ، فانت أخت واثرا ، وشقيقة قاتلنا .
 فخرجت وهى تجر أعطافها ، فلقىها أبوها مرة ، فقال لها : ما وراءك يا جلييلة ؟
 فقلت : نكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل وبين
 ذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد . فقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفع
 وإغلاء الديات ؟ فقلت جلييلة : أمنية مخدوع ورب الكعبة ! أبا لبدن (١)
 تدع لك تغلب دم رهبا !

ثم بلغ جلييلة أن أخت كليب قالت حين رحلت : رحلة المعتدى وفراق
 الشامت ، ويل غداً لآل مرة من السكر بعد السكر ! فقلت . وكيف
 تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها ! أسعد الله جد أختي . أفلا قالت :
 نفرة الحياة ، وخوف الاعتداء ! ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا	تعجلى باللوم حتى نسألى
فإذا أنت تبيننت الذى	يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمت على	شفق منها عليه فافعللى
جل عندى فعل جساس فىا	حسرتى عما انجلت أو تنجللى
فعل جساس على وجدى به	قاطع ظهرى ومدن أجلى
تحمل العين قذى العين كما	تحمل الأم أذى ما تفتلى (٢)
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتى جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيتى الأول
يا نساءى دونكن اليوم قد	خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى	من ورأى ولظى مستقبل
ليس من يسكى ليومين كن	إنما يسكى ليوم ينجللى
يشتمنى المدرك بالشار وفى	دركى ثأرى نكل المشكل (٣)

(١) البدن : جمع بدنه تكون من الإبل والبقر .

(٢) تفتلى : تربى (٣) المشكل : التى لازمها الحزن

- ٩٢ -

ليته كان دمي فاحتبسوا بدلا منه دما من أكحل (١)
إنسي قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لي (٢)

٣ - يوم بعث (٣)

وبعث اسم موضع في ديار بني قريظة من اليهود ، وكان بنو النضير
وبنو قريظة يساعدون الأوس على الخزرج وذلك حينما قتل عمرو بن النعمان
رهائن اليهود التي كانت عند الخزرج .

والتقت الأوس وحلفاؤها من اليهود بالخزرج في بعث ، وعلى رأس
الأوس حضير الكتائب ، وعلى رأس الخزرج عمرو بن النعمان ، فهزمت
الخزرج ، ومات حضير بسبب جراح أصابته ، وفي رثائه يقول خفاف
ابن ندبة :

فيا عين بكى حضير الندى حضير الكتائب والمجاس

٤ - يوم حليلة (٤)

كثرت الحروب بين ملوك الحيرة وملوك غسان تبعا للخصومات
السياسية التي كانت بين الفرس والروم .

ومنها يوم حليلة ، وحليمة هي بنت الحرث بن أبي شمر الغساني وكانت

(١) الاكل : عرق في الذراع يفصد

(٢) راجع ٦٣ : ٥ الاغانى ، ٢١٤ : ٥ نهاية الارب ، ٢١٦ : ١

ابن الاثير .

(٣) وهو بين الاوس والخزرج - وكان قبل الهجرة بنحو خمس سنوات .

(٤) كان بين المناذرة والغسانيين

من أجل النساء ، أمرها أبوها أن تطيب فرسان الغسانيين الذين أرسلهم ليفتسكوا بالمنذر بن المنذر بن ماء السماء ، وكان لتحميس حليلة لهم أثره في حماسهم وقتلهم للمنذر ملك الحيرة في مدينته اغتيالاً ، فنسب هذا اليوم إلى حليلة . وقيل سمي هذا اليوم يوم حليلة لأنه كان في مكان اسمه « مرج حليلة » ، ويضرب المثل بهذا اليوم . قالوا : « ما يوم حليلة بسر » . وقال النابغة يصف سيوفاً :

تخيرن من أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جربن كل التجارب

٥ - يوم الزَّوِيرَيْن (١)

سببه اعتداء بكر على أرض تميم وعيتمهم ييلادهم وهتكهم لعوراتهم فتحمس بنو تميم ، والتقوا ببني بكر ، وكان على بكر عمرو الأصم سيدها وكانت تميم قد أقبلت بحملين مقرونين مقيدتين وقالت : لا نبرح حتى يبرح هذان الزويران .

ودارت الدائرة على بني تميم ، وأخذت بكر الزويرين ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

يا سلم إن تسألني عنا فلا كشف عند اللقاء ولسنا بالمقاريف (٢)
نحن الذين هزمنا يوم صبحنا جيش الزويرين في جمع الأحاليف
ظلوا وظللتنا نكر الخيل وسطهم بالشيب منا وبالمرء الفطاريف

٦ - يوم شعب جبلة (٣)

وهو أعظم أيام العرب وأكثرها جميعاً ، كان قبل الإسلام بنحو سبع وخمسين سنة .

(١) كان بين ربيعة ومضر

(٢) مقاريف جمع مقرف وهو : من أمه عربية وأبوه غير عربي والكشف

جمع أكشف وهو : من ينهزم في الحرب .

(٣) كان لعامر وعبس على ذبيان و تميم

ألب لقيط بن زرارة السكابي جموع العرب على بني عامر وبني عبس ،
وكان في نجيشه : أبا الجون السكابي ملك هجر ، وحسان أخو النعمان بن المنذر
لأمه ، وسنان بن أبي حارثة ، وسواهم من سادة العرب .

وكان الأحوص بن جعفر سيد هوازن وشيخها وبطلها ، فأظماً إبلاً
لقومه ومنعها المرعى وحبسها في الشعب . فلما اقتحم لقيط ومن معه عليهم
فهم الشعب أطلق الإبل من عقابها فانطانت نائرة إلى الماء والمرعى تحطم
كل شيء أمامها ، فهزم لقيط وأحلافه ، وقتل في هذا اليوم ، وأسر أخوه
حاجب بن زرارة كما قتل معاوية بن الجون السكابي ، ورثت بنت لقيط
. دختوس - أباه :

فرت بنو أسد فرا ر الطير عن أربابها
عن خير خندف كلما من كملها وشبابها
وأتمها حسبا إذا ضمت إلى أحسابها
ويقول جرير :

ويوم الشعب قد تركوا لقيطاً كأن عليه حلة أرجوان

٧ - يوم خزّازي (١)

ولى ابرهة الحبشي زهير بن جناب السكابي على العدنانيين فامتنعوا عن
دفع الآتاوات له ، ووقع بعض العدنانيين أسرى عنده ، فذهب وفد من
وجوه معد إليه ليطلق سراحهم ، فأطلقهم ولكنه احتجز بعض أعضاء
الوفد ، فثارت معد ، وقادهم كليب وسار بهم إلى خزّازي وهو جبل بين البصرة
ومكة فأوقد عليه النار ، وأقبلت مذحج إلى خزّازي ، فاقتتل الفريقان قتالاً
شديداً هزمت فيه مذحج وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أوقد في خزاز رقدنا فوق رقد الرافدين

(١) كان بين نزار والبن

وكننا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو (١) بيننا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بنا لنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

٨ - أيام الفجار (١)

وهي أربعة أيام ، وكانت قریش ومعهما بكر على هوازن في هذه الأيام
وأهم هذه الأيام هو الفجار الرابع والذي أشعل الحرب فيه أن البراض
السكناني قتل عروة الرحال الذي أجار لطيمة النعمان بن المنذر ، وكان عروة
سيداً شجاعاً شريفاً ، والبراض خليعاً ماجناً ، فثارت الحرب .

وكان البراض بن قيس السكناني رجلاً فانسكا خليعاً (٢) ، يحنى الجنائيات
على أهله . نخلعه قومه ، وتبرءوا من صليعه ، فنارقههم ، وقدم مكة ، خالف
حرب بن أمية ، ثم نبا به المقام بمكة أيضاً . فقارق أرض الحجاز إلى أرض
العراق العراقي ، وقدم على النعمان بن المنذر الملك . وكان النعمان يبعث كل
عام بلطيمة (٣) للتجارة إلى عكاظ (٤) تباع له كل عام هناك . فقال يوماً ،
وعنده البراض وعروة بن عتبة بن جعفر المعروف بالرحال (٥) : ومن
يجوز لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ فقال البراض : أبيت اللعن ! أنا
أجيزها على كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد من يجيزها على كنانة وقيس ،
فقال عروة : أكلب خليع يجيزها ! أبيت اللعن ؟ أنا أخيزها على أهل
الشيخ والقيصوم (٦) من أهل تهامة وأهل نجد ! فقال البراض - في غضب -

(١) الاغانى ج ١٩ ، والجزء الثاني من العقد ، واديان العرب ومعجم البلدان

(٢) كان يضرب المثل بفتكه ، فيقال : دأفتك من البراض .

(٣) اللطيمة : العير التي تحمل الطيب وبز التجار (٤) عكاظ موضع كان

بين نخلة والطائف (٥) لقب بالرحال لكثرة رحلته إلى الملوك (٦) الشيخ
والقيصوم : نباتان مما يطلع في السهل .

وعلى كنانة (١) تجهيزها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم !

فدفع النعمان اللطيمة إلى عروة الرحال ، وأمره بالمسير بها ، وخرج البراض يقبع أثره ، وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه ، حتى إذا كان عروة بين ظهراى قوميه أدركه البراض بن قيس ، فأخرج قداحه يستقسم (٢) بها فى قتل عروة ، فربه عروة فقال ما تصنع يا براض ؟ فقال : استقسم فى قتلك ، أيؤذن لى أم لا ؟ فقال عروة : همتك أضعف من ذلك ، فوثب إليه البراض بالسيف فقتله .

فلما رآه الذين يقومون على العير والأحمال قتيلا انهزموا ، فاستاق البراض العير ، وسار على وجهه إلى خيبر ، وتبعه رجلان ليأخذهما : أحدهما غنوى والآخر غطفانى ، وسارا حتى لقيهما البراض بخيبر ، فقال لهما : من الرجلان ؟ قال من قيس قدمنا لنقتل البراض ، فأنزلهما وعقل راحلتيهما ، ثم قال : أيكما أجزأ عليه وأجود سيفاً ؟ قال الغطفانى : أنا ، فأخذه ومشى معه ليدله - بزعمه - على البراض ، ثم قال للغنوى : احفظ راحلتيكما ففعل .

وانطلق البراض بالغطفانى حتى أخرجه إلى خربة (٣) فى بجانب خيبر ، وقال له : هو فى هذه الخربة يأوى إليها ، فأمهلى حتى أنظر أهو فيها ؟ فوقف ، ودخل البراض ، ثم خرج فقال : هو فيها وهو نائم ، فأرني سيفك حتى أنظر إليه أضراب هو أم لا ، فأعطاه سيفه ، فضربه به حتى قتله ، ثم

(١) كنانة هم قوم البراض .

(٢) الاستقسام : كانوا إذا أراد أحدهم سافراً أو تزويجاً أو نحو ذلك من المهام ضرب بالقداح وكان على بعضها مكتوب : أمرنى ربى ، وعلى بعضها الآخر : نهائى ربى ، والباقي غفل ، فان خرج أمرنى ربى مضى شأنه ، وأن خرج نهائى ربى ، أمسك ، وأن خرج الغفل أجأها ، وضرب بها أخرى إلى أن يخرج الامر أو النهى .

(٣) الخربة : موضع الخراب

أخفى السيف وعاد إلى الغنوى ، فقال له : لم أر رجلا أجبن من صاحبك ، تركته في البيت الذي فيه البراض وهو نائم فلم يقدم عليه ا فقال : انظر لي من يحفظ الراحلتين حتى أمضى إليه فأقتله ، فقال : دعهما وهما على ، ثم انطلقا إلى الخربة ، فقتله وسار بالعير إلى مكة (١)

وسميت حرب الفجار ، لأنها حدثت في الأشهر الحرام : ذى القعدة والحجة ومحرم ورجب ، التي كان القتال فيها محرما .
وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحرب واشترك فيها مع قومه وسنة أربع عشرة سنة ، وكان يدل على أعمامه .

٩ - يوم ذى قار (٢)

كان عدى بن زيد العبادى أستاذاً للنعمان بن المنذر . ثم التحق عدى بخدمة أنو شروان ، فمات المنذر (٣) فأشار على كسرى بتولية النعمان على الخيرة مكان أبيه ، ثم وشى خصوم عدى به إلى النعمان فأرسل إليه يطلب أن يزوره في الخيرة فقدم عدى عليه فأمر بحبسه . وفي ذلك يقول عدى يستعطفه بشعره :

أبلغ النعمان عنى مألكا أنه قد طال حبسى وانتظارى
لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى
فأمر بإطلاقه ثم خاف منه فقتله ، واحتل زيد مكان أبيه عدى في خدمة

(١) راجع ١ : ١٠١ المضاف والمنسوب ، ٢ : ٢٣ : ٢٤ مجمع الامثال ، ٣ : ١٠١ ابن الاثير

(٢) راجع ٣ : ٣٧٤ العقد الفريد ط ١٩٢٨ - وكان هذا اليوم بين العرب والفرس (٣) راجع خبر المنذر بن ماء السماء وقلته ندييه وجعله لنفسه في كل سنة يوم يؤس ويوم نعيم وقلته عبيد بن الأبرص يوم يؤسه (١٩٥ النوادر ملحق الآمال) .

كسرى ، ثم أخذ زيد يحرض كسرى على النعمان فاستدعاه من الخيرة فليجأ إلى هانيء بن قبيصة مستنجيراً به ووضع عنده أمواله وسلاحه وبنته حرة ، وذهب إلى كسرى فحبسه حتى مات في السجن ، وولى مكانه على الخيرة إلياس ابن قبيصة الطائي ، وأمره أن يأخذ أمانيات النعمان من هانيء ، فطلبها منه فرفض ، فثار كسرى وانتظر على بني شيبان حتى أنزلهم الحر بذي قار وأرسل إليهم جيشاً كثيفاً يحاربهم به ، ولكن بني شيبان وأحلافها من العرب صمدوا لجيش الفرس وهزموه هزيمة منكرة . وانتصر العرب انتصاراً مؤزراً .

وفي هذا اليوم خطب هانيء خطبته المشهورة (١) : يامعشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور الخ . وكان هذا اليوم في مبعث الرسول صلوات الله عليه ، وقال فيه : ه إن هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبني نصرها .

وقد افتخر الشعراء بهذا النصر العظيم ، قال الأعشى :

لو أن كل معد كان شاركننا في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
وقال العديل العجلي :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة إلا أءطينا وكما موقدى النار
وما يعدون من يوم سمعت به للباس أفضل من يوم بذي قار
وقال أبو تمام :

وأنتم بذي قار أمالت سيروسكم عريش الذين استرهنوا قوس حاجب

اللغة العربية (١)

أصل اللغة العربية :

١ — هي إحدى اللغات السامية المشهورة الباقية إلى يومنا هذا ، وهي لغة الجلس العربى الذى تحدثنا عنه وعن موطنه وحياته العامة وصفاته وأخلاقه فى العصر الجاهلى .
واللغات السامية هى - حسب ترتيبها ترتيباً زمنياً مطابقاً لانتشار آدابها - كما يأتى :

- ١ — اللغة البابلية والآشورية (من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠ ق م)
- ٢ — د العبرية ظهرت من ١٥٠٠ ق م) واستمرت إلى يومنا هذا
- ٣ — د السبئية أو الحيرية أو العربية الجنوبية (٢) وجدت منها نقوش يرجع تاريخها إلى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح وقد تلاشى السبئيون نهائياً من صفحات التاريخ حينما أخذ العدنانيون فى الظهور والقوة

(١) راجع الكلام على أصلها وخصائصها وعوامل نموها فى :
الخصائص - المزهري - الصاحبي - كتب فقه اللغة - الادب العربى الرافعى
وراجع نشأة اللغة فى : ٤٣٣ : ٤ : شرح نهج البلاغة ، و ٨٠ : ٣ بلوغ الأرب ،
والميسر والقداح لابن قتيبة ، وكتاب الأدب للرافعى .

(٢) راجع الكلام عليها فى ٢٢٧ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية
لاسرائيل ولغفسون ط ١٩٢٩ القاهرة . ويرجع ولغفسون معلوماتنا عن اليمن
ولغاتها إلى : القرآن وكتب السيرة وكتاب الاكليل للهمداني ، وبعض مصادر
عبرية يهودية ، ومصادر تاريخية يونانية ورومانية لهيرودوت وسترابو الرومانى
وسواهما ، ونقوش وكتابات جمعها الرواد الأوريون خلال القرن التاسع عشر

٤ - اللغة الآرامية وهي كاللغة الحيرية (نقوش وجدت منها منذ سنة ٨٠٠ ق م)

٥ - اللغة الفينيقية وترجع النقوش التي عثر عليها منها إلى القرن السابع قبل المسيح .

٦ - اللغة الحبشية (٣٥٠ ق م حتى يومنا هذا)

٧ - اللغة العربية العدنانية (١) ، وهي لغة الشعر والنثر الجاهليين ولغة القرآن الكريم . وهي من أحدث اللغات السامية عهدا وأقربها ظهورا ، وكل ما ألف ودون عنها وما روى من آثارها فهو ليس بعيداً عن البعثة المحمدية بأكثر من مائة عام تقريباً .

والعدنانية هي أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة (٢) لأن الجلس العربي عاش في عزلة تامة بعيداً عن العالم ولم يختلط بغيره اختلاطاً كاختلاط الأجناس الأخرى بسواها ولم تخضعهم أمم أخرى لحكمهم (٣) فلم تتأثر لغتهم تأثراً كبيراً بغيرهم .

ب - وتمتاز اللغات السامية عن أنواع اللغات الأخرى (٤) بميزات

(١) راجع تاريخ الأدب العربي للدستشرق الانجليزى رينولد نيكلسون .
وص ١٠٧ الشهاب الراصد للطفي جمعه ط ١٩٢٦ .

(٢) راجع ٧ : ٢ من كتاب تاريخ اللغات السامية طبع القاهرة ١٩٢٩ .
(٣) وقد يكون السبب في قرب اللغة العربية من الأصل الأول للغات السامية أنها كانت موجودة في مهد اللغات السامية أو في ناحية قريبة منه أو أن العناصر التي نزحت إلى بلاد العرب كانت من أقدم الأمم السامية .

(٤) اللغات الأخرى تشمل مجموعتين : اللغات اليافثية أو الآرية ، واللغات الحامية :

أما الآرية فقد انتشرت في الهند وسارت منها إلى الافغان وفارس ثم الى أوروبا . وهي قسمان :

وخصائص (١) منها :

(أ) كثرة عدد حروفها

(ب) أغلب الكلمات فيها يرجع في اشتقاقه إلى أصل ثلاثي الحروف وهذا الأصل هو الفعل ، والرأى الذى يذهب إليه بعض علماء العربية من أن أصل الاشتقاق هو المصدر مخالف لأصل الاشتقاق فى باقى اللغات السامية ولعله تسرب إلى اللغة العربية من العلماء الفرس الذين بحثوا فى اللغة العربية بعقليتهم الآرية إذ الأصل فى الاشتقاق عند الآريين هو المصدر الاسمي .

(ج) ليس فى اللغات السامية أثر لإدغام كلمة فى أخرى حتى تصير الكلمتان كلمة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلمتين مستقلتين كما هى الحال فى غير اللغات السامية .

(د) اقترانها فى الكتابة على الحروف دون حركاتها .

(هـ) كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحدة

(و) اشتراكها فى كثير من الكلمات مع اختلاف قليل أحيانا ويظهر ذلك من التشابه بين العربية والعبرية ، فبعض الكلمات يالسين فى العربية وهى بالشين فى العبرية ، والألف فى العربية واو فى العبرية ، فسلام فى العربية هى شلوم فى العبرية . وكذلك الثاء فى العربية شين فى العبرية كثور وشور ؛ وما كان فى العربية بالضاد فهو فى العبرية بالصاد كأرض وأرض وهكذا .

١ - الآرية الشمالية وهى لغات أوروبا القديمة والحديثة .

ب - الآرية الجنوبية وهى السنسكريتية (الهندية القديمة) وفروغيا : الهندية الحالية والفارسية والأرمنية والافغانية .

وأما الحامية فقد انتشرت شمالى افريقية وتشمل الزنجية والبربرية (لغة سكان المغرب) والمصرية القديمة (قبل فتح المكسوس لمصر)
وأما اللغات السامية فقد انتشرت غربى آسيا .

(١) راجع ص ١٤ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩

وهذا الاشتراك دليل على أن اللغات السامية من أصل واحد (١) .
وأوجه الشبه بين أغلب اللغات السامية تظهر في بعض أسماء الأشياء التي
كانت معروفة لهم جميعاً كأسماء أعضاء الجسم وكالضمان فانها متقاربة
فيها جميعاً .

ج - وتنقسم اللغة العربية بوجه عام - لا اللغة العدنانية خاصة -
إلى لهجتين :

١ - لهجات القبائل العدنانية شمالي الجزيرة .

ب - لهجات القبائل القحطانية جنوب الجزيرة وتسمى اللغة الحميرية (٢)
وهي أقدم من لغة الشمال ، وقد عثر في اليمن على نقوش مكتوبة بهذه اللغة
ولها حروف تخالف الحروف العربية المعروفة كما أن لها صيغاً في التنوين
وجمع المذكر السالم وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تخالف لغة أهل
الحجاز وكذلك في حروف الكلمات فهزة أفعل في بعض الكلمات
الحميرية هاء .

(١) يختلف الباحثون في ذلك : فالبعض يذهب إلى أن اللغات السامية تفرعت
من أصل واحد مجهول ، والبعض يذهب إلى أن إحداها أصل لأخواتها ، ف قيل
البابلية هي الأصل ، وقيل العربية ، والراجح أن اللغات السامية تفرعت من أصل
واحد مجهول ، وأيد ذلك جورجى زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية .

واللغات السامية من الوجهة الجغرافية تنقسم إلى ثلاث مناطق :

١ - شرقية وتشمل البابلية والآشورية .

ب - غربية وتشمل الكنعانية والعبرية والآرامية .

ج - جنوبية وفيها اللهجات العربية في جميع بلدان الجزيرة العربية واللهجات
الحديثة .

(٢) وتشمل اللغة المعينية واللغة السبئية واللغة الحميرية ولغة قتيبان وحضرموت
وفي تاريخ اللغات السامية لو لغنسون حديث طويل عنها (٢٢٧-٢٥٢ ط
القاهرة ١٩٢٩)

أما لغة الشمال أو لغة الحجاز أو اللغة العدنانية فهي أحدث من لغة الجنوب ، وما روى إلينا من شعر جاهلي فهو بها ، لأن الشعراء الذين نظموا هذا الشعر : إما من ربيعة أو مضر وهما فرعان عدنانيان : وإما من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطى وكندة وتنوخ .

واللغة العدنانية هي التي يعيننا البحث عنها ، وهي التي ينصرف إليها الحديث عند إطلاقنا لفظ « اللغة العربية » .

نشأتها :

١ - اللغة العربية الباقية - التي هي العدنانية - هي مزيج من لهجات مختلفة اختلطت ببعضها بعض وصارت لغة واحدة بعد أن فتى أصحاب اللهجات الأولى وبادوا بالحروب والمهاجرة والامتزاج بغيرهم (١) .

على أن امتزاج هذه اللهجات وتدخل بعضها في بعض لم يتم مرة واحدة أو في زمن واحد بل حدث شيئاً فشيئاً وسار تدريجياً أزمنة طويلة أثناء الجاهلية إلى ما قبل الإسلام بقليل وهكذا كانت لغة الشمال اللغة العدنانية ذات سلطان قوى ونفوذ واسع في المصور القريبة من ظهور الإسلام فابتلعت اللهجات الجنوبية واتهمتها الواحدة منها تلو الأخرى ، وسادت هي في أغلب أقاليم الجزيرة العربية ، وكونت لنفسها أدباً جديداً وشعراً فنياً .

وأخذت اللهجات في بلاد اليمن تتدهور وتتلأثى حتى كادت تفتى في القرن السادس الميلادي ، وخاصة لفقدان اليمن لحريتها بخضوعها للأحباش طوراً ثم للفرس طوراً آخر فتدهورت حضارتها ، وتقاوس ظل اللهجات اليمنية .

ويسر ذلك السبيل أمام اللغة العدنانية للنهر في المعركة ، وبقي من اللهجات

(١) راجع ص ١٦٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩

اليمنية في اللغة العربية صدى قليل لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً (١).

٢ — ووجود بعض ألفاظ عبرية ، وآرامية ويونانية (٢) ، اندمجت في العربية بواسطة السريانية ، وفارسية (٣) ، من الخطأ أن تستدل به على إفادة اللغة العربية من هذه اللغات في طور نشأتها ، لأننا لا نعلم متى دخلت هذه الألفاظ في اللغة العربية ، ولو سلمنا أنها دخلت في العصر الجاهلي فيكون المعقول أن تعد أثراً من آثار تهذيب اللغة العربية أو طوراً من أطواره .

٣ — ولا شك أن اللهجات التي امتزجت باللغة العربية قسماً :

أ - لهجات سكان شمال الجزيرة كشمود (٤) وغيرها من القبائل العربية القديمة البائدة ؛ ومنها قبائل معين (٥) التي استوطنت في شمال الجزيرة العربية .

ب - ولهجات سكان جنوب الجزيرة وتمثل في اللغة المعينية القديمة

(١) وفي ص ٢٤٠ من المزهري للسيوطي أن بعض لهجات عربية حميرية كانت شائعة في اليمن للقرن الثامن الهجري .

(٢) مثل : انجيل واسطوانه ، وأسقف وناموس وميل وبستان وصراط وخنديس وفرذوس

(٣) مثل : بحوس وجيش وأستاذ (راجع في ذلك ١٥ : ١ من تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب)

(٤) راجع موطنها وأخبارها في ١٧١ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٥) راجع ص ١٧٦ وما بعدها تاريخ اللغات السامية

القديمة (١) ، واللغة السبئية التي خلفت اللغة المعيلية (٢) ، أما اللغة الحميرية فهي السبئية مع خلاف قليل وقد نشأت مع اللغة العدنانية في وقت واحد (٣) ثم تغذت بها العدنانية ثم اتهمتها وقضت عليها . ومن المرجح أن ظهورهما بدأ قبل الميلاد بقرن واحد أي قبل البعثة بسبع مائة عام (٤) .

٤ - ورحل ابراهيم بابنه اسمعيل إلى الحجاز وأقام بمكة وخاطب قبيلة جرهم الثانية اليمنية وصاهاها وتعلم لغتها فكان لهذا العنصر الذي يرجع إلى العبرية أثر في اللغة العربية العدنانية (٥) .

٥ - ثم بدأت عوامل تهذيب اللغة العربية العدنانية تعمل عملها : باختلاط القبائل العربية بعضها ببعض ، ورحلات القرشيين في البلاد واتصالهم بالأمم الأخرى ، ثم نزل القرآن الكريم فأضفى على العدنانية ثوب القوة والخلود (٦) .

وهكذا نشأت العدنانية ونضجت .. وقبل أن نختم هذا البحث نعرض هذا النص : قال الأستاذ محمد لطفي جمعة ، في كتابه الشهاب الراصد (٧) :

(١) والمعينيون قدموا من العراق إلى اليمن ولغتهم بابلية وباقادتهم في اليمن أخذت تتباعد عن أصلها شيئاً فشيئاً حتى صار لغة مستقلة (راجع ١٢٤ الشهاب الراصد) .

(٢) والسبئيون أو القحطانيون قدموا إلى جنوب شبه الجزيرة من الحبشة أو من العراق في القرن الثامن قبل الميلاد واقتبسوا لغة المعينيين (١٢٤ الشهاب الراصد) وأولهم هو قحطان رأس العرب العاربة وابنه يربب هو الذي نطق بلغة المعينيين وبدأ يهذبها .

(٣) ١٢٥ الشهاب الراصد . (٤) ١٣٣ المرجع

(٥) وراجع ما كتبه الجاحظ في البيان والتبيين عن اسماعيل ونطقه بالعربية

دون تلقين (١٦٨ : ٣)

(٦) راجع ٢١٥ تاريخ اللغات السامية

(٧) ١٢٥ الشهاب الراصد

ومن المجمع عليه لدى علماء أصول اللغات وعلماء المشرقيات أن هذه العربية المحضة - العدنانية - هي الغاية التي انتهت اليها تلك اللغات وكانت جميعها روافد تغذى نهرها العظيم ، فالحبشية والسبئية والخميرية والعبرانية والنبطية وما تخلف عنها من لهجات متنوعة خدعت كلها تلك المضرة الفصحى الخالصة ،

أطوار تهذيب اللغة :

١ - سبق (١) أن ذكرنا أن المعينين بعد هجرتهم من العراق إلى اليمن انحرفت لغتهم البالية ثم استقلت فسميت اللغة المعينية ، وتوارثها السبئيون وتحولت فصارت لغة جديدة هي اللغة السبئية ، وكانت هي لغة الخميريين إلا أنها اكتسبت صفات جديدة بفعل الزمن وتبدل الحياة والمعيشة ؛ ثم هاجر اسماعيل إلى مكة وأقام بها وكان لسانه عبرانيا ، وجاور جرهم الثانية القحطانية وخالطها وصاهرها وتكلم بلسانها - وهي اللغة القحطانية أو السبئية - وتكلم بهذه اللغة أحفاده ، وبذلك نشأت اللغة العدنانية ، وكانت نشأتها هي واللغة الخميرية في وقت واحد على الأرجح وذلك قبل الميلاد بقرن واحد أو قبل البعثة بسبعمئة عام ، ثم أفادت العدنانية من الخميرية وصارعتها حتى طويتها وتغلبت عليها ، وذلك هو الدور الأول من أدوار تهذيب اللغة العربية .

٢ - ثم كان لاجتماع القبائل واختلاطهم بعضهم ببعض أثر في تهذيب اللغة ورفقيها .

ولاشك أن : الحروب ، والتجارة ، والحج ، كان لها أثر كبير في اختلاط القبائل بعضها ببعض وتفاهمها وتقارب لغاتها ، مما يشبه الأثر الذي أحدثته سيل العرم - الذي حدث حوالي ميلاد المسيح (٢) - وأدى إلى هجرة القبائل

(١) راجع ١٣١ الشهاب الراصد .

(٢) راجع ١١٩ الشهاب الراصد . ويخطئ الزيات في جعل تاريخ سيل العرم هو عام ٤٧٢ م (راجع ص ١٣ تاريخ الأدب العربي الزيات)

واختلاط القحطانيين بالعدنانيين وتأثرت لغاتهم بذلك الاختلاط .

والحنج له - من بين هذه العوامل - أثر كبير في تهذيب اللغة . فقد كان العرب يحججون إلى الكعبة وكانت قريش تتصل بهم وينصلون بها ، وكان القرشيون على قسط من المعرفة والرقى الفسكى ، وفيهم ذوق ولهم ملاحظات ناضجة في النقد اللغوى ، فكانوا يميزون بين اللهجات والألفاظ ، ويقتبسون من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأفصحها ، ويضيفون ذلك إلى لغتهم . فهدبوا لغتهم حتى خلت من السقيم والمستبشع من الألفاظ واللهجات . كما كانوا في رحلاتهم التجارية إلى الشام واليمن وفارس والحبيشة يأخذون من لغات هذه الأمم بعض ألفاظها ويدخلونها في لغتهم بعد أن ينطقوا بها نطقاً عربياً فصيحاً - وهو ما نسميه التعريب - وبذلك زادت ثروة اللغة العدنانية القرشية ، وقلدت القبائل الأخرى قريشاً في ذلك وحاكته في لغتها وأخذت عنها فكان بذلك لقريش أثر كبير في تهذيب اللغة ، بل كانت تقوم بما تقوم به مجامع اللغة الآن ، وصارت لغة قريش أعذب اللغات لفظاً وأبلغها أسلوباً وأوسعها مادة .

أثر الأسواق (١) : ومن العوامل الأخرى - التي ظهر فيها اختلاط العرب وكان لها أثر في تهذيب اللغة - الأسواق .

والأسواق العربية كانت ميداناً لاجتماع العرب وتبادلهم التجارة ، كما كانت سبباً في دعم الوحدة والتفاهم بينهم وفي مزجهم بعضهم ببعض ، وفي التقريب بين لغاتهم ولهجاتهم وكانت مع ذلك مجمعاً أدبياً كبيراً حيث كان يجتمع فيها الشعراء والخطباء فيلشدون ويخطبون .

(١) راجع الكلام على عكاظ والمربد في الرسالة العدد ١٢ و ١٣ و ١٥ و ١٦ ، وفي بلوغ الأرب ٢٦٤ : ١ ومعجم البلدان والكلام على عكاظ في العقد الفريد ص ٣٦٩ ج ٣

يقول سيديو : « أنشأ العرب أسواقا عامة يتعارفون فيها ويتحابون فلم تكن هذه الأسواق في عكاظ ومجنة وذى المجاز سوى مؤتمرات للشعر في الحقيقة خالية من التحكم على النفوس ، ولا شيء أروع من تلك الأسواق على ما كان يسودها من البساطة فقد كانت تشابه الألعاب الأولمبية ، فكان ينهض مقاتل شجاع متزن الخطأ أمام جمهور صامت جامع لحواسه ، لم يكن عليه من الزينة ما يشير إلى أنه من طبقة عالية ؛ فكانت الأبصار تشخص إليه فيلشد بصوته الرخيم من فوق مرتقى قصيدة بأمرها ، فتراه يترنم بأعماله السامية وشرف عشيرته أحيانا ، وتراه يمدح القوة والشجاعة أحيانا ، وتراه يصور عجائب الطبيعة وعزلة الصحراء والمهاهل المبتغاة ويصف الغزال أحيانا ، وذلك على حين يسير الجمهور مع المشاعر التي يود الشاعر أن يوحى بها إليه ، فيشاهد على وجهه المتلبه علائم الإعجاب بالبطل الصابر في الضراء كما تشهد علائم احتقار الجبان النذل ، وما كان المستمعون ليخفوا عواطفهم ، والشاعر كلما توسم اعتراف الجمهور بقدرته عاد إلى نشيده بحماسة جديدة . وقصائد الشعراء إذا ما تقيلتها مؤتمرات عكاظ بقبول حسن ، كتبت بحروف من ذهب على نسيج ثمينة وعلقت في الكعبة لتحفظ للحفدة ، ويستمتع العرب تحت الخيام مساء لتلك الأشعار العجيبة بلذة وهى التي تجمع بين سحر القصة المؤثرة المحزنة ومحاسن الترنم وحلاوة التوقيع وعذوبة اللحن ، فيجدونها شاملة لما يثيرهم من العواطف والشجون والحماسة ، فكانت وضعها بلغة معبرة عما يجيش في صدورهم ، وتجد في شعر الشعراء الذين اشتهروا في هذا الدور وصفاً دقيقاً لحياة عرب البادية الذين لم يفسد الزمن طبائعهم . وليس من النادر أن كانت تحدث بعد الوقائع الدامية مباريات نفر وكرم عرفت بالمنافرات ويقع التحكم فيها من حكم يرضونه ، وأحكام كهذه لا بد أن تصدر في احتفال كبير فتؤثر في النفوس تأثيراً جليلاً .

وإذا كان الخطباء والشعراء ، وكل ذى كلام - يريد له سعة فهم وكثرة ذبوع ، ولا بد أن يريد - يرون لغة قريش أوفى اللغات بهذا ، فقد انتسبوا إليها جميعا يستوحون فصاحتها وبيانها ، ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات ، فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى ؛ والإمام الذى به يقتدى . عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد ، فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها ؛ وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب ، حتى قارب توحيد اللهجات التمام ، واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ، ولمعرفة مواطن الإعجاز فيه . وما زال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدرع لهذه اللغة يصونها من أن تمحوها النوازل أو تلشع منها لهجات مختلفة تنقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويحذف .

ومن أم هذه الأسواق : عكاظ ومجنة وذو المجاز :

١ - أما عكاظ : فهى قرية بين نخلة والطائف ، كانت تقام بها سوق تجارية عامة ، وتاريخ إقامة هذه السوق يبدأ من عام ٥٤٠ م ، وكانت تعقد فى أول ذى القعدة إلى العشرين ، وبقيت فى الإسلام ، إلى أن نهى الخوارج عام ١٢٩ هـ . وكانت ميداناً للمنافرة والمماخرة والتجارة وفداء الأسرى وإنشاد القصائد ، وجاء ذكرها فى الشعر العربى ، قال طريف بن تميم :

أوكليا وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عربهم يتوسم
وقال النابغة :

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني تحت المعجاج فاشققت غباري
وقال حسان :

سأنشر إن بقيت لهم كلاما يفرق فى المجامع من عكاظ

وسوق عكاظ سوق عامة كان يحضرها العرب جميعا ، أما الأسواق الأخرى فكانت أسواقا محلية. وعكاظ سمي عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيمكنهم بعضاً بالفخار ، وكانوا يتفاحرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا - وعكاظ نخل في وادي بينه وبين الطائف ليلة وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب (١) . وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ويتفاحرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما ألدنوا من الشعر ثم يتسرقون ، وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها ، ولم يكن عندهم أعظم من عكاظ ، قالوا : كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه عشرين يوما من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج (٢) . وهذا رأى آخر في زمان انعقادها .

وبروى أن المملكات أنشدت في عكاظ ، ويقول أحمد أمين من مقالة له : كان لعكاظ أثر كبير لغوى وأدبي ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته إليها ، ويأتى التجار إليها من مصر والشام والعراق (٣) ، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل ، وتقارب اللهجات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى أنه أليق بها وأنسب لها ، كما أن التجار من البلدان المتقدمة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شيء مما رأوا من أحوال تلك الأمم الاجتماعية . وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلتقي فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب ، قال أبو المنذر : وكانت بعكاظ

(١) وقال الواقدي : عكاظ بين نخلة والطائف وراجع كتاب « قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي الخفاجي وعبد الجبار .

(٢) ٢٠٣ : ٦ معجم البلدان

(٣) يروون أن عبد الله بن جعدان أتى مصر فباع ما معه وعاد إلى سوق عكاظ انظر الأكليل للهمداني جزء ٨ ص ١٨٤ وما بعدها .

منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مأثره وأيام قومه من عام إلى عام فيها أخذت العرب أيامها ونفورها ، وكانت المنابر قديمة يقول فيها حسان :

أولاء بنو ماء السماء (١) نوارثوا دمشق بملك كبرا بعد كبرا
يؤمنون ملك الشام حتى تمكنوا ملوكا بأرض الشام فوق المنابر (٢)

(١) ماء السماء لقب عامر بن حارثة الأزدي أبو عمرو مزيقياء الذي خرج من اليمن لما أحس بسيل العرم ، وسمى ماء السماء لأنه كان إذا أجذب قومه مانهم - أى كفاهم مؤونتهم - حتى بأنيهم الخصب فكانه خلف من ماء السماء وقيل لولده بنو ماء السماء وهم ملوك الشام ، والعرب يسمون أيضا بني ماء السماء لأنهم يعيشون بماء السماء قال الأزهري : السهابة ماء بالبادية وكان اسم أم المنذر ماء السماء فسمته العرب ابن ماء السماء وهو المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى وأمه ماء السماء وهي امرأة من الثر بن قاسط سميت بذلك لجمالها . ولما ملك كسرى قباذ بن فيروز خرج في أيامه مزدك فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم وأن لا يمنع أحد أخاه ما يريد فدعا قباذ المنذر ليدخل في هذا المذهب فأنف وأبى المنذر هذا الفعل فطرده قباذ من مملكته ونفاه عن الخيرة ودعا الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار فأجابه وكان الحرث شديد الملك فشد له ملكه ، وكانت أم أنوشروان بين يدي قباذ يوما فدخل عليه مزدك فلما رآها قال لقباذ ادفعها إلى لأقضى حاجتي منها فقال له قباذ دونكها فوثب اليه أنوشروان فلم يزل يسأله أن يهب له أمه حتى قبل رجله فتركها له فلما هلك قباذ وتولى أنوشروان جلس في مجلسه وأقبل المنذر اليه وأذن للناس فدخل عليه مزدك ودخل عليه المنذر فقال أنوشروان كنت أتمنى أمني أن أرى أن يكون الله تعالى قد جمعهما لي فقال مزدك : وما هما أيها الملك ؟ قال تمنيت أن أملك فاستعمل هذا الرجل الشريف يعني المنذر وأن أقتل هؤلاء الزنادقة فقال له مزدك أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم فقال إنك لهمنا وأمر به فقتل وصلب وقتل في ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف وصلبهم وطلب الحرث فخرج هاربا بجميع ما معه وأخذ المنذر في طلبهم فأخذ من بني آكل المرار ثمانية وأربعين رجلا فضرب رقابهم ، وألح في طلب امرئ القيس فلحق بالسموأل (٢) الأزمنة والامكنة ٢ ص ١٧٠

فيفق أشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم فى عكاظ .
قام عمرو بن كلثوم خطيباً بسوق عكاظ وأنشد قصيدته المشهورة :

ألا هبى بهصحنك فاصبحينا (١)

وكان الأعشى يوافى سوق عكاظ كل سنة ، وفيها أنشدهم قصيدته فى مدح
المحلوق (٢) .

وكان الالبنة الذيبانى تضرب له قبة آدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها
الشعراء ، فيدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى والجلساء فيلشدونه جميعاً
ويفاضل بينهم ونقد فيما زعموا قول حسان :

لنا الجننات الغريلمن فى الضحى وأسيفنا يقطرن من نجد دما
قال لحسان : قلت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر ؛ وقلت يلعبن
بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف بالليل
أكثر طروفاً (٣) .

وفى عكاظ مدح دريد بن الصمة ابن جدعان بعد أن هجاه فقال : إليك
ابن جدعان أعملتها (٤) الخ . وخطب قيس بن ساعدة الناس خطبته المشهورة
فذكروهم بالله والموت ورسول الله يسمع له (٥) وكانت الجلسة تشهد الموسم
بعكاظ وتعظم العرب بمصبيتها فى أبيها عمرو بن الشريد وأخوها صخر
ومعاوية ، وتلشد فى ذلك القصائد (٦) ، وعلى الجلة فكانوا فى عكاظ يتبايعون
ويتعاضون ويتفاخرون ويتحاجون ؛ وتلشد الشعراء ما تجد لهم . فمن هذا
كله نرى كيف كانت عكاظ مركزاً لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق ،
كما كانت مركزاً لحركة اجتماعية واقتصادية .

-
- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| (١) الأغاني ٩ ص ١٨٢ | (٢) الأغاني ٨ ص ٧٩ ، ٨٠ |
| (٣) المرجع ٨ : ١٩٤ و ١٩٥ | (٤) الأغاني ٩ ص ١٠ |
| (٥) أغاني ١٤ ص ٤١ و ٤٢ | (٦) حصة جزيرة العرب ص ٣٦٣ |

وكانت القبائل - كما أسلفنا - تنزل كل قبيلة منها في مكان خاص بها ، تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في الحلقات المختلفة . فكان الناس يجتمعون على سرحة ، أو حول الخطيب يخطب على منبر ؛ أو في قباب من آدم تقام هنا وهناك ، ويمتثلط الرجال بالنساء في المجامع ، وقد يكون ذلك سببا في خطبة أو زواج أو تنادر (١) وكانت تحضر الأسواق - وخاصة سوق عكاظ - أشراف القبائل ، وكان أشراف القبائل يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن الملوك كانت ترضخ للإشراف ، لكل شريف بسهم من الأرباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظا فإنهم يتوافون بها . من كل أوب (٢)

وكان الأشراف يمشون في هذه الأسواق ملثمين ؛ مخافة أن يؤسروا يوما فيكبر فداؤهم فكان أول من رفع اللثام طريف العنبري ، لما رأيهم يطالعون في وجهه ويتغرسون في شمائله قال : قبح من وطن نفسه إلا على شرفه ، وحسر عن وجهه وقال : « أوكلسا وردت عكاظ قبيلة ، إلى آخر الأبيات (٣) .

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس إليه أمر الموسم وإليه القضاء بين المتخاصمين ، قال أبو المنذر : وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كانت في بني تميم وكان يمين اجتماع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدواني وسعد بن زيد بن مناة من تميم ، وقد نخر المخبل بذلك في شعره :

ليالي سعد في عكاظ يسوقها له كل شرق من عكاظ ومغرب
حتى جاء الإسلام فكان يقضى بعكاظ محمد بن سفيان بن بجاشع (٤) .

(١) أنظر الاغانى ج ١٠ ص ١٤٥ وما بعدها و ج ١٣ ص ١٤٠ وما بعدها

(٢) الاغانى ٤ ص ١٣٦ وما بعدها (٣) الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٦

(٤) أنظر تعداد من ولى عكاظ في الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٧ .

ومن العسير جداً أن نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد في ذلك خبراً يصبح التمويل عليه ، يقول الألوسي في بلوغ الأرب : « إنها اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة » ، ولكن إذا بحثنا في الأحداث التي رويت في عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح ، فهم يروون - كما قدمنا - أن عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته في عكاظ ، وعمرو بن كلثوم كان قبل ذلك .

وقد عد المرزوقي في الأزمعة والامكنة من رؤساء عكاظ قبل الإسلام عشرة ، أولهم : عامر بن الظرب العدواني . وهذا - من غير شك - يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكى الألوسي بزمان طويل

وظلت سوق عكاظ تقوم كل سنة ، وكانت فيها قبيل الإسلام حروب الفجار وهي حروب أربع ، وكان سبب الأولى المفاخرة في سوق عكاظ ، وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بني عامر بن صعصعة بسوق عكاظ ، وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع إذلاله في سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرحال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض في الطريق (١) .

فكلها تدور حول سوق عكاظ ، وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وشهداها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال : كنت يوم الفجار أنبل على عمومي (٢) . واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات .

واستمرت عكاظ في الإسلام ، وكان يعين فيها من يقضى بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لعكاظ ، وكان أبوه يقضى بينهم في

(١) أنظر العقد الفريد ٣ ص ١٠٨ والأغانى

(٢) النهاية لابن الأثير مادة فجر

الجاهلية وصار ذلك ميراثاً لهم (١) :

ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضعف شأنها بعد الفتوح فأصبحت البلاد المفتوحة أسواقاً للعرب خيراً من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء أغراضهم ، فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية . قال السكبي : « وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذى المجاز قائمة في الإسلام ، فأما عكاظ فأنما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار ابن عوف الأزدي الأباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا ، وخافوا الفتنة فتركوا حتى الآن ، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك ، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة وآخر سوق خربت سنة ١٩٧ أشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها وتخريبها وتركها إلى اليوم (٢) »

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب ، وجرت فيها أحداث بحياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعته ، ومهدت السبيل لقبيل الإسلام لتوحيد اللغة والأدب ، وعملت على إزالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وقصدها النبي صلى الله عليه وسلم يبيت فيها دعوته ، وعاصرت الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي ولكن كانت حياتها في الإسلام أضعف من حياتها قبله ، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة وبين المؤمنين والمشركين ، فلما فتحت الفتوح رأى العرب في أسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها ، ثم كانت ثورة أبي حمزة

(١) الازمنة والامكنة ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها

(٢) أخبار مكة للأزرقي ص ١٢١ و ١٢٢

الخارجى بمكة فلم يأمن الناس على أموالهم فخربت السوق ، وختمت صحيفة الحياة حافلة ذات أثر سياسى واجتماعى وأدبى (١).

٢ - بحنة : موضع بمهر الظهران ، وكانوا يتنقلون إليها من عكاظ فيقيمون إلى غاية ذى القعدة .

٣ - ذو المجاز : خلف عرفة وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذى الحجة ثم يقيمون بعرفة في اليوم التاسع .

وبعد فقد كان لهذه الأسواق عملها اللغوى فى الفهم والنقد والإيثار والاختيار ، ثم فى التبادل اللغوى بين القبائل عامة ، مما كان له أثر كبير فى تهذيب اللغة .

ثم أنزل القرآن بلغة قریش فجمع العرب عليها وهذبها وجعلها أفصح اللغات ونشرها فى الدنيا وجعلها لغة عالمية بعد أن كانت لغة العرب وحدهم ، وبالقرآن الكريم تمت سيادة لغة قریش على لغات جميع القبائل العربية الأخرى ولهجاتهم .

اختلاف اللهجات العربية :

١ - كانت اللهجات كثيرة لأن العرب شعوب وقبائل وبعطون وأنفاذ وعشائر وفصائل متشعبة ، وكان لكل قبيلة لهجة تميزها ، وبذلك كثرت اللهجات العربية وظهر الاختلاف بينها (٢) ، ولكنه كان فى الفروع واللهجات

(١) راجع عكاظ فى السالى ٣٢٧ : ٩ ، والعقد الفريد ٣٦٠ : ٣ ، ومعجم البلدان ٢٠٣ : ٦ .

(٢) واختلاف اللغات - أو اللهجات - يرجع إلى أمور ثلاثة :

١ - تباين اللهجات وتنوع المنطق كاختلافهم فى صيغة اللفظ أو كيفية النطق وهو المراد هنا .

لا في أصل اللغة ذاتها وكان أثراً للبيئة والمعيشة والحياة والجو . ولم تدون جميع هذه اللهجات (١) ، ولكن بقي ظلها في اللغة العربية .

ويقول أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ : « ما لسان حمير وأقصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعريتنا » ، وكذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : « ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر كما هي لغة للعرب لعهدنا » .

وهذا طبعاً تصوير للخلاف الواسع بين العربية والحيرية على عهد ابن العلاء وعهد ابن خلدون ، وهما يقصدان إلى اختلاف اللهجات . وذلك بدهى بما ذكرناه .

ب - ومن صور اختلاف اللهجات العربية ما يبدو لك (٢) من :

١ - الكشكشة في لهجة ربيعة ومضر ، وهي : زيادة شين بعد كاف المخاطبة المؤنثة في الوقف ، أو في الوقف والوصل جميعاً ، أو جعل الشين مكان هذه الكاف مع كسرها في الوصل وإسكانها وقفاً .

فيقولون في رأيتك : رأيتكش ، أو رأيتش .

٢ - الكسكسة في لهجة ربيعة ومضر أيضاً ، وهي : أن يجعلوا بعد الكاف أو مكانها في خطاب المذكر سينا فيقولون في عرفتك : عرفقس أو عرفتكس ونسبها الحريري لبكر لالريبة ومضر ، وجعلها مثل الكشكشة (زيادة شين بعد خطاب المؤنثة) ، ونسبها القاموس لتيم وفسرها بما فسر بها به الحريري .

٣ - اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات التي تنطق به ومن هذا النوع المترادف والأضداد .

٣ - ما يكون قد انفرد به عربي مع إطلاق العرب على النطق بخلافه وهذا يجوز أن يكون قد دفع لذلك الأعرابي من لغة قديمة طال عليها العهد وبادت آثارها . (١) وبقيت اللغة مسماة منسوبة إلى أصحابها من العرب عند الرواة والعلماء .

إلى آخر القرن الثالث (١٢٩ الشهاب الراصد)

(٢) راجع ص ٩٠ وما بعدها ج ١ من تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دها ب

٣ - شذشنة اليين ، وهى : إبدال الكاف شينا مطلقا ، فيقولون فى لييك : ليش ، وفى كنى : شمنى .

٤ - القطة فى لغة طى ، وهى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون : يا أبا الحكا ، فى : يا أبا الحكم .

٥ - لخلخانية الشجر و عمان ، وهى حذف بعض الحروف اللينة فيقولون : مشا الله ، فى : ما شاء الله .

٦ - طمطمانية حمير : والطمطمة أن يكون الكلام مشبها لكلام العجم . والطمطمانية هى : إبدال لام التعريف يما ، ومن ذلك : ليس من أمبر أمصيام فى أسفر ، وفى اللغة : الطمطم والطمطمانى : الذى فى لسانه عجمة والعبي الذى لا يفصح .

٧ - تخفخفة هذيل وهى قلب الحاء عينا مثل : عى ، فى : حتى .

٨ - عجمجة قضاة (١) وهى قلب الياء المتطرفة بعد عين جيما مثل : الساعج ، فى : الساعى .

٩ - غمغمة قضاة وهى إخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر

١٠ - عننة تميم وقيس وهى جعل الهمزة المبدوء بها عينا مثل : عننت كريم ، فى : أنت كريم ، والفرنج يعكسون فيقلبون العين همزة فيقولون فى على : ألى .

١١ - الاستنطاء فى لغة سعد والأزد وقيس والأنصار وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الظاء نحو : أنطى ، فى : أعطى .

١٢ - تلتلة بهراء من تميم وينسبها ابن فارس إلى أسد وغيرهم وهى كسر أحرف المضارعة ، وقيل كسر ناء تفعلون .

- ١٣ - وهم كلب وهو كسر هاء الغيبة إذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة مثل منهم وعنهم .
- ١٤ - وكم ربيعة وهو كسر كاف الخطاب في الجمع قبل ياء أو كسرة مثل « عليكم » .

١٥ - وتم الين : وهو إبدال السين المهملة تاء مثل النات في الداس .

ج - على أن هناك اختلافات أخرى في اللهجات منها :

١ - إبدال التاء هاء وعكسه في الوقف عند طيء فيقول في فاطمة « فاطمت » وفي نعمت « نعمه » .

٢ - إبدال الياء ميما وعكسه مثل « باسمك » مكان « ما اسمك » و « مكر » مكان « بكر » وهو لغة « مازن » ومنها آثار في لهجة أهل مديرية الدقهلية وبعض الغربية حديثاً في مصر .

٣ - وإبدال الحاء هاء مثل « مدهته » في : مدحته .

خصائص اللغة العربية :

تمتاز اللغة العربية بما يأتي :

١ - ثروتها اللغوية ، ففيها أسماء لكل ما تقع عليه العين أو تسمعه الأذن أو يحول في الخاطر .

٢ - صيغ المشاركة ، كتناسلوا وتناجوا ، فهي خاصة باللغة العربية ولا توجد في اللغات الأخرى .

٣ - الإعراب ويشاركها فيه كما يقول جورجى زيدان الحبشية والألمانية وكادت الألمانية تتخلص منه ، ويلاحظ أن العربية العامية تتخلصت من الإعراب .

٤ - الإيجاز فهو فيها أوضح .

م المجاز والاشتقاق وهما كذلك ظاهران في اللغة العربية .

٦ - الاشتراك وهو دلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى كالعيز للماء والذهب والفضة وللبصر ، وهو خاص باللغة العربية . ومنشؤه على الأرجح تعدد القبائل فيكون اللفظ بمعنى عند قبيلة وهو بمعنى آخر عند قبيلة أخرى . وقرائن للكلام والأسلوب توضح المراد من اللفظ .

٧ - التضاد : وهو أن يدل اللفظ على معنيين متضادين كجلل للعظيم والحقير (١) . ومنشؤه كذلك تعدد القبائل ، فتضع قبيلة اللفظ لمعنى ؛ وتضع أخرى لخصمه .

والقرينة فيه أيضا هي التي ترشد إلى المراد .

عوامل نمو اللغة :

وأسباب نمو اللغة كثيرة منها :

١ - الاشتقاق : وهو أخذ كلمة من أخرى مع تشابه في المعنى واتفاق في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها . وذلك كأكرم يكرم الخ وهو قياسى . وأصل الاشتقاق المصدر أو الفعل على خلاف في ذلك ، ويشترك من أسماء الأجناس كتذاب الرجل واستأسد . وهذا النوع من الاشتقاق سماعى . والمراد بالاشتقاق هنا الاشتقاق الصغير طبعاً .

(١) وكلفظ الجون للابيض والاسود ، ولفظ الوئب للعود في لغة حمير . ويروى في أصل المثل « من دخل ظفار حمير ، أن اعرايبا دخل على ملك من ملوك حمير فقال له الملك : « ئب » يريد : أقعد بلغة حمير ، فوئب الاعرابي ، فسأل الملك عن ذلك فقيل له إن الوئب بلغة العرب هكذا ، فقال أما إنه ليست عندنا عربية ، من دخل ظفار حمير ، أى تكلم بلغة حمير ، وهذا المثل صار يضرب لمن يدخل في القوم فيأخذ برهيم .

٢ - المجاز ، وبه يتسع التعبير ، وتظهر البلاغة ، ويتنوع البيان .

٣ - التعريب ، وهو نقل اللفظ من العجمية إلى العربية (١) . وفي القرآن ألفاظ معربة كسجيل ومشكاة وأباريق واستبرق ويم وطور ، وأنكر ذلك أبو عبيدة . وجمع آخرون بين الرأيين بأن الألفاظ أعجمية بحسب الأصل ثم صارت عربية .

وقد نشأ التعريب في اللغة العربية بمجاورة العرب في الجاهلية لسواهم من الأمم كالفرس والروم ، وباختلاطهم بهم في التجارة والحروب والبعوث الدينية وغير ذلك .

٤ - النحت :

وهو أخذ كلمة من كلمتين فأكثر للدلالة بها على معنى ما نحتت منه « كحمدل ، في « الحمد لله » ، « وبسمل » ، في « بسم الله » ، و« بسمي » في « عبد شمس » ، وفائدته الاختصار وزيادة ثروة اللغة وسهولة النطق .

وهو غير قياسي إلا عند ابن فارس ، ومن الألفاظ المنحوتة المولدة : الفداكة

٥ - الترادف (٢) :

وهو توارد لفظين أو أكثر على معنى واحد كالبر والقمح والليث والأسد ، وينكر بعض الباحثين الترادف في اللغة العربية بدعوى أن كل لفظ من المترادفات يفيد مالا يفيد الآخر والصحيح أنه ورد في اللغة . والترادف وسيلة للتعبير والإيضاح والبلاغة وهو ثروة في اللغة وسهولة في النطق .

وسبب الترادف قد يكون تعدد القبائل فتضع قبيلة اسما للشيء وتضع أخرى

(١) ص ٣ شفاء الغليل للخفاجي ط ١٢٨٢

(٢) راجع ٣٠٣ : ١ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط ١٩٣٥

اسماً آخر له ؛ وقد يكون اختلاف صفات الشيء ، ويرى ابن خنن أنه لا مانع من أن تضع القبيلة للمعنى الواحد ألفاظاً كثيرة . ويروى أن الرسول (ص) قال لأبي هريرة - وكان من قبيلة دوس - : ناولني السكين ، فلم يفهم أبو هريرة حتى أشار إليها الرسول (ص) فقال : ألمدية تريد ؟ فقيل له نعم فقال : أو تسمى عندكم سكيناً ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

٦ - الإبدال :

وهو جعل حرف مكان حرف يقرب منه مخرجا غالبا .
وهو عظيم الأثر في زيادة ثروة اللغة . كدح ومده .
ومثلوه تعدد اللغات ووضع القبائل ، أو تعدد الوضع من القبيلة الواحدة .
ومن أمثلته : لطم ولد ، ولثم أنف نفسه ورثمه . فاللطم : الضرب بالكف مفتوحة ، واللطم : الضرب بشيء ثقيل يسمع صوته . ولثم أنفه : لكه .
ورثمه : كسره .

٧ - القلب :

وهو تقديم حرف أو تأخيره من حروف اللفظ الواحد مع المحافظة على معناه أو انحرافه قليلا عن أصله .
وهو الاشتقاق الكبير . ومثاله : سبك وسكب ، وجذب جبذ وهكذا .
وسببه التحريف أو اختلاف اللهجات أو استعمال القبيلة لهما فيما لهما مصدر واحد .

فالقلب وروده في اللغة مسلم ، وهو رأى اللغويين والكوفيين ، ويرى ابن درستويه أن مثل هذا لا يسمى قلباً لأن كل لفظ موضوع على حدة وذلك بسبب تعدد وضع القبائل .

ويرى آخرون أن ما كان له أفضل واحد كان من القلب مثل أيس ويئس

وما كان له أصلان معروفان فهو من تعدد اللغات مثل جذب وجبد وهو مذهب البصريين .

فصاحة لغة قريش :

وبعد فاللغة العدنانية كما سادت على جميع لهجات العرب ، كذلك سادت لهجة قريش على جميع اللهجات العدنانية ، بما كانت تضيفه إلى لغتها دائماً من ثروة لغوية بفضل ما أفادته من ذوق لغوي في رحلاتها التجارية وفي مواسم الحج وفي الاجتماعات العربية في الأسواق وسواها .

ثم جاء القرآن الكريم بلغة قريش فتم لها السيادة على جميع لهجات العرب .

وقال معاوية يوماً لجلسائه : أي الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط يا أمير المؤمنين : قوم قد ارتفعوا عن رئة العراق ، وتيامسوا عن كسكسة بكر ، وتيامنوا عن قشقة تغلب ، ليس فيهم غنمة قضاة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش . قال : صدقت ، فمن أنت ؟ قال من جرم . قال الأصمعي : جرم فصحاء الناس . وبحق كانت قريش أفصح العرب كما يقول الجاحظ (١٢٧ / ٣ البيان والتبيين) .

وكانت قريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله واكتسبوا منزلة ديلية وسياسية واجتماعية وأدبية كبيرة مما جعل في العصر الجاهلي للغتهم السيادة والغلبة والذوق .

ويقول عبد المطلب بن هاشم :

نحن آل الله في ذمته لم نزل فينا على عهد قدم

لم نزل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النقم

ويقول عمر بن عتبة : « إن كلامنا كلام يقل لفظه ويكثر معناه ويكتفى

بأولاه ويستغنى بأخراه ، يتحدر تحدر الزلال على الكبد الحراء ، والله قوم

أدركنهم كما بما خلقوا لتحسين ما قبحت الدنيا ، سهلت ألفاظهم كما سهلت عليهم أنفاسهم ، .

وقال أبو الحسن : أسرع الناس جواباً عند البديهة قريش ثم بقية العرب .

اللغة العربية ومنزلتها بعد نزول القرآن :

وقد انتشرت اللغة العربية بعد نزول القرآن والفتح الإسلامي في جميع أرجاء العالم ، وأصبح يلجج بها بعد قرن سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقية الشمالية . وكان الاغريق قد سيطروا من قبل على الشرق الأدنى ، لكن سكانه ظلوا يتكلمون لغاتهم الأصلية منذ فتوح الاسكندر إلى الفتح العربي . ولم تعد اللغة اليونانية خلال عشرة قرون أن تكون لغة الطبقة المثقفة التي تبحث في السياسة والعلوم والآداب .

وحدث بعد مرور قرنين على الفتح العربي أن أعرضت كل هذه الشعوب عن لغاتها الوطنية واعتنقت العربية ، حتى إن المتكلمين بالعربية زاد عددهم عن عدد المتكلمين بالسريانية في القرن الثالث الهجري .

وقال الدكتور طه حسين في محاضرة له : إن اللغة العربية ميزة لا توجد في اللغة اليونانية ، وهي قوتها وجاذبيتها وقدرتها على زحزحة اللغات الوطنية والمركز محلها ، وهي في العالم الشرقي تشبه اللاتينية في أوروبا الغربية . وقد فعلت في الشرق الأدنى وأفريقيا الشمالية وأسبانيا ما فعلته اللاتينية في أوروبا الغربية ، فللتين إذا القوة نفسها والمهمة نفسها .

ثم قال . إن أثر الثقافة اليونانية يومئذ لم يكن عميقاً ، وأن أولى الخدمات التي أدتها اللغة العربية للمدينة العالمية ، ولعلمها أعظمها ، هي أنها سهلت للثقافة اليونانية الاتصال بمختلف طبقات الشعب في الشرق الأدنى . ولهذا التعمق في الثقافة اليونانية أهميته الخاصة نظراً إلى أثر هذه الثقافة في العالم . فاللغة العربية لغة عالمية عملت على التعاون بين الأمم والشعوب وهذه اللغة التي

- ١٢٥ -

تسكمت بها شعوب الشرق الأدنى في أقل من قرنين وانتشرت أيضا في إيران والهند والشرق الأقصى ، وهي وإن لم تتمكن من زحزحة لغات هذه البلاد إلا أنها تركت فيها الأثر البين وهي لغة السياسة كما أنها بصفة خاصة لغة الدين والعلوم والآداب .

وفي خلال ثلاثة قرون أعرض الإيرانيون عن أديهم الإيراني ونادوا بالآدب العربي وكثيرون من كبار شعراء العربية هم من أصل إيراني أمثال بشار وأبو العتاهية وسولهما . وهكذا تمسكت العربية ، هذه اللغة البدوية ، في بعض الوقت ، من زحزحة لغة عريقة كالإيرانية التي صمدت في وجه اللغة اليونانية .

واللغة العربية لم تقتصر على الزحزحة والاحتلال ، بل إنها أخذت تغني الشعوب التي اعتنقتها عن لغاتها الأصلية ، وقد فتحت صدرها للفلسفة اليونانية والحكمة الهندية والإيرانية ، وللسياسة الإيرانية وبلدية اليونان والهند وإيران ، وأصبحت العربية لغة تعاون بين الشعوب ، وخاصة بين الذين لم يتمكنوا بغير واسطتها من الاتصال والتفاهم . واللغة العربية هي الأولى في التاريخ التي أوجدت التعاون بين العالمين الشرقي والغربي ، وهذا عمل كبير وجليل .

وقد استطاعت العربية أن تحفظ مكانها بوصفها لغة مدنية حتى في عالم اليوم ، عالم القرن العشرين .

- ١٢٦ -

الأدب العربي ودراساته

- ١ -

أدب اللغة العربية مأثور شعرها الجميل ونثرها البليغ المؤثر في النفس المثير للعواطف ، وما يتصل به مما يعين على فهمه وتذوقه ونقده من لغة وأخبار وأيام وأنساب ونحو ذلك مما قد تمس الحاجة إليه في فهم الأدب ، كالإلمام بأطراف من الفلسفة ومذاهبها والملك والعقائد والنحل ، فإن مثل هذه الألوان من المعارف تتردد كثيراً في النصوص الأدبية كما نجد ما في شعر أبي العلاء والمتنبي وغيرهما ، والأدب صورة الحياة ومرآتها . تتمثل فيه جوانب النهضة ، ومظاهر المدنية ، وأدوات الحضارة ، وألوان الثقافة ، ومرافق الحياة ، ونوازع النفوس . لكل أمة من الأمم في كل عصر من العصور ، ولهذا يقول ابن خلدون : « الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف (١) » . ويقول ابن قتيبة : من أراد أن يكون عالماً فليلزم فنا واحداً ومن أراد أن يكون أدبياً فليقتسح في العلوم .

و على هذا النحو تجد أمهات الكتب الأدبية كالآغانى والامالى والكامل والعقد الفريد والبيان والتبيين .

- ٢ -

ولقد كان منهج المؤلفين من أدباء العربية في كتبهم ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء ، ورواية آثارهم الأدبية ونقدها أو شرحها وتحليلها ، وقد يوازنون بينها وبين غيرها من الآثار ، مع الإلمام ببعض أصول الأدب والشعر ،

(١) المقدمة ٤٨٨ - ويلاحظ أن هذا ليس تعريفاً للأدب بمعنى هذه النصوص التي ندرسها وننشئها ، وإنما هو في الواقع تعريف لما يسمى التأديب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الأدب وفهمه ونقده .

ونحو ذلك مما يجده مبثوثاً مفرقاً في كتبهم الكثيرة ، أو مجتمعة قليلاً في بعض الكتب . وقد برزوا في هذه النواحي تبرزاً قوياً ظهر في كتبهم ، كوفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للكتبي ، وبقية الوعاة للسيوطي ، ومعجم الأدباء لياقوت ، والأغاني لأبي الفرج ، وبقية الدهر للثعالبي ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب للمقري ، والعمدة لابن رشيق ، والمثل السائر لابن الأثير ، والمقدمة لابن خلدون ، والموازنة الآمدى وغيرها .

غير أن ما في هذه الكتب لا يعدو - في الجملة - أن يكون أخباراً مفردة غير مرتبطة ، لا تحدد عصرها من العصور . ولا تصور الحياة الأدبية قوة وضعفاً في زمن من الأزمنة ، ولا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصنعة والمذهب ، ولا تذكر ماعرا النثر والنظم من تحول وتقلب ، فهي أدب لا تاريخ أدب .

وجاء المستشرقون فجمعوا هذه المسائل المفرقة ، واستمدوا منها أصولاً أعانهم على بحث تاريخ أدب العرب على ضوء بحوثهم في تاريخ أدبهم فقد بحثوا عصور الآداب العربية ، وردوا إلى كل عصر آثاره الأدبية ، وحلوا المؤثرات العامة التي أثرت في كل فترة قوة أو ضعفاً ، وعنوا بدراسة أعلام الأدب وبيان مذاهبهم ، وما يكون من تأثير القديم في المحدث ، وما يكون من المشابهة والفروق التي تباعد بين الشعراء والكتاب أو تقربهم ، وغير ذلك من الدراسات التي لم يعهد لها أدباء العرب والتي نسميها نحن الآن « تاريخ الأدب العربي » .

فتاريخ أدب اللغة إذن علم يبحث عن أحوال اللغة وآدابها ، ويصور ما يختلف عليها من رقي وانحطاط في مختلف العصور والأطوار ، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الصناعتين ونقد مؤلفاتهم وتأثير بعضهم في بعض بالفكر والصناعة .

وهو إذن علم حديث النشأة ، ابتدعه الإيطاليون في القرن الثامن عشر ، وعنى به المستشرقون في القرن التاسع عشر ، وقد ظل مجهولاً في الشرق حتى اشتد خلطه بالغرب ، فكان أول من نقله إليه المرحوم الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه في دار العلوم ،

ثم تنابح المؤلفون على هذا المنهج كالإسكندري في الوسيط وجورجي زيدان في (تاريخ آداب اللغة العربية) والرافعي في (تاريخ آداب العرب) والزيات في (تاريخ الأدب العربي) وغيرهم من أسانذة الجامعة والأزهر .

أما كتابا الوسيلة الأدبية للمرصفي ، و « المواهب الفتحية » لمجرة فتح الله ، فهما على نهج الكتب القديمة ، وهي كما ذكرنا من كتب الأدب لا من كتب تاريخ الأدب . لأن الأدب كما رأينا هو نفس النصوص الشعرية والنثرية ، وتاريخه هو العلم الذي يبحث في أحوال هذه النصوص وأطوارها والعوامل السياسية والاجتماعية والإقليمية التي أثرت فيها ،

وهكذا نرى تاريخ الأدب يتصل بالتاريخ العام من حيث حاجة كل منهما إلى الآخر ، فالتاريخ السياسي يحتاج إلى تاريخ الأدب في استظهار بعض الصور الأدبية التي تتصل بالأخلاق مما يعينه على تحليل التقلبات السياسية ونحوها . والتاريخ الأدبي يحتاج إلى التاريخ السياسي في استنباط الصورة الأدبية الصحيحة بما يعرضه الأخير من النظم السياسية والاجتماعية المؤثرة في الأدب وفي حياة الأديب أو الشاعر ، فكلاهما متأثر بالآخر مؤثر فيه ،

هذا ومؤرخو الأدب يقسمون عصور تاريخ الأدب العربي إلى أقسام ، حسب الخصائص الفنية لكل مجموعة من الآثار الأدبية متأثرة بمؤثرات خاصة من النظم الاجتماعية والسياسية والدينية . وهذه الأقسام هي : العصر الجاهلي وبقدره بقرن ونصف قبل الإسلام ، وعصر صدر الإسلام من البعثة إلى سنة ٤١ هـ ، والعصر الأموي من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣١ هـ

- ١٢٩ -

والعصر العباسي من سنة ١٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ثم عصر الدول المتتابعة حتى بدء حكم محمد علي سنة ١٢٢٠ ثم عصر النهضة الحديثة من محمد علي إلى اليوم .

وهذانى الواقع نقسيم تقريبي مبني على مسابقة اللغة العربية للانقلابات السياسية والاجتماعية ، إذ الواقع أن هذه العصور متداخلة ، نظراً لأن هذه المسابقة تكون بطيئة ، وتأثر الأدب بهذه الانقلابات يكون تدريجياً ، بعد أن تنشعب نفوس الأدباء بالأحداث الجديدة .

- ٣ -

وينقسم الأدب إلى إنشائي ووصفي ، فالأدب الإنشائي هو ما تعبر به من شعر أو نثر عما تحس به من الخواج والعواطف والخواطر نحو الطبيعة سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها في نفسك وتجدها في قلبك ؟ متمثلة في عواطفك وميولك وأهوائك ، أم خارجية تراها في الجبال والبحار والسماء والنجوم والرياض والأحداث المختلفة . فإذا هزك منظر من مناظر الطبيعة بأوراقك مشهد من مشاهدنا ، أو اختلجت نفسك بعاطفة من عواطف الحب أو البغض أو الرناء أو الازدراء ، وصورت ما أحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع ، فإن هذا التصوير الذي يتمثل في شعرك أو نثرك يسمى أدباً إنشائياً ، لأنك أنشأته بعد أن لم يكن ، وارتجلته مقلداً به الطبيعة التي يظهر ابتهاجها وغضبها مثلاً في عصف الريح وقصف الرعد واضطراب البحر ، ويتجلى ابتسامها ورضائها في ضوء الشمس وعرف الزهرة وتغريد الطائر . وإذن فموضوع الأدب الإنشائي الطبيعة داخلية أو خارجية .

أما الأدب الوصفي فهو ما يتناول القصيدة أو الرسالة من الأدب الإنشائي بالوصف والنقد والتقريض ، فيثني عليها ويطنرها إن رضى عنها ،

(٩)

- ١٣٠ -

وينقدها ويعيها إن يخط عليها . فهذا النقد أو التقريظ لا يصور الطبيعة تصويراً مباشراً ، ولا يصور تأثير صاحبه بها ، وإنما يصف الكلام الذى قيل فى تصوير الطبيعة ، فموضوعه إذن هو الكلام لا الطبيعة : القصيدة التى تصور البحر لا البحر نفسه .

فالادب الوصفى إذن هو الذى نسميه نقداً ، ولا شك أنه وجد بعد الادب الإنشائى ، وتستطيع أن تدخل فيه تاريخ الادب ، إذ كان بما يعالجه هذا التاريخ الموازنة والخصائص الفنية ونحوها .

وبهذا تستطيع أن تقسم الادب الوصفى إلى قسمين : أحدهما النقد الذى يبين ما يمتاز به الادب الإنشائى من المحاسن والعيوب ، والآخر تاريخ الادب ، وقد عرفت مهمته فى بيان أحوال الادب وأطواره .

- ٤ -

وينقسم الادب كذلك إلى ذاتى وموضوعى .

فالادب الذاتى هو الذى يعبر فيه الاديب عن خواطره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته ، فالشعر الغنائى - وهو قسم التمثيلى والقصى - من الادب الذاتى لأن الشاعر يتغنى فيه بعواطفه الذاتية وخوالجه النفسية وآماله وآلامه ، وليس معنى هذا أنه مجرد من الصبغة الموضوعية ، بل معناه أن الصبغة الذاتية هى الراجحة فيه .

والادب الموضوعى هو ما لا يعبر به الاديب عن عاطفته أو ميوله الخاصة ولا ينطق بلسان نفسه ، وإنما يعبر به عما يحول عما يحول بخواطر غيره فالادب التمثيلى والقصى من الادب الموضوعى ، لأن الشاعر أو الكاتب إنما يعبر فيهما عما يحول بخواطر الاشخاص الذين يتحدث عنهم ويعبر عن آرائهم وينطق بلسانهم ، فهو كالمؤرخ يسرد الحادث التاريخى فى أسلوب بليغ دون أن يصنع عباراته بنزهاته وميوله وآرائه الخاصة .

الباب الثاني

النثر الجاهلي

معنى الجاهلية :

يسمى العهد الذي كان قبل بعثة الرسول صلوات الله عليه العصر الجاهلي . وقد وردت نصوص إسلامية كثيرة فيها لفظ «الجاهلية» . من ذلك قول عمر رضي الله عنه : إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة ، وقول عائشة رضي الله عنها : كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء ، وقولهم : يا رسول الله كننا في جاهلية وشر ، وقالوا : شاعر جاهلي ، وقال رسول الله صلوات الله عليه أربعة في أمي من أمر الجاهلية . كل ذلك من الجهل ، ضد العلم والمعرفة ، أو بمعنى السفه والطيش والإثم ، أو بمعنىهما جميعاً ، ثم قيل جاهل بهذا المعنى أو ذاك أو ذلك ونسب إليه ، وأصبح ذلك علماً على العصر الذي كان في شبه الجزيرة العربية قبل مبعث محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الاسم حدث في الإسلام كما يقول ابن خالويه (١) .

وسنتحدث هنا عن الأدب العربي في العصر الجاهلي وما كان عليه شعراً ونثراً ، وعن أعلام الأدب وحياتهم وأدبهم .

الشعر والنثر :

والأدب الجاهلي ، أرقل الأدب على الإطلاق قسمان : شعر ونثر : فالشعر هو الكلام الموزون المقفى ، والنثر هو ما خلا من الوزن والتقفية

(١) راجع ص ١٥ من كتاب عادات العرب في جاهليتهم ط القاهرة ١٩٢٤ وراجع في هذا البحث الشاب الراصد ص ٤٩ ط ١٩٢٦ .

والشعر يعتمد على الخيال والعاطفة ، ويشير الشعور والوجدان ، والنثر غالباً ما يعتمد على الحقائق ويركن إلى صدق التعبير ، وقد يعتمد على الخيال ويعتمد إثارة العواطف ، ويصاغ في أساليب شبيهة بأساليب الشعر فيسمى شعراً منشوراً .

والنثر نوعان : أحدهما ما يدر في كلامنا المألوف إذا تحدث الناس بعضهم إلى بعض في حاجاتهم ومصالحهم فيرسلونه إرسالا على سجيتهم وعلى ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة ، وهذا ما نسميه لغة التخاطب ، وهذا لا يعني به الأدب وليس قسما منه ، فليس شعراً ، وهو في الوقت نفسه ليس هو النثر الذي يحفظ ويروى ويتأدب به الذي هو أحد قسمي الأدب ، وإنما هو كلام عادي لم يقصد أصحابه فيه غالباً إلى الإجادة ولا إلى جمال فني وإنما أرادوا تأدية ما في نفوسهم من المعاني وتحقيق ما تقتضيه منافعهم من الأغراض .

والثاني هو ما يسمى نثراً فنياً وهو ما حوى أفكاراً منظّمة ، في عرض جميل جذاب وصياغة جيدة السبك فصيحة الأسلوب ، وهذا هو الذي يعد قسماً للشعر في باب الأدب ، وأهم أنواعه : الخطابة ، والكتابة الفنية . والكتابة عند الأوروبيين : وصف أو قصص ، وعند العرب : رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . وسنتكلم على مظاهر الأدب في العصر الجاهلي بالتفصيل .

ولكن هل الشعر هو السابق في اللشأة الادبية أو النثر الفني ؟

يرى الدكتور طه حسين ومن اتبعه مقلدين في ذلك بعض المستشرقين كالمسيو مرسيه الفرنسي أن الشعر أسبق في الوجود من النثر الفني (١) . ويستدلون على ذلك بما يأتي (٢) :

(١) راجع ص ٢٣ : ١ : النثر الفني لذك مبارك

(٢) ص ١٠ - ١٢ - ١٧٢ وما بعدها التوجيه الأدبي ط ١٩٤٠ - الباب السابع

(ا) الشعر في آداب الأمم الأوربية سابق على النثر فعند اليونان كانت قصائد هوميروس تلشد ويتغنى بها قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر نثر فني ، وفي الأدب الإنكليزي ترى أن أقدم الآثار الأدبية عند الإنكليز القدماء القصائد التي تصف أعمال ديوانف ، وهي ترجع إلى القرن السادس أو السابع الميلادي . فقد ظلت الأمم تتمتع بأدب الشعر قبل أن يثأ فيها أدب النثر .

(ب) كثرة الشعراء في العهد الأول لأدب أي أمة من الأمم وزيادتهم زيادة يينة على كتاب النثر .

(ح) ومن أقوى الأسباب التي قدمت نشأة الشعر على نشأة النثر في رأيهم أن الأدب المنشور يتطلب معرفة بالكتابة والكتابة متأخرة في تاريخ كل أمة فقصائد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس قبل أن تدبج الكتابة وكذلك روى الرواة الشعر العربي القديم قبل أن تدبج الكتابة ، ومشىء الأدب المنشور لا بد له من تدوين ما يخطر له .

(د) الشعر يعتمد على الخيال في حين يعتمد النثر الفنى على المنطق والتفكير والخيال يسبق التفكير في حياة الافراد والجماعات (١)

(هـ) الجماعات الساذجة نجد عندها كلاما موزونا دون أن نجد عندها نثرا فنيا صحيحاً .

(و) الشعر متصل بالغناء فالناس يغنون شعراً قبل أن يغنوا نثراً لأنهم

== من كتاب أصول النقد الأدبي للشايب ، ٣٦٤ - ٣٦٨ من كتاب الأدب الجماهلي لطله حسين . وراجع في ذلك البحث : الطبع والصعقة الهياوى ٣٧ : الحيوان للجاحظ .

(١) ويبدو لى أن نظرية سبق الشعر للنثر أخذها المستشرقون من كتاب الشعر لأرسطو ، ففي الشفاء - فن الشعر - مانصه : التخيل أسبق في الزمن من التصديق فالناس أول ما يسمعون إنما يسمعون الامثال الشعرية التي فيها مشاكلة للاقويل التخيلية ثم يتدرجون إلى الخطابة ثم إلى البرهان (الشفاء فن الشعر)

يحمدون في الشعر أوزاناً تلائم تقطيع الغناء وأنغامه (١)

أما الدليل الأول فلا يدل على شيء ، بل إن دل فإنما يدل على ضياع النثر لعدم تدوينه وبقاء الشعر لأنه يعلق بالحفاظة ويخلد بالرواية .

ومن أجل ذلك بقي الشعر وأخبار الشعراء معروفة لم يحف عليها النسيان وهو السبب في كثرة الشعراء في العصور الأولى من عصور آداب الأمم كثرة كبيرة وفي زيادتهم على الكتاب ورجال النثر ، وبذلك نجد الدليل الثاني منهاراً .

ولعدم وجود الكتابة في العصور القديمة التي هي وسيلة لتخليد النثر الفني ضاع أغلب ما لدى الأمم من نثر فني ، فكيف إذا استدلون على سبق الشعر للنثر باحتياج الأدب المنشور للكتابة في تدوينه ، وبذلك تجد الدليل الثالث لا يكاد يسير نحو الهدف خطوة واحدة .

وزعمهم أن الشعر يعتمد على الخيال والنثر على المنطق والتفكير صحيح في الأول مبالغ فيه في الثاني ، فلم لا يكون النثر الفني في بدء نشأته قد اعتمد على الخيال أيضاً كالشعر ، ولم لا يكون هذا النثر قد اعتمد على المنطق والتفكير على حسب عقلية الأمة وثقافتها ومقدار تفكيرها في هذه العصور القديمة ، وبذلك نجد الدليل الرابع لا يؤدي إلى غاية .

وأما أن الأمم التي لم تصعد درجة في الحضارة لها شعر وليس لها نثر فني خطأ في الرأي ، فإن هذه الجماعات الساذجة يوجد بجانب ما لديها من شعر نثر ملائم لعقليتها ومظهره الأمثال والحكم والتجارب والنصائح ، وذلك

(٢) ويرى المستشرقون أن كلمة شعر مأخوذة من اللغة العبرية من كلمة « شير » بمعنى التريلة أو التسييح القديسية ويرجعون ذلك بأنهم يردون العربية شعر بمعنى القصيدة وكل ما فيها : شعر أي قال الشعرو في اللغة الانجليزية كلمة Bozd معناها الشاعر المغنى وكان الأعشى صناجة العرب لأن شعره كان يتغنى به (٦٩) لجر الاسلام و٢٧٧ الزيات والتوجيه الأدبي)

يشاهد كثيرا في بيتنا المصرية العامة التي يمثل بها هؤلاء تأييدا لرأيهم من سبق الشعر للنثر وبذلك لا يمكننا التعويل على الدليل الخامس .
وأما أن الشعر غنى به من قديم قبل أن يغتوا نثرا فملشاً ذلك أن الشعر أصلح للغناء من النثر لموسيقاه وقافيته ، فكيف يتركونه ويغنون بنثر فني لا يلائم الغناء .

والحق أن النثر وجد أولا ثم تحول إلى النثر الفني ، ثم نشأ بعد ذلك الشعر ؛ ويؤيد هذا الرأي إجماع كثير من المستشرقين على أن السجع كان المرحلة الأولى التي عبرها النثر إلى الشعر في الأدب العربي القديم .
ويؤيده أيضاً وجود الكتب الديلية السماوية من قديم الأجيال في الأمم التي أنزلت لها ، وذلك قبل أن نسمع بالشعر والشعراء . ولعل هذه الكتب هي التي أدت إلى نشأة النثر الفني في العصور القديمة البعيدة قبل أن يوجد الشعر بزمان طويل .

ويؤيده أيضاً إجماع الباحثين أو شبه إجماعهم على أن النثر أسبق من الشعر (١)

* * *

وبعد فالنثر مرسل ومزدوج ومسجوع .
فالـمسجوع كما في سورة الكوثر ، والسجع هو ما اتحدت فاصلته أو فواصله في الحرف الأخير مثل : من عاش مات ، ومن مات فات .
والمزدوج هو ما اتحدت فواصله في وزنها لاني الحرف الأخير منها -
عما نسميه تقفية ، مثل قوله تعالى : ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة .
ويسمى هذا الموازنة عند علماء البديع ، فإن اتحدت الفواصل وزناً وتقفية عد من السجع في الراجع وعده بعضهم من المزدوج .
والمرسل هو ما خلت فواصله من الاتحاد في الوزن والقافية معا مثل :

(١) راجع ١٧ تاريخ الأدب العربي للزيات وسواه .

وإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ،

هذا وينكر بعض المستشرقين ومن تابعهم وجود نثر في جاهلي لأن عينة العرب الأولين لم تكن توجد النثر الفنى لأنه لغة العقل ، على حين سمعت بالشعر لأنه لغة الخيال وال عاطفة ، وهذا رأى خطأ ، بدليل ما يأتى :
(أ) كان عند كثير من الأمم القديمة كالفرس والهنود وقدماء المصريين نثر فى قبل الميلاد بكثير فلم لا يكون للعرب نثر فى بعد الميلاد بخمسة قرون ؟
(ب) وجود الكتب يستدعى وجود نثر فى .

(ح) بقاء بعض من النثر الجاهلى فى مصادر الأدب العربى وأمثال كتبه كالأنفانى والأمالى وسواهما ، أما الكثير منه فقد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة التى لم تكن معروفة فى الجاهلية إلا للقليل البادر من الناس (١)

* * *

هذا والنثر الجاهلى ينقسم إلى أمثال وحكم ووصايا ، وخطب ، ومنافرات ، ومفاخرات ، ومحاورات ، ونثر الكهان .

وسلتكم عن هذه الألوان الأدبية إن شاء الله تعالى (٢)

(١) هذا وينكر طه حسين كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر فى الجاهلية ، لأن النثر المروى لنا إنما جاء بلغة قريش التى لم يكن لهم بها علم ولأنه كان لهم لغة معروفة كتبوها وتركوا لنا فيها نصوصاً مثورة كشفها المستشرقون وهى لا توافق لغة قريش فى شىء فكل ما يضاف إلى اليمنيين عنده من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة فى الجاهلية منتحل . أما عرب الشمال فيرى رفض ما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة من نثر ، ويتردد فيما ينسب إلى مصر وهذا هو موقفه بالنسبة للشعر الجاهلى أيضا

(٢) راجع ٣٦٤ - ٣٧٥ الأدب الجاهلى . طه حسين فى الكلام على النثر الجاهلى . وص ٨٦ - ١١٣ من كتاب الاسلوب للشايب فى الكلام على أساليب النثر . والباب السابع فى النثر من كتاب النقد الأدبى للشايب .

- ١٣٧ -

مميزات النثر الجاهلي

- ١ -

يمتاز النثر الجاهلي في معانيه بما يأتي :

- ١ - الصدق والسذاجة والبساطة وعدم المبالغة أو الغلو
- ٢ - عدم التعمق في المعاني أو تعقيدها أو التركيب والمزج بينها ، لأنهم كانوا في بدوأة تامة في حياتهم وتفكيرهم وكل شئون معيشتهم .
- ٣ - معانيهم مستمدة من بيئتهم وحياتهم ، ومنطلقة مع الحرية التي ألقيهم وألفوها ، وهي بدوية كلون حياتهم ، تنطلق عن فطرة البدوأة وتفكيرها وإحساسها .

٤ - كثرة الحكم والأمثال في نثرهم

٥ - تفكك المعاني وكثرة الانتقال بينها

- ٢ -

ويمتاز النثر الجاهلي في أغراضه بأنه كان يلقي في :

- ١ - الدعوة إلى الانتقام والأخذ بالتأر وإشعال نار الحرب . أو الدعوة إلى الصلح والسلام .
- ٢ - المفاخرة والمنافرة والمحاوراة والكهانة ،
- ٣ - وصف مشاهد الحياة ومظاهرها في الصحراء .
- التوصية بفعل خير أو إسداء معروف أو سلوك نهج محمود أو بعد عن خطية مذمومة .
- ٥ - الوفاة على الأمراء والملوك إلى غير ذلك من شتى أغراض النثر

—١٣٨—

في العصر الجاهلي : كالتبشير بلبي جديد ، أو النهي عن الرذائل والآثام .

- ٣ -

أما ألفاظ النثر الجاهلي فيبدو عليها السذ والبداوة ، فأحياناً سهلة رقيقة . وأحياناً وحشية وغريبة ، ولم يكونوا يتأقنون في اختيار اللفظ ذي النغمة المشابهة أو الجرس المتألف ، ويندر استعمالهم للألفاظ الأعجمية في نثرهم إلا قليلاً منهم من اتصلوا بالفرس وسواها من الأمم القديمة .

وأسلوب النثر الجاهلي يمتاز : بالخلو من الالحن والإيجاز ، وقلة المترادف ، وإيثار الكتابة القريبة على التصريح ، وبقصر الجمل غالباً ، وخاصة في الحكم والأمثال وسجع السكبان ، كما يمتاز بعدم التكليف في الصياغة والأسلوب ، وإهمال الربط بين الجمل وعدم قصد المحسنات البديعية أو تعمدتها ، وكلامهم يخلو منها إلا نادراً وعن غير عمد أو قصد . وفي أسلوبهم العجالة والقوة وشدة الأسر ، والوضوح . والقرب إلى الذوق الأدبي المطبوع .

أمثلة للنثر الماثور في العصر الجاهلي

- ١ -

من النثر الفني في العصر الجاهلي هذه القطعة التي رواها القسالي عن ابن السكبي عن أبيه قال (١) :

كان قيل من أقيال حمير منع الولد دهرأ ، ثم ولدت له بنت ، فبنى لها قصرأ منيفأ بعيدأ من الناس ، ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدينها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فلشأت أحسن منشا وآتمه في عقلها وكلمها ، فلبسا مات أبوها ملكها أهل غلافها (٢) . فاصطنعت النسوة اللواتي ربيها وأحسنن إليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمرأ دونهن . فقلن لها يوما : يا بنت الكرام لو تزوجت لثم لك الملك ، فقالت : وما الزوج ؟ فقالت لإحداهن : الزوج عز في الشدائد ، وفي الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، وإن مرضت لطف . قالت : نعم الشيء هذا . فقالت الثانية : الزوج شعاري حين أصرد (٣) ؛ ومتكئ حين أرقد ، وأنسى حين أفرد ، فقالت : إن هذا من كمال طيب العيش - إلى آخر هذه القطعة الطويلة الجميلة الساحرة .

- ٢ -

وعن أبي عبيدة قال (٤) :

كان قيس بن رفاعه يقد سنة إلى النعمان اللخمي بالعراق وسنة إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني بالشام ، فقال له يوما وهو عنده : يا ابن رفاعه ، بلغني أنك تفضل النعمان على ، قال : وكيف أفضله عليك أيبت اللعن ؟ فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأملك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من قومه ، ولشالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نداه ؛ ولقليلك أكثر

(١) ١:٨٠ الأماي (٢) الخلاف : الكورة (٣) أي أبرد (٤) ١:٢٥٧ الأماي

— ١٤٠ —

من كثيره ، ولكرسيك أرفع من سريريه ، ولجدولك أحمر من بحوره ،
وليومك أفضل من شهوره . ولزندك أوري من زنده ، ولجندك أعز من
جنده ، وإنك لمن غسان أرباب الملوك ، وإنه لمن لحم الكثيرى النوك (١) ؛
فكيف أفضله عليك ؟ .

— ٣ —

وعن العباس بن هشام عن أبيه قال (٢) :

كان قس بن ساعدة يفد على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يوما :
ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال :
وقوف المرء عند عليه ، قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ما
وجبه ، قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحقوق .

— ٤ —

ومن المثل كذلك ما قالته وفود العرب في تعزية سلامة ذى فاش
بابنه (٣) ومنها :

قال الملسب : أيها الملك ، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع
لتشتت ، وتحمل لتقر ، وتزرع الأحزان في القلوب بما تفجأ به من استرداد
الموهوب . وقد تناهت إليك أنباء من رزى فصبر ، وأصيب فاعتقر الخ .

— ٥ —

واجتمع (٤) عامر بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي (٥)
عند ملك من حمير فقال : تساءلا حتى أسمع ما تقولان ، فقال عامر لحممة :

(١) أى الحق (٣) ٣٧:٢ الأماي (٣) ٩٩:٢ الأماي

(٤) ٢٧٦:٢ الأماي

(٥) وكان ابنه حمرو أحد من تنحاهم إليه العرب (٣) ١٤٣:٢ الأماي

- ١٤١ -

من أجدر الناس بالصليعة ؟ قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا منع عذر ،
وإذا موطن صبر ، وإذا قدم اليهود ذكر ، قال : من أكرم الناس عشرة ؟
قال : من إن قرب منح ، وإن بعد مرج ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح
قال : من أحكم الناس ؟ قال : من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ
فازدجر الخ .

- ٦ -

وكان هوذة بن علي الحنفي يمجير لعليمة كسرى في كل عام (واللعليمة غير
تحمّل الطيب والبر) فوفد على كسرى ، فسأله عن بليته ، فسمى له عددا . فقال :
أيهم أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يرجع . والمريض
حتى يفيق ، فقال له : ما غذاؤك في بلدك ؟ قال الخبز . فقال كسرى لجلسائه :
هذا عقل الخبز ، فيفضله على عقول أهل البوادي الذين غذاؤهم اللبن والتمر (١) .

- ٧ -

ويروى (٢) أنه لما بلغ الحارث (٣) بن عمرو ملك كندة جمال ابنة عوف
ابن عجل الشيباني ، وكاملها وقوة عقلها ، دعا امرأة من بنى كندة يقال لها عصام
ذات عقل ولسان وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم
ابنة عوف .

فحضت حتى انتهت إلى أمها ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت إلى ابنتها ،
وقالت : أي بليته ؛ هذه خالتك أتتك لتنظر إليك ، فلا تستري عنها شيئا
أرادت النظر إليه من وجهه وخلق ، وناطقها إن استنطقتك .

(١) ص ٩٧ مختار المقد الفريد ١٩١٠

(٢) مجمع الأمثال ص ١٩٢ ج ٢ ، المقد الفريد ص ٢٢٣ ج ٣ ، ٣٢٧ مختارات

المقد (٣) من أشرف العرب في الجاهلية ، كانت مطاعاً في قومه ، قوياً في
صبيته ، وكانت تضرب له قبة في عكاظ ، توفي نحو ٤٤٥ ق . هـ

فدخلت عصام إليها ، فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط بهجة وحسناً
وجالاً ؛ فإذا هي أكمل الناس عقلاً ، وأفصحهم لساناً ، فخرجت من عندها
وهي تقول : ترك الخداع من كشف القناع .

ثم أقبلت إلى الحارث ، فقال لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : صرح المنخفض
عن الزبد (١) . قال : أخبريني . قالت : أخبرك صدقاً وحقاً :

رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذ ناب الخيل المصفورة ،
إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلالها الوايل (٢) ،
وحاجبين كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بحمم (٣) ، قد تقوسا على عين الظبية
العبرة (٤) ، التي لم يرعها قانص ، ولم يذعرها قسورة (٥) ، بينهما أنف
كحد السيف المصفول ، لم يخلس (٦) به قصر ، ولم يمض به طول ، حفت به
وجنتان كالأرجوان (٧) في بياض محض كالجمان (٨) ، شق فيه فم كالخاتم ،
لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ، ذوات أشر (٩) ، وأسنان تبدو كالدرر ، يتقلب
فيه لسان فهو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر ، وجواب حاضر (١٠) . . .
إلى أن قالت :

فأما ما سوى ذلك فتركت أن أصفه ، غير أنه أحسن ما وصفه وأصف بنظم
أو نثر ؛ فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها ، فزوجه إياها .

(١) غص اللين : أخذ زبده ، والتصريح : التبيين . وهو مثل يضرب للامر
إذا انكشف وتبين .

(٢) الوايل : المطر الشديد (٣) الحمم : الفحم .

(٤) العبرة : الرقيقة البشرة الناصعة البياض (٥) القسورة : الرماة من

الصيادين (٦) خنس : تأخر ، والخنس تأخر الأتق عن الوجه مع ارتفاع قليل في
الأنفة (٧) الأرجوان : صبيغ أحمر (٨) الجمال : اللؤلؤ (٩) أشر الأسنان :
التحيز الذي فيها .

(١٠) انظر بقية الوصف في مراجع القصة .

فلما حملت إلى زوجها ؛ قالت لها أمها - أمانة بنت الحارث :

أى بنية ؛ إن الوصية لو تركت لفضل أدب . تركت لذلك منك ، ولكنها
تذكرة للغافل ومعوذة للعاقل ؛ ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبيها ،
وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء خلقن للرجال ،
ولهن خلق الرجال .

أى بنية ؛ إنك فارقت الجوالذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه
درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكك عليك رقيباً
ومليكاً ، فسكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكاً (١) .

يابنية ؛ احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرأ : الصعوبة
بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ؛ والتعهد لموقع عينه ، والتفقد
لموضع أنفه ؛ فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح ،
والسكرحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ،
والحدو عنه عند منامه ؛ فإن حرارة الجوع ملهية ، وتغيبص النوم مغضبة ،
والاحتفاظ ببيتته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ؛ فإن الاحتفاظ
بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تنفى
له سرأ ، ولا تعصى له أمراً ؛ فإنك إن أفضيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت
أمره أو غرت صدره ؛ ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان ترحاً ، والاكتساب عنده
إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ؛ وكونى
أشد ما تكونين له إعظماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له
موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة .

واعلمى أنك لا تصلين إلى ماتحين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه
على هواك فيما أحببت وكرهت ، والله بخير لك .

وذكروا أن هند بنت عتبة قالت لأبيها : لا تزوجني من أحد حتى
تعرض علي أمره وتبين لي خصاله ، فخطبها أبو سفيان وسهيل بن عمرو فدخل
عليها أبوها يقول :

أناك سهيل وابن حرب وفيهما رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يواسي بفضله وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مرزأ وما منهما إلا أغر سميدع
فدونك فاختاري فأنت بصيرة ولا تخدعي إن المخادع يخدع

قالت : يا أبت والله ما أصنع بهذا شيئاً ، ولكن فسر لي أمرهما ، وبين
لي خصالهما ، حتى أختار أشدهما موافقة لي ، فبدأ بذكر سهيل ، فقال : في
ثروة وسعة من العيش إن تابعته تابعك ، وإن مات عنه حمل إليك ، تحكمين
عليه في أهله وماله . وأما الآخر : فوسع عليه ، منطور إليه في الحسب
الحسيب ، والرأى الأريب . مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ،
كبير الطهرة . فقالت : يا أبت الأول سيد مضياع للحره فاعست أن تلين
بعد إبانها ، وتضيع تحت جناحه ، إذا تابعها بعلمها فأشرفت ، وخافها أهلها
فأمنت ؛ فساء عند ذلك حالها ، وقبح دلالها ، فإن جاءت بولد أحقت ، وإن
أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ، ولا تسمه علي بعد . وأما
الآخر فبعل الفتاة الخريفة ، الحره العقيمة ، وإنى لأخلاق مثل هذا موافقة :
فزوجنيه ؛ فزوجها من أبي سفيان (١) .

أقسام النثر الجاهلي

١- الحكم والأمثال ، ونماذج لهما :

١- من حكماء العرب أكرم بن صيفي التميمي ، ومن حكمه :
رب عجلة تهب ريثا . رضا جميع الناس غاية لا تدرك آفة الرأي الهوى .
من يزر غبا يزدد حبا . من سأل فوق قدره استحق الحرمان ، لم يذهب من
مالك ما وعظك ويل للشجي من الخلى . مقتل الرجل بين فكيه . قبل الرماء
تملا الكنان (١) .

٢- ومن حكمائهم : ذو الاصبع العدواني ، وعامر بن الطرب وقس بن
ساعة ، وحاجب بن زرارة ، وهاشم بن عبد مناف ، وعبد المطلب بن هاشم
وهند بنت الحنيس . وسواهم ، ولا داعي لذكر أمثلة لحكماتهم . ومن أقدم
حكمائهم لقمان المشهور (٢) ومن حكمه : رب أخ لك لم تلده أمك . الصمت
حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الـكى .

وكان عمرو بن حمزة الدوسي أحد من تتحاكم العرب (٣) .

٣- ومن حكمهم : العتاب قبل العقاب . كظم اللسان أنكى من كظم
السنان . أول الخزم المشورة . أنجز حر ما وعد . أترك الشر يتركك . رب
ملوم لا ذنب له . من مأمته يؤتى الخذر .

(١) راجع ص ٢١٦ معراج البيان . وراجع أمثال أكرم بن صيفي ويزورهم

في العقد ص ٦٢ ج ٢

(٢) يتنازعه العرب والحبشة والمصريون واليهود وراجع الحديث عنه في
الجزء الثاني من الشريشي ، وكتاب الذكر الحكيم في تفسير سورة لقمان ، ص ٧٨
و ٧٩ : ١ فجر الإسلام (٣) ٢ : ١٤٣ الأمل

(٧٠)

— ١٤٩ —

- ٤ - ومن أمثالهم :
- إن العوان لا تعلم الخمرة (١)
- إن البلاء موكل بالمنطق (٢)
- إن أخاك من أساك .
- سبق السيف العذل (٣)
- عينك عبرى والفؤاد فى دد . والد : اللهو (٤) .
- عند جبهة الخبز اليقين .
- ما يوم حليلة بسر (٥)
- أحشفاً وسوء كيلة - ويضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين .
- نفس عصام سودت عصاما (٦) .
- الصيف ضيعت اللبن .
- كالستجير من الرمضاء بالنار .
- رجع بخفى حنين .
- اليوم خمر وغدا أمر (٧)
- إلى غير ذلك (٨) .

٥ - وقد يتمثل بالأمثال على لسان طائر أو حيوان أو نبات أو جماد

- (١) العوان : النصف التى بلغت مبلغ النساء ، والخمرة : لبس الخمار . يضرب العالم بالامر المجرب له .
- (٢) ينسب لأن بكر قاله حين أمر الرسول أن يعرض نفسه على القبائل ويضرب لمن يتورط بقوله فيما يؤذيه .
- (٣) يضرب فى الخطأ بلام فاعله بعد وقوعه .
- (٤) يضرب لمن يظهر خلاف ما يبطن ،
- (٥) حليلة بنت ملك غسان . يضرب للامر المشهور الذى لا يكاد يحمل .
- (٦) يضرب فى سؤدد الرجل بنفسه
- (٧) يضرب فى تقلب الايام
- (٨) راجع ٢٢٤ وما بعدها معراج البيان ، وراجع كتاب الامثال للسيدانى

تسليية وفكاهة أو خوفا وحذارا من استبعاد مستبد أو استطرافا وروعة
أو وضعا للحكمة فى موضع الأمر المشهور المسلم به من كل شىء . ويمثل ذلك
كليلة ودمنة وفاكهة الخلفاء وسواهما .

ومن ذلك :

فى بيته يؤتى الحسك (١) .

كيف أعادوك وهذا أرفأسك (٣)

إلى غير ذلك . . .

٦ - وفى النثر الجاهلى ألوان من القصص تتمثل فى سير أيام العرب ، وفى
القصص المروية عن الفرس ، وفى أحاديث الهوى والشباب (٣) .

ماهى الحكمة :

والحكمة قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة
بالحياة ويتضمن حكما مسلما فى أمر بخير أو نهى عن شر . وقد كثرت الحكم
والحكمة فى الجاهلية (٤) وكان فى كل قبيلة حكماء تفرع اليه فى الشدائد
والمعضلات والمناورات والخصومات .

والحسك من البلاغة بمكان كبير لإيجازها ووضوحها وفصاحتها ودقة
معناها وجلال هدفها .

(١) قالوا : إن الأرنب النقطة ثمرة فاختلسها الثعلب وأكلها فانطلقا يتخاصمان
إلى الضب فقالت الأرنب يا أبا الحسل . قال : سميعا دعوت . قالت : أتيتك
لنختصم إليك . قال : عادلا حكمتما . قالت : فأخرج إلينا ، قال : فى بيته يؤتى
الحسك . قالت : إني وجدت ثمرة . قال : حلوة فكلها . قالت فاختلسها الثعلب
قال : لنفسه بغير الخير . قالت . فلطمته . قال : بحقك أخذت . قالت : فلطمنى
قال : حر اتصر . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيت . فذهبت أقواله كلها أمثالا
(٢) يضرب لمن لا يبنى بالعهد . وهو مقول على لسان حية .

(٣) راجع ٨٢ - ٨٥ : ١ فجر الإسلام

(٤) وكانت هند بنت الحنن من حكميات العرب (راجع حديثها مع أبيها

فى ص ١٠٧ ذيل الامالى)

وهي تسكسب الكلام سحرا وحلاوة ، وتجعله مقبولا في الذوق ، قريبا إلى القلب ، مسلما به من العقل والشعور والوجدان .
ولإذا اشتهرت الحكمة صارت مثلا .

ما هو المثل ؟ (١)

المثل مأخوذ من قولك هذا مثل الشيء ، ومثله أى شبهه ، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلا ، وفي العبرية كلمة مثل بمعنى الحكمة السائرة والحكاية القصيرة ذات المغزى والأساطير .

والمثل يعرف بأنه قول سائر شبه مضر به بمورده ، أو قل شبه فيه حال المقول فيه ثانيا بحال المقول فيه أولا ، وهذا هو رأى المبرد . وقال المرزوقي : هو جملة من القول تنسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنتقل عما وردت منه إلى كل ما يصنع قصده منها من غير تفسير يلحقها في لفظها وقد جمع هذا التعريف بين المثل والحكمة .

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة معناه وإصابة الغرض المنشود منه وصدق تمثيله للحياة العامة وأفكار الشعب على وجه الخصوص ، وهو يكسب الكلام سحرا وروعة وجمالا وبلاغة . وتقال الأمثال الفرضية للحذر من استبداد المستبدين وطغيانهم ، وهي وسيلة للنقد والسخرية حقا .

والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير ، وهي مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية .

والأمثال يصعب عليك تمييز الجاهل منها من الأسلامي ، لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين ولكن ما يشير إليه المثل من حادث أو قصة

(١) جمع العسكري والميسداني الأمثال العربية في كتابيهما : جمهرة الأمثال العسكري ، وجمع الأمثال للميداني ، وراجع ٧٤ - ٨٢ : ١ لجزر الإسلام

أو خبر مما يتصل بالجاهلية قد يساعد على معرفة الجاهلي منها وتمييزه من الإسلامى .

والأمثال إما حقيقية أو فرضية ، فالحقيقية لها أصل وقائلها غالبا معروف . والفرضية ما كانت من تخيل أديب ووضعها على لسان حيوان أو جماد أو ماشا كل ذلك .

والأمثال إما شعر وإما نثر ، ومثالها من الشعر :

تمتع من شميم عرار نجيد فما بعد العشية من عرار (١)
أن ترد الماء بماء أوفق لا ذنب لي قد قلت للقوم استقوا (٢)
لا تقطعن ذنب الأنعمى وترسلها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا (٣)
كناسطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل (٤)
وكذلك الحكم : إما نثر أو شعر . وقد سبقتم أمثلة لها والأمثال من النثر
أما الحكمة الشعرية فنمثلة :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواء بخزان
ولست بمستبق أخا لا نعلمه على شعث أى الرجال المذهب ؟
إذا المرء لم يندفس من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
ومن لم يزد عن عرضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

-
- (١) للصمة بن عبد الله القشيري . ويضرب في التمتع بالزائل . والعرار :
نبت طيب الرائحة وهو الزرجس البحرى .
(٢) يضرب لمن لا يقبل الموعظة .
(٣) هو لأن أذينة اللخمى يحرض الأسود بن المنذر على قتل بعض أسارى
غسان يضرب في التحريض على استئصال شأفة الشر
(٤) يضرب لمن يحاول مالا يستطيع فيتعيب نفسه دون فائدة

ب - الوصايا والنصائح ، ونماذج لهما :

١ - ذو الأصبع العدواني حكيم شاعر وأحد المعمرين في الجاهلية . قال
لما احتضر يوصي ابنه أسيدا :

يا بني إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، ولإني موصيك
بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغت ، ألن جانبك لقومك محبوبك ، وتواضع
لهم يرفعوك ، وأبسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك
وأكرم صغارهم ، كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك
صغارهم ، واسمع بمالك ، وأعز جارك ، وأعز من استعان بك ، وأكرم
ضيفك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك .

٢ - ونصح أوس بن حارثة ابنه مالك حين حضره الموت فقال (١) :
يا مالك المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن
القبر خير من الفقر ، ومن كرم الكريم ، الدافع عن الحرم ، ومن قل ذل ،
وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة الخ .

٣ - وأوصت أعرابية ولدها فقالت :

أى بنى إياك والنيمة ، فانها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك
والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً . وخلق الأيثار الغرض على كثرة السهام
وقلما اعترضت السهام غرضاً إلا كلبته حتى يهوى ما اشتد من قوته ، وإياك
والجود بدينك والبخل بمالك ، وإذا هزرت فاهزرك بما يلدن لهوتك ، ولا تهز
لئما فان الصخرة لا ينفجر ماؤها .

٤ - وأقرأ وصية زهير بن جناب السكبي لبنيه ، وإلى يقول منها :

يا بني قد كبرت سنى ، وبلغت حرساً (٢) من دهرى ، فأحكمتني التجارب

(١) ١٠٢ : ١ الأما .

(٢) أى أمراً طويلاً منه .

والأمور تجربة واختبارا ، فاحفظوا عني ما أقول وعوه ، إياكم والخور عند المصائب ، والتواكل عند التوائب ، فان ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب الخ .

٥ - وأوصى النعمان بن ثواب العبدى ابنا له فقال :

يا بني إن الصارم يلبو ، والجواد يكبو ، والأثري عفو ، فإذا شهدت حربا فرأيت نارها تسعر ، وبطلها يخطر ، وبحرها يزخر ، وضعيفها ينصر ، وجبانها يحسر ، فأقلل المسكت والانتظار ، فإن الفرار غير عار ، إذا لم تكن طالب ثار .

٦ - واقرا وصية امرأة عوف بن عجل الشيباني لابنتها أم إياس ، وكان عمرو بن حجر جد امرئ القيس تزوجها ، ثم خرج بها من نادى قومها ، فأوصتها أمها قالت :

أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفه ، وقرين لم تألفيه ، فاحملى عني عشر خصال تسكن لك ذخرا :

اصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، وتعهدى موقع عينه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ثم اعرفى وقت طعامه ، واهدئى عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مبغضة ، ثم اتقى مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحا ، والا ككتاب عنده إن كان إفرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد الناس له إعظاما ، يكن أشدهم لك إكراما ، واعلمى أنك لاتصلين إلى ماتحين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت . والله يخبرك .

٧ - وصية لأكثم بن صيفى :

تباروا فإن البر يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكليه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقاً ، الصدق منجاة ، لا ينفع التوفى مما هو

واقع ، في طلب المعالي يكون العنا ، الاقتصاد في السعى أبقى للجمام ، أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا أقبل ، وإذا أدبر عرفه السكيس والأخق ، البطر عند الرخاء حمق والعجز عند البلاء أمن ، لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير ، لا تجيبوا فيما لا تسألون عنه ، ولا تضحكوا بما لا يضحك منه ، حيلة من لا حيلة له الصبر ، إن تعيش تر ما لم تره ، المكثار كحاطب ليل من أكثر أسقط ، لا تجعلوا سراً إلى أمة .

إلى ماسوى ذلك من بليغ وصاياهم ، وفصيح نصائحهم الماثورة .

ماهى الوصايا :

والوصايا جمع وصية ، والوصية ما توجهه إلى إنسان أثير لديك من ثمرة تجربة وحكمة وإرشاد وتوجيه ، وكذلك النصيحة ، فعنهما متقاربان أو متحدان .

والوصية لون من ألوان الخطابة قاصرة على الأهل والأقارب والأصدقاء ، والفرق بينهما أن الوصية تكون من الرجل لقومه أو أبنائه ، ومن الأم لابنتها ، والخطابة تكون في المشاهد والمجامع والحروب والمعارك وفي المفارقة والمحاورة والمنافرة وفي الوفادة على ملك أو أمير وفي المواسم والاجتماعات العامة .

والوصايا كثيرة في النثر الجاهلي ، وتمتاز بجمالها وتناسب جملها وأساليبها ورقتها وما يشيع فيها من حكمة وصدق تعبير ونفاذ فكر وثقوب نظر .

جـ - الخطابة في الجاهلية ونماذج لها :

١ - خطب هانئ بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذى قار وهو يحرضهم ؛ قال :

يا معشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الخذر لا ينجي من

القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استبداره . الطعن في نعر النحور أكرم منه في الاعجاز والظهور : يا آل بكر قاتلوا فما للنيا من بد (١) .

٢ - خطبة المأمون الحارثي في نادى قومه :

قعد المأمون الحارثي في نادى قومه . فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم فكر طويلا ، ثم قال :

أدعوني أسماعكم ، وأصغوا إلى قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد . طمع (٢) بالآهواء الأشر (٣) ، وران (٤) على القلوب الكدر ، وطعنطخ (٥) الجهل النظر ، إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسما مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعزب ، وشباب مخضض (٦) ويفن (٧) قد غبر ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحجي البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارئ المصور (٨) .

٣ - خطباء العرب يعزون قبلا من أقيال حمير في ابنه :

نشأ لسلامة ذى فائش ابن كأكمل أبناء المقاول (٩) ، وكان به مسرورا يرشحه لموضعه ، فركب ذات يوم فرسا صعبا ، فسكب به فوقصه (١٠) ، فخرج عليه أبوه جزعا شديدا ، وامتنع عن الطعام ، واحتجب عن الناس ، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه ، فخرج إلى الناس ، فقام خطيباؤهم يؤسونه (١١) . فقام الملبب بن عوف الجعفي ، فقال :

(١) ١٦٩ : ١ الأمالى	(٢) ارتفع وعلا	(٣) البطر
(٤) غلب	(٥) أظلم	
(٦) أى مات حدثا صغيرا	(٧) الشيخ الكبير	
(٨) راجع ٢٧٣ : ١ الأمالى . والمأمون بالنون فى الأمالى ، وبالراء (المأمور)	(٩) من هم دون الملوك العظام .	
(١٠) كسره	(١١) يعزونه	

أيها الملك ، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطي لتأخذ ، وتجمع لتشتت ،
وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان في القلوب ، بما تفجأ به من استرداد الموهوب ،
وكل مصيبة تخطأتك (١) جلل (٢) ، مالم تدن الأجل ، وتقطع الأمل ؛
وإن حادثاً ألم بك ، فاستبد (٣) بأفلك وصفح عن أ كثرك لمن أجل النعم
عليك . وقد تناهت إليك أنباء من رزى فصر ، وأصيب فاغتفر . فاستشعر
اليأس عما فات إذ كان ارتجاعه بمنعاً ، ومرامه مستصعباً . فلهى ما ضربت
الاسمى (٤) ، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء (٥) .

٤ - خطبة قس بن ساعدة الإيادي (٦) في عكاظ :

قدم وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيكم يعرف قس
ابن ساعدة الإيادي قالوا : كنا نعرفه ، قال فافعل ؟ قالوا : هلك ، قال : ما أنساه
بنسوق عكاظ في الشهر الحرام على جبل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول :
« اسمعوا ، وعوا ، من عاش مات ، ومن مات مات ، وكل ما هو آت آت ، إن
في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبيراً ، سحائب تمور ، ونجوم تغور . في
فلك يدور ، ويقسم قس قسماً إن الله ديننا هو أَرْضِي من دينكم هذا ، ثم قال :
مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاهوا أم تركوا
فناموا ؟ أيكم يروى من شعره ، فأنشأ بعضهم :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قسوى نحوها تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقيين غابر

(١) أخطأتك (٢) صغير (٣) استبد به : أى جعله نصيبه
(٤) جمع أسوة . وهى القدوة (٥) ٩٩ : ٢ الأمالى
(٦) تجدها في البيان والتبيين ٢٠٣ : ١ ، وفي العقد ص ٣٨٥ ج ٢

أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائرا (١)

٥ - وراجع ما قبل من خطب في :

أ - وفود العرب على كسرى (٢) .

ب - وفود أبي سفيان على كسرى (٣) .

ج - قريش على سيف بن ذى يزن (٤) .

د - العرب على النعمان (٥) .

٦ - ومن خطبة مرثد الخير (٦) - وكان قبلا من أقبال اليمن - في سبيع ابن الحارث وميثم بن مثوب بن ذى رعين . حين تنازعا الشرف وتخاصما ، وخيف أن يقع بين حبيهما شر فيفتان جدماهما (٧) :

« إن التخبط (٨) ، وامتطاء الهجاج (٩) ، واستحقاب (١٠) اللجاج ، سيففكا على شفا هوة ، في توردها بوار (١١) الأصيل (١٢) ، وانقطاع الوسيلة ، فتلافيها أمركا قبل انتسكات العهد ، وانحلال العقد ، وتشقت الألفة ، وتباين السهمة (١٣) ، وأنتما في فسحة رافهة (١٤) وقدم واطدة (١٥) ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ، بمن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور (١٦) أمورهم .

(١) ٢٦٩ و ٢٧٠ مختار العقد الفريد ط ١٩١٠

(٢) ١٦٦ : ١ العقد الفريد ط ١٩٢٨ (٣) ١٧٤ : ١ المرجع

(٤) ١٧٥ : ١ المرجع (٥) ٢٥٦ - ١ المرجع (٦) راجع ٩٢ : ١ الأمالى

(٧) الجذم الأصل (٨) ركوب الرجل رأسه في الشر خاصة

(٩) ركب الرجل هجاجة إذا لجأ أى ركب رأسه

(١٠) استفعال من الحقيبة وهى ما يجعل الرجل فيه متاعه . وهذا مثل يريد أنه

احتزم باللجاج أو جعله فى وعائه (١١) هلاك (١٢) الأصيل والأصل واحد

(١٣) القراية (١٤) ناعمة (١٥) ثابتة (١٦) الصيور : الأمر الذى يرجع إليه

٧- وخطب أبو طالب حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة ، فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ؛ وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا . وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قل ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى . »

٨- خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام زوار بيت الله الحرام :

رووا أن هاشم بن عبد مناف كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذى الحجة ، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشا ، فيقول : « يا معشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما . »

« يا معشر قريش ، أنتم جيران بيت الله . أكرمكم بولايته ، وخصكم بحواره دون بنى اسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه ، وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعنا غبرا من كل بلد . فو رب هذه البنية : لو كان لى مال يحمل ذلك لكفيتكموه ، ألا وإني أخرج من طيب مالى وحلاله ، مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعه ؛ فن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبا ، ولم يؤخذ ظلما ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يقتصب . »

٩- خطبة هاشم بن عبد مناف فى قريش وخزاعة :

تنافرت قريش وخزاعة إلى هاشم بن عبد مناف ؛ فخطبهم بما أذعن له

الفرقان بالطاعة ، فقال في خطبته :

« أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية اسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصي بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل في كل حلف ، يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا مادعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم .

يا بني قصي ، أنتم كغصني شجرة ، أيهما كسر أو حش صاحبه ، والسيوف لا يوصان إلا بعمده ، وراعي العشيرة يصبه سهمه ، ومن أحكك اللجاج أخرجه إلى البغي .

أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمروءة كنز ، والجلود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غير ، والمرء منسوب إلى فعله وما أخذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديتكم ، وحاموا الخليط يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نهضة الجاهل أهون من جريرته ، ورأس العشيرة يعمل أنقالها ، ومقام الخليم عظة لمن انتفع به .

فقلت قرينش : رضينا بك أبا نضلة أو هي كنيته .

١٠ - وراجع خطبة البرجسي أمام حاتم الطائي في وفادته عليه في دماء حملها (١) .

ما هي الخطابة ؟ : (٢)

الخطابة فن من فنون النثر ، وهي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على

(١) ص ٢١ ذيل الأمل .

(٢) راجع : الخطابة لأبي زهرة - جمهرة الخطابة لصفوت - ٢٣٥ و ١٩٩ =

الافتناع والاستمالة . أو هي كلام بليغ يلقي في جمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لهم في دنياهم وآخرتهم .

والخطابة قديمة نشأت مع الإنسان ، وتروى للأمم القديمة نخطب كثيرة كقدماء المصريين واليونان والرومان .

والخطابة ضرورية للأمة في سلمها وحربها ، وهي أداة الدعوة إلى الرأي والعقيدة في شتى نواحي الحياة والمجتمع ، وهي وسيلة الدعاة والمصلحين ، والمهذبين والمرشدين ، وعماد القادة والزعماء ، وأداة الأحزاب السياسية ، والجمعيات الأدبية والاجتماعية ، وعليها الاعتماد في كثير من شئون الحياة ، في السياسة وفي التربية والتعليم ، والوعظ والإرشاد ، وفي محافل الأنس ، ومآتم الحزن .

والخطابة تقوى عند ما تكون الأمة متمتعة بقسط من الحرية ، شاعرة بما هي فيه ، طامحة إلى آمال واسعة في الحياة ، وحينما تتصارع الخصومات ، وتختلف الأفكار والمبادئ والمذاهب .

والخطابة إما سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وفي العصر الحديث نشأت الخطابة القضائية والبرلمانية .

الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي :

ويرى للعرب في جاهليتهم خطب كثيرة ، ونبغ فيهم خطباء مشهورون وكانت الخطابة لسان الأشراف والرؤساء والناهين من القبائل ، يهضونها على الشعر الذي غرض من قدره تكسب الشعراء به (١) ، ويعبرون بها عما

و ١٩ و ٢١ و ٢٦ و ٢٧ و ٣ و ٦ و ١٥ و ٦٦ و ٥٢ ج ٣ البيان والتبيين ، والعقد
 الفريد - مواسم الأدب - بلاغات النساء لابن طيفور - بلوغ الأرب
 (١) . اجمع ١٧٠ ج ١ و ٢٥٩ ج ٣ من البيان والتبيين .

ليجيش في صدورهم من أفكار وآراء ، ويصرفون بها ملكة البلاغة المتأصلة في أعماق نفوسهم وطوايا قلوبهم ، ويصورون بها جميع ما يطوف بمقولهم في شئون السياسة والاجتماع .

وكانت الخطابة عندهم منتشرة ذائعة ، لما مكانتها في النفوس ، وسحرها في الألباب ، وأثرها في الشدائد والمشكلات ، وكان لكل قبيلة شاعر . وبالجملة فان الخطابة في العصر الجاهلي كان لها حظ من القوة والنهضة والازدهار .

ويرجع ذلك إلى ابتذال الشعر بالتكسب به ، وإلى أن الخطابة كانت مهنة القادة والزعماء والحكماء ، وإلى أهميتها لاستعمالها في الدفاع عن القبيلة .

دواعي الخطابة في العصر الجاهلي :

وكانت دواعيها كثيرة متشعبة عندهم ، فأذواقهم الأدبية وتأصل ملكات البلاغة في نفوسهم وتملكهم زمام الفصاحة . ثم كثرة الحروب والخلافات بينهم ، ثم تفرقهم قبائل وأحياء مع أميتهم الغالبة عليهم والتي ألجأتهم إلى الاستعانة باللسان دون الكتابة . ثم ضعف شأن الشعر ؛ ومكانته في نفوس أشرافهم بتكسب الشعراء به . ثم سعة مجال الخطابة فيهم ؛ وكثرة أسبابها لديهم .

كل ذلك كان داعياً لذيوع الخطابة فيهم ، وانتشارها بينهم .

أغراض الخطابة في العصر الجاهلي :

وأغراض الخطابة كثيرة عند العرب في العصر الجاهلي . من ذلك :

١ - التعريض على القتال أو الدعوة للسلام والوثام . وهذا كثير عند العرب في جاهليتهم لكثرة حروبهم ، وكثرة ما كان بينهم من خلافات وخصومات .

٢- التبشير بدين جديد . ومحاربة الفوضى والذائل والوثنية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي . كما نرى في خطبة المأمون الحارثي في نادي قومه (١) . وخطبة أكرم بن صيفي التميمي في قومه (٢) ، بعد أن بعث الرسول وبعث أكرم ابنه جديشا ليأتيه بخبره ، وكما في خطبة قس في سوق عكاظ .

٣- التعزية في عظيم من عظمائهم أو رئيس من رؤسائهم :

٤- الوفاة على الملوك والرؤساء للتهنئة أو الاستنجاح أو لتأمين سبيل أو إجازة تجارة أو التعزية أو سواها . والخطب المأثورة فيها الكثير من ذلك .
٥- الدعوة إلى الصلح وفرض الخصومات وجمع الحكمة كما في خطبة مرثد الخير .

٦- الخطب في المحافل حين الإملاك (٣) أو الولادة أو ما شاكل ذلك .

٧- المفاخرة والمنافرة والمباهاة بمن العشيرة وشرف المحتد وجلال الأصل .

٨- التوصية بفعل جميل أو أدب حميد .

وهكذا تعددت أغراض الخطابة وتشعبت مناحيها .

أسلوب الخطابة :

وأما أساليبها فقد كانت مركبة من جمل قوية ضعيفة الربط يغلب عليها

(١) ٢٧٣ : ١ الأماي

(٢) ٢٤٧ : ٢ أمثال العسكري ، وجمع الأمثال للبدياني الجزء الثاني . ومنها :
إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بخبره وكتابه ، يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، وياخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه ، إن الذي يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديننا كان في أخلاق الناس حسنا . أطيعوني واتبعوا أمري
(٣) الإملاك : التزويج .

الحكمة والسجع ، وفيها جمالة الجزالة والفصاحة .

المأثور من خطب الجاهليين :

والمأثور من خطب الجاهليين قليل ، أقل من الشعر المروى عنهم . ذلك أن الخطابة يصعب حفظها لطولها وعدم تقييدها بوزن أو قافية ، وعدم تدوينها إلا في القرن الثاني الهجري ، مما أدى إلى ضياع كثير منها لطول العهد بها .

الخطابة والخطيب :

وكانوا يلزمون أنفسهم الوقوف في الخطبة إلا في خطب إملاهم^(١) وكثيرا ما كانوا يؤثرون أن يخطبوا وهم واقفون على نشو من الأرض . أو على شيء من تفسع : كظهور الراحلة وسواها . وذلك لظهور الخطيب ولشدة تأثيره .

كما كانوا يقبضون بأيديهم على عصا أو رمح أو سيف أو قوس . ويعصب الخطيب عمامته .

والخطيب يلتزم رباطة الجأش وجهارة الصوت^(٢) وبلاغة القول وقوة الحججة . قليل الحركة . قليل الإشارة . ينطق بالصدق . ويتكلم بالحق . في مظهر نبيل وزى جميل ، وهو غالباً رئيس قومه أو من أشرافهم .

هذا ويهون طه حسين من الخطابة الجاهلية : لفقدان الحضارة والتنازع السياسي والديني ، وهذا غير صحيح لكثرة الخصومات والمعرفتهم بالكتابة ، ووجود بعض ألوان من الحضارة . ولكثرة كلام الرواة عن الخطابة الجاهلية .

(١) الإملاك : التزويج

(٢) ويشيدون بالعباس بن عبد المطلب في جهارة صوته (٩٥ ج ١ البيان والتبيين) كما أشادوا بجهارة الصوت (٩٤ ج ١ المرجع) ، ويقولون خطيب اشدق أى بليغ . وهو من الشدق بفتح الدال وهو سعة في الشدق . (١١)

أشهر خطباء العرب في العصر الجاهلي

- ١ -

قس بن ساعدة الإيادي (١)

من إياد يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والحكمة والخطابة .
وبعدونه خطيب العرب كافة .

اعتنق النصرانية فأمن بها . وكان يدعو في خطبه إلى التوحيد ونبذ
الأوثان والأصنام وعبادة الله . وكان أسقف نجران ، وكان ينفذ على
قيصر ويمحاذته .

وهو أول من قال : دأما بعد ، والسابق إلى الإنكاء على العصا والسيف
حين يخطب ، وهو القائل هذه الحكمة : « البينة على من ادعى واليمين
على من أنكر » .

وكان الناس يتجأون إليه في خصوصاتهم . فيقضى بينهم بالحق والخير ،
وكان معدوداً من حكماء العرب وأعقلهم .

وكثيراً ما كان يقف في سوق عكاظ ، وقد سبقت خطبة له
سميها النبي صلى الله عليه وسلم في عكاظ قبل البعثة .

عاش قس طويلاً نحو ثمانين ومائة سنة ، ومات قبل البعثة نحو عام ٦٠٠ م ،
ويعد الجاحظ من الخطباء والشعراء (٢) ورسول الله (ص) هو الذي روى
كلامه بعكاظ (٣) .

(١) راجع ٥١ و ٥٦ و ١:٢٠٣ البيان والتبيين نشر السندوني ط ١٩٢٧ .
وراجع حديث قس بن ساعدة مع قيصر (١٧ ج ٢ الآمال) وراجع ٥١ و ٥٦ .
١:٢٠٣ البيان والتبيين و ٣٨٥ - ٢٠ المقد .

(٢) ٥١ ج ١ البيان والتبيين (٣) ٥٦ ج ١ المرجع .

وكان بليغ القول . سهل الأسلوب . متخير اللفظ . كثير الحكمة والمثل ،
مجمعه فتسير غالب على خطابه ، وكلامه على إيجازه بعيد عن اللغو والفضول
والخشو . مطبوع على الخطابة واللفظ الشريف ، والقول الرائع الحكيم .
وله شعر فيه جزالة مع رقة تعبير ودقة تصوير وقوة تأثير .

ومن حكمه : إذا نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك . من عيرك شيئاً ففيه
مثله . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

ويقول فيه الأعشى :

وأفصح من قس وأجرى من الذى بذى العين من خفان أصبح خادرا

ولما قدم وفد بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله عن رجل
كان فيهم فإزلا يقال له قس بن ساعدة الإيادى ، قالوا هلك ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته بعدك يحط على جبل له أورك ، وهو
يقول : أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات
فات وكل ما هو آت آت ، ليس موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ،
وبحر يمحور ، أما بعد : فإن في السماء خبيرا ، وإن في الأرض لعبرا ، ما أرى
الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم تركوا كما هم فناموا ؟
أقسم بالله قس قسما حقا فما حنث ولا أثم ، إن لله ديناً هو أَرْضَى من ديننا هذا
الذى نحن عليه . ثم قال أيبائنا ما أحفظها ، فقال رجل من الأنصار : أما شاهد
يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، قال فأنشدنا ، قال سمعته يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قوى نحومنا تمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقين غابر

أيقنت إني لا محالة حيث صار القوم صائر

وقال صاحب الأغاني فيه : هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك من إباد ، كان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه فقال له قيصر : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ، قال فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال فما أفضل المروءة ؟ قال قلة رغبة المرء في إخلاف وعده ، قال فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق .

وفي الشريشي عن ابن عباس : وفد الجارود بن عبد الله في وفد عبد القيس ، وكان سيداً في قومه ، معظماً في عشيرته ، فآمن وآمن قومه ، فسر النبي صلى الله عليه وسلم بهم ، ثم قال : يا جارود هل في جماعة عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟ قال كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا كنت من بينهم أقفوا أثره ، وأطلع خبره ، كان قس سبطاً من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فضيحاً ذا شيدة حسنة ، عمر طويل ، يتقفر القفار ، ولا تسكنه دار ، ولا يقره قرار ، يتحسى في تقفره بعض الطعاسم ، ويأنس بالوحوش والهوام ، يلبس المسوح ويتبع السياح ، على منهج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقر بالوحدانية ، تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأحوال ، أدرك رأس الخواريين ، فهو أول من تأله من العرب ، وأعبد من تعبد في الحقب ، وآمن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسن الالفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العارف بشرق وغرب ، وبأس ورطب ، وأجاج وعذب ، كاتني أنظر إليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالرب ، ليبعلن الكتاب أجله ، وليوفين كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من هواء ادكار وليال خلاهرن نهار
ونجوم يحثها قمر الاله سل وتشمس في كل يوم تدار
ضوءها يطمس العيون وإرعا د شديد في الخافقين مشار

وغلام وأشمت ورضيع كلهم في التراب يوما يزار
وقصور مشيدة حوت الخ ير وأخرى خوت فهن قفار
والذي قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا جارود فاست أنساء بسوق
عكاظ على جبل له أورق وهو يتسكك بكلام موقن ما أظن أحفظه ، فهل فيكم
يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظ لنا منه شيئا ؟ فوثب أبو بكر قائما
وقال : يا رسول الله أنا أحفظه وكنت حاضرا بعكاظ حين خطب فأطنب ،
ورهب ورغب ، وحذر وأنذر ، وقال في خطبته : أيها الناس ، اسمعوا وعوا ،
واذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت
آت ، مطر ونبات ، أرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ،
وجمع وشتات ، وآيات بعد آيات ، إن في السماء لحبرا ، وإن في الأرض
لعبرا ، ليل داج ، وسما ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج .
مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا
هناك فناموا ؟ أقسم قس بالله ، قسما حقا لا آثما فيه ولا حاشا ، إن لله ديننا
هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبيا قدحان حينه ، وأظلم لكم أوانه
وأدر كسكم إبانته ، فطوبى لمن آمن به فهداه ، وويل لمن خالفه وعصاه ، ثم
قال : تبا لأرباب الغفلة ، من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، يا معشر إباد
أين الآباء والأجداد ، وأين المريض والعواد ، وأين الفراعنة الشداد ، أين من
بنى وشيد وزخرف ونجد ، وغره المال والولد ، أين من بغى وطغى ، وجمع
فأوعى ، وقال أنا ربكم الأعلى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ، وأطول
منكم آجالا ، طعنهم الثرى بكسكلكه ، ومزقهم بتطاولة ، فتلك عظامهم بالية
وبيوتهم خاوية ، عمرتها الذئاب العاوية ، كلا بل هو المعبود ، ليس بوالد
ولا مولود ، ثم أنشأ يقول :
في الذاهين الأولين - الآيات المتقدمة .

فقال رسول الله (ص) رحم الله قسا إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده .

ويروى (١) عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال : حضرت مجلس المأمون ، فقلت يا أمير المؤمنين : ألا أحدثك عن الفضل بن يحيى ؟ قال : بلى ! فقلت : دخلت دار الرشيد ، وإذا الفضل بن يحيى وإسماعيل بن صبيح وعبد الملك بن صالح في بعض تلك الأروقة يتحدثون ، فلما بصرت الفضل أومأ إلى ، وقال : يا إسحاق ، انتظرناك منذ العداة ، لتساعد على ما نحن فيه من المذاكرة ! فقلت يا سيدي ، أنا السكيت (٢) إذا أجريت الجياد ، وفاز السابق والمصلي ! فقال عبد الملك : مدحت نفسك ، ولما تكذب .

ولما فرغ عبد الملك من حديثه قال الفضل : إن لقس (٣) حديثاً سمعته من الخليل بن أحمد ، فهل عند واحد منكم له ذكر ، فسكت القوم ، فقلت : يا سيدي ، ما نعرف له حديثاً إلا حديث خطبته بمكاظ ! قال : ذاك شيء قد فهمته العامة واغتبرته الخاصة . ثم أطرق ساعة ، فقلنا : إن رأيت أن تحدثنا ؟ فقال :

حدثني الخليل بن أحمد : أن قيصراً ملك الروم بعث إلى قس بن ساعدة أسقف نجران - وكان حكيماً طيباً بليغاً في منطقه - فلما دخل عليه ، ومثل بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، فأمر بالجلوس ، فجلس ورحب به ، وأدنى مجلسه ، وقال : ما زلت مشتاقاً إليك لما سمعت من مناظرتك في العطب .

فكان أول ما سأله عن الشراب ، فقال : أي الأشرية أفضل عاقبة في البدن ؟ قال : ما عفا في العين ، واشتد على اللسان ، وطابت رائحته في الأنف من شراب الكرم . قال : فما تقول في مظبوخه ؟ قال : مرعى ولا

(١) المحاسن والمساوىء طبع لبيزج ص ٣٥١

(٢) السكيت : الذي يحيى في الحلبة آخر الخيل (٣) هو قس بن مناعة خطيب العرب قاطبة ، كان يدين بالتوحيد ، ويؤمن بالبعث ، ويدعو إلى نبذ الآوثان ، في المحافل العامة ، ومواسم الأسواق وسمعه النبي قبل البعثة يخطب بمكاظ ، فعجب من حسن كلامه وأثنى عليه وعبر طويلاً ومات قبيل البعثة

كالسعدان (١) قال : فما تقول في نبيذ الزبيب ؟ قال : ميت أحبي ، وفيه بعض المتعة ، وما كاد يقوى شيء بعد الموت ! قال : فما تقول في نبيذ العسل قال : نعم شراب الشيخ للمعدة الفاسدة ! قال : فما تقول في أنبذة التمر ؟ قال أوساخ يطيب مذاقها في اللهوات ، وتسوء عاقبتها في البدن ، وتولد الأرواح في البطن لرقتها .

قال : فمن أى شيء يكون الثمل الذى يذهب الغم ويطيب النفس ؟ قال : زعموا أن العقل تصعده سورة الشراب إلى الدماغ ، فإذا صعدت السورة إلى الدماغ الذى هو أصله ، احتجب البصر بغير عمى ، والسمع بغير صمم ، واللسان بغير خرس . فلا يزال العقل كذلك محتجباً حتى تفككه الطبيعة من لسان السكر ، إما بقوة فيعجل ، وإما بضعف فيبطئ .

قال . فمن أى شيء اختار (٢) من بعد صحو السكران ؟ قال : من إعياء الطبيعة من مجاهدة السورة في افتتاح العقل وتخلصه ، حتى يردّها النوم إلى هدوء وما أشبهه . قال : الصريف أفضل أم الممزوج ؟ قال : الصريف سلطان جائر والجائر مذموم . والممزوج سلطان عادل والعاذل محمود .

قال : فصف لى الأطعمة . قال الأطعمة كثيرة مختلفة . وجملة ما أملك به الإمساك عن غاية الإكثار ، فإن ذلك من أفضل ما يلبسناه من الأدوية ، ورأس ما أمر به من الحمية . قال له : عن حملت الحكمة ؟ قال : عن عدة من الملائكة . قال : فما أفضل الحكمة ؟ قال : معرفة المرء بقدره . قال فما تقول في الحلم ؟ قال : حفظ الإنسان ماء وجهه . قال : فما تقول في المال وفضله ؟ قال : أفضل المال ما أعطى منه الحق . قال : فما أفضل العطية ؟ قال : أن تعطى قبل السؤال .

قال : فأخبرنى عما بلوت من الزمان وتصرفه ، ورأيت من أخلاق أهله ؟

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أنجح المرعى ، وهذا مثل يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله (٢) الخمار : بقية السكر .

قال : بلونا الزمان فوجدناه صاحباً يخون صاحبه . ولا يعتب من عاتبه ،
ووجدنا الإنسان صورة من صور الحيوان ؛ يتفاضلون بالعقول ، ووجدنا
الاحساب ليست بالإباء والأمهات ، ولكنها في أخلاق محمودة ، وفي ذلك
أقول :

لقد جلبت الزمان أشطره ثم مخضت (١) الصريح (٢) من حلب
فلم أر الفضل والمعالى في قول الفتى : إني من العرب
حتى رى سامياً إلى خلق يذود محمودة عن النسب
ما ينفع المرء في فكاهته من عقل جد مضى وعقل أب
ما المرء إلا ابن نفسه فيها يعرف عند التحصيل للنوب
ووجدنا أبلغ العظات النظر إلى محل الأموات وأحمد البلاغة الصمت ،
ووجدنا لأهل الحزم حذاراً شديداً ، وبذلك نجوا من المكروه ، والكرم
حسن الاصطبار ، والعز سرعة الانتصار ، والتجربة طول الاعتبار .
قال : خبرني هل نظرت في النجوم ؟ قال : ما نظرت فيها إلا فيما أردت به
الهداية ، ولم أنظر فيها أردت به السكينة ، وقد قلت في النجوم :

علم النجوم على العقول وبال وطلاب شيء لا ينال ضلال
ماذا طلابك علم شيء أغلقت من دونه الأفلاك ليس ينال
هيهات ما أحد بغامض قدره يدرى كم الأرزاق والآجال
إلا الذي فوق السماء مكانه فلوجه الإكرام والإجلال

قال : فهل نظرت في زجر (٣) الطير ؟ قال : نحن معاشر العرب مولعون
بزجر الطير . قال فما أعجب ما رأيته منه ؟ قال : شخصت أنا وصاحب لي من
العرب إلى بعض الملوك ، فألفيناه يريد غزو قوم كانوا على دين النصرانية ،
فخرج حتى إذا كان على فراسخ من مدينته أمر بضرب فساطيطه وأروقته

(١) غرض اللابن : أخذ زبده (٢) الصريح : الخالص . (٣) الزجر :
ما يحدث من بعض الناس من التشكلم بالغييب عند سنوح طائر أو حيوان .

لتتوافق إليه جنوده ، وضرب له فسطاط على شاطئ نهر ، وأمر بجباة
فضرربلى ولصاحبي ، فبينما نحن كذلك إذ أقبل طائران : أسود وأبيض ، وأما
وصاحبي نرمقهما ، حتى إذا كانا على رأسه رفرفا ثم غابا ، ثم رجعا أيضاً ،
حتى إذا كانا قريباً منه طوياه . ثم أقبلنا نحونا فوقعا ، ثم رتعا (١) ، فقال
صاحبي : ما رأيت كالיום طائرين أعجب منهما ، فأيهما أنت مختار ؟ فقلت :
الأسود . قال : الأبيض أضأعجبهما إلى ، فأتأولتهما ؟ قلت : الليل والنهار
يطويان هذا الرجل في سفره فيموت ، وتأولت اختيارك الأبيض أنك
تنصرف بيد بيضاء مخفقة من المال . فإذا هو قد غضب .

فلما جن الليل بعث إلينا الملك لاسمر عنده ، فإذا صاحبي قد أخبره بالخبر
فسألني فأخبرتة وصدقته . فغضب ، وقال : هذه حمية منك لأهل دينك ؟
فقلت : أما أنا فقد صدقتك : فأمر بحبسى ومضى لوجه ، فلم يتجاوز إلا
قليلاً حتى مات فأوصى لي بعشرين ناقة ، وقال : قاتل الله قسا ! لقد محضني
النصيحة ، فأنصرفت من سفرى ذلك بعدة من الإبل ، وأنصرف صاحبي
مخفقا من المال .

قال الملك : وما رأيت أيضاً من الزجر أعجب ؟ قلت . ما رأيت مرة
عند الملك الهام أبي قابوس ، وقد خرج عليه خارج من مضر يريد ملكه ،
وقد حشد له ، فبعث إلى بعض عماله في توجيه أربعائة فارس ، ووجهني مع
الرسول ، وأمرنا بالشد على أيديهم في جمع الخيل والرجال . وكان الرسول
شاعراً - فبينما نحن نسير إذ سمعت لنا طلباء فيها تيس (٢) يقدمها ، وكان أبو
قابوس يواعد للقاءه في يوم كذا وكذا ، فنحن نقول : إن كان الملك خرج
في يوم كذا فهو اليوم في موضع كذا ، وقد أقبلنا ، ونحن نقود جيشاً
عمرماً ، فأنشأ الرسول يقول :

ألا ليت شعري ما تقول السوانح أغاد أبو قابوس أم هو رانح

(١) الرتع : الأكل والشرب رغدا في الريف .

(٢) التيس : الذكر من الغنم والمرد والوعول .

قال : فنظرت إلى التيس عند فراغه من هذا البيت ، فوجدته قد دخل في مكبسه (١) حتى توارى فيه ، فدخلت من ذلك مالم أقدر على أن أمسك نفسي ، حتى استرجعت ، فقال لي رفیق : مالك ؟ قلت : إن صدق الزوج فصاحبك قد توى في التراب ، والتحفت عليه أطباق الأثرى ! قال : كيف ذلك ؟ قلت : وافق فراغك من البيت دخول التيس في مكبسه ، فأعرض عني ، فلما أصبحت في اليوم الذي واعدنا للقاءه لم يواف ، ولم يكن بأوشك من أن أتانا الخبز بهلاكه وعود ابنه . فأكرمه قيصراً وأحسن جائزته .

قلنا : أيد الله الوزير ! لقد بلغت ما بلغت بامتدحاق ، ولقد حزت قصبته الرهان في كل منقبة ، فتبسم وقال : عز الشريف أدبه ، وإذا رسول الرشيد وافاه فتهض نحوه ، وتصدع المجلس وانصرفنا .

فلما مضى من الليل بعضه إذا أنا بطارق قد طرقي ، وبين يديه غلمان على أعناقهم البدر ، وإذا رسول الفضل وقد حمل إلى مائة ألف درهم ، وقال : الوزير يقرأ عليك السلام . ويقول : منجرت باستماع الأحاديث ، وأوجبت على بذلك منة ، وهذا عطاء وتمح (٢) في جنب قدرك عندي ، فخذ به ولا تعتمد به .

فقلت : سبحان الله الذي خلق هذا الرجل ! وجبه على كرم بذبه من مضى ومن غير ، وإذا هو قد وجه إلى أصحابي الذين كانوا معي بمنزل الذي وجه به إلى ، فمعدت إليه وأردت أن أشكره ، فقال : والله لئن ذهبت تكشف ما ستر الله لأجنونك ! فكأنما ألقيت حجراً . واحتبسني عنده ، فطعمت وشربت ورحت وقد حملني على عدة أفراس بسروج ولجم مذهبة ؛ ووجه معي بعشرة نخوت ثياب وعشر بدر .

قال : فقال المأمون : ويحك يا إسحاق ! ثواب حديثك ضعف ما أمرك به الفضل ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، فقبضت ذلك وانصرفت !

(١) المكبس : مولى الوحش من الظباء والبقر تستكن فيه من الحر .

(٢) وتمح : قليل .

أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي التَّمِيمِي

هو حكيم العرب وقاضيا وخطيب من أشهر الخطباء ، أوفده النعمان بن المنذر إلى كسرى أنوشروان بالمدائن ، ومعه رهط من أشرف سادات العرب (١) وخطبائها ، مثل : حاجب بن زرارة التميمي (٢) . وعمرو بن الشريد السلمي (٣) ، وعامر بن الطفيل العامري (٤) ، وعلقمة بن علاثة العامري (٥) ، والحارث بن ظالم (٦) ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي (٧) ، والحارث بن عبادة البكري (٨) ، وسواهم ، وأعجب به كسرى حتى قال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكنتي . وقد أدرك بعثة الرسول وبعث ابنه حبيشاً ليأتيه بخبره ، ودعا قومه إلى الإيمان بمحمد صلوات الله عليه .

وكان أكثم عارفاً بالأنساب ، كثير الحكم وضرب الأمثال في خطبائه ، مصيب الرأي قوى الحججة ملهما بالصواب وسداد القول ، كما كان عظيم المنزلة عند بني تميم قومه وعند العرب أجمعين ، وجعله الجاحظ من الخطباء البلغاء والحكام الرؤسا (٩١٠) ، وكان في خطبه كثير الإيجاز وضرب الأمثال لا يلتزم السجع ولا يقصده ؛ عميق الفكر ، دقيق النظر ، قوى الحججة ، كثير الاقتناع . جميل الأسلوب حلوا الألفاظ .

(١) راجع ١٦٦ و ١٧٤ ج ١ العقد ١٩٢٨ ، وبشك كثير في صدق الرواية التي رواها صاحب العقد .

(٢) سيد من سادات تميم ، وخطيب من أبلغ خطباء العرب .

(٣) أبو الخنساء الشاعرة وكان شجاعاً شاعراً خطيباً .

(٤) ابن عم لبيد الشاعر ، فارس شجاع وشاعر .

(٥) خطيب بليغ اشتهر بالعقل الراجح والأخلاق الكريمة

(٦) من مرة ، شجاع شاعر خطيب (٧) فارس شاعر توفي عام ٢١ هـ

(٨) خطيب مؤثر وشاعر بليغ (٩) ١:٢٣١ من البيان والتبيين

ومن خطبه تعزيتة لعمر بن هند ملك العرب في أخيه ، قال :

أيها الملك إن أهل هذه الدار سفر ، لا يحملون عقد الترحال إلا في غيرها ،
وقد أناك ماليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ماليس براجع إليك ، وأقام
معك من سيظعن عنك ويدعك . إن في الدنيا ثلاثة أيام : فأمس عظة وشاهد
عدل ، فجعلك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة وصديق أناك
ولم تأته ، طالت غايك غيبته ، وستمسح عنك رحلته ، وغداً لاتدرى من أهله ،
وسياتيك إن وجدك . فما أحسن الشكر المنعم ، والتسليم للقادر . وقد مضت
لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها . واعلم أن أعظم من
المهنية سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله .

-- ٣ --

عمر بن معد يكرب الزبيدي (١)

١ - قحطاني يمني ، وفارس شجاع ، وخطيب مطبوع ، عاش في الجاهلية ،
وأسلم سنة تسع من الهجرة هو وقومه ، ثم ارتد بعد إسلامه بعد وفاة الرسول ،
ثم عاد من جديد إلى الإسلام عقيدة الحق والتوحيد والخير ، وأبلى في القادسية
بلايا عظيما وكان عمره فيها عشراً ومائة سنة ، وتوفي في أواخر خلافة عمر بن
الخطاب عام ٤٢١ هـ - ٦٤٣ . وفيه يقول أبو تمام :

إقدام عمرو ، في سماحة حاتم في حلم أخنف ، في ذكاء إياس

٢ - كان عمرو شجاعا فارسا وخطيباً شاعراً ؛ شعره صورة لشجاعته
وبطولته وفروسيته ؟ وحديث عن مواقفه وانتصاراته في غزواته ، وعن نفسه
واقترانها الأحوال ومغامراتها وقت الطعن والنضال ، ويعد في الطبقة الثانية
من الشعراء المخضرمين ، وخطابته تنم عن شخصيته واعتداده ببطولته ونفسه ،
فيها وضوح وقوة وتدفق ومنطق . مع إشراف بيان ، وسهولة عبارة ،

(١) راجع في ص ١٥٠ ذيل الأمل وما بعدها حديث عمرو بن معد يكرب مع امرأه

- ١٧٣ -

وقصر فقر ، وقلة سجع ، وكثرة حكمة ومثل :

٣ - قال عمرو أمام كسرى :

إنما المرء بأصغريه . قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الدار ، وملاك النجعة
الارتياذ ، وعفو الراى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير
من اعتساف الحيرة ، فاجتهد طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرنا بحملك ،
والن لنا كنفك يلمن لك قيادنا .

وروى له صاحب الحماسة عدة قصائد :

١ - منها قصيدته : (١)

ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرت
لجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروها فاستقرت
ومن شعره قصيدته :

تمناني ليلقاني أبى وددت وأيما مى ودادى
أريد حياته ويريد أتملى تذكرك من خليلك من مراد
ومن شعره :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن بجدا
كم من أخ لى صالح بواته يبدى لحدا
ما إن جزعت ولا هلمت ولا يرد بكأى رشدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا (٢)

(١) ص ٤٣ : ١ مختصر الحماسة ط ١٩٢٧ الطبعة الثالثة

(٢) ومن شعره أيضا قصيدته :

أمن ريحانة الداعى السميع يورقنى وأصحابى هجوع

- ١٧٤ -

- ٤ -

ومن خطباء العرب : حاجب بن زرارة التميمي ، وهو سيد من سادات تميم ، وفد على كسرى حين منح تميمًا من ريف العراق فاشند بهم القحط فأعجب به وببلاغته . ومنحه ما أراد وتعهد له بحسن الجوار ورهنه قومه على ذلك .

وهاني بن قبيصة الشيباني (١) ، ومرثد الحيز الحيزي ، والمأمون الحارثي ومن خطبائهم عامر بن نظرب العدواني : وهو أحد حكماء العرب المشهورين ، وخطيب بليغ وشاعر مجيد . ويقول الجاحظ فيه : وهو من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء (٢) ، وهو حكم العرب في الجاهلية (٣) .

وخطب إليه صعصعة بن معاوية ابتله فقال : يا صعصعة إنك أتيتني تشتري مني كبدي ، أبغيتك (٤) أو رددتك . النكاح خير من الأيمة (٥) . والحسيب كف الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب ، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك ، أفر من السر إلى العلانية ، أنصح ابنا وأودع ضعيفاً قويا . يامعشر عدوان أخرجت من بين أظهركم كريمتكم ، من غير رغبة عنكم ، ولكن من خط له شيء جاءه ، رب زارع لنفسه ، ما حصده غيره ، ولولا قسم الخطوط ما ترك الأول الآخر ما يعيش به .

-- ٥ --

ومن خطبائهم قبيصة بن نعيم ، وكان من رجالات بني أسد ، وخطب أمام امرئ القيس بعد مقتل أبيه قال :

(١) راجع ١٢٩ ج ٢ الأغانى ١٢٠ ج ٢ منه ، ١٣٢ ج ٣ .

(٢) ٢٣٣ ج ١ البيان (٣) ٢٠ ج ٣ البيان

(٤) أعطاه بغيته (٥) العزوبة

إنك في المحل والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منسبك ، وشرف أعراقك ، وكرم أصلك في العرب ، محتد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ، والرجوع عن الهفوة ، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل عمت رزيته نزارا واليمن ، ولم تخصص به كندة دوننا ، للشرف البارع الذي كان لحر : التاج والعمدة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ولقد يناله منه ، ولكن مضي به سبيل لا ترجع أولاه على أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا ، وأعلاها في بناء المكرمات صونا ، فقد ناله اليك بلسعة ، تذهب مع شفرات حسامك بياق قصرته ، أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها ، فهي ألوف تجاوز الحسبة ، وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل ، ففسدل الأزر ، ونعقد الخمر فوق الرايات .

فبكي امرؤ القيس وقال : قد علمت العرب أن لا كفء لحجير في دم ، وأنى إن اعتاض به ناقة أو جملا فأكتسب بذلك سبة الأبد وفوت المضد ، وأما النظرة فقد أوجبها الأجنة في بطون أمهاتها وإن أكون لعلها سببا ، وسعمر فوف طلائع كندة من بعد ، تحمل في القلوب حثفاً ، وفوق الأسنة علما :

إذا جالت الخيل في مآزق تصافح فيه المنايا النفوسا

-- ٦ --

ومن خطباء العرب : كعب بن لؤى (١) .

(١) الروض الأنف - صبح الاعشى ٢١١ ج ١ - ٢٢٦ ج ١ البيان والتبيين للجاحظ . قال الجاحظ : وكان يخطب العرب عامة ويحضر كنانة خاصة على البر

- ١٧٩ -

وأوى بن غالب (١) ، وهاشم بن عبد مناف (٢) ، وأبو طالب (٣) .
وعمر بن كلثوم (٤) ، وضمرة بن ضمرة (٥) ، وعمر بن عمار الطائي (٦) ،
ويقول الجاحظ في البيان والتبيين : ومن خطباء العرب في الجاهلية :
خويلد بن عمرو خطيب يوم الفجار (٧) . . ومن الخطباء الهلفاء والحكام
الرؤساء : ربيعة بن حذار وليد وهرم بن قطبة (٨) . . ومن القدماء في الحكمة
والخطابة والرياسة : عبيد بن شربة الجرهمي وأسقف نجران وأكيدر صاحب
دومة الجندل ، وجذيمة الأبرش (٩) .

-- ٧ --

ومن خطبائهم من نخصهم بالذكر : هاشم بن عبد مناف ، وهو سيد
قريش وإمامها ، وداعيا إلى الخير والشرف والوحدة ، وحامي البيت والدائد
عنه . خطب في قريش وخزاعة حين تنافرا إليه فقال :
يا بني قهي ، أنتم كففتني شجرة ، أيهما كسر أو حش صاحبه ، والسيف
لا يصان إلا بغمده ، وراى العشيرة يصيبه سهمه .

قلما مات أكبروا موته فلم تول كناية تؤرخ بـ : وته إلى عام الفيل (٢٢٦ ج١ البيان)
(١) الروض الآنف و ٢٢٣ ج ١ البيان والتبيين ؛
(٢) د د و ٤٥٨ ج ٢ ابن أبي الحديد و بلوغ الأرب ٢٢١ ج ١
(٣) د د و ٢١٢ ج ١ صبح الأعشى و ج ٣ من ابن أبي الحديد
(٤) ١٠٤٩ البيان والتبيين
(٥) ٢٥ ج ١ : الأغاني و ١٦٨ ج ١ البيان و ١٨٦ ج ١ الميداني و ١٦٨
و ١٢٨ و ١١٨ ج ٢ .

(٦) ١٥٩ و ٢٢٥ ج ١ البيان ، ٢٣٦ المؤلف ويقول فيه الجاحظ : كان خطيب
مندجج كلها وحمله الثمان على منادته ثم قتله (٢٢٥ ج ١ البيان)
(٧) ٢٢٦ : ١ : البيان (٨) ٢٣٣ : ١ : المرجع (٩) ٢ - ٢ : المرجع

يا بني قصي ، أنتم كفضني شجرة ، أيهما كسر أو حش صاحبه ، والسيف
لا يصان إلا بعمده ، وراى العشيرة يصيبه سهمه

أيها الناس : الحلم شرف . والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سودد
والجهل سنه ، والآيام دول ، والدهر غدير ، والمرء منسوب إلى فعله ،
وما أخذ بعمله ، فاصنعوا المعروف ، تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول ،
وتجانبوا السفهاء ، وأكرموا الجليس بعمر ناديتكم ، وحاموا عن الخليط
يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق
فإياها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد .

ولعمري إن هذه لمنحة نبوية ، وحكمة من شريف ملهم ، وسيد مطاع .

-- ٨ --

ومن خطبائهم عبد المطلب بن هاشم ، خطب يهني سيف بن ذي يزن
بظفره على الحبيشة (١) ، فقال :

إن الله أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنتك نبتا طابت
أرومته ، وعزت جرثومته (٢) ، وثبت أصله ، وبسق (٣) فرعاه ، في أكرم
موطن ، وأطيب معدن ، وأنت - أبيت اللعن - ملك العرب ، وربيعها الذي
تخصب به ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذي إليه تنقاد ، وعمودها الذي
عليه العباد ، ومعقلها الذي تلجأ إليه العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا
منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ؛ وإن يهلك من أنت
خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله ، وسنة بيته ، أشخصنا إليك
الذي أبهجنا بكشف الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد النهضة لا وفد
المرزقة (٤) .

(١) راجع أديان العرب في الجاهلية (٢) الأصل

(١٢)

(٣) علا (٤) الرزء والمصيبة

د- المحاورات - وصور لها:

١- مفاخرة طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان عند بعض
مقاول حمير (١)

قال الملك للحارث : يا حارث ألا تخبرني بالسبب الذي أخرجكم عن
قومكم حتى لحقتم بالنمر بن عثمان ؟

قال الحارث : خرج هجينان منا يرعيان غنما لهما ، فتشاولا (٢) بسيفيهما
فأصاب صاحبهم عقب صاحبتنا فمات ، فسألونا أخذ دية صاحبتنا : دية
المهجين (٣) ، وهي نصف دية الصريح (٤) ، فأبى قومي إلا دية الصريح وأبو
الإدبة المهجين ، فتناقم الأمر بين الحيين فتظاهروا علينا حسداً ، فأجمع ذو
الحجنا منا أن نلحق بأمنع بطن من الأزدي ، فلاحقنا بالنمر بن عثمان ، فوالله
مافتت أعضادنا ، فنأينا عنهم ولقد أثارنا (٥) صاحبتنا وهم راغمون .

فواب طريف من مجلسه ، فجلس بإزاء الحارث فقال : تالله ، ما سمعت
قولاً أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل ، من قول هذا . والله أيها
الملك ماقتلوا بهجينهم بذجا (٦) ، ولا رقوابه دريجا ، ولقد أخرجهم الخوف
عن أصلهم ، وأجلهم عن محلهم .

فقال الحارث : أسمع يا طريف ؟ إنى والله ما إخالك كافا غرب لسانك
ولا منها شرة نزواتك ، حتى أسطو بك سطوة تكف طماحك
وترد جمالك .

فقال طريف : مهلا يا حارث ، لا تعرض لذب (٧) سناني ، وغرب
سبابي .

-
- (١) ٧٢ ج ١ الأمالى (٢) تضاربا (٣) هو الذى أبوه عربى وأمه غير عربى
(٤) الخالص (٥) أثارنا : أخذنا بثأره (٦) الخروف
(٧) الذب : الحدة

فقال الحارث : إياي تخاطب بمثل هذا القول . فقال طريف : أما والأصنام المحجوبة ، والأنصاب المنصوبة ، لئن لم تقف عند قدرك ، لأدعن حزنك سهلاً ، وصفاك وحلاً .

فقال الحارث : أما والله لو رمت ذلك لمرغت بالحضيض (١) وأغصصت بالجريض ، وضائق عليك الرحاب ، وتقطعت بك الأسباب .

فقال طريف : دون ما ناجت بك به نفسك مقارعة أبطال ، وحياض أهوال .

فقال الملك : أيها عنكما :

٢ - وراجع حديث النسوة اللواتي أشرن على بلى الملك بالتزوج ، ووصفهن لها بحاسن الزوج (٢) وقد سبق ذكره وراجع حديث أوس بن حارثة ووصفيته لأبيه مالك (٣) ، وحديث بعض مقول حمير مع بلتيه وما دار بينهما وبينهما من الحوار ، حين كبرت سنه ، وهو حديث طريف ممتع (٤) . وما وقع بين عمرو بن براقة الهمداني وحرثيم المرادي من الأغار وما قال عمرو في ذلك (٥) ، واجتماع عامر بن الظرب وحممة بن رافع عند ملك من ملوك حمير ، وتماورهما أمامه (٦) ، وحديث ابنة الخنس مع أبيها (٧) ، وما وقع لحنان مع زوجته ماوية (٨)

٣ - وكان قس يفد على قيصر ويؤوره فقال له قيصر يوماً :

ما أفضل العقل ؟

قال : معرفة المرء بنفسه .

قال : فما أفضل العلم ؟

(١) هو القرار إذا اتصل بالجبل (٢) ٨٠ : ١ الآمال
(٣) ١٠٢ : ١ الآمال (٤) ١٥٢ : ١ الآمال (٥) ١٢٦ : ٢ الآمال
(٦) ٢٧٦ : ٢ الآمال (٧) ١٠٧ : ١ الآمال (٨) ١٥٢ : ١ الآمال

قال : وقوف المرء عند علمه

قال : فما أفضل المروءة ؟

قال : استبقاء الرجل ماء وجهه

قال : فما أفضل المال ؟

قال : ما قضى به الحقوق .

٤ - ومن أمثلة المفارقة ما وقع من بعض سادات العرب أمام كسرى وقد قال لهم : ليتكلم كل رجل منكم بما أثر قومه ، وليصدق .

فأخذ : حذيفة بن بدر والأشعث بن قيس ، وبسطام بن قيس ، وحاجب ابن زرارة التميمي ، وقيس بن عاصم ، يعدد كل منهم ما أثر قومه ومفاخر أحسابه
٥ - منافرة خالد والقعقاع التميميين :

نافر خالد القعقاع . إلى ربيعة بن حذار الأسدي فقال : هاتيا مكارمكما . فقال خالد : أعطيت من سأل ، وأطعمت من أكل ، ونصبت قدوري حين وضعت السمك ذيوها ، وطعنت يوم شوأ حظ (١) فارسا جللت نخذه بفرسه . فقال : يا قعقاع ما عندك ؟

فأخرج قوس حاجب ، وقال : هذه قوس عمى رهنها عن العرب ، وهاتان فعلا جدى قسم فيها أربعين مربعا ، وهذه زريبة (٢) زرارة لم ير ماله خائف إلا أمن ، ولم يمسك بطنب (٣) فسطاسه أسير إلا فك .

فأدى ربيعة بن حذار : ان السماحة واللاه (٤) والمرباع والشرف الأسبخ للقعقاع ، ألا إني نفرت من كان أبوه معبدا وعمه حاجبا ، وجده زرارة (٥)

٦ - ومن أمثلة المنافرات منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين . وهى أشهر المنافرات فى الجاهلية .

(١) من أيام العرب وكان لبني محارب على بنى عامر

(٢) البساط (٣) جبل طويل يشد به السرداق

(٤) جمع لهوة وهى : العطية (٥) هو القعقاع بن معبد بن زرارة التميمي

قيل لما (١) أسن أبو برا عامر بن مالك ، تنازع في الرياسة عامر بن (٢) الطفيل ، وعلقمة (٣) بن علاثة بن عوف بن الأحوص . فقال علقمة : كانت لجدى الأحوص ، وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها ، وأنا أسترجمها ، فأنا أولى بها منك ؛ فشري (٤) الشر بينهما ، وسارا إلى المتافرة ، فقال علقمة : إن شئت نافر منك ، فقال عامر : قد شئت ، والله إنى لأكرمك منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً (٥) .

فقال علقمة : والله لأناخير منك ليلاً ونهاراً ، فقال عامر : والله لأنا أنحر منك للقاح (٦) ، وخير منك في الصباح ، وأطعم منك في السنة الشياح (٧) .
فقال علقمة : أناخير منك أثراً ، وأحد منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً .

فقال عامر : ليس لبني الأحوص فضل على بني مالك في العدد ، وبصري ناقص ، وبصرك صحيح ، ولكنى أنافرك ؛ إنى أسمى منك سمّة (٨) ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة (٩) وأجمع منك جمة (١٠) . وأسرع منك رحمة ، وأبعد منك همة .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم ، وأنا رجل قضييف (١١) ، وأنت جميل ،

(١) راجع هذه القصة الادبية في كتاب الاغانى ص ٥٠ ج ١٥ ، مذهب الاغانى ص ٩٨ ج ٢ ، نهاية الارب ص ٢٧٢ ج ٣ ، بلوغ الارب ص ٢٨٦ ج ١

(٢) من بنى عامر بن صعصعة : فارس قومه ، وأحد قتاك العرب وشعرائهم ولد ونشأ بنجد ، كريماً شجاعاً وفد على رسول الله يريد الغدر به ولم يسلم ، فات في طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ (٣) علقمة بن علاثة : كان في الجاهلية من أشرف قومه ، أسلم ، وارتد في أيام أبي بكر فأنصرف إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام ونوفى نحو سنة ٢٠ هـ (٤) شري : استطار (٥) يريد طول القامة

(٦) اللقاح : الإبل (٧) الشياح : القحط (٨) السمّة : القرابة

(٩) الامة : الشعر المجاوز لجمّة الاذن (١٠) الجمة : مجتمع شعر الرأس

(١١) قضييف : نحيف

وأنا قبيح ، ولكنى أنا فرك بآبائي وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنا فرك بهم ، لكنى أنا فرك ؛ أنا خير منك عقبا ، وأطعم منك جدبا .

فقال علقمة : قد علمت أن لك عقبا ، وقد أطعمت طيبا ، ولكنى أنا فرك ، إني خير منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أم عامر - وكانت تسمع كلامهما ، فقالت : يا عامر نافرأه أيكما أولى بالخيرات .

قال عامر : والله إني لأركب منك في الحماة ، وأقتل منك للـحكمة (١) ، وخير منك للبولى والمولاة .

فقال له علقمة : والله إني لبر ، وإنك لفاجر ، وإني لولود وإنك عاقر (٢) ، وإني لعف ، وإنك لعاهر ، وإني لوفى ، وإنك لغادر ، فقيم تفاخري يا عامر ؟ فقال عامر : والله إني لأنزل منك للقفرة (٣) ، وأنحر منك للبكرة (٤) ، وأطعم منك للهبرة (٥) ، وأطعم منك للثفرة .

فقال علقمة : والله إنك لكليل البصر ، نكد النظر .

فقال بنو خالد بن جعفر - وكانوا يدا مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيق عامرا ، ولكن قل له : أنا فرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات . فقال له علقمة هذا القول ؛ فقال عامر : غير وتيس (٦) ، وتيس وعز ، نعم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يعطاها الحكم ، أينما نفر عليه صاحبه

(١) الحكمة : جمع كى ، وهو الشجاع (٢) رجل عاقر : لم يولد له ولد

(٣) القفرة : الخلاء من الأرض (٤) البكرة : الفتية من الإبل

(٥) الهبرة : القطعة المجتمة من اللحم

(٦) العير : الحمار ، وغلب على الوحش ، وهو أقوى من التيس ، أى مثلى وإياك

كالعير والتيس ، أو على الأقل كالتيس والعير إذ التيس أقوى على النطاح من العير .

أخرجها ؛ ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدى رجل يقال له خزيمه بن عمرو ؛ فسمى الغنمين .

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد ، وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك ، وجعلا منافرتهم إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ، فلم يقل بينهما شيئاً ، وكره ذلك لحالهما ، وحال عشيرتهما ، وقال : أتيا كركبتى البعير الأدرم (١) . قالا : فأينا اليمين ؟ قال : كلاكما يمين ، وأبى أن يقضى بينهما . فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام ؛ فأبى أن يحكم بينهما ، وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش ؛ فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة ؛ فأبى أن يقول بينهما شيئاً ؛ فأتيا غيلان بن سلبة الثقفى ، فردهما إلى حرملة بن الأشعر المارى ، فأبى أن يقول شيئاً . ثم تداعيا إلى هرم بن قطبة ليحكم بينهما ، فرحلا إليه ، ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل : مائة يطعمها من تبعه ، ومائة يعطيها للحاكم ، ومائة تعقر إذا حكم ؛ فأبى هرم بن قطبة أن يحكم بينهما بخافة الشر ، وأبى أن يرتحلا ؛ فقال هرم : لعمري لأحكم بينكما ، ثم لأفصلن ، فأعطيانى موثقاً أطمنن إليه أن ترضيا بما أقول ، وتسلبا لما قضيت بينكما ، وأمرهما بالانصراف ووعدهما يوماً ، فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، وأقام القوم عنده أياماً .

فخلا هرم بعلقمة ، وقال له : أترجوان ينفرك رجل من العرب على عامر فارس مضرب ؛ أندى الناس كفا ، وأشجعهم لقاء ، لسنان رمح عامر أذكر فى العرب من الأحوص ، وعنه ملاعب الأسنة .

فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفر على عامرا ، اجز ناصيتى ، واحتكم فى مالى ، وإن كنت لابد أن تفعل فسو بينى وبينه ، فقال : انصرف ، فسوف أرى رأيي ؛ فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامرا . ثم خلا بعامر فقال له : أعلى علقمة تفخر ؟ أنت تناوله أعلى ابن

(١) درم العظم : وراه اللحم حتى لم يبين له حجم .

عوف بن الأحوص ! أعف بنى عامر ، وأيمنهم نقيبة وأحلبهم وأسودهم ، وأنت أعور عافر مشثوم ! أما كان لك رأى يزكك عن هذا ! أكنت تظن أن أحدا من العرب ينفرك عليه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم أن لا تفضل على علقمة فوالله إن فعلت لا أُلح بعدها أبدا ، هذه ناصيتي فأجزها ، واحتسك في مالى ، فإن كنت لا بد فاعلا فسو بيني وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأيي ؛ فخرج عامر ، وهو لا يشك أنه ينفره عليه .

ثم إن هربا أرسل إلى بليه وبنى أبيه : إني قاتل غدا بين هذين الرجلين مقالة ؛ فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر (١) ، فلينحرها عن علقمة . ويطارد بعضكم عشر جزائر ينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة ، فلما اجتمعوا وحضر الناس للقضاء قام هرم ، وقال : يا بنى جعفر قد تمما كتبنا عندى . وأنتما كركبتي البعير الأدرم ، تقمان إلى الأرض معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ماليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم .

وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أهرم هرم ، وفرقوا الناس ، ولم يفضل هرم أحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل - وهما ابنا عم - فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرا .

فارتحلوا عن هرم لما أعيامهم نحو عكاظ ، فلقبهم الأعشى منجدرا من اليمن - وكان لما أرادها قال لعلقمة : اعقدلى حبلا ، فقال : أعقد لك من بنى عامر ! قال : لا يغنى عنى . قال : فنقيس ! قال : لا . قال : فما أنا برائدك ، فأتى عامر بن الطفيل فأجاره من أهل السماء والأرض ؛ فقال له : كيف تجير من أهل السماء ؟ قال : إن مات وديته - فقال الأعشى لعامر : أظهر أنكما حكمتما ، ففعل ؛ فقام الأعشى ، ورفع عقيرته (٢) فى الناس فقال :

(١) جزائر : جمع جزور .

(٢) عقيرته : صوته .

حكمتموه ففضى بينكم أبلج مثل اقمر الزاهر
لا يأخذ الرشوة في حكمه ولا يبالي خسر الحاصر
علقم لا ، لست إلى عامر انسا قضا الاوتار والواتر
واللابس الخيل بخيل إذا نار عجاج السكة (١) الثائر
إن تسد الخوص فلم تعدم وعامر ساد بنى عامر
ساد وألنى رهطه سادة وكابرا سادوك عن كابر

وشد القوم في أعراض الإبل المائنة فعقروها ، وقالوا : نفر عامر
وذهبت بها الغواص ، وجهد علقمة أن يردها فلم يقدر على ذلك ؛ فجعل
يتهدد الأعشى فقال :

أتاني وعيد الخوص من آل عامر فباعبد عمرو لو نيت الأحواصا
فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج (٢) لا يوارى الدعامصا (٣)
كلا أبو يكم كان فرعاً دعامة ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا
تدبتون في المشتى ملأ بطونكم وجاراتكم غرث (٤) بيتن خمائصا (٥)
يراقبن من جوع خلال مخافة نجوم العشاء العاتيات القوامصا (٦)
رمى بك في أخراهم تركك الندى وفضل أقواما عليك مراهمصا (٧)
فعض حديد الأرض إن كنت ساخطا بفيك وأحجار الكلاب الرواهمصا (٨)

(١) السكة : الدفعة في القتال والحيلة في الحرب

(٢) سجي : سكن (٣) الدعموص : دوية أو دودة سوداء تكون في الغدران

(٤) غرث : جاع (٥) الخائص : جمع خيصة ، ضامرة البطن أى

من شدة الجوع (٦) الغميصاء : إحدى الشمين ، قال في القاموس : من
أحاديثهم : إن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبوراً وبكت الاخرى على
أثرها حتى غمضت ويقال لها الغموص أيضا (٧) راهص غريمه : راصده ،
قال في القاموس : والمراهص لم يسمع بواحدھا (٨) الكلاب : موضع ،
والرواهص من الحجارة : التي تنكب الدواب ، والصخور الثابتة

فبكي علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكأوه زيادة عليه في العار (١).
هذا والمحاورة : هي التفاوض والتراجع في الكلام والحديث . وهي من
ضرورات المجتمع والحياة .

والعرب كثير المحاورة لكثرة خصوماتهم ومفاخراتهم وتنازعهم على
الشرف وسواه .

وتشمل المحاورات : المنافسة والمفاخرة ، وسواهما من المحاورة العامة .
(أ) فالمناقرة : المحاكمة في المفاخرة ، وأصلها من قولهم : أينما أعز نفرا :
فهو التحاكم إلى الأشراف من حكام العرب ، ليفصلوا بينهما ، ويقضوا
بالشرف لأحدهما .

(ب) والمفاخرة : مصدر فخر ، وهي تفاخر القوم بعضهم على بعض ، وكانوا
يفخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والعز والثروة
والكثرة والعدد .

(ج) والمحاورة العامة في شئون الحياة مما لا يتصل بمفاخرة أو منافرة وهي
كثيرة ، كثرة مطالب الحياة وشئونها ودواعي اتصال الإنسان
بسواه من المجتمع .

— ٩ —

هـ - سجع الكهان وصور منه :

١ - حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام :

كان ثلاثة بطون من قضاة متجاورين بين الشجر وحضرموت وهم :
بنو ناعب ، وبنو داهن ، وبنو رثام ، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين

(١) راجع حديث هرم بن قطبة مع عمر بن الخطاب حول هذه المنافسة في
البيان والتبيين (١٦٨ : ١)

على بنى رثام ، وكانت بنو رثام أقلهم عدداً وأشجعهم لقاء ، وكان لهم مجوز تسمى خويلة ، كان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محرم : بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيماً ، وكان لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء ، وكانت زبراء كاهنة .

فقال زبراء الخويلة : انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم ، فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فقاموا لإجلالها .

فقال : يا ثمر الأكباد ، وشجاء الحساد ، هذه زبراء ، تنهركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلماء ، بالمؤبد (١) الشنعاء ؛ فاسمعوا ما تقول ، قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

واللوح الخافق ، والليل العاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، إن شجر الوادي ليأدو (٢) ختلاً ، ويحرق أنياباً عصلاً (٣) ، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً ، لا تجدون عنه معلاً (٤) .

وانصرف عنهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً ، وبقي ثلاثون ، فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو راهن وبنو ناعب فقتلهم أجمعين . وأقبلت خويلة عند الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة وألقنها في عنقها (٥) .

٢ - وراجع حديث مصاد بن مذعور وخروجه في طلب الذود ، وما أخبر به الجوارى الأربع الطوارق بالحصا (٦) .

وحديث الرواد الذين أرسلتهم مذحج ووصفهم الأرض لقومهم بعد رجوعهم (٧) .

(١) الداهية والامر العظيم (٢) أى يختل

(٣) حرق أنيابه : حك بعضها ببعض . والعصل : الموجة

(٤) أى منجى (٥) راجع ١٢٦ ج ١ الامالى

(٦) ١٤٢ ج ١ الامالى (٧) ١٨٠ ج ١ الامالى

واقرا حديث سواد بن قارب وكهاتته (١) ، وحديث ابنة الخس
مع أبيها (٢)

وفود عبد المسيح - رسول كسرى - على سطيج الكاهن (٣) .

٣ - وكانت هند بنت عتبة زوجا للفأكة بن المغيرة المخزومي ، وكانت داره ناديا لقومه فاتهمها الفأكة برجل واستلمحها بأبيها ، فخرج بها والدها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها ، وأخرج معها نسوة من قومها ، وأقبل معهم الفأكة في رجال من قومه . فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من ابنته انكسارا وتغيرا ، فقال لها : يا بنية لا تكتميني من أمرك شيئا ، فإن كان مابك لريبة ترجع ولا بأس عليك ، فقالت هند : لا والله يا أبت ، ما ذاك لريبة ولا فاحشة ، ولكنكم تقدمون على بشر يخطئ ويصيب ، وأخشى أن يسمى بسمة ، تبقى على وصمة عار آخر الدهر ، قال : سأبلوه لك ، ثم نجبا خبيثا ، واقبلوا حتى أتوا الكاهن ، فأخبرهم بخبيثتهم ، ثم أقبل على هند فقال : انهضى غير رسحاء ولا زانية . وستلدين ملكا اسمه معاوية .

ماهى الكهانة؟

والكهانة قد سبق الحديث عنها وهى تعرف الغيب من الأمور المستقبلية أو الماضية .

وكان فى العرب كهان يتلبأون بالحوادث ، وللعرب اعتقاد كبير فيهم ، فهم ملاذ المريض ، وطما نينة الحائر ، والحكم فى الخصومة .

ومن أشهر هؤلاء الكهان : شق وسطيج الذئبي (٤) ، وطريقة الخير امرأة عمرو بن عامر الحيرية وكانت باليمن وهى التى تلبأت بخراب سد مأرب ،

(١) ٢٨٩ ج ٢ الأمالى (٢) ١٠٧ ذيل الأمالى (٣) ١٧٨ ج ١ العقد ط ١٩٢٨

(٤) كانوا متعاصرين فى زمن كسرى أنو شروان وولدا معا

ومنهم: فاطمة الخنعمية وكانت بمكة، ولها قصة مع والد الرسول صلوات الله عليه وسلم عبد الله بن عبد المطلب قبل أن يتزوج بأمنة بنت وهب، ومنهم زبراء، وسواد بن قارب وغير هؤلاء كثيرون.

ويتحدث الرواة بأعاجيب كثيرة لأرئك السكمان وبمعجزاتهم في الإخبار بالغيب ومعرفة الحوادث.

وكانت السكمانية منتشرة في الجاهلية قبل البعثة. وتدور غالباً حول: التبشير بدبي يبعث، وتفسير الرؤى، ومعرفة ما خفي عنهم من الحوادث. وهي نوع من الفراسة والإلهام وصدق الخدس وصفاء الروح والقدرة على التحليق في جو سماوي مجرد عن حدود المادة، وكثيراً ما تصدق النبوءات في مثل هذه الأحوال.

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين:

(أ) كان كهان العرب يتحاكم إليهم أكثر أهل الجاهلية، وكانوا يدعون السكمانية وأن مع كل واحد منهم رئيساً من الجن، مثل حازي جهينة، وشقي، وسطيح، وتزي سلبة. وأشباههم؛ وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع. وكان ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والآخرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار (١)

(ب) ومن أهل الدماء والنكراء ومن أهل اللسن واللحن، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة. والمخارج العجيبة: دهند بنت الخنس، وهي الزرقاء. ودخمعة بنت حابس. وهما داهيتا نساء العرب كما يقول أبو عمرو ابن العلاء (٢). ويذكر حوارا لابنة الخنس مع أبيها (٣)

(ج) ويذكر أسماء السكمان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان (٤)

(١) ١٩٥ ج١ البيان والتبيين: (٢) ٢٠٥ ج١ المرجع

(٣) ٢١٢ ج١ المرجع (٤) ٢٣٠ ج١ المرجع

ومنهم - كما يقول - في الجاهلية . عبيد بن شربة ، وشق بن الصعب ،
وربيع بن ربيعة السطيع الذئبي ، والمأمور الحارثي ، والديان الحارثي الشريفيان
الكاهنان (١) .

صور من القصص الجاهلي

إشار ابن مامة الإيادي (٢) :

خرج كعب (٣) بن مامة الإيادي في قنصل ، معهم رجل من بني النمر
ابن قاسط ، وكان ذلك في حر الصيف ؛ فضلوا وشح مأوئهم ، فكانوا
يتصافنون (٤) الماء - وذلك أن يطرح في القعب (٥) حصاة ، ثم يهب فيه
من الماء بقدر ما يغمر الحصاة ؛ فيشرب كل واحد منهم قدر
ما يشرب الآخر .

ولما نزلوا للشرب ، ودار القعب بينهم ، حتى انتهى إلى كعب ، رأى الرجل
النمرى يحد النظر إليه ؛ فأثره بمائه على نفسه . وقال للساقى : اسق أخاك النمرى ،
فشرب النمرى نصيب كعب من الماء ذلك اليوم !

ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر ، فتصافنوا بقية ما معهم ؛ فنظر إليه كظفره
أمس ، وقال كعب كقوله أمس ، وارتحل أقوم ، وقالوا : يا كعب ؛ ارتحل
فلم يكن له قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقالوا له . رد يا كعب
إليك وارد ، فعجز عن الجواب ، ولما أيسوا منه خيموا عليه بثوب يمنعه من
السبع أن يأكله ، وتركوه مكانه ؛ فمات ونجا رفيقه !

(١) ٢٣١ ج ١ المرجع (٢) بلوغ الأرب ص ٨١ ج ١ ، المحاسن والمساوىء
٢٠٥ طبعة ليبزج ، الأمثال ص ١٦٧ ج ١ (٣) هو كعب بن مامة بن همر بن
ثعلبة الإيادي ، الذي يضرب المثل بجوده ، وكان أبوه ملك إياد
(٤) تصافنوا الماء : اقتسموه بالحصص (٥) القعب : القحح يروى الرجل

وفاء السموأل :

لما أراد امرؤ القيس المضى إلى قيصر ملك الروم ، أودع عند السموأل (١) دروعا وسلاحا وأمتعة ، تساوى جملة كثيرة ؛ فلما مات امرؤ القيس ، أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل ؛ فقال السموأل : لا أدفعها إلا إلى مستحقها ، وأبى أن يدفع اليه منها شيئا ، فعادوه ، فأبى ، وقال : لا أعذر بدمتي ، ولا أخون أمانتي ، ولا أترك الوفاء والواجب على .

فقصده ذلك الملك من كندة بمسكروه ، فدخل السموأل في حصنه (٢) ، وامتنع به ، فحاصره ذلك الملك . وكان ولد السموأل خارج الحصن ؛ فظفر به الملك ، وأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسموأل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ؛ فلما رآه قال له : إن ولدك قد أسرته ، وهاهو ذامعي ، فإن سلمت إلى الدروع والسلاح ، رحلت عنك ، وسلمت إليك ولدك ؛ وإن امتنعت من ذلك ذهبت ولدك وأنت تنظر ! فاختر أيهما شئت .

فقال له السموأل : ما كنت لأخفر ذمامي ، وأبطل وفائي ؛ فاصنع ماشئت !

(١) راجع المستطرف ص ٢٠١ ج ١ ، انفر ص ١٩ ، بلوغ الأرب ص ١٣٦ ج ١ ، والسموأل : هو السموأل بن غريص بن عادياء شاعر جاهلي حكيم أشهر شعره لاميته التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
ويضرب المثل بوفائه . توفي نحو سنة ٦٥ ق . هـ

(٢) هذا الحصن يسمى الأبلق الفرد ، وقد بناء أبوه يتبأوفيه يقول السموأل :
لنا جبل يحمله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعز على من رامه ويطول
رسا أصله تحت الثرى وسما به . إلى النجم فرع لا ينال طويل

فذهب ولده ، وهو ينظر . ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً ، واحتسب السوء وال
ذهب ولده ، وصبر محافظة على وفاته ؛ فلما جاء الموسم ، وحضر ورثة امرئ
القيس ، سلم اليهم الدروع والسلاح ، ورأى حفظ ذمائه ، ورعاية وفاته أحب
اليه من حياة ولده وبقائه ؛ وقال في ذلك :

وفيت بأدراع الكندي لني إذا ما خان أقوام وفيت

لاحر بوادي عوف (١) :

لما مات ليث بن مالك أخذت بنو عيس فرسه وسلبه (٢) . ثم مالوا إلى
خبياته فأخذوا أهله ، وسلبوا امرأته خنساء بنت عوف بن محم ، وكان الذي
أصابها عمرو بن قارب وذؤاب بن أسماء ؛ نسأها مروان (٣) القرظ بن زباع
من أنت ؟ فقالت : أمت خنساء بنت عوف بن محم ، فانتزعها من عمرو وذؤاب ،
لأنه كان رئيس القوم ، وقال لها : غطى وجهك ، والله لا ينظر اليه عربي حتى
أردك إلى أبيك ، وضمها إلى أهله ؛ حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها
وأخدمها وأكرمها وحملها إلى عكاظ .

فلما انتهى بها إلى منازل بني شيبان قال لها : هل تعرفين منازل قومك ومزل
أبيك ؟ قالت : هذه منازل قومي ، وهذه قبة أبي قال : فانطلقى إلى أبيك ،
فانطلقت فخرت بصليح مروان .

ثم إن مروان غزا بكر بن وائل فقصوا أثر جيشه ، فأمره رجل منهم ،
وهو لا يعرفه ؟ فأتى به أمه ؛ فلما دخل عليها قالت له أمه : إنك لتختال بأسيرك
كانك جئت بمروان القرظ ؛ فقال لها : وما ترجين من مروان ؟ قالت : عظم

(١) راجع الأمثال ص ٢٩٩ ج ٢ ، بلوغ الأرب ص ١٢٥ ج ١

(٢) السلب : ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون معه وعليه من
سلاح ودابة (٣) سمى مروان القرظ . لأنه كان يغزوالين وهي منابت القرظ ،
ويضرب به المثل في العز ، فيقال : أعز من مروان القرظ .

- ١٩٣ -

فدائه . قال : وكم ترتجبن من فدائه ؟ قالت : مائة بعير ! قال مروان : ذلك لك على أن تؤديني إلى خماعة بنت عوف بن محم !

فمضت به إلى عوف (١) بن محم ، فبعث إليه عمرو بن هند أن يأتيه به . وكان عمرو وجد علي مروان في أمر ، فألى ألا يعفو عنه حتى يضع يده في يده . فقال عوف - حين جاءه الرسول : قد أجارته ابنتي ! وليس إليه سبيل ، فقال عمرو بن هند : قد آليت ألا أعفو عنه أو يضع يده في يدي . قال عوف : يضع يده في يدك على أن تكون يدي بينهما ! فأجابه عمرو بن هند إلى ذلك .

فجاء عوف بمروان فأدخله عليه ، فوضع يده في يده ، ووضع يده بينهما فمعا عنه . وقال عمرو : لآخر بوادي (٢) عوف .

مصرع الزباء :

كان جذيمة (٣) قد ملك على شاطئ الفرات . وكانت الزباء ملكة الجزيرة ، وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها ، فلما استجمع أمرها ، وانتظم شمل ملكها ، أحبت أن تغزو جذيمة ، ثم رأت أن تكتب إليه : أنها لم تجد ملك النساء إلا قبحاً في السماع ، وضعفاً في السلطان ، وإنها لم تجد للملك موضعاً ، ولا لنفسها كفناً غيرك ، فأقبل إلى لأجمع ملكي إلى ملكك ، وأصل بلادى ببلادك ، وتقلد أمرى مع أمرك .

فلما أتى كتابها جذيمة ، وقدم عليه رسلها استخفه مادعته إليه ، ورجب

(١) من أشراف العرب في الجاهلية ، كان معلماً في قومه . قويا في عصبية ، وكانت تضرب له قبة في عكاظ توفي نحو سنة ٤٥ ق . هـ

(٢) أى لا سيد به يناوئه .

(٣) بجمع الأمثال ص ٢١٣ ج ١ ، جمهرة الأمثال ص ٦٢

فيما أطعمته فيه ؛ فجمع أهل الحجا والرأى من ثقافته - وهو يومئذ ببقية من شاطيء الفرات - وعرض عليهم مادعته اليه وعرضت عليه ، فاجتمع رأيهم على أن يسير إليها فيستولى على ملكها .

وكان فيهم قصير - وكان أربابا حازما أثيرا عند جذيمة - فخالفهم فيما أشاروا به ، وقال : رأى فاتر ، وغدر حاضر (١) . ثم قال لجذيمة : الرأى أن تكتب إليها ، فإن كانت صادقة في قولها فلتقبل اليك ، وإلا لم تمسكها من نفسك ، ولم تقع في حبالتها ، وقد وترتها وقتلت أباهما . فلم يوافق جذيمة وقال له : رأيك في السكن لا في الصَّح (٢) .

ودعا جذيمة عمرو بن عدى ابن أخته فاستشاره ، فشجعه على المسير وقال : إن قوى مع الزباء ولو رأوك صاروا معك ؛ فأحب جذيمة ما قاله ، وعصا قصيرا ، فقال قصير : لا يطاع لقصير أمر (٣) .

واستخلف جذيمة عمرو بن عدى على ملكه وسلطانه ، وسار في وجوه أصحابه ، فأخذ على شاطيء الفرات من الجانب الغربي ؛ فلما نزل دعا قصيرا فقال : ما الرأى يا قصير ؟ فقال قصير : ببقية خلفت الرأى (٣) . قال : وما ظنك بالزباء ؟ قال : القول رداف ، والحرم عثراته تخاف (٣) .

واستقبلته رسل الزباء بالهدايا والألطف ، فقال : يا قصير كيف ترى ؟ قال : خطب يسير في خطب كبير (٣) . وستلقاك الجيوش ، فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة ، وإن أخذت جنبتيك ، وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك ، فاركب العصا (٤) فإنها لا يشق غبارها - وكانت العصا فرسا لجذيمة لانجاري - وإنى راكبا ومسيراك عليها .

فلقيته الخيول والكتائب ، فحالت بينه وبين العصا ؛ فركبها قصير ، ونظر

(١) ذهب مثلا (٢) الضح : الشمس وضوءها ، والكن : وقاء كل شيء - وستره ، ذهب مثلا .

إليه جذيمة على متن العصا مولياً ، فقال : ويل أمه حزماً على متن العصا (١) .
وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقت ، وقد قطعت أرضاً بعيدة .

وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيل حتى دخل على الزباء . فلما رآته قالت :
أشوار (٢) عروس ترى ؟ فقال : أمر غدر أرى . ثم دعت بالسيف والنطع ،
وقالت : إن دماء الملوك شفاء من الكلب ، فأمرت بطست من ذهب قد أعدته
له ، وسقته الخمر حتى سكر ، وأخذت منه الخمر مأخذها ، فأمرت
براهشيه (٣) فقطعها ، وقدمت إليه الطست - وقد قيل لها : إن قطر من دمه
شيء في غير الطست طلب بدمه - فلما ضعفت يده سقطت فقطر من دمه في غير
الطست ؛ فقالت : لا تضععوا دم الملك . فقال جذيمة : دعوا دماً ضيعه
أهله (٤) ؛ فهلك جذيمة .

وخرج قصير من الحى الذى هلكت العصا بين أظهرهم ، حتى قدم
على عمرو بن عدى - وهو بالحيرة - فقال له قصير : أفاثر أنت ؟ قال : بل
أفاثر سائر (٤) .

ووافق قصير الناس وقد اختلفوا ، فأصلح بينهم ، ثم قال لعمرو بن عدى :
تمبأ واستعد ، ولا تطلن (٥) دم خالك . قال : وكيف لى بها وهى أمتع من
عقاب الجو (٤) ؟

وكانت الزباء سألت كاهنة لها عن هلاكها ؛ فقالت : أرى هلاكك بسبب
غلام مهين غير أمين ، وهو عمرو بن عدى ، وإن تموتى بيده ، ولكن حتفك
بيدك ، ومن قبله ما يكون من ذلك .

فحذرت عمراً ، واتخذت لها نفقا من مجلسها الذى كانت تجلس فيه إلى
حصن لها فى داخل مدينتها ، وقالت : إن فاجأتى أمر دخلت النفق إلى

(١) ذهب أمثالا (٢) الشوار : الهيئة والزينة .

(٣) الراهشان : عرقان فى باطن الذراعين (٤) ذهب أمثالا

(٥) طل دمه : هدر أو ألا يثار به .

حصنى ؛ ودعت رجلا مصورا من أجود أهل بلاده تصويراً ، وأحسنهم عملاً ، فجهزته وأحسنت إليه ، وقالت : سر حتى تقدم على عمرو بن عدى متسكراً ، فتخلو بحشمه فتتنضم إليهم ، وتخالطهم وتعلمهم ما عندك من العلم بالصور ، ثم أثبت لى عمرو بن عدى معرفة ؛ فصوره جالسا وقائما وراكبا ومتفضلا ومتسلحا بهيئته ولبسته ولونه ، فإذا أحسكت ذلك فأقبل إلى .

فانطلق المصور حتى قدم على عمرو بن عدى ، وصنع الذى أمرته به الزباء وبلغ من ذلك ما أوصته به ، ثم رجع إلى الزباء بعلم ما وجهته له من الصورة على ما وصفت وأرادت أن تعرف عمرو بن عدى ، فلا تراه على حال إلا عرفته وحذرتة ، وعلبت عليه .

وقال قصير لعمر بن عدى : اجدع أنفى ، واضرب ظهري ، ودعنى وإياها ، فقال عمرو : ما أنا بفاعل ، وما أنت لذلك مستحقا عندى . فقال قصير : خل عنى إذن وخلاك ذم (١) . فقال له عمرو : فأنت أبصر . فجدع أنفه وأثر آثاراً بظهره ؛ فقالت العرب : لأمر ما جدع قصير أنفه (١) .

ثم خرج قصير كأنه هارب ، وأظهر أن عمرا فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جذيمة وغره ؛ فسار حتى قدم على الزباء ، فقيل لها : إن قصيرا بالباب . فأمرت به فأدخل ، فإذا أنفه قد جدع ، وظهره قد ضرب ؛ فقالت ما الذى أرى بك يا قصير ؟ قال : زعم عمرو أنى قد غررت خاله ، وزينت له المصير إليك وغششته وما لأتك ؛ ففعل بى ما ترى . فأقبلت إليك ؛ فأكرمته وأصابت عنده من الحزم والراى ما أرادت .

فلما عرف أنها استرسلت إليه ، ووثقت به قال : إن لى بالعراق أموالا كثيرة وطرانف وثيابا وعطرا فابعثنى إلى العراق ؛ لأحمل مالى وأحمل إليك

من بزها (١) وطرائفها وثيابها وطيبها ، لتصيب من ذلك أرباحاً عظيمة ، وبعض ما لا غنى للهـلاك عنه ؛ وكان أكثر ما يطرأها من الصرفان (٢) ، وكان يعجبها ، فلم يزل يزين ذلك حتى أذنت له ، ودفعت إليه أموالاً ، وجهزت معه عبداً .

فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق ، وأتى الحيرة متنكراً ، فدخل على عمرو بن عدى ، فأخبره الخبر ، وقال : جهزنى بصنوف البز والأمتعة لعل الله يمكن من الزباء ؛ فتصيب ثأرك ، وتقتل عدوك . فأعطاه حاجته .

فرجع بذلك إلى الزباء . فأعجبها ما رأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهزته ثانية . فسار حتى قدم على عمرو . فجهزه وعاد إليها .

ثم عاد الثالثة وقال لعمرو : اجمع لى ثقات أصحابك ، وهي الغرائر واحمل كل رجلين على بعير فى غراريتين ، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقتك على باب نفقها ، وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ، فمن قاتلهم قتلوه ، وإن أقبلت الزباء تريد النفق جلاتها بالسيف .

ففعل عمرو ذلك ، وحمل الرجال فى الغرائر بالسلاح ، وسار يكتن النهار ويسرى بالليل ، فلما صار قريباً من مدينتها تقدم قصير فبشرها ، وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف ، وقال لها : آخر البز على القلوص (٣) . وسألها أن تخرج فتتظر إلى ما جاء به وقال لها : جئت بما صاء وصمت (٤) .

ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ فى الأرض من ثقل أحمالها ، فقالت يا قصير :

-
- (١) البز : الثياب (٢) الصرفان : تمر وزين صلب
(٣) ذهب مثلاً ، والبز : الثياب ، والقلوص : الأثني من الإبل الشابة
(٤) صاء : أراد بما صاء الشاء والإبل . وبما صمت : الذهب والفضة ، وهو يريد أنه جاء بكل شيء . وقد ذهب مثلاً

ما للجمال مشيها وتيدا أجنّدا يحملن أم حديدا
أم صرفانا تارزا (١) شديدا

فقال قصير في نفسه : بل الرجال قبضا قعودا .

فدخلت الإبل المدينة حتى كان آخرها بعيرا مر على بواب المدينة وكانت
بيده منخسة . فنخس الغرارة ، فأصابته خاصرة الرجل الذي فيها فسمع له
صوتا . فقال : شر في الجوالق (٢) .

فلما توسطت الإبل المدينة أنيخت ، ودل قصير عمرا على باب النفق الذي
كانت الزباء تدخله ، وأرته إياه قبل ذلك ، وخرج الرجال من الغرائر ،
فصاحوا بأهل المدينة ، ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق
وأقبلت الزباء تريده ، فأبصرت عمرا فعرفته بالصوراة التي صورت لها .
فصمت خائما . وكان فيه السم - وقالت : يبدى لا بيد عمرو (٣) . وتلقاها
عمرو فجلبها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها وانكفأ
راجعا إلى العراق .

شاس بن زهير :

ورد شاس بن زهير (٣) من عند النعمان بن المنذر ، وقد حباه أفضل
الحبوة : مسكا وكسا وقطفا (٤) وطنافس ، فأناخ ناقته في يوم شمال وقر (٥)
على ردة (٦) في جبل رياح بن الأسك الغنوى ، وليس على الردة غير بيته
بالجبل ، فألقى ثيابه بفنائه ، ثم قعد يهريق عليه الماء ، وامرأة رياح قرية منه

(١) التارز : اليابس . (٢) ذهب أمثالا .

(٣) راجع الاغانى ص ١٠ ج ٨ ، وابن الاثير ص ٣٣٧ ج ١ ، مذهب الاغانى
ص ٨ ج ٢ (٤) التليقة : دنار نخل ، جمعه قطف (بضمين) (٥) الشمال :
الريح التي تهب بين مطلع الشمس وبنات نعش ، ويكون اسما وصفة ، والفقر البرد
(٦) الردة . الثقرة يجتمع فيها ماء السماء

وإذا هو مثل الثور الأبيض . فقال رياح لا مرأته : أعطيني قومي ، فمدت اليه قوسه وسهما ، وانتزعت المرأة نصله لثلا يقتله ، فأهوى سجلان اليه ووضع السهم في مستدق الصلب ، بين فقارتين (١) ففصلهما وخر ساقطا ، وحفر له حفرا ، فهدمه عليه ونحز جملة وأكله ، وأدخل متاعه في بيته .

وفقد شاس وقص أثره ونشد ، وركبوا الى الملك ، فسألوه عن حاله ، فقال لهم : حبوته وسرحته ، فقالوا : وما تمتعت (٢) به ؟ قال : مسك ونطوع وقطف ، فأقبلوا يقصون أثره ، فلم تتضح لهم سبيله : فكثروا كذلك ما شاء الله ، حتى انقطع ذكره .

قال الراوى : ثم إن الناس أصابهم جائحة وجوع ، فنحز زهير (٣) بن جذيمة - أبو شاس - ناقتة ، فأعطى امرأة من شحمها وسنامها ، وقال اشترى لى الهدب والطيب ، فخرجت بذلك الشحم والسنام تبيعه حتى دفعت إلى امرأة رياح . فقالت : إن معي شحما أبيعته فى الهدب والطيب ، فاشتريت المرأة منها ، ثم أتت المرأة زهيرا بذلك ، فعرف الهدب ، وذهب إلى غنى ، فقالوا نعم ، قتله رياح بن الأسك ونحن برآء منه ، وقد لحق بخاله من بنى الطلاح .

ولما تبين لزهير أن رياحا ثاره قال يرثى شاسا :

بكيت لشاس حين خبرت أنه بماء غنى آخر الليل يسلب
لقد كان مأناه الرداة (٤) لحتفه وما كان لولا غرة الليل يغلب
قتيل غنى ليس شاكل كشكاه كذاك لعمرى الحين (٥) للبرء يحلب
سابكى عليه إن بكيت بعبرة وحق لشاس عبرة حين تسكب

(١) الفقرة والفقارة : ما انتضد من عظام الصلب (٢) متع الرجل جاد .

(٣) هوزهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، أمير عبس ، وأحد سادات العرب

المعدودين فى الجاهلية ، قتله خالد بن جعفر العامرى نحو سنة ٥٠ ق . هـ .

(٤) الرداة : الصخرة (٥) الحين : الهلاك

وحزن عليه ماحيت وعولة على مثل ضوء البدر أو هو أعجب
إذا سيم ضيما كان للضم منكرأ وكان لدى الهيجا (١) يخشى ويرهب
وإن صوت الداعي إلى الخير مرة أجا ب لما يدعو له حين يكرب
ففرج عنه ثم كان وليه فقلبي عليه لو بدا القلب مله

ثم انصرف إلى قومه من بني عبس ، فكان لا يقدر على غنوى إلا قتله ،
وتجهز بنو عبس لغزو غنى قبل أن يطلبوا قودا أو دية ، وتولى رياستهم
الحصين بن زهير أخو شاس ، والحصين بن أسيد بن جذيمة ابن أخي زهير ؛
فقبل ذلك لغى ، فقالت لرياح : انج لعننا نصلح على شيء أو نرضيهم
بديهة وفداء .

تفرج رياح رديفاً لرجل من بني كلاب ، فبينما هما سائران إذا هما بالقوم
أدنى ظلام (٢) ، وقد كانا يظنان أنهما خالفاً وجهة القوم ، قال صاحبه لرياح :
اذهب فإنى آتى القوم أشاغلبهم عنك ، وأحدثهم حتى تعجزهم ، ثم أناهض إن
تركوني ، فانهدر رياح عن عجز الجمل فأخذ أدارجه ، وعدا إثر الرحلة حتى
أتى مضفة ، فاحتفر تحتها مثل مكان الأرنب فوج فيه ، ثم أخذ نعليه ، فجعل
إحداهما على سرتة ، والأخرى على صفته (٣) ، ثم شد عليهما العمامة ، ومضى
صاحبه حتى لقي القوم فسألوه ، فحدثهم وقال : هذه غنى كاملة ، وقد دنوت
منهم ، فصدقوه وخلوا سربه ، فلما ولى رأوا مركب الرجل خلفه ، فقالوا :
من هذا الذى كان خلفك ؟ قال : لا مكذبة ذلك رياح فى الأول من السمرات ،
فقال الحصينان لمن معهما : قفوا علينا حتى نعلم عليه ، فقد أمكننا الله من ثأرنا
ولم يريد أن يشر كهما فيه أحد ، ففضيا ووقف القوم عنهما ، فلما رآهما رياح
رمى الأول منهما فبتر صلبه ، وطعنه الآخر قبل أن يرميه ، وأراد السرة
فأصاب الريلة (٤) ومر الفرس يهوى به ، فاستدبره رياح بسهم ، رشق به صلبه

(١) الهيجا : الحرب . (٢) أدنى ظلام : أدنى شيء .

(٣) الصفن : وعاء الخسبة (٤) الريلة : أصول الأنخاد

فانفق منحنى الأوصال ، وندت فرساهما فلدحتا بالقوم . وانطلق رياح حتى
ورد ردهة ، عليها بيت أنمار بن بغيض ، وفيه امرأة ولها ابنان قريبان منها ،
وجمل لها راتع في الجبل ، وقد مات رياح عطشاً ، فلما رأته يستدعى طمعت
فيه ، ورجت أن يأتيها ابنها فقالت له : استأسر ، فقال لها : دعيني ويمك
أشرب ! فأبت ، فأخذ حديدة فجذم بها رواهشها (١) ، وعب في الماء حتى نهل
ثم قال فيها وفي الحصينين :

قالت لي استأسر لتكفني (٢) حيناً ويعلو قولها قولي
ولانت أجرة من أسامة أو منى غداة وقفت للنخيل
إذ الحصين لدى الحصين كما عدل الرجاجة (٣) جانب الميل

خالد بن جعفر بن كلاب :

لما (٤) قتل خالد بن جعفر بن كلاب زهير بن جنديمة العبسي ضاقت به
الأرض ، وعلم أن غطفان غير تاركيه ، فخرج حتى أتى النعمان فاستجار به
فأجاره ، ومعه أخوه عتبة بن جعفر .

ونهب قيس بن زهير فتياً لمحاربة بني عامر ، وهجم الشتاء ؛ فقال الحارث
ابن ظالم : يا قيس أتم أعلم وحر بكم ، وأنا را حل إلى خالد حتى أقتله ! قال قيس :
قد أجاره النعمان ! قال الحارث : لأقتلنه ولو كان في حجره !

وكان النعمان قد ضرب على خالد وأخيه قبة ، وأمرهما بحضور طعامه
ومداده (٥) .

(١) جذم : قطع ، الرواهش : عروق ظاهر الكف (٢) كنفه : أحاط به وآواه
(٣) الرجاجة : شئ . يكون مع المرأة في هودجها فإذا مال أحد الجانبين وضعت
في الناحية الأخرى ليعتدل .

(٤) الأمثال ص ٢٣٤ ج ٢ ، عيون الأخبار ص ١٨٣ ج ١

(٥) المدام : الخمر .

فأقبل الحارث ومعه تابع له من بنى محارب فأتى باب النعمان ، فاستأذن فأذن له النعمان وفرح به . فدخل الحارث ، وكان من أحسن الناس وجهاً وحديثاً ، وأعلم الناس بأيام العرب ؛ فأقبل النعمان عليه بوجهه يمد يده ، وبين أيديهم تمر يأكلونه .

فلما رأى خالد إقبال النعمان على الحارث غاظه ذلك ، فقال : يا أبا ليلى ؛ ألا تشكرنى ؟ قال علام ؟ قال : قتلت زهيراً فصرت بعده سيد غطفان - وفي يد الحارث تمرات ، فاضطربت يده ، وجعل يردد ويقول : أنت قتلتني ! والتمر يسقط من يده .

ونظر النعمان إلى ما به من الزمخ (١) ، فنخس خالداً بعصاه وقال : هذا يقتلك ، فقال : أبيت اللعن ! فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني ! واقترق القوم ، وبقي الحارث عند النعمان ، وأشرح (٢) خالد قبته عليه وعلى أخيه وناما .

وانصرف الحارث إلى رحله ، فلما هدأت العيون خرج بسيفه حتى أتى قبة خالد فهتك شرجها (٣) بسيفه . ودخل فرأى خالدًا نائماً وأخوه إلى جنبه ، فأيقظ خالدًا ، فاستوى قائماً ، فقال له الحارث : يا خالد أظننت أن دم زهير كان سائغاً لك ؟ وعلاه بسيفه حتى قتله ، وانقبه عتبة فقال له الحارث : لئن نبست (٤) لألحقنك به !

وانصرف الحارث ، وركب فرسه ومضى على وجهه ، وخرج عتبة صاخراً حتى أتى باب النعمان فنادى : يا سوء جواره ! فأجيب : لا روع عليه ! فقال : دخل الحارث على خالد فقتله ، وأخفر (٥) الملك .

فوجه النعمان فوارس في طلبه فلاحقوه سحراً فمطاف عليهم ، فقتل جماعة منهم وكثروا عليه ، فجعل لا يقصد لجماعة إلا فرقها ، ولا لافارس إلا قتله .

(١) هو شبه الرعدة تأخذ الإنسان (٢) أشرح الخيمة : أدخل بعض عراها في بعض بين أشراجها (٣) الشرج : عرا الخيمة (٤) نبس : أقل الكلام (٥) أخفر الملك : نقض عهده وغدره .

فارتدع القوم عنه ، وانصرفوا إلى النعمان . فقال عمرو بن الإطابة :

عللاني وعللا صاحبيا واسقياني من المروقي ربا
إن فينا القيان يعزفن بالضر ب لفتيانا وعيشاً رصيا
يقناهين في النعيم ويضربن خلال القرون مسكاذ كيا
أباها الحارث بن ظالم الرء (١) ديد والناذر النذور مليا :
إنما تقتل النيام ولا تقة تل يقظان ذا سلاح كيا (٢)

وكان عمرو قد آلى ألا يدعوه رجل بليل إلا أجابه ، ولم يسأله عن اسمه
فأتاه الحارث ليلا فتهتف به ، فخرج إليه ؛ فقال : ما تريد ؟ قال : أعنى على إبل
لبنى فلان ، وهي منك غير بعيد ؛ فإنها غنيمة باردة !

فدعا عمرو بفرسه ، وأراد أن يركب حاسرا ؛ فقال له : البس عليك
سلاحك ؛ فإني لا آمن امتناع القوم ؛ فاستلام وخرج معه ، حتى إذا رزا
قال له الحارث : أنا أبو ليلى نخذ حذرك يا عمرو ، فقال له : امنن على . فجز
نأصيته ؛ وقال :

عللاني بلذتي قيلتيا قبل أن تبكي العيون عليا
قبل أن تذكر العواذل أني كنت قدما لأمرهن عصيا
ما أبالي إذا اصطبحت ثلاثاً أرشيدا دعوني أم غويا
غير ألا أسر لله إثميا في حياتي ولا أخون صفيا
بلقتني مقالة المرء عمرو بلقتني وكان ذاك بديا
نفرجنا لموعده فالتقينا فوجدناه ذا سلاح كيا
غير ما ناتم يروع بالليل معدا بكفه مشرفيا
فرجعنا بالمن منا عليه بعد ما كان منه منا بديا
وهذه القصص كلها مع أنها بأسلوب الرواة فيها ملامح جاهلية وشبه
بأسلوب الجاهليين في النثر .

(١) الرعديد : الجبان (٢) السكى : الشجاع ،

الباب الثالث

الشعر الجاهلي

-- ١ --

تمهيد : ماهو الشعر ؟

عرفه أرسطو بأنه كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية والمخيل هو الكلام الذي يتفعل له الإنسان انفعالا نفسانيا غير فكري (١). وعرفه قدامة وابن رشيق بأنه كلام موزون مقفى يدل على معنى (٢). ويقول المعري : الشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس (٣). ويقول ابن خلدون : الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارات والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة (٤)، والشاعر من شعر يشعر وإنما سمي شاعرا لأنه يشعر من معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره، فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون (٥) فإذا لم يكن عند الشاعر تأكيد معنى ولا اختراعه أو استظراف النظر وابتداعه كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ولم يكن له إلا فضل الوزن (٦). ويعرفه المحدثون بأنه الكلام المنظوم الذي يعتمد فيه صاحبه على الخيال

(١) راجع الفن التاسع - الشعر - من الشفاء لابن سينا

(٢) ١٣ نقد الشعر، ١: ٩٩ العمدة (٣) رسالة الغفران للمعري

(٤) ٥٧٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ٧٧ نقد النثر (٦) ٩٦ : ١ العمدة

ويقصد فيه إلى الجمال الفنى (١) ، وبأنه الكلام الموزون المقفى الذى يهور
العاطفة (٢) ويعرفه الرصافى بأنه مرآة من الشعور تنعكس فيها صور
الطبيعة بواسطة الألفاظ انعكاسا يؤثر فى النفوس (٣) ، ويقول آخر : هو
الحياة باكية وضاحكة ناطقة وصامتة (٤) ، ويقول أرتولد : هو كمال اللغة
البشرية فيه يقرب الإنسان من الحق ويجسر على أن يفوه به (٥) ويقول
كارليل : الشعر الحقيقى هو الموسيقى الأزلية التى يسمعها الشاعر من وراء
الوجود (٦) ، ويقول غيره : هو المحاولة الخالدة للتعبير عن روح الأشياء (٧)

وبعد فالشعر إلهام يفيض على القلب من عالم الروح ويلبس ثوبا من
الخيال الساحر وينطق بلغة العاطفة الشاعرة ويحدث آثارا بعيدة فى المشاعر
والوجدان ويستشف معانى الحياة فى كل شىء نفسه فيه وتمس به فى هذا
الوجود ، والشاعر ملك يعنى على قيامة الفن الخالدة ليعبث معانى الطفولة
السامية والصوفية المنتبلة فى الحياة وليشرق بفسحه مع الفجر روحية وطهرا
ومع الصبح نورا وسجرا ومع الضحى قوة وحرارة ومع الأصيل هدوءا
وجمالا ومع الليل رهبة وروعة ، وهو منذ الأزل يعنى وسيعيش فى سرحة
الفن يملأ الوجود شذوا وغناء ، فى سبيل أداء الرسالة التى حملها والتى نيط
بها بعث الجمال وإيقاظ الشعور وتجديد الأخلاق والسمو بالعواطف ليصل
حيوان الأرض الناطق إلى مستوى ملك السماء الطاهر العظيم.

(١) ٣٢٧ الأدب الجاهلى

(٢) أصول النقد الأدبى للشايب ، ويقول وردزورث : الشعر هو الحقيقة
الرائمة التى تصل إلى القلب بواسطة العاطفة ، ويقول رسكن : هو عرض البواعث
النبيهة للمواطن النبيلة بواسطة الخيال (٩٦ مملكة الجمال لمحمود قراعة ط ١٩٣٧)

(٣) ٨٥ ج ١ سحر الشعر (٤) ١٦٩ ج ١ المرجع

(٥) ١٦٧ ج ١ المرجع (٦) ٢١ ج ١ المرجع

(٧) ٩٦ مملكة الجمال

- ٢٠٦ -

- ٢ -

آراء في الشعر :

١ - الشعر عند بعض الأدباء الكلام البليغ المؤثر ، الذى يصور
الشعور والإحساس والعاطفة ، وينطق عن حسن تخيل ودقة معان وجمال
إلهام ، فهو على هذا لا يجب أن يكون موزوناً ، فالتنثر قد يكون شعراً إذا
اشتمل على لطف التخيل وروعة الشعور ، ولقد قال حسان لابنه عند ما
وصف له ذنبوراً لسعه فأحسن الوصف وسماه به إلى درجة جميلة من جمال
الخيال والتخيل ، قال : قد قلت الشعر ورب الكعبة يا بنى ، وىروى عن
الأصمعى أنه قال : قلت لشار بن برد إني رأيت رجال الرأى يتمتعون من
أبياتك فى المشورة فقال : أنا علمت أن المشاور بين إحدى الحسينيين بين
صواب يفوز بشمرته ، أو خطأ يشارك فى مكروهه ، فقلت له : والله أنت
فى كلامك هذا أشعر منك فى أبياتك ، فقد جعل الأصمعى وناهيك به من
إمام فى الأدب كلام بشار شعراً ، إذ قال له « أنت فى هذا الكلام أشعر » ،
واسم التفضيل يقتضى المشاركة والزيادة ؛ فهذا أيضاً يدل على أنهم لا ينجحون
الشعر بالمنظوم وأن الشعر قد يكون منشوراً . ولم يسم المنظوم شعراً لكونه
ذا وزن وقافية ، بل لكونه فى الغالب يتضمن المعانى الشعرية . أو لأن
العرب فى الغالب لا تنظم الكلام إلا شعراً . ويؤيد ذلك أن العرب عدوا
القرآن شعراً لسعره وروعة تصويره وبليغ أثره .

٢ - وجمهور الأدباء على اشتراط الوزن فى الشعر . ويقتصر بعضهم
على الوزن مع الخيال والعاطفة والشعور والإحساس والإلهام الفنى الخاص ،
وهؤلاء لا يشترطون فى الشعر أن يكون مقفى بل هم يزدرون القافية
ويدعون إلى اطراحها لأنها وإن تعددت فى القصيدة الواحدة - بجمل كل
قسم من أقسامها على قافية - هى قيد للشاعر وعبة ثقيل عليه إذ لا تدع الشاعر
حرراً فى إظهار ما يريد من معنى أو شعور ، وهى عند السبب الأكبر فى تأخر

الشعر العربي عن الشعر في الآداب الغربية ، ويرون أنها « عضو أثرى قد بقي من كلمات كان يكررها في آخر كل بيت النادب في المناحات والمتحمس في الحرب والصدام ، يوم تولد الشعر في عصور الجاهلية الأولى ، ولا بد من زواله بالتام لعدم فائدته اليوم ولتقييده الشعر فلا يتقدم حراً كبقية الفنون ، فإذا حرد الشعر من قيد القافية انصرف الشعراء إلى المعاني التي يريدونها لا إلى الألفاظ ، وإلى إظهار الشعور الحقيقي الذي تجيش به نفوسهم لا إلى الشعور الكاذب الذي تضطربهم إلى تصنعه ضرورة القافية وضرورة كونها على صورة خاصة من صور الأعراب في آخر كل بيت (١) ، .

ويرى الآخرون تعدد القوافي ، ويقولون : إنه إذا اتسعت القوافي لشتى المعاني والمقاصد ، وانفرج مجال القول بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء الرواية وشعراء الوصف وشعراء التمثيل . وما كانت العرب تنسك القافية المرسلة فقد كان شعراؤهم يتساهلون في التزام القافية (٢) كما في قول الشاعر :

ألا هل ترى إن لم تكن أو مالك بملك يدي أن الكفاء قليل
رأى من رقيقه جفاء وغلظة إذا قام يبتاع القلوص ذميم
فقال أقلا واطركا الرجل اننى بمهلك والعاقبات تدور
فبيناه يشرى رحله قال قائل لمن جمل رخوا الملاط نجيب
وكقول غيره :

بنات وطاء على خد الليل لا يشكين عملا ما أنفين

(١) من مقال للشاعر جميل صدق الزهاوى نشره في السياسة الأسبوعية

عدد ٣ - ٩ - ١٩٢٧

(٢) قد يكون ما ذكره من ذلك ليس إلا بقايا من آثار التطور الفني في الشعر العربي في عصور نشأته الأولى . كما أن اختلاط الوزن في قصيدة عبيد بن الأبرص كان أثرا من آثار التطور الفني في الشعر العربي في عصور نشأته الغابرة .

وقول الآخر :

جارية من ضبة بن أد كأنها في درعها المنعط
فعندهم القافية ليست من الشعر لان الشعر بالوزن وحده فهو الموسيقى
التي تميزه من النثر . وما الحرص على بقاء القافية المشتركة في القصيدة إلا
نتيجة الإلف والعادة فإذا ألقت الاسماع الشعر المرسل استهجن القوافي
كما تستهجن الأذواق اليوم السجع في النثر .

ويرى هؤلاء أنه ليس في الاوزان القديمة كبير ضرر وهي في الأغلب
أرقى من الاوزان العربية لأن أكثر البحور مركب من تفاعيل مختلفة
بخلاف ما تألف من مقاطع متشابهة ؛ والتركيب دليل الرقي . نعم قد
لا يوافق في رأيهم أكثر هذه الاوزان ضروب الغناء العصري والذنب في ذلك
كما يقولون على العربية نفسها فهي لا تلائم الأغاني الحديثة .

وهؤلاء لا يتقيدون بأوزان الخليل المأثورة ، فعندهم الاوزان العربية
ليست ستة عشر وزناً كما هو الشائع بل هي مع تفرعاتها قد تزيد على الخمسين
ومن الميسر لكثائر هذا العدد .

ويدعو بعضهم إلى التجديد في أوزان الشعر الحديث وفق ما يقتضيه
الذوق وروح العصر ؛

٣ - والجمهور على جعل القافية شرطاً أساسياً في الشعر ، ولا مانع
عند بعضهم من تسهيل صعوبات القافية بتعدد القوافي في القصيدة الواحدة
حسب أغراضها أو على نهج الخمسات والمربعات والموشحات والاراجيز
وما شاكل ذلك ؛

٤ - ولكن هل الشعر لفظ ووزن وقافية فحسب ، يرى النقاد أنه
لا يكفي فيه ذلك وأنه لا بد أن يشتمل على معنى لطيف أو حكمة بارعة أو
تشبيه جميل أو خيال بارع ، فالمعنى عنصر من أهم عناصره

وهذا حق وصدق، فالشعر لابد أن يحتوي مع الوزن والقافية على إلهام
فني رائع وشعور بالجمال مرهف وإحساس بالكون والطبيعة والبيئة دقيق .
لابد فيه من المعنى والخيال والعاطفة والشعور بالجمال وروعة التصوير له
وعمق النفوذ إلى أسرار المشاعر الإنسانية العامة ، ليكون شعرا وليكون له
أثره ومكانته في الشعر .

ولو كان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة فحسب لسكان لغوا من
الكلام والشعور والإحساس .

يقول الإمام محمد عبده : « لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكانا تشرف
منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر ، وقد بما قال كعب الأحبار :
الشعراء أنا جيلهم في صدورهم تنطق ألسنتهم بالحكمة » .

نشأة الشعر

-- ١ --

الشعر الجاهلي لا يعقل أن يكون قد بدأ كما وصل إلينا في هذه
القصائد الطويلة المهدية التي يظهر فيها أثر الفن والجمال، بل لابد أن يكون قد
قطع مراحل كثيرة خلال الأجيال ، حتى وصل إلينا على هذه الصورة
الفنية المكاملة .

وليس من المعقول أن يكون امرؤ القيس أو مهلهل هو أول من ابتكر
الشعر ونظمه وقلده فيه الشعراء ، أليس هو الذي يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خنزام

وابن خنزام هذا شاعر جاهلي قديم ، قبل امرؤ القيس طبعا ، ولا يعرف
عنه ولا من أخباره شيئا (١) .

- ٢١٠ -

ويقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

ويقول عنتره :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

إننا لا نعرف شيئاً عن نشأة الشعر ، ومن غير شك أنه سار في مرا-
كثيرة حتى صار فناً مستقلاً مقصوداً وافصل عن الغناء ، ثم أولاه الشعر
عناية فنية كبيرة ، وقالوا في أغراض الحياة الجديدة التي لم يقولوا فيها من قبل
ويهمنا أن نبهت عن التدرج الفني في نشأة الشعر ، ثم نعرض للآر
في تاريخ نشأته ، ثم نعرض لذكر قدامى الشعراء الجاهليين .

- ٢ -

ولوصف التدرج الفني في نشأة الشعر نقول :

مر على كلام العرب ثلاثة أدوار انتقل فيها به الزمان من طور إلى طور
فأولها دور البساطة وهو الدور الذي كان الكلام فيه بسيطاً ساذجاً خالياً
كل تفنن في أسلوبه وتصنع في ألفاظه .

ثم ارتقى مع الزمان بالتدرج حتى وجدت فيه القافية فانتقل بها إلى دور
الثاني وهو دور السجع . والسجع هو الكلام المقفى أو موالاته الكلام على ر
واحد . ولا شك أن هذا السجع إنما وجد بآدى بدء في كلام بعض الأفر
وربما كان وجوده بطريق المصادفة إذ قد يتفق للمتكلم أن يأتي في كلامه
بجملتين متفقتين في الآخر في حرف واحد من غير قصد ، وسواء كان وجو
أول سبعة في كلام العرب ناتجاً عن قصد أو غير قصد فلا بد أنها قد أعجب
السامعين ، وكان لها وقع في نفوسهم لكونها شيئاً جديداً في الكلام لم تطر
أسماعهم من قبل . ولا عجباً بهم بها صاروا يقلدون قائلها ويأرونها في النظم
بما يماثلها حتى كثر السجع وفشا في كلامهم .

كان السجع فاشياً في كلام العرب الأولين من أهل الجاهلية ؛ وكانو

يلتمسون السجع في أكثر كلامهم ، لاسيما في خطبهم ومنافراتهم
ومداخلاتهم سواء في ذلك رجالهم ونسأؤهم حتى ولدانهم وجواريتهم الصغار ؛
وكتب الأدب مشحونة بأسجاعهم فإذا رجعت اليها وتدبرتها علمت أن العرب
ما سوا السجع ولا أولوه في أزمنة طويلة حتى طبعوا عليه ، فأصبح لهم طبيعة
تنتقل فيهم بالإرث الطبيعي من الآباء إلى الأبناء .

ثم إن الكلام بعد أن دخل في دور السجع أى القافية واستمر فيه قرونا
عديدة اتقى منه إلى دوره الثالث وهو دور الوزن . وما لا يستراب فيه أن
الوزن في الكلام قد تولد من السجع .

ومن الجائز أن يكون الكلام قد أتى موزونا من غير قصد كما نراه واقعا
في كلام الناس ومحاوراتهم كل يوم ، وقد وقع ذلك في القرآن أيضا ، فتأتى
قريلتان من الكلام المسجع متطابقتين في الحركات والسكنات ، وذلك
هو الوزن .

وساعد على الوصول إلى الوزن : الغناء ، والسجع فالمسافة بين الكلام
والوزن قد قصرت بالسجع وازدادت قصرا باقتران السجع بالغناء فاقتران
السجع بالغناء يزيد احتمال وقوع الوزن فيه بطريق الاتفاق والمصادفة ، كما
ساعد على ذلك الرقص ، واحتمال وقوع الوزن في الكلام بطريق
المصادفة يختلف قوة وضعفا باختلاف الأوزان الشعرية ببساطة وتركيبها
فما كان من الأوزان أبسط كان ذلك الاحتمال فيه أكثر وأقوى والعكس بالعكس ،
ونعنى ببساطة الوزن هنا سهولته على القريحة وخفته على الطبع وقرب مأخذه
من الكلام المنشور ، بحيث يكون انطلاق اللسان به سهلا وجري الطبع
عليه هينا .

وإذا نظرنا في أوزان الشعر وجدنا أبسطها الرجز إذ هو أسهلها على القريحة
وأخفها على الطبع وأقربها إلى النثر ، وما الفرق بينه وبين الكلام المسجوع
سوى وزن قريب المأخذ سهل التناول ، حتى يصح أن يقال إن كل شاعر

تبدأ شاعريته بالرجز ، وما ذلك إلا لسهولة وقرب مأخذه .
ويؤيد كون الرجز أول ما ظهر من الشعر ما ذكره من أن الرجز
أقدم الشعر .

وقد كان الشعر كله عندهم اسمان : الرجز والقصيد . فبكل ما لم يكن رجزاً
سموه قصيداً من أى بحر كان ، ويدل على ذلك قول الأغلب الراجز العجلى لما
استنشدته المغيرة بن شعبه وهو على الكوفة :

أرجزا تريد أم قصيدا لقد سألت هينا موجودا

فالشعر عندهم إما رجز وإما قصيد ولا ثالث لهما . والقصيد اسم جلس
جمعى واحده قصيدة . وإذا كان الرجز أقدم من القصيد لزم أن يكون هو
أول وزن تولد من الكلام المسجع وذلك ما نؤيده .

والخلاصة أن السجع حلقة اتصال بين النثر والنظم وإن الوزن متولد
من السجع وإن أول ما وجد من أوزان الشعر هو الرجز وإن الشعر نشأ عن
المصادفة وساعد على ظهوره الغناء والرقص .

يقول الرصافي : الرجز مأخوذ من توقيع سير الجمال في الصحراء بمحجة
أنه أول ما استعمله العرب لسوق الجمال في الحداة هكذا قال كثير ، ومن
الغريب أن صاحب هذا رأى قد ادعى أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى
الجمال مع أن في تقطيعه من سرعة الانحدار والتسرد وتدارك المقاطع مليناً في
كل المنافاة وقع خطى الجمال ، لما في تلك الخطى من التؤدة والرزانة بسبب
انفساح مواقعها وطول القوائم المرتمية من تحت تلك الجثة العالية الضخمة .
ولو سلمنا أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الإبل لما سلمنا أنه يلزم
من ذلك كون الرجز مأخوذاً من وقع تلك الخطى إذ لو لزم منه ذلك
للزم أن يكون وزن الكامل ولا سيما مجزؤه مأخوذاً أيضاً من وقع
خطى الجمال بطريق الأولى لأنه يوافق وقع تلك الخطى أكثر من الرجز
ويطابقها تمام المطابقة ، حتى إنك لو امتطيت جملاً وجعلت وهو سائر بك

سيرا وتبدأ الملشد علمية شعرا من الكامل أو مجزوءه لرأيت عند تمام كل جزء من تفاعيله وقع يد من يدى جملك كما هو ظاهر للمتأمل .

فألفاظ الشعراء كانت سجعاً ثم صارت رجزاً ثم صارت شعراً ، والآنقص من الأشعار والآنقص هي المتقدمة في النشأة لأن الطباع أسهل وقوعاً عليها . ومن ذلك النوع القصير : الأبيات السائرة والأمثال والحكم القهيرة .

يقول الأستاذ لطفي جعنة (١) : إن العربي سمع أصوات النواير (٢) وحفيف أوراق الأشجار وخرير المساء وبكاء الحائم ، ولذلك صوت تلك الطبيعة المترنمة ، ولذلك أن يبكي لبكائها وأن يكون صدادها الحاكى لنغماتها ، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم أنه خيال قريحته ولا يدرك من أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من حركات ناقته .

وقال كليمان هيوار - المتشرق الفرنسي ١٨٥٤ - ١٩٢٧ م - : إن الأسرار الطويلة على ظهور الإبل حببت إلى العربي نشيد الألحان يتلهم بها ويشفي ما يصيبه من أوصاب ، ثم أدرك العربي الملشد أو الحادى أنه كلما سارع في الإنشاد رفعت الناقة رأسها وأوسعت خطاها كأن بين خطاها وأوزان الشعر ارتباطاً فظهرت تلك الضروب عفواً لأنها ثمرة طبيعية من ثمار العبقرية البدوية .

- ٣ -

ومن الناحية التاريخية للنشأة الشعر الجاهلى نقول :

كاتب مؤرخ يونانى هو «سوزومين» ٢٣٥ - ٤٠٠ م قبيل مطلع القرن الخامس الميلادى يقول : إنه فى الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح تغلبت ملكة العرب مافيا على جيوش الرومان وهزمتها فى فلسطين وفيليقيا ؛ فنظم شعراء العرب الأناشيد والأغاني وحفظوها ورددوها وتغنوا بها تخليداً للانتصار .

(١) الشهاب الراصد ص ٢٧٧

(٢) هذا غريب من القول فأين النواير وخرير الماء فى الصحراء والبادية؟

وأثبت سانت نيلوس أحد حكام القسطنطينية وقد هرب في آخر القرن الرابع الميلادي أنه سمع أناشيد العرب الجميلة من صحراء سيناء (١) والشعر العربي المحكي قديم يرجع عهده إلى القرن الرابع للميلاد .

ويقول ابن سلام (٢) : « ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل في الحاجة تعرض له كقول دويد بن زيد حين حضره الموت وهو جاملي قديم :

اليوم يبنى لدويد بيتيه لو كان للدهر بلى أبلتيه
أو كان قرني واحدا أكفيتيه

ولما قصدت القصائد على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف ، وكان أول بادىء لهذه النهضة الشعرية وسائر في اتجاهها المهمل بن ربيعة . ثم جاء امرؤ القيس ، فرقع اللواء . فكان أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ووصف النساء بالطباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالبعقاز والعصى وفرق بين القصيد وما سواه من الشعر ، وقرب مأخذ الكلام وقيد أوايده وأجاد الاستعارة والتشبيه والكتابة ، ورقق الأسلوب وجعله عذبا جزلا . وأول من يروى له قصيدة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر : مهمل (٣) . ويقال : بل ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة الكنانى ، وكان بين هؤلاء وبين

(١) الشهاب الراصد .

(٢) ٢٩٤ ج ٢ المزه ، ١٧ طبقات الشعراء لابن سلام

(٣) هو مهمل بن ربيعة ، ومهمل لقب له سمي به لأنه أول من أرق المرائى ، واسمه عدى ، وقيل سمي مهمل لقوله : « هلمك أنار جابرا أو صنبلا ، (راجع ١٢٩ ج ٢ الأمالى) وفيه يقول الفرزدق : « ومهمل الشعر ذك الأول . » ويقول ابن سلام في طبقات الشعراء : وأول من قصد القصائد وذكر الوقائع : المهمل بن ربيعة التغلبي (٢١ طبقات الشعراء ، ٢٩٥ ج ٢ المزه للسيوطي)

الإسلام أربع مائة سنة . وجاء امرؤ القيس بعد هؤلاء بمائتين وخمسين سنة تقريباً .

-- ٤ --

وبعد فإن الباحثين يختلفون في أول من أحدث هذه النهضة الفنية في الشعر فذهب أطال فيه ، وأسماء مهلهل وامرؤ القيس والأفوه الأودى والقيط بن يعمر الإيادي وعمرو بن قميصة تتردد في هذا المجال ، ويقول السيوطي في مزهره نقلاً عن عمرو بن شبة م ٢٦٢ هـ : « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه وقد اختلف في ذلك العلماء وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لأنهم لا يسمون ذلك شعراً ، فادعت اليمانية لامرؤ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلهل ، وبكر لعمر بن قميصة والمرقش الأكبر ، ولما زاد لأبي ذؤاد ، وزعم بعضهم أن الأفوه الأودى أقدم من هؤلاء ، وأنه أول من قصد القصيد ، وهؤلاء نفر متقاربون ، وأهل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها (١) » . وقد ضاع من الشعر الجاهلي الكثير « ولم يحفظ من الموزون عشرة (٢) » ، « ولا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب كما يقول ابن سلام (٣) » وكان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان (٣) . « ويرى أن الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب الجاهليين . ويقول أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم ما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وأفرا الجاهل علم وشعر كثير (٤) » .

(١) ٢٩٦ هـ المزهرة طبع صبيح (٢) ٢٩٢ هـ المرجع
(٣) ٢٩٣ هـ المرجع ٢ و ص ١٦ طبقات الشعراء لابن سلام طبع
المطبعة المحمودية .
(٤) ١٦ طبقات الشعراء .

الشعر في الجاهلية

تمهيد :

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب ، والمصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم ومشاهد الوجود بينهم ، أودعوه وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وأثارهم وذكرياتهم وأوصاف بيئتهم .

وكان له سحره وروعة تأثيره في نفوسهم ، إذ كان صوت القبيلة ، ولسان القوم ، والذائد الحامى الذمار ، والمدافع عن الأحساب والأنساب والشرف ، والناطق بالحجة ، والداعى إلى الخير . وكان الشعراء ذوى مكانة كبيرة بينهم فهم الذين ينطقون بمجد القبيلة ، ويفخرون بجلائلها وماضى أيامها ؛ وحسبك من مكانة الشعر عند العرب أنه لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن المعجز نظمه المحكم تأليفه وأعجب قريشاً ما سمعوا منه قالوا : ما هذا إلا سحر ، وقالوا فى النبي : شاعر تترىص به ريب المنون . ويقول الأصمعى : « الشعر جزل من كلام العرب ، تقام به المجالس ، وتستنتج به الحوائج ، وتشفى به السمخائم » .

ونبغ فى الشعر كثير من الشعراء والشاعرات ، من خلدت ذكركم كتب الأدب والشعر ومصادرهما الأولى .

ولا تزال مصادر الأدب والشعر الجاهلى صورة ناطقة . يلاغتهم وسحرهم وشدة تأثيرهم وقوة بلاغتهم وجلال أثرهم فى حياة العرب فى جزيرتهم طول هذا العصر الجاهلى الغابر .

ومن قدر الشعر عندهم أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت القبائل

فهنأنها بذلك ووضعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالزاهر كما يصنعن في الأعراس ، وكانوا لا يهنتون إلا بغلام يولد أو شاعر يلبخ أو فرس تلتج . وكانت البنات ينفقن إذا شرب بهن الشعراء .

ولم يترك العرب شيئاً مما وقعت عليه أعينهم أو وقع إلى آذانهم أو اعتقدوه في أنفسهم إلا فظموه في سبط من الشعر حتى إنك ترى في مجموع أشعارهم ديواناً فيه من عوائدهم وأخلاقهم وآدابهم وأيامهم وما يستحسنون ويستبجنون ، ولذلك قالوا : كان الشعر ديوان العرب ومعدن حكمتها وكنز أدبها .

وقال دعبيل : « كان امرؤ القيس من أدباء الملوك ، وكان من أهل بيته وبنى أبيه أكثر من ثلاثين مليكاً فبادوا وما ذكروهم وبقي ذكره إلى يوم القيامة ، وإنما أمسك ذكره شعره » .

تأثير الشعر في النفوس :

كان الشعر في الجاهلية هو المقيد لأيامها ، والشاهد على أخبارها والناطق بمجدها والمصور لمفاخرها . وكان لكل قبيلة شاعرها الذي يذود عنها ويناضل عن شرفها ويساجل خصومها وينازلهم في كل مجال . وكانت العرب أممة يسحرها البيان وتروعها البلاغة ويستبد بإعجابها الشعر الجيد البليغ .

كان الشعر قوة فعالة في الحياة الجاهلية ، وكان له تأثيره في نفوس العرب وسلطاته في حياتهم وقدره وخطره فيما بينهم ؛ يرفع الحامل ويضع الفذ العظيم ، وينوء بشأن القبيلة ، ويزرى بأعدائها وخصومها ، ويحفظ له الاس و يروونه ويدشدونه في كل مكان .

وقصة المحلق الكلابي مع الأعشى حيث استضافه وأكرمه وكان

- ٢١٨ -

فقيراً تعلقا وكانت له بنات عوانس ؛ فمدحه الأعشى بقصيدته :
أرقت وما هذا السهاد المؤرق؟ وما بي من سقم وما بي نعش
يقول فيها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحاق
فسارت القصيدة في كل مكان ، وخطب بنات المحلق الكثير من
سادات العرب .

وذهب الأعشى قاصدا رسول الله ليمدحه ويعلمن إسلامه وكان قد
نظم قصيدته :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبث كما بات السليم مسمدا
فتصدت له قریش وحالت بينه وبين ذلك خوفا من تأثير شعره وأهدت
له هدية سلية فرجع .

والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر
من مدحوه ، كثيرون مشهورون في الجاهلية وبعدها (١) .

- ٣ -

منزلة الشاعر :

كان للشاعر في الجاهلية منزلة كبيرة وشأن خطير لأنه هو الذي
ينطق بمجد القبيلة ويشيد بمآثرها ومفاخرها وأحسابها وأبطالها ، ويرد على
خصومها ويزود عنها أعداءها ، وكانت القبيلة في الجاهلية تفرح إذا نبغ فيها
شاعر فرحا عظيما ؛ قال ابن رشيق :

وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك

(١) راجع من دفعه الشعر ووضعه الهجاء ١٤ ج ٣ العقد

وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأفراح
وتتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتحميد
لمآثرهم وإشادة بذكورهم وكانوا يهناون بفلام يولد أو شاعر يلبيغ أو
فرس تلتج

وكان للشاعر مكانته الكبيرة في الحياة الاجتماعية في الجاهلية فهو
لسان القبيلة وحكمها ، فلا يعارض ، ويستشفع فيشفع ، ويقول فيهنى
لقوله ، وبشير لا يرد له رأى .

وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب فلما كثر الشعراء وكثر
الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر (١) ويقول أبو عمرو بن العلاء :
كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي
يقمد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر
مكسبة ورحلوا إلى السوق وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب
عندهم فوق الشاعر (٢) .

- { -

التكسب بالشعر :

ولما كانت الشعر في الجاهلية وعظمة شأن الشاعر كان الشعراء يأفون أن
يمدحوا إنساناً إلا لأغراض شريفة ومقاصد نبيلة . حتى وجدت طبقة من
الشعراء قسدت بشعرها الملوك والأمراء وانتجعت الرؤساء والاشراف
وأزرت بالشعر ومكانته والشاعر ومنزلته إزراء شديداً . ومن هؤلاء
الشعراء الذين تكسبوا بالشعر :

(١) الباذغة الذبياني ، فقد قصد بشعره ملوك الحيرة وغسان يمدحهم

(١) ٣/٢٥٩ البيان والتبيين للجاحظ

(٢) ١٧٠ ج ١ المرجع

ويثنى عليهم ويشيد بأعمالهم فأغدقوا عليه المال وكانواؤه على ذلك مكافأة كبيرة ، ولكنه مع ذلك كان يعتز بنفسه كثيراً ، فيقول عن ملوك بني غسان يخاطب النعمان بن المنذر ويعتذر إليه :

ملوك وإنخوان لماذا ما أتيتهم أحكم في أهوالهم وأقرب
(ب) وزهير ، فقد مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف ؛ وأشاد
بهرم إشادة البليغ الشاعر الساهر .
(ج) وكذلك أمية بن أبي الصلت ، وهو القائل يمدح عبدالله بن جدعان
وكان سيداً جواداً مضيافاً :

كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجليل ولا مساء
يبارى الريح مكرمة ومجدا إذا ما الكلب أجحره الشتاء
فهل تخفى السماء على بصير وهل بالشمس طالعة خفاء ؟
(د) وكذلك الأعشى فقد جاب البلاد ومدح الرؤساء وسواهم وتكسب
بشعره تكسباً شديداً ، وقالوا إنه أول من سأل بشعره (١) :
(هـ) ثم جاء بعد هؤلاء الخطيئة فاتخذ الشعر تجارة ومكسباً وحرفة
بين الناس . وذلك بما غرض بالشعر . وأذى به عند الخاصة .

شاعرية العرب

الشعر الجاهلي كثير كثرة هائلة ، والشعراء المعروفون بالشعر في
قبائلهم وعشائرتهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم باحث ، أو
يقف على عددهم واقف . ولو أقتى عمره في التنقيب عنهم ، واستفرغ
بجوده في البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة

(١) ٢٩ طبقات الشعراء لابن سلام ، ويروى أن المرقش الأكبر هو أول
من أطال المدح ٢٩٩ ج ٢ المزهر ،

حتى لم يفته منها شاعر إلا عرفه . ولا قصيدة إلا رواها (١) ، ويذكر ابن قتيبة أن أبا ضمضم أنشد شعرا لمائة شاعر كلهم اسمهم عمرو (١) .
فما السر في هذه الشعارية التي لم تعرف لأمة من الأمم من قبل ولا من بعد ؟

١ - أول أسباب شعارية العرب هو الصحراء وجوها الذي يوحى بالشعر ويلهم الخيال ويذكى العاطفة ويشير الشهور .

٢ - : نازيها هو حياة العرب أنفسهم في الجاهلية ، هذه الحياة الحماسية التي دفعتهم إليها وعرضتهم للنائرة ، ووجدتهم في قلب هذه الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، ويضاف إلى ذلك رجوع العربي إلى عاطفته أكثر مما يرجع إلى عقله ، وتمثله في بطن الصحراء على جملة أو فرسه وسط الرمال والجبال والتماهات ، وحاجته إلى الغناء في هذه الوحدة الشاملة ليسلى هموم نفسه وأحزانها وآلامها .

٣ - هذا عدا الاستعداد الفطري للشعر في نفس كل عربي وعربية بما كان يذكيه الخيال ، ويولده التأمل وتلك الحياة الشبيهة بالحياة الصوفية المتنبلة .

٤ - ونجد كذلك ظروف الحياة الاجتماعية في الصحراء وكثرة حروبهم وغاراتهم وحاجتهم إلى التزعم بمفاخرهم ومآثرهم وأحسابهم وأنسابهم ، مما لا بد فيه من نوع جميل من الأدب يخلده ويرويه ويزينه بين الناس ، وليس هذا النوع سوى الشعر .

٥ - قوة حافظته العرب وأنهم أمة أمية تعتمد على الذاكرة لا على التدوين ، والشعر أسهل في الحافظة رواية وأبقى تعلقا بالخطاير .

٦ - يضاف إلى ذلك اللغة العربية نفسها فإنها بإقرار الباحثين في أصول اللغات لغة شعرية برنين مفرداتها وأسايلها وروحها ومعانيها .

٧ - إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة ، التي من أهمها هذا الفراغ

- ٢٢٢ -

الكثير الذي كان يتمتع به العربي لعدم اشتغاله بصناعة أو تدبير ملك وسياسة أو لمادة مرافق دولة .

وبعد فقد كان العرب شعراء بالفطرة ، نظم الشعر كل عربي وعربية ، كما نظمها الملوك والأمراء والسادة والحكام والفرسان والصالحين (١) والعبيد وسواهم من شتى الطبقات مما بلغ حد الكثرة الهائلة لولا أن ضاع أغلبه على مر الأجيال حتى قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم ما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجامكم علم كثير وشعر كثير (٢) .

لون الشعر العربي الجاهلي

ينقسم الشعر عند الإفرنج إلى : غنائي وقصصي وتمثيلي ، وقد ظهرت هذه الأنواع في الشعر اليوناني ، الذي قلده الرومانيون بالنظم في شتى هذه الألوان ، كما بنى الشعر الأوروبي الحديث على الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة .

أما الشعر القصصي : فهو الذي يصور الوقائع والعادات وأحوال الشعوب ويصف الاجتماع وسير الأبطال ، ويستوحى الآلهة والأساطير .

وأما الشعر التمثيلي : فيعتمد على الحوار وتمثيل الحوادث والأشخاص وإظهار حركاتهم وما في خواطرهم من مشاعر ونزعات .

وأما الشعر الوجداني أو الغنائي فيصور العواطف الإنسانية ومشاعر الشعراء وأفكاره ونزعاته ويتحدث عن الجمال والطبيعة حديث المتأمل المفكر فهو يعبر عن الشاعر وخواطره وآماله وآلامه وأحلامه وتأملاته ومشاعره تعبيراً صادقا واضحا قويا مؤثرا .

(١) منهم تأبط شرا وعروة بن الورد وسواهم .

(٢) ٢٩٤ ج ٢ الزهر .

والشعر العربي أو الجاهلي بصفة خاصة شعر غنائي لا أثر للون القصصى أو التمثيلى فيه ، فهو يمثل عواطف الشاعر وشاعره ، ويلبس من المطرقة والوجدان والخيال والحياة العامة .

لم يكن الشاعر الجاهلي قاصا ؛ فلم ينظم الشعر القصصى ، وإنما كان ينطق بما يمليه عليه شعوره ، ووجدانه ويتحدث عن نفسه ومجتمعه ويثبته . ذلكم أن الشعر القصصى يحتاج إلى نفس طويل وفراغ كثير ، وروح فنية متحضرة أو هو لون من ألوان الحضارة لأنه تدوين وتاريخ قصة من قصص الأبطال أو فترة من تاريخ الأمة وحياتها ، والعربى لم يكن يعرف أسباب الحضارة ولا سائر لها من الكتابة والتدوين والتاريخ . وإن كان بعض الشعراء الجاهلين قد أجاد فى القصص الشعرى الصغير ، كقول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال
وقالت سبائك الله إنك فاضحى ألسنت ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاندا ولو قطعوا رأسى ليدك وأوصالى

وقول الأسود بن زهير :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إباد
جرت الرياح على محل ديارهم فسكانهم كانوا على ميعاد
فأرى النعم وكل ما يلهى به يوما يصير إلى بلى ونفاد

إلى غير ذلك من الكثير من ألوان هذا القصص الشعرى الصغير (١) ، ولكن مهما كان فلا نجد فى الشعر الجاهلى شعرا قصصيا بالمعنى المعروف ، إذ

(١) يقول الدكتور طه حسين : لست وانفقا كل الثقة من أن الأدب العربى ينحدر من القصص ، فالذين يقرأون الشعر الجاهلى والشعر الأموى كشعر جرير والفرزدق والأخطل يلاحظون أن مزايها كثيرة من خصائص الشعر القصصى موجودة فى الشعر العربى (١٥١٤) من حديث الشعر والنثر .

لأن نجد قصائد تصور حياة الأبطال مثلاً في عدة آلاف من الآيات ، ونفس العربي لا يساعده على هذا الطول ، فوق قيود الوزن والقافية؛ فضلاً عن أن شدة تعلق العربي بالحرية ونزوعه إليها وإلى الاستقلال بذاته عن عداه ، دعت به إلى أن يوجه همهته إلى وصف عواطفه وتحليل مشاعره وذكر ما يعيش فيه من سلام وحرب وشوق وحزن ، إلى مأسوى ذلك من شتى ألوان شعوره ، مما عنب شعره بصبغة غنائية وجدانية خالصة ، وإن كان لا ينفي ذلك أن الشعر الجاهلي أشد ما يكون تمثيلاً للبيئة الجاهلية والحياة العربية فيها ، لأن كل ذلك كان وثيق الصلة بنفس الشاعر ووجدانه .

كذلك لم ينظم الشاعر الجاهلي شعراً تمثيلاً ، لأن هذا لون من الشعر يحتاج إلى لون من ألوان المعيشة المتحضرة وإلى قبس من روح الفلسفة والتفكير العميق والنظرات البعيدة للأشياء والحياة ، وذلك مالم يكن له وجود عند العرب في جاهليتهم .

وإن كان بعض الشعراء الجاهليين قد أكثر من الحوار العادي الساذج القصير في شعره ، مما نجده في بعض القصائد الجاهلية (١) ، فإن هذا اللون ليس هو مانع به بالشعر التمثيلي .

وهذا لا يعيب الشعر الجاهلي ولا ينقص من قيمته ، فهو وإن كان شعراً غنائياً جال في كل ميدان وتحدث في كل ناحية ، ووصف مشاهد البيئة ومناظر الطبيعة ومشاعر النفس البشرية وإحساساتها ، مما لا يزال شاهد صدق ومؤرخ حق للحياة في الجاهلية وما كان فيها من أحداث وما كان يختلج بنفس الشاعر فيها من عواطف وآمال .

(١) مثل قول الأعشى :

كن كاسموأل إذ طاف الهمام به في جحفل ، كزيم الليل ، جرار
لذسامه خطي خسف ، فقال له قل ماتشاء ، فاني سامع ، حار
إلى آخر هذه الآيات .

تنقل الشعر في القبائل

تختلف نظريات ابن القدامى والمحدثين حول هذا الموضوع اختلافاً كثيراً ونعرض هنا الآراء المختلفة ، ونناقشها مناقشة هادئة منصفة .

١ - يقول ابن سلام :

« كان شعر الجاهلية في ربيعة ، وأولهم : الملهل ، والمرقشان ، وسعد ابن مالك ، وطرفة . وعمر بن قتيبة ، والحارث بن حلزة ، والمتلبس ، وأدعشى ، والمسدي بن تلبس .

ثم تقول في قيس ، فمنهم : الباقعة الذبياني ، وزهير ، وابنه كعب ، ولييد ، والجدعي ، والحطيئة ، والشماخ ومزرد ، وخداش بن زهير .

ثم آل إلى تميم . ثم يزل فيهم إلى اليوم (١) . . .

وخلال سنة ذلك أن الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة فظهر في قبائلها وعلى السنة شعرائها ، ثم انتقل إلى قيس من مضر ، ثم استقر في تميم ومنهم أوس بن حجر ، (٢) .

٢ - ويذهب طه حسين في الأدب الجاهلي كما سيأتي إلى عكس ذلك ، فيرى أن الشعر كان في مضر ثم انتقل إلى ربيعة فالين ثم إلى شعراء الموالي (٣) وهذا بناء على نظريته في انتقال الشعر وسيأتي تفصيل ذلك .

ورأي طه حسين لا سند له من الواقع والتاريخ ، ويرد عليه الأستاذ محمد لطفي جمعة في كتابه « الشهاب الراصد » (٤) .

(١) ٢٢٢١ طبعات الشعراء لابن سلام طبع المطبعة المحمودية ، ٢٢٩٥
المزهر للسيوطي (٢) وكان زهير راويته ٢٩٦ ج ٢ المزهر ،
(٣) ٢٠٦ الأدب الجاهلي (٤) راجع ٢٩٦ وما بعدها من الشهاب الراصد

٣ - والواقع أن الشعر كان في القبائل اليمنية ، ومنهم : امرؤ القيس (١) وسواه.. ثم انتقل إلى ربيعة (وهي قبائل كثيرة منها بكر وتغلب وعبد القيس والنمر بن قاسط ويشكر وشيبان وذهل وسدوس) ، وكانوا قديما يقيمون في اليمن ثم رحلوا إلى نجد ، وهذا يفسر سر ورائتهم الشعر عن اليمن ، وظهر منهم في نجد شعراء كثيرون : ومنهم المهلهل ، والمرقشان ، وطرفة ، والمتلبس ، وعمرو بن قميئة ، وسعد بن مالك ، والمسلب ، والأعشى ، والحارث بن حنظلة ، وعمرو بن كلثوم . ثم تحول الشعر في قيس من مضر ، (ولقيس بطون كثيرة منها : عبس وذبيان وخطفان وسليم وهوازن وعدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وعقيل وقشير وجعدة ونمير) ، وكانت مساكن هذه القبائل في نجد وأعلى الحجاز ، وظهر منهم كثير من الشعراء : كالنابغة ، وزهير ، وابنة كعب ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماع ، ومزدد ، وعنترة . ثم استقر الشعر في تميم وهي من كبرى قبائل مضر ، (ولها بطون كثيرة منها : مازن ودارم ويزروع وبجاشع ومالك) ، وكانت تميم تقبى في تهامة ونزحت إلى بادية العراق وما يليها جنوبا قبل الإسلام بنحو خمسين ومائة سنة ، ومن شعرائها أوس . ثم ظهر الشعر في بطون مدركة بعد ذلك : من هذيل وأسد وكنانة وقريش والدئل .

أما المدن فشعراؤها قليل ومن أشهرهم : حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلوات الله عليه .

شياطين الشعراء

١ - كان العقل البشري في العصر الجاهلي لم يستحكم فوجه التفكير والاجتماعي ، وكان الناس كثيرا ما يعيشون على الأوهام . وللعرب أوهام

(١) والمهلهل خال امرئ القيس . وكان امرؤ القيس وطرفة وعبيد وعمرو ابن قميئة والمتلبس في عصر واحد ، ٢٢٠ طبقات الشعراء لابن سلام .

كثير نزلات عندهم منزلة الحقائق .

فقد كانوا يعتقدون به جود الغول وأنها تشكّل وتتلون في ضروب
الشيء ، والعصر ، يقول تأبط شرا :

ألا من مبلّغ فتيان فهم بما لا قيت عند رضى طعان

أأن قد لقيت الغول تلوى بمرت كالصحيفة صومحان

إلى آخر هذه الذبيات .

وكانوا يلبسون إلى الجن أساطير وخرافات (١) ، ويذكرون أن من
مدنهم : حجرة ، التي يلبسون إليها كل فائق العفة من الأشياء وكل غريب
الشكل من الناس بل كل ما أراؤا تميزه عن أنواعه من المماني ، قال أعرابي :
« ظلمني والله ظلمًا عبقرياً » ، والرسول (ص) في عمر : « فلم أر شبقرياً يفري
لربه » ، وأكثرت سمعنا العرب من التحدث عن الجن : كعمرو بن براق ،
والشعري ، والسمك بن السلكة وتأبط شرا وسواهم .

ويروي أبو اسحاق النظام - كما - واه العجاض في الحيوان - أن أصل ذلك كله
هو الأوهام الناشئة عن الحياة في أرض مقفرة بعيدة عن العمران قليلة المسالك
والعالم بما يحدث للسائر فيها ألوانا من الخوف النفسى ، ويقول عبيد بن أيوب
وكان جواباً في جاهل الأرض يشرح أسباب الخوف وما يلبس من الوهم :

دله در الغول أى ربيعة له صاحب قفر خائف متنظر

وقد كثر في الشعر الجاهلي ذكر الجن والغيلان والسمالى وسوى ذلك .

٢ وأدى ذلك إلى أن جعل العرب للشياطين شعراء يلهمونهم الشعر
والخيال ، وسوم بأسماء ، واقتصر كل شاعر بشيئانه ، ولاشك أن كل ذلك
ناشئ عن تصورهم للجن ، حين رأوا الشعراء إنساناً يختلف في أطواره عن
مشابهة وينزل بفكره إلى أودية لم يعتادوا الخوض فيها ؛ وحين رأوا لكلامه

(١) راجع حديث سواد بن قارب لعمر بن الخطاب حول كلام جنى لسواد

في صدق الرسول صلوات الله عليه ، ٢٥ و ٢٦ الجمرة ،

فعل الخمر وتأثير السحر وأنه إذا أراد قبح الحسن وحسن القبيح فأدخل على النفوس الوهم بقبحه أو حسنه فبان رائقا ممجيا وجميلا فاتنا ، وأنه إذا شاء أو غر الصدور ، ثم إذا شاء أطفأ هذه النار التي ألهبها ، وأتأم هذه الفتنة التي أيقظها ، وأنه هو الذي جمع في قلب واحد بين الفتنك والمسك والمهر والظلم ، فمكان عابدا متخشعا ثم طامعا متطلعا وقائعا متعففا ثم جبارا متمسقا ، وأنه هو رب الحكمة يرسلها نور هدى ، والكلمة الفاجرة يجعلها شرك عماية وغواية ، وأنه القادر على ما شاء من برهان وبهتان . لما كان هذا شأن الشاعر وكافيه إنسانا كشيطان توهموا أن روح ذلك الشيطان لا يسته فنطق بهواها وأدى فخرها .

ومن شياطين الشعراء الشيصبان ، ولا نط شيطان امرئ القيس ، وهبيد شيطان عبيد ، وهاذر صاحب النابغة ، ومسحل صاحب الأعشى ، إلى ماسوى ذلك من شياطين الشعراء .

٣- وصور الجاهليون عقيدتهم حول شياطين الشعراء ، في شعرهم فقال شاعر :
فان شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن
وقال حسان :

ولي صاحب من بنى الشيصبان فطورا أقول وطورا هوه
وقال الأعشى في شيطانه مسحل :
دعوت خليلي مسحلا ودعوا له جهنم ، جسدعا للجهنم المذم
وجهنم : شيطان عمرو بن قطن .

ويقول أيضا : إذا مسحل يسدى لي القول أعلق . وراجع أسطورة عن هبيد صاحب غبيد في الجهرة (١) وفي الجهرة : د شعراء العرب شياطين تنطق به على ألسنتها (٢) .

ومن أسماء شياطين الشعراء : هباب ، وهاذر صاحب النابغة ، ولا نط صاحب امرئ القيس (٣) ، وسوى ذلك .

(١) ص ٢٠ و ٢١ الجهرة ط ١٩٢٦ (٢) ص ٢٢ المرجع (٣) راجع ٢٣ و ٢٤ من المرجع

٤ - ويرد ابن حزم (١) عقيدة العرب في شياطين الشعراء إلى ما ألقى في روعهم من أن الجن غلاة القوّة والتفوق على الإنس فلبسوا اليهم كل عظيم يعجز عنه البشر .

طبقات الشعراء الجاهليين

- ١ -

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين في الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا في المنزع أو يدخلوا في مناقضة أو يتزاحوا على باب ملك (٢) ومعنى الطبقة أسم نظراء (٣) وأنهم قرييون من بعض في ميزانهم الأدبية العامة وإن اختلفوا في اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الفني .

والشعراء أربع طبقات : جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعايجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس (٤) . ويشيخ إليهم الشهاب الخفاجي : المحدثون ثم المتأخرون والعصريون (٥) . والمخضرمون هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وقالوا فيه اشعر كالجمهدى والحطيئة وحسان ، أما لبيد الجاهلي لأنه حرم الشعر على نفسه بعد إسلامه ولم يقل إلا بيتين فيه (٦) .

(١) ٢٢٢ ج ١ الملل والنحل (٢) ١٠١ ج ١ الأدب العباسي لمحمود مصطفي (٣) ٨٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب (٤) ٥٠ تاريخ الأدب العربي للزيات ، و ٣١٠ الريحانة للشهاب الخفاجي (٥) ٣١٠ و ٣١١ الريحانة للشهاب الخفاجي . (٦) يقول ابن سلام : كان لبيد فارسا شاعرا شجاعا وكان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام وكتب عمر إلى عامله أن سل لبيدا والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجوا سألت أم قصيدا فقد سألت هينا موجودا

وقال لبيد : قد أبداني الله سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه . وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ويعدد أيامهم ورقائهم وفرسانهم (٨) طبقات الشعراء

- ٢٣٠ -

أما الإسلاميون فهم الذين نشأوا في الإسلام إلى آخر عهد الدولة الأموية والمحدثون بعد ذلك وهم العباسيون ، وقال ابن رشيقي : « طبقات الشعراء أربع جاهلي ومخضرم وإسلامي ومحدث ، ثم صار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدرج إلى وقتنا - ٣٠٤ ج ٢ مزهر .

-- ٢ --

ويقسم ابن سلام في كتابه « طبقات الشعراء » شعراء الجاهلية إلى عشر طبقات ، وهي :

- ١ - الطبقة الأولى : امرؤ القيس ، والنابغة ، وزهير ، والأعشى .
- ٢ - الثانية : كعب والحطيئة .
- ٣ - الثالثة : الجهمدي وأبو ذؤيب والشمخ ، وليبيد .
- ٤ - الرابعة : طرفة وعبيد وعلقمة وعدى .
- ٥ - الخامسة : خدش ، والأسود بن يعفر ، والمخبل ، وتميم بن أبي بن مقبل .
- ٦ - والطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة ، وسويد بن أبي كاهل .
- ٧ - والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، والحسين بن الحمام المري ، والمتلس ، والمسيب .
- ٨ - والطبقة الثامنة : عمرو بن قيس ، والنمر بن تولب ، وأوس بن علفاء ، وعوف بن عطية .
- ٩ - والطبقة التاسعة : ضابي بن الحارث ، وسويد بن كراع بن الحويدرة ، وسهيم .
- ١٠ - والطبقة العاشرة : ابن الأسكر وابن مخفض وعمرو بن شاس .
- ١١ - ويضيف إليهم أصحاب المرائي وهم : متمم والخنساء وأعشى باهلة وكعب بن سعد ، ثم شعراء القرى العربية وهي :

— ٢٣١ —

(أ) المدينة وشعراؤها حسان وكعب بن مالك وابن رواحة وقيس بن الخطيم وابن الأسلت ، ويهودها الشعراء : السموأل والربيع بن أبي الخثيق وكعب بن الأشرف وشريح بن عمران وشعبة بن غريفة وأبو قيس بن رفاعة وأبو الذئبال ودحم بن زيد .

(ب) مكة وشعراؤها : ابن حذافة وهيب بن الزبيري وأبو طالب وأبو سفينان ومساير وضرار بن الخطاب وأبو عزة الجهمي .

(ح) الطائف وشعراؤها : أبو العسلت ، وأميرة بن أبي العسلت ؛ وغيلان وكنانة بن عبد ياليل ،

(د) البحرين وشعراؤها : المثقب والممزيق العبدى والمفضل .
ولا حظ أنه يفتخ الشعراء المخضرمين مع الجاهليين ، لأنهم أدركوا جانباً من الجاهلية .

— ٣ —

وقال أبو عبيدة :

أشعر الناس أهل الوبر خاصة وهم :

(أ) اسرؤ القيس ، وزهير ، والنابعة

(ب) وفي الطبقة الثانية : الأعشى ، ولييد ، وطرفة .

(ح) وفي الطبقة الثالثة : المرقش ، وكعب بن زهير ، والخطيئة ، وخدش ، ودريد بن الصمة ، وعنترة ؛ وعروة بن الورد ، والنمر بن تواب والشمخ ، وعمرو بن أحر .

قال صاحب الجهرة : والقول عندنا ما قال أبو عبيدة :

اسرؤ القيس ثم زهير والنابعة والأعشى ولييد وعمرو وطرفة (١)

(١) هـ الجهرة . ولا حظ أن فيمن عدم أبو عبيدة في الطبقة الثالثة شعراء

- ٢٣٢ -

- ٤ -

وأما أشعر الشعراء الجاهليين فقد اختلفوا فيه ، قال عمر بن شبة في
« طبقات الشعراء » : وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ، فادعت اليمانية
لامرئ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص وتغلب لمهلل وبكر عمرو
ابن قيس والمرقس الأكبر ، وإباد لأبي دؤاد (١) ،

وحكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة : كفاك من الشعراء أربعة ؛ زهير إذا
رغب والنابعة إذا رهب والأعشى إذا طرب وعنترة إذا كاب ، وقيل لـ كثير
أو لنصيب : من أشعر العرب ؟ فقال امرؤ القيس إذا ركب وزدير إذا
رغب والنابعة إذا رهب والأعشى إذا شرب (٢) .

وقال أبو عمر : أشعر الناس : امرؤ القيس والنابعة وطرفة ومهلل .

وروى عن رسول الله (ص) في امرئ القيس : أنه أشعر الشعراء
وقال لهم إلى النار ، وقال العباس بن عبد المطلب عن امرئ القيس هو سابق
الشعراء (٣) ؛ وقدمه كذلك الفرزدق (٤) وقتيبة بن مسلم (٥) ومروان بن
أبي حفصة (٣٨١ ج ٣ العقد) .

وقدم خلف الأعشى ، وكذلك سوى خلف من العلماء (٣٠٠ ج ٢
المزهر) وكذلك الأخطل (٤٥ الجهرة)

مخضرمون ، والمخضرمون مشتق من الخضرمة وهي القطع يقال بمسير مخضرم
إذا قطع طرف أذنه فسمى الشاعر مخضرمًا لا تقطاعه عن الجاهلية إلى الإسلام أو
لأن رتبة المخضرمين في الشعر قد نقصت في الإسلام ، وقيل هو من الخضرمة
بالحاء وهي الحنطة لأنه خلط الجاهلية والإسلام (٣٠٤ و ٣٠٥ ج ٢ المزهر)

(١) ٢٩٦ : ٢ المزهر .

(٢) ٢٩٧ : ٢ المزهر (٣) ٢٩٦ : ٢ المزهر (٤) ٢٩٧ : ٢ المزهر . وكان

الفرزدق أروى الناس لأخبار امرئ القيس وأشعاره (٣٥٣ : ٤ العقد) ،
وراجع يوم دارة جليل فيه (٣٤٢ : ٤)

(٥) ٢٩٨ : ٣ المرجع

وقدم جرير زهيراً ، وكذلك قدمه ابن أحر (١) ، ويروى أن جريراً
 قدمه على الشعراء (١) .
 وكان علماء البصرة يقدمون امرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الأعشى
 أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والناطقة وكان أهل العالية لا يعدلون
 النابتة أحداً وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً (١)
 والخلاف في تقديم شاعر من هؤلاء الشعراء على الآخرين كثير ولا
 داعي للإفاضة فيه (٢) .
 والذين يقدمون امرأ القيس يقدمونه لكثرة ما ابتكر من معان
 خلقت من أساليب في الغزل وسواه (٣) .
 والذين يقدمون النابتة يقولون هو أوضحهم معنى وأبعدهم غاية
 رأ أكثرهم فائدة (٤) .
 والذين يقدمون الأعشى يقولون هو أمدحهم للملوك وأوصفهم للخمر
 وأعزهم شعراً وأحسنهم قريضاً (٥) .
 والذين قدموا لبيداً قالوا هو أفضلهم في الجاهلية والإسلام وأقلامهم
 لغوا في شعره (٥) .
 والذين قدموا عمر بن كاثوم قالوا هو من قدماء الشعراء وأعزهم نفساً
 وأكبرهم امتناعاً وأجودهم واحدة (٦) .
 والذين قدموا طرفة قالوا هو أشعرهم إذ بلغ بمداثة سنه ما بلغ القوم
 في طول أعمارهم ، نخب وركض معهم (٧) .

-
- (١) ٢: ٢٩٩ المرجع (٢) راجع في ذلك ٣١ - ٤٦ من الجهرة
 (٣) راجع ٢: ٢٩٧ المزهر وراجع ٣١ الجهرة و ٣٤ الشعر والشعراء
 (٤) ٢٣ الجهرة وما بعدها
 (٥) ٣٨ الجهرة وكانت عائشة رضي الله عنها تروى ألف بيت للبيد
 (٦) ٤٠ الجهرة (٧) ٤١ المرجع (٢: ٣٨٢ المقدم)

-- ٢٣٤ --

- ٥ -

ويقسمون الشعراء إلى أربعة : شاعر خنذيد وهو الذى يجمع إلى جودة الشعر رواية الجيد من شعر غيره ، وشاعر مفلق وهو الذى لا رواية له إلا أنه مجيد كالخنذيد فى شعره ، وشاعر فقط وهو فوق الردى بدرجة ؛ وشعور وهو لاشئ له . قال بعض الشعراء :

يا رابع الشعراء كيف هجوتنى وزعت أنى مفهم لا أنطق
وقيل هم : شاعر مفلق وشاعر مطبق وشويعر وشعور (١)

رواية الشعر

لم تكن العرب تدون شعرها فى الجاهلية فى ديوان أو سفر وإنما كان محفوظاً فى الصدور تبعه حافظتهم وقلوبهم وأذواقهم وملكاتهم الأدبية الفطرية .

وقد تعجب مما تقرأ من رواية العرب بعد الإسلام وكثرة ما كانوا يحفظون ؛ ولكن لا عجب ؛ فملكات الذكاء والحفظ قوية عند العرب وكانت تعينهم على تخليد الشعر العربى حتى لا يضيع ؟

ولقد كان الأصمى يقول : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنتى عشرة ألف أرجوزة ، وكان خلف أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيده ، وكان خاف مع روايته وحفظه ، يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء ويقال إن القصيدة :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيل دمه ما يطل

لخلف الأحمر نحلها ابن أخت تأبط شرا . وكذا كان يفعل حماد يحقق الشعر القديم ويقول : مامن شاعر إلا قد حقت فى شعره أبياناً فجارت عنه

(١) ٢:٣٠٥ المزهر ، وراجع ٢:٢٢٤ البيان والتبيين للجاحظ

لا أعشى بكر فإن لم أزد في شعره غير بيت (١) . ويقول المفعل : سلط على الشعر من حماد ما أفسده .

ورغم هذه الرواية والحاذقة القوية فقد ضاع الكثير من الشعر العربي الجاهلي وغيره ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : وما انتهى إليكم ما قالت العرب لأقله ولو جاءكم وأفرا اجأتم علم وشعر كثير (٢) .

وأصيب الشعر العربي من الضياع بالافتراء والاختلاق عليه من بعض رواة لأسباب كثيرة منها العصبية أو الرغبة في تفادى الإحراج أو موى ذلك .

ولكن النقاد اهتموا بتعيين الصحيح من المنحول ونهبوا على الكثير من المختلق ، وألفوا كتباً كثيرة جمعوا فيها ما صح من الشعر الجاهلي والآثار الأدبية الأخرى .

وكان لكل شاعر رواية يحفظ شعره وينشده ويأخذ من الشاعر فن الشعر ومذهبه في القريض :

فكان امرؤ القيس رواية أبي داؤد الأيادي . وزهير رواية أوس بن حجر ، والأعشى رواية المسيب ؛ كما كان الحطيئة رواية زهير .

رواة الشعر الجاهلي (٣)

١ - أبو عمرو بن العلاء البصري م ١٥٤ . له روايات ولم يترك مؤلفات (٤)

٢ - حماد الراوية (٧٥ - ١٥٦ هـ) ، كوفي وليس له مؤلفات (٥)

(١) راجع ٤٠٢ : ٢ : العقد (٢) ٢٩٤ : ٢ : الماهر

(٣) راجع : بغية الوعاة - طبقات الأدباء لابن الأنباري - معجم الأدباء لياقوت - وفيات الأعيان - فوات الوفيات - الأغاني - الفهرست .

(٤) ٤٢ : فهرست (٥) ١٣٤ : فهرست . ويقول ابن سلام فيه : وكان أول

-- ٢٣٦ --

٣- الخليل بن أحمد بصرى (١٠٠ - ١٧٤ هـ) وهو مخترع علم العروض.
٤- خلف الآخر بصرى (م ١٨٠ هـ) وليس له مؤلفات ، ونقل عن
السيوطى أنه ألف كتاب ، الجبال وما فيها من شعر ، وله ديوان خاص ،
وقيل إنه صاحب لامية العرب (١) المنسوبة للشنفرى .

٥ - يونس بن حبيب البصرى م ١٨٢ هـ .

٦ - المفضل الضبي م ١٨٩ هـ ، كوفى ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر
العرب فى كتاب (المفضليات) . وأول من فسر الشعر بيتا بيتا ، ويقال إنه
أول من جمع أشعار الجاهليين .

٧- أبو عبيدة بصرى م ٢٠٩ هـ . وله مؤلفات فى اللغة ، وبجاز
القرآن ، والنقائض .

٨- الأصمعى البصرى م ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات فى اللغة ، وكتاب
الأصمعيات طبع أوربا وكتاب فى السكروم والنخيل .

٩- محمد بن سلام الجحى م ٢٣١ هـ له طبقات الشعراء ، وغريب
القرآن (٢) .

١٠ - النضر بن شميل م ٢٠٤ هـ

١١ - مؤرج السدوسى م ١٩٥ هـ

١٢ - ابن البكلى هشام بن محمد م ٢٠٤ هـ

١٣ الهيثم بن عدى كوفى رواية أديب وله مؤلفات وتوفى سنة ٢٠٦ هـ

١٤ - أبو زيد الأنصارى م ٢١٦ هـ ، ثقة وله مؤلفات .

١٥ - أبو عبيد بن القاسم م ٢٢٣ هـ .

١٦ - ابن الاعرابى م ٢٣١ هـ ، كوفى ثقة ، وله مؤلفات .

من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الرواية وكان غير موثوق به ،

ويقال إن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب

(١) فى الصناعتين
(٢) ١٦٥ فهرست

الشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد

-- ١ --

لم يعرض النقاد لبحث الشعر الجاهلي ومظاهر التجديد والتقليد فيه ، ولا يسلم القدماء منهم خاصة بمحدثي التقليد في الشعر الجاهلي ، لأنه كله عندهم جديد بكر ؛ ومظاهر التشابه الفني بين انقصائد الجاهلية لا يصح أن يعرض لها أو يتحدث عنها حتى لا نسلم بالتقليد في شعر كله جديد وكله روعة وجمال ، وإذا أخذ الشاعر الجاهلي من شاعر قبله بيتاً أو أبياتاً فلتقل إن ذلك من توارد الخواطر وانفاق الشعاعية ، أولئك ذهب إلى ما ذهب إليه ابن رشيق في عمدته : من أن ذلك « استلحاق » ، والاستلحاق عنده أخذ الشاعر بيتاً من شاعر سبقه على جهة المثل ، وكان أبو عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيباً وقد يصنع المحذون مثل هذا . وقد يسلم المنصفون من النقاد القدامى بأن الشاعر الجاهلي يخطئ كما يخطئ غيره ، ولكنهم لا يسلمون بأنه يفسح قصيدته على نهج قصيدة أخرى لشاعر سبقه ؛ ولم يبحث أحد منهم مذاهب الشعراء الفنية ، وأثر كل طبقة في شعر الطبقة التي تليها . ونحن نعلم أن ابن سلام قسم الشعراء الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المراثي وشعراء المدن العربية ، وجعل في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيرا والأعشى والنابغة ؛ وأن أبا عبيدة قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع في الأولى امرأ القيس وزهيرا والنابغة ؛ وفي الثانية الأعشى وطروقة وليدا . ووافق على ذلك صاحب الجهرة أبو زيد الأنصاري ؛ ولكنك تعلم أن شعراء كل طبقة لم يجد منهم عصر واحد ، مما يؤدي إلى أن يكون في كل طبقة شعراء تأثر بهم إخوانهم في الطبقة نفسها ؛ ومع ذلك كله فإن النقاد لم يبحثوا الصلات الفنية بين الشعراء الجاهليين ، ولا بين طبقاتهم المختلفة ؛ بل إن قصيدتين مثل قصيدة علقمة الفحل م ٥٦١ والتي مطلعها :
« ذهبت من المجران في غير مذهب » ، وقصيدة امرئ القيس :

خايل مرا بن على أم جندب انقضى حاجات الفؤاد المذهب

رغم تشابههما في شتى مظاهر الشعاعية والخيال ، ورغم أن علقمة متأثر
بامرئ القيس في قصيدته وناسج على دنواهما ؛ لا يذكّر النقاد شيئاً عن مظاهر
التشابه الفني بين القصيدتين وهناك قصيدتان أخريان هما : معلقة عمرو بن
كثوم : « ألا هي بصحنك فاصبحينا ، وبمجره أمية بن أبي الصلت :
« عرفت الدارقذ أقوت سلينا ، واتى نسج فيها أمية على منوال قصيدة عمرو
واحتذاء فيها ؛ ومع ذلك فإن النقاد لا يتحدثون عن شيء ، ولا يملكون بحديث
هذا التقليد الفني الغريب ؛ وهناك الكثير من أبيات الشعر تجدها نفسها مكرورة
في شعر كثير من الشعراء ، وقد لا نستطيع أن نشك في روايتها ، ومع ذلك
فالرأى السائد عندهم أن ذلك أثر لاتفاق الشعاعية .

وعلماء الأدب يعرفون أن الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم تحول
في قيس من مضر ثم صار إلى تميم ، ولا يخالف في ذلك إلا الدكتور طه حسين
الذي رأى أن الشعر كان في مضر ثم انتقل إلى ربيعة فاليمن
فالحوالي ؛ ومع ذلك فعلماء الأدب القدماء لم يبالوا يبحث آثار هذه الوراثة
الشعرية المختلفة .

ويقولون : إنه كان لكل شاعر في الجاهلية راوية يروي له ويأخذ عنه
نهجه في الشعر ويتلمذ عليه ويتأثر بشعره ، فكان امرؤ القيس راوية
أبي ذؤاد الأيادي ، وطرفة راوية المتلس ، والأعشى راوية المسيب بن
علس ، وزهير راوية أوس وطفيل الغنوى معاً ، والحطيئة راوية زهير ،
كما كان الفرزدق وهذبة راويتان للحطيئة ، وأبو حية النميري راوية
للفرزدق ، وجميل راوية لهذبة ، وكثير راوية لجميل ، في العصر الإسلامي .
ومع ذلك كله فلا تزال هذه الأستاذية في الشعر في حاجة إلى بحث كثير
للكشف عن مظاهرها وآثارها الفنية . ولا نرى لذلك أثراً يذكر في بحوث
النقاد القدماء .

- ٢٣٩ -

ومدرسة ، المصنفين ، من الشعراء الجاهليين كزهير ونلامة ،
وكالامة ، وأبي ، طائيل القنبري والبر ، ثواب . لا تزال في حاجة ملحّة
إلى الكشف الدقيق عن خصائص مذهبهم الفني ونشأته وأثره في الشعر
العربي ، وإن كان الدكتور طه حسين قد ألم بجوانب من هذا البحث في
« الأدب الجاهلي » ،

، إذا كان «المعاد» قد قسموا الشعراء الجاهليين إلى طبقات ،
وأغفلوا أثر الرّياض الشعرية بين هذه الطبقات ، ولم يذكروا شيئا عن
مظاهر الأساذية والليونة بين هؤلاء الشعراء ، فتأقّق بنا أن نقسمهم من
جديد تنظيما أدبيا إلى طبقات متفاوتة ، بحيث نستطيع أن نحكم على
عمل كل طبقة ومدى أثرها بمن قبلها وأثرها في الطبقة التي تليها ، ليستطيع
الباحث أن يفهم الشعر الجاهلي فهمًا جديدًا على أسس جديدة ، كما يفهم
كل ما يتصل بعاطفة بشار وطبقة أبي نواس وطبقة أبي تمام والبحتري مثلا
من الشعراء المحدثين ، وكما يفهم مذهب البشارودي ومذهب شوقي ومذهب
غيرهما في الشعر الحديث .

- ٢ -

وبعد فنحن لا نعد بدا من أن نقسم الشعراء الجاهليين إلى هذه الطبقات
الأدبية :

١ - طبقة مهمل م ٥٣١ ؛ ومن شعرائها : الشنفرى م ٥١٠ ، ونابط
شرام م ٥٣ ، وأبو دؤاد الأيادي م ٥٤٠ ، وسواهم . وزعيم هذه الطبقة
مهمل ، وهو أول من نقل الشعر العربي من طور النثر الجبّز والمقطعات الصغيرة
إلى « رحلة القصيد » فهو أول من قصد القصائد وقال فيها النزل ، وأول من
همل نسيج الشعر وخاصة الرّثاء أي رّفقه ومذهب ، وشعره من أعلى طبقات
شعر المتقدمين كما يقول ابن نباتة ، وهو من شعراء نجد ، وله رثاء كثير في أخيه
كليب زعيم ربيعة والعرب بعد مقتله عام ٤٩٤ م ، وقصيدته العنافية : « جارت

بنو بكر ولم يعدلوا ، إحدى القصائد السبع « المنتقيات » ، وكانت العرب تسميها « الداهية » .

ولا شك أن هذه الطبقة هي التي مهدت سبيل التجديد في الشعر أمام امرئ القيس ، كما أنها جددت ولا شك فيه بنقله إلى هذه النهضة الفنية الكبيرة .

٢ - والطبقة الثانية طبقة امرئ القيس م ٥٦٠ ؛ ومن شعرائها :
 علقمة م ٥٦١ ، والمرقس الأكبر م ٥٥٢ وهو أول من أطاح المدح ،
 والمرقس الأصغر م ٥٦٠ ، وعبيد م ٥٥٥ ، والأفوه الأودي م ٥٧٠ ،
 والمتلبس م ٥٨٠ ، والمتنب العبدى م ٥٨٧ ، والحارث بن حلزة م ٥٨٠ ،
 وطرفة م ٥٦٥ .

وزعيم هذه الطبقة هو ولا شك امرؤ القيس ، وقد تلمذ في الشعر على
 أبي ذؤاد الإيادي وعلى خاله الماهل ، وهو أول من وقف واستوقف وبكى
 واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى
 وقرب مأخذ الكلام وقيد أوايده ، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكنية
 ورقق الأسلوب وجعله عذبا في جزالة وجهان ، وأول من شرع للناس مذهب
 هذا الغزل القصصي الخلو ، وهذا انطرد الجليل القوى ، ولا تزال كلماته
 « قيد الأوابد » ، « ونؤوم الضحى » وسواهما ذات رنين بعيد ، والذي في
 شعر امرئ القيس - كما يقول الأمدى في الموازنة - : من رقيق المعاني
 وبديع الوصف ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة فوق ما استعار سائر الشعراء
 في الجاهلية والإسلام ؛ وهذه الطبقة على أي حال ورثت الشعر عن الطبقة
 التي سبقتها وأثرت في الطبقة التي تليها .

٣ والطبقة الثالثة طبقة النابغة م ٦٠٤ ، وزهير م ٦٣ ، والأشعث م
 ٦٣٩ وهو أول من تكسب بشعره ؛ وعنترة م ٦١٥ . وحاتم م ٦٠٥ وعمر
 ابن كثوم م ٦٠٠ ؛ وليبد م ٦٦٢ ؛ وأمية بن أبي الصلت م ٦٢٤ .

وزعيم هذه الطبقة هو النابغة ولا شك ، فهو أستاذهم وحكمهم في سوق

عكاظ ، والذي تأثر به الكثير من الشعراء كحسان وسواه .

وزهير من أعلام هذه الطبقة وهو زعيم طبقة « المصنعين » وأستناد الخطيئة وسواه من الشعراء .

٤ - والطبقة الأخيرة هي طبقة حسان وقيس بن الخطيم وسواهما من الشعراء الذين عاشوا في الجاهلية وشاهدوا زمن النبوة ، وهم الذين يسميهم النقاد « المخضرمين » .

ولا غنى لنا بعد ذلك من أن نقول إنه كان لكل طبقة من هذه الطبقات مذهب فني خاص ، وكانت هذه المذاهب أثراً لوراثات كثيرة وعوامل سياسية واجتماعية أخرى ، كما يبدو فيها أثر التقليد والتجديد جميعاً .

ولا شك أن قيام الأسواق الأدبية ، وحكومة النقاد بين الشعراء ، وتقرب الشعراء بشعرهم إلى الملوك والأمراء واتخاذهم وسيلة للثراء ، وأداة للبقاء ولساناً لإذاعة مفاخر القبيلة ومحامداً وهجاء خصومها ، وهذه النهضة الفنية الكبيرة التي بلغها الشعر في نجد حيت الطبقات العربية والحروب المستعرة ؛ كل هذه الأمور وسواها كانت تدفع بالشعر الجاهلي دائماً إلى الأمام ، وتدعو إلى تجديده وتهذيبه والتجديد فيه .

وقد متاح لنا فرصة أخرى للحديث عن هذه المذاهب الفنية المختلفة ، وأثرها في الشعر الجاهلي خاصة والعربي عامة .

الشعر الجاهلي بين الطبع والصنعة

١ - المطبوع من الشعراء كما يقول ابن قنينة من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر البيت عجزه وفي فاتحته قافيته وتبدلت على شعره رونق الطبع ووشى الغزيرة (١) . والمصنوع هو المنقح المثقف من الشعر الذي قومه

صاحبه بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ولم يذهب فيه مذهب المطبوعين (١) ،
يظهر للنقاد مهما كان محكما (٢) رتجد البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى
غير لقفه (٣) ، على أن أئمة الصنعة في الشعر العربي كانوا يعملون قصائدهم
نمطا واحدا بما يحملها مستوية الشاعرية الحطية وسواه ، ولذلك قال
الأصمعي : الحطية عند شعره . قال الجاحظ : عاب شعره حين وجده كاه
متخيرا مستويا لمكان الصنعة والتكاف والقيام عليه (٤) ، وقال الأصمعي
أيضا : زهير والحطية وأشباههما عبيد الشعر وكذلك كل من يجود في جميع
شعره ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى تخرج أبيات التهيدة كما
مستوية في الجودة (٥) ، قال ابن رشيق : يريد الأصمعي أنهما يتكفان لإصلاحه
ويشغلان به حواسهما وخواطرها (٦) ، وكان الأصمعي يقول : وإنما الشعر
المحمود كشعر الجعدي ورؤية ولذلك قالوا في شعره : مطرف بآلاف وخمار
بواف (٧) ، وكان الأصمعي يفضل من أجل ذلك (٨) ، قال الجاحظ : وكان
يخالف في ذلك جميع الرواة والشعراء (٩) ؛ وأرى أنه مسبق بذلك الرأي .

(١) ١٦ المرجع (٢) ٢٢ المرجع

(٣) ٢٣ المرجع ولذلك أخذ النقاد القدماء كالصاحب والثعالبي والبدعي على
المتنى كثرة التفاوت في شعره .

(٤) ٢٥ ج ١ البيان والتبيين .

(٥) ٢٥ ج ٢ المرجع وتروى كلمة الأصمعي برواية أخرى هي : زهير والنابعة
وكان النقاد يعدون النابعة من المصنمين ويروى عن أبي عبيدة قال سمعت أبا عمرو
يقول : زهير والحطية عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب
المطابعين (١٠٥ إعجاز القرآن)

(٦) ١١٢ ج ١ البيان والتبيين .

(٧) ٢٥ : ٢ البيان .

(٨) ١٥٠ ج ١ البيان

(٩) ٢٦ ج ٢ البيان . وكان الأصمعي مع كراهته للصنعة يستحسن التفاوت
في الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلق الشعر من آثار الصناعة .

فقد روى أنه قيل الرماح : لو أصلحت شعرك لذكرت به ، فقال : إنما الشعر كنبيل في جفرك ترمى به الغرض فظالع وواقع وقاصد (١) ، ورد بشار على من عابه بالتفاوت في شعره بأن الشاعر المطبوع كالبحر يقذف مرة صدفة ويقذف طوراً خريزة (٢) . وعلى هذا الرأي يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت في شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه وهو الآلية الناطقة على شاعرية المتنبي عنده (٣) . وإذا كان الشاعر مصنّعاً باد جيده من سائر شعره كما في تمام وإذا كان الطبع غالباً عليه لم يبين جيده كل البينونة وكان قريباً من قريب كالبحر يرمى ومن شا كله (٤) .

ويرى بعض المحدثين أن الشعر إذا كان صادراً عن ذات نفس الشاعر كان هو شعر الطبع أو شعر الفطرة (٥) فأبنا وجدت النفس المتأثرة بما يرحمها من بواعث الشعور فقد وجدت هنالك شعر الفطرة (٦) ، ويذهب إلى ذلك العقاد حيث يرى أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والتمكف فإذا كان الشعر صادقا مؤثراً فهو من شعر الطبع وإلا فهو متمكف (٧) ، ويرى أن الأديب المطبوع من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه وأن يكون صاحب هبة في نفسه وعقله لافي لسانه فقط (٨) وكذلك ذهب صاحب تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، الذي ذكر رأى ابن قتيبة وحلله بأنه يريد من الطبع في الشعر معنى الارتجال لا الطبع والشعور والملكة الشعرية الموهوبة ثم بنى على ذلك نقده لابن قتيبة ورأيه (٩) .

ورأى المحدثين إصلاح جديد في الطبع والصنعة ومعناها ، وهو لا ينقض الرأي الأول الذي ذهب إليه القدماء . بل لعل القدماء قد لاحظوه واكتفوا

-
- | | | |
|---------------------|--------------------------------------|------------------------|
| (١) ٢٨٨ ج ٢ الأغاني | (٢) ٢٧٥ ج ١ زهر | (٣) ٢٧٦ مطالعات العقاد |
| (٤) ١١١ ج ١ العمدة | (٥) ص ٧ الطبع والصنعة في الشعر | |
| (٦) ١٦ المرجع | (٧) ٢٧٧ مطالعات | |
| (٨) ٢٢٦ مطالعات | (٩) ١٣١ تاريخ النقد الأدبي عند العرب | |

في تعريفهم للطبع والصنعة بآثارهما الفنية في الأدب والشعر .

ونحن نرى أن الأولى في تحديد معنى الطبع والصنعة أن نجتمع بين الرأيين، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفنّه وأدبه وحي الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف ودون تب في الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ، وإذا جاء شيء من آثار هذا التكلف الفني في شعر المطبوعين من الشعراء فأنما يجيء عفواً وعن غير قصد إليه وتعمد له وإنما طلبه الذوق واستدعاء المعنى ، ونطقت به الشاعرية دون قصد ودون عناء ودون أن يطنى شيء على نفس الشاعر وشعوره وخلجات قلبه ونزعات عقله وإحساسه . والصنعة هي : إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني وترف الأداء ، وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ، وهيامه الفني بها وقصده إليها وتعمره لها في شعره وأدبه ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من مكانه الفنية التي غلبت عليها هذه النزعة واستبد بها هذا الأسلوب ، وكادت تكون فناً خالصاً يطنى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة ، ويستبد بالظهور والغلبة عليها في الفن ، أو يشاركها في تراث الشاعر والأديب الفني فيقلل من ظهور نزعاته ووجداناته فيه ، ولذلك عاب القدماء من النقاد الصنعة والتصنيع ، وكرهوا الصانعين والمصنعين ، ورأوا مذهبهم يخالف مذهب القدماء من الشعراء في الجاهلية والإسلام .

٢ - ولقد كان الشعر العربي أثراً للفطرة والقرينة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة في الجاهلية ، وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال ، يتناغم الشاعر على البديهة ويأتي به عفواً الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعاني وتتابع فتتوالى عليه الألفاظ انشياً ، وتأليه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالاً ، كل ذلك في سهولة وتدفق وفطرة ودون تثقيب وتهذيب وتنقيح ، وقد يتقن الشاعر منهم في شعره من آثار الصنعة التي لم يقصدها البيت

والبيتان في القصيدة ، « وربما قرئت ، من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً . ويزداد حظوة بين الكلام المرسل (١) ، وليس متكاملاً تكليف أشعار المولدين ، وإنما وقع لهم عن غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا . فلم تكن العرب تنظر في أعطاف شعرها بأن تجلس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة لللفظة أو معنى للمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالة وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام ببعضه ببعض (٢) ، فكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالا وتلثال عليه الألفاظ انثيالاً (٣) .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التشويق والصنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما ، كان أوس من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محباً لحسن شعره (٤) وتتلذذ عليه زهير (٥) وكان طفيل كذلك وقد قيل إن زهير روى له (٦) وتتلذذ عليه ، وكذلك كان النمر بن تواب من أصحاب التشويق والتعذيب وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس (٧) ، ومن أبرز رجال هذه المدرسة زهير ، وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التشويق والتنقيح ، يصنع القصيدة ثم يسكر نظره فيها خوفاً من التعقب ، بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك (٨) ، وكان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة أشهر ثم يظهرها فتسمى الحوليات (٩) ، وعمل سبع قصائد في سبع سنين

(١) البديع (٢) ١٠٨ ج ١ العمدة (٣) ١٥ ج ٢ البيان

(٤) ١١٢ ج ١ العمدة (٥) ١٧٢ ج ١ المرجع

(٦) ١١٢ و ١٧٤ و ١٧٥ ج ١ العمدة (٧) ١١٢ ج ١ العمدة

(٨) ١٠٨ ج ١ العمدة (٩) ١٢٤ صناعتين

وكان يسميها الحوليات (١) ، وقيل كان ينظمها في شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول (٢) . قال الجاحظ : ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كرينا (٣) ، وزمنا طويلا يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه اتها ما لعقله وتقبها على نفسه وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمنقذات والمحركات والمقلدات (٤) ، وقال : وكان زهير وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده الحوليات (٥) ، ولعل رأى النقاد في أنه كان يدع القصيدة عنده حولا يهذبها ويقوم ثقافتها ويصبغها بصبغة من الصنعة والتنقيح ، بالغة في إطالة نظره فيها وصنعتة لها . وقد احتج أصحاب مذهب الخدمة بأن امرأ القيس كان يشقف شعره ويعمد فيه نظره ويسقط رديته ويثبت جيده (٦) وكان امرؤ القيس راوية أبي داؤاد الأيادي مع قوة غريزة . وكان يلوذ به في شعره ويتوكأ عليه كثيرا (٧) ، وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم فكان الحطيمية صانعا حاذقا يقوم على شعره وينقحه (٨) ، وكان يعمل القصيدة في شهر وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها (٩) ، وكان يقول خير الشعر الحولى المنقح (١٠) أو المحكك (١١) ، ويشبهون طريقة الحطيمية في الشعر بطريقة زهير (١٢) وكان الأحمسي يمييه من أجل (١٢) صنعته ، وكان الحطيمية رواية زهير (١٤) ، وكان الفرزدق يروي للحطيمية كثيرا وكان أبو حبة النخري وهو من أحسن

-
- | | |
|--|---------------------------|
| (١) ٢٦٦ سر الفصاحة | (٢) ٣٨ ج ٣ الرافعي |
| (٣) أي كاملا | (٤) ٢١ ج ٢ البيان والنبين |
| (٥) ١٤٩ ج ١ و ٢٤ ج ٢ البيان و ١٠٥ إعجاز القرآن | |
| (٦) ١٨٤ ج ٩ العمدة | (٧) ١١٢ ج ١ العمدة |
| (٨) ٦٠ من التصحيف والتحريف للمسكري | |
| (٩) ١٣٥ صناعتين | (١٠) ١٤٩ ج ١ البيان |
| (١١) ٢٥ ج ٢ ، ١٧٥ ج ١ العمدة ، ويروي ذلك عن زهير (٦٦ سر الفصاحة) | |
| (١٢) ٢٦٧ سر الفصاحة | |
| (١٢) ١٥٠ ج ١ و ٢٥ ج ٢ البيان | (١٤) ٧٨ ج ٧ الأغاني |

الناس شعراً أو لطيفهم كلاماً مؤتماً بالفرزدق أخذاً عنه كثير التعصب له والرواية عنه (١)، كما كان هدية بن الخشرم رواية الخطبة وجميل رواية هدية وكثير رواية جميل (٢).

وهكذا استمر هذا المذهب، مذهب التثقيف وطول التهذيب منهجاً فنياً يسير عليه بعض الشعراء حتى بعد العصر الجاهلي، وكان أساساً للمذهب البديع الذي نشأ على يد مسلم وأبي تمام من المحدثين.

بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير في تحديد معنى الطبع والصنعة: يرى الأولون أن التهذيب الفني للأسلوب هو الصنعة، فالصنوع هو المثقف المهذب من الشعر؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتنجيح، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع، وإلا فهو مصنوع متكلف، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه، وكان صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط.

ورأي المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد في معنى الطبع والصنعة. وأرى أن الأولى في تحديد معنهما أن نجتمع بين الرأيين اللذين يتلاقيان ولا يتناقضان، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفننه وأدبه وحي الفطرة والطبيعة واستجابة له واطفه ومشاعره

(١) ١٧٢ و ١٧٣ ج ١ العمدة، ٢٩٩ الشعر والشعر

(٢) ٤٨ ج ٣ الرافعي، ٣٠٠ الأدب الجاهلي، ١٧٢ ج ١ العمدة وكان

كثير رواية جميل ومفضلاً له (١٦ ج ١ العقد)

دون تكلف وتعبد في الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة، أما الصناعة فهي إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني وترف الأداء وزخرف الأسلوب وحببه لهذا الجمال والترف والزخرف، وديانته الفنية بها، وقصده إليها، وتعبد له في شعره، حتى يطلب الفن للفن ويستسلم الجمال للجمال، ويستوحى الشعر من مكانته الفنية التي استبدت بها هذه النزعة، بما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة.

ويجمع جمهور النقاد في القديم والحديث على عيب الصناعة والتعبد، وسموا المصنعين من الشعراء في العصر الجاهلي : عبید الشعر، وعابوا شعرهم، قال الأصمعي الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والناطقة وأشباهم عبيد الشعر، وقال . الخطيب - وهو شاعر إسلامي مشهور - عبد لشعره، قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعي شعره حين وجده كله متخيراً مستويًا لما كان الصناعة والتكلف والقيام عليه، وكان الأصمعي يستحسن التفاوت في الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة، وعلى هذا الرأي يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت في شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه، ويعدده النقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبي وعظيم مكانته في الشعر.

ولقد كان للشعر العربي أنراً للفطرة والبديهة واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة في الجاهلية وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال، ينظمه الشاعر على البديهة، ويأتى به عفو الخاطر، ترد إلى ذهنه المعاني وتتابع، فتتشال عليه الألفاظ وتأتىه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالاً، كل ذلك في سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتثقيب، حتى قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام،

وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجابة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذاهب والعمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتتلألأ عليه الألفاظ انثيالاً .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التثقيب ، وكان يسمى بحبر الحسن شعره ، وتتلذذ عليه زهير ، وكان طفيل النخوى كذلك ، وكان النمر بن توبل أصحاب التثقيب والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه الكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبياني أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة إن امرأ القيس أيضاً كان يثقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديئه ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الأيادي ؛ وكان يلوذ به في شعره ويتوكأ على معانيه كثيراً ، ولكن امرئ القيس ينفي عنه الصنعة والتصليح ، وفرق بين أن يجيء عفواً في شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون مصنعا ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أي حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد في سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيب والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها - خوفاً من النقد والنقاد - بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أوليلة ، وقيل كان ينظم القصيدة في شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول ، وقيل : بل كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة أشهر ، وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائده الحوليات . وقد سارت تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالحطيئة الشاعر الإسلامي وسواه .

وكان هذا المذهب الفني في الشعر الجاهلي - مذهب الصنعة والتصليح -

أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كمعكاف وسواه بالحكومة الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة في عكاظ ويتعالم إليه الشعراء ، كما كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذ وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سني الهدايا والأطاف من عدوهم ، وكان ارتباط الشعر الجاهلي بالغناء ورغبة بعض الشعراء في التجويد والتجديد في المعاني من أسباب نشأة هذا المذهب الفني أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبدية كطرفه وامرى القيس ومهلل وآثار الشعراء المصنعين .

والمعلقات السبع وهى من أشهر القصائد الجاهلية فى البلاغة الأدبية وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال ونصب المملكات ، كلها من آثار الطبع الأدبي الموهوب ، وليس فيها شئ من مظاهر الصناعة الفنية : فعلقة امرى القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولطوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومي والحربي والسياسي لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنتره حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ؛ ومعلقة زهير دعوة للسلام ووصف لأهوال الحرب وقسوتها على الناس والبشرية ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شئ بالمطبوع ، ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصنعة وآثارها الفنية .

وشتان بين معلقة زهير هذه وبين قصيدة النابغة :

كلينى لهم يا أمية ناصب وليل أفاقيه بطى الكواكب
أو قصيدة أخرى لزهير نفسه هى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله
لبعد ما بين الأثر المطبوع والآثر المصنوع .

دفاع عن الشعر الجاهلي

- ١ -

كثرت في العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد في الزرابة بالشعر الجاهلي ، وتنقصه ، ورميه بالقدم والجمود ، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه ، وعيبه حينما يخلوه من الشعر التمثيلي والقصصي ، وحينما يتفككه وعدم وجود وحدة للقصيدة في آثاره الفنية الباقية ، وباضطراب معانيه وعدم تمثيلها إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها ، وحينما آخر يرمونه من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يعاب به شعر قديم أو حديث .

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربي أو الأدب الجاهلي وحده محدوداً ضئيلاً ، وآخرون قرأوا الأدب الجاهلي فلم يطربوا له ولم يرتاحوا إليه ، ولم يفهموه حق الفهم ، وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشعبية الحديثة التي ترى مظهرها بادياً في تنقص كل ما هو عربي أو قديم والتعصب لكل ما هو غربي أو حديث .

ولا شك أن في أكثر آرائهم جوراً في الحكومة الأدبية وإسرافاً ومغالاة كثيرين ، فلكل شعر جيد - كما يقول الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي - ناحيتان مختلفتان ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعاً مؤثر فيهم ، واسكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه ، وهو من ناحية أخرى مرآة يمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبمئته وعصره ، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه ، فازدراء الشعر الجاهلي غلو ليس أقل إمعاناً في الخطأ من ازدراء الشعر الأجنبي ،

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلي وتذوقه صعوبات كثيرة

أهمها : ضعوبة لغته وأسلوبه ، وبعد الأمد بصور البيئة العربية القديمة وألوان الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد ، ولكن ذلك لا يمكن ألا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفني الرائع الذي نجده في الشعر الجاهلي ، فضلا عما فيه من تخليد لأثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهلي أقوى دعامة للعربية وحفظها وخلودها بعد القرآن الكريم .

فهو من حيث إنه صورة من صور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ؛ لا يمكن لذلك ولغيره أيضا الاستغناء عن هذا الشعر القديم وبذره ورائنا ظهريا .

في الشعر الجاهلي جمال ، وهو أيضا لا يخلو من هنات ؛ وفيه روعة ، وإن كنا لا نبرئه من العيب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفني الذي يمثل الشعر الجاهلي ، وأن نتعرف خصائصه وعناصره لنرى إلى أي حد يصح أن نجاري هؤلاء وهؤلاء من النقاد والمتعصبين على الشعر الجاهلي القديم ، وإلى أي مدى يصح أن نسير في الدفاع عنه ؛ فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية في البحث والمناقشة .

١ - أول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهلي : البساطة والصدق والوضوح وعدم التكلف أو الإغراق في الأداء ، وهذا شيء يسلمه النقاد للشعر الجاهلي تسليما ، ويجزمون به ؛ وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به والاذة الفنية حين نقرأه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون في ذلك ما يدعو إلى التهور من شأته ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعو إلا إلى الإعجاب والحب والمتعة . بل إن هذه الميزة الواضحة في الشعر الجاهلي هي نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد في الأدب العربي الحديث : « بعد أن أبعد المحدثون الشعر عن البساطة والإخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسنا

له ، كما يقول الدكتور ضيف (١) .

٢ - ويمتاز الشعر الجاهلي أيضا بالزهد في المحسنات وألوان التزيين الفني ؛ وهذه سمة غالبية علمية . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا المذهب . ولقد كان الشعر المصري الحديث في أول نهضته مثقلا بقيود الزخرف البديعي الذي ورثه عن العصر التركي والعثماني وأواخر العصر العباسي إلى أن ثار النفاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى برى الشعر الحديث من عاهته وسار طليقا إلى غاياته . وقد ظهرت في الآداب الأوروبية أيضا صبغة الزخرف الفني في العصور الوسطى ؛ كما حدث في الأدب الإنجليزي بعد عصر اليصابات ، وفي فرنسا بعد عهد لويس الرابع عشر ؛ أفنقول بعد ذلك إن الشعر الجاهلي يعاب لهذه الحسنه الظاهرة ؟ ويزدري لذلك الفضل الظاهر ؟

٣ - ومن خصائص الشعر الجاهلي : متانة الأسلوب وقوته وجزالة وأمره ، وللبيئة البدوية أثر بعيد في ذلك ؛ وقد سار المحدثون في العصر العباسي على هذا النهج حيناً ، وحيناً آخر أغرقوا في العذوبة والسلاسة والسهولة التي ورثوا بعضها عن العصر الأموي ومدرسة العذريين التي شاعت فيه . وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة ، كدافع آخرون عن العذوبة والرفقة ، ووقف آخرون يحددون مواقف هذه ومواقف تلك كآبن الأثير في المثل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة ضعفا في الشاعر وميلامنه إلى العامية ، وهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البهاء زهير الشاعر المصري المشهور . . . ولكننا نقول للناشئين : ربوا ذوقكم الأدبي ، وأرهفوا مشاعركم الفنية ، وتأثروا في حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التي تعيشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية في هذه المسألة الفنية ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلامته يجب أن تبرز في إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر

الحياة والحضارة في نفسه ؛ ومع ذلك فهذه العذوبة والرفقة يجب ألا تنقلباً
ضعفاً وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة في مواقف خاصة تستدعيها
حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شيء ؛ كما يجب ألا تنقلب الجزالة حوشية وإغراباً
وتمقيداً عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا
المعاصرين الذين يتكلمون الالفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة في قصائدهم إنما
يفعلون ذلك تقليداً فحسب وفي مطلع حياتهم الفنية التي يكثر فيها الماشيون من
التقليد ؛ ونحن على أى حال لا يمكن أن نعييب الشعر الجاهلي لجزالته ، فقد رأيت
موقف النقد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر
من آثار البيئة في الشعر الجاهلي .

٤ - ومن خصائص الشعر الجاهلي أيضاً القصد إلى المعنى في الإيجاز ويسر
وقلة إطناب ولا شك أن المصور الأدبية التي تلت العصر الجاهلي وتعددت
فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبعدت الشعر عن هذا الاتجاه ،
ودفعته إلى الإطناب وشتى ألوان التصوير ؛ ووقف النقد حيال ذلك طوائف ؛
طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالإطناب وترى
فيه جمال الفصاحة ورعة التصوير ، وأخرى تحدد للأطناب مواضع والإيجاز
مواضع ؛ كقدامة في نقد النروان سنان في سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر
المعاصر : أثر الإيجاز أو اعتمد إلى الإطناب ، وإنما نقول له : إن أساس
الجودة الفنية أن تؤدى معانيك في رفق ويسر وقلة فضول . وفي الآداب
الغربية الآن مذاهب تدعو إلى القصد في التصوير البياني والاكتفاء بشرح
الأفكار الجديدة وترك ما عداها .

٥ - ولا شك أن أهم طابع للشعر الجاهلي بعد الذي ذكرناه سابقاً هو هذا
الطابع البدوي الواضح الذي يفجؤك في شتى القصائد الجاهلية ، مما هو أثر
للبيئة والحياة الجاهلية . ونحن ندعو كما يدعوا كل منصف إلى ترك هذا
الاتجاه في الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منهج الحياة في القرن العشرين
كما أن إبراز هذا الطابع البدوي في شعر الشاعر المعاصر يكون تقليداً مستغيثاً

لأمبرر له ، ويحول دون ظهور نزعاته الفنية ومواهبه الخاصة المستقلة في شعره ، وهذا ضرر بعيد .

ومن آثار هذا الطابع في الشعر الجاهلي :

١ - شدة تمثيله للبيئة البدوية ، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على هذا النهج ، فلأروا شعرهم بصور الحياة البدوية ، من وصف الناقة والجمال والظلم والمدن والديار القديمة ، مما سخر به بعض النقاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه فقال مطيع بن إياس :

لأحسن من يبد تحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفـ كما سلما
تلاحظ عبي ناشقين كلاهما له مقلـ في وجه صاحبه ترمى

وهذه دعوة جذيرة بالعناية ، خلية بالإيثار وقد دعا المجددون في الأدب الحديث ، وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ونفسه وبيئته وعصره ، وإلى أن يخلو من آثار التقليد للقدايمى في أغراض الشعر وفنونه وموضوعاته ، وهذا اتجاه جليل قد سار به الشعر العربي الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذى يكون خير مقلد في معناه أو في لفظه . ويكون صاحب هبة فنية في نفسه وعقله ، ويتأثر ببيئته ويؤثر فيها ، ويمثلها في جدها ولها ولها وفرحها وحزنها وسلامها وحربها وألمها وأملها أتم تمثيل .

ب - ومن آثار هذا الطابع البدوى في الشعر الجاهلي أيضا بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الديار . وهذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لا يشذ عن ذلك إلا القليل ، كعمرو بن كاثوم في معلقته التي بدأها بذكر الراح ، وكتابط شرا في قصيدته اللامية المشهورة :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما بطل

والتي يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام . . ويدافع ابن فتيمة في أوائل كتابه الشعر والشعراء ، عن نهج الجاهليين دفاعا حارا ، فقد صور

نهج العرب في وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونها به من ذكر الديار والآثار
ووصلهم ذلك بالأسبب والشكوى وألم الوجد وفرط الصبابة ثم ذكر الرحلة
إلى الممدوح تخلصاً إلى مدحه واستجلاباً لرضائه وسنى ألقائه ، وقال :
والشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام (١) .
وقد سار الكثير من المخضرمين والإسلاميين على هذا النهج أيضاً ، فأكثروا
من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار ؛ كما أكثر الكثير منهم من
بدءها بالغزل ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذي دعا إلى بدء القصيدة
بذكر الراح . قال :

وصف الطلول بلاغة القدم فاجمل صفاتك لابنة الكرم
وتبعه ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بعكاظ الخومل
غير الريح رسمه بجنوب وشمال

وكان أبو نواس شعوبياً في مذهبه ، أليس هو الذي يقول :

تبكى على طلل الماضين من أسد ثمكنت أملك قل لي من بنو أسد
ومن ثميم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأتارب عند الله من أحد

ولكن ابن المعتز كان ناقداً يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة
ويحاول أن يلائم بينهما وينادى بتحضّر الشعر وترك البداوة فيه وتمثيله
لحياة الشاعر وآرائه في الحياة .. وقد ثار ابن رشيق على منهج الجاهليين في
القصيدة ، ورأى - مع من رأوا - أنه لا معنى لذكر الحضرة الديار (٢) وأنه ليس
بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس في عصره عن تلك
الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، وأن الأولى وصف الخمر والقيان (٣) ..

(١) ١٤ و ١٥ من الشعر والشعراء

(٢) ١٩٩ : ١ : العمدة

(٣) ١٧٩ : ٢ : المرجع

وقد تكفلت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا النهج .
الفنى فى القصيدة ، فليس منهم والحمد لله من يبدأ قصيدته بذكر الإبل
والقفار والديار والآثار ، بل إن ذلك لو فعله أحد الآن لرمى بالجنون ؛ ولكن
ليس معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أهله وأحبابه فى شعره أبداً ،
أو ألا يبدأ قصيدة من قصائده بذكرها ، ولكننا نقول إن المعيب هو التزام
بدء القصيدة بوصف الاطلال القديمة تقليداً للجاهليين ، وإذا التزم شاعر
معاصر بدء قصائده بذكر معاهد حياته وأحبابه ولم يتخل عن هذا المنهج ، لم
نحاسبه على ذلك ، إلا إذا قيد هذا من حريته الفنية أو حبس مواهبه وملكانته
الأدبية ، فإنه يجب بحق ألا يقيد الشاعر نفسه بأى قيد لا تلزمه به نفسه ومواهبه
وملكاته الفنية وحدها ، وإلا كان مقلداً لا نصيب له من الشعور بالحياة
والإحساس بها والتمتع النفسى العميق بمشاهدها وصورها وألوانها .

ج - وهناك فى الشعر الجاهلى ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوى
الموروث ، وهى كثرة الغريب والوعشى ، ولا شك أن ذلك من مذهب العرب
القدامى ، حدهم لأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة فى عقولهم ونفوسهم .
وما أروع ما يقول صفي الدين الحلى الشاعر المتوفى عام ٧٥٠ هـ :

إنما الحيزبون والدرديس والطنخا والنقاخ والعطليس
لغة تنفر المسامح منها حين تروى وأشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحش شئ منها ويترك المأنوس
أين قولى : هذا كئيب قديم ومقالى : عقتل قدموس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وليس هناك الآن والحمد لله أحد يدعو إلى استعمال هذه الألفاظ ، أو
رتاح قلبه حين سماعها ، فهى ألفاظ تاريخية يجب أن نفهمها فحسب .

بقيت بعد ذلك صور البيان الأدبى نفسه . أنهوخ أسلوبنا على الصور
(١٧)

القديمة التي يمثلها الشعر الجاهلي ؛ أم نستمد صورته من ألوان حياتنا وبيئتنا وثقافتنا . ولنضرب مثالا واحداً لذلك : لا شك أن الجبل كان عماد الحياة في العصر الجاهلي ، وفي أساليب البيان صور كثيرة استمدت منه ، فقد قالت العرب : ألقى الحبل على الغارب ، واقتعد غارب المجد وسنامه ، ووطنه بمسمة وخرسه بأنياه ، وألقى عليه جرائه ، وناء وأماخ عليه بكسكه ، وقالوا لا ناقة لي فيها ولا جبل ، وأخذ بزمام الأسر ،

وقد حاول النقاد والبلاغيون في المصور القديمة أن يدعوا إلى توليد صور البيان وتنميتها من مشاهد الحياة والبيئة التي تنجد دائماً .

فهل نأخذ صور البيان القديمة في أساليبنا لنرضى العرب القدامى . أو نولد فيها لنرضى عبد القاهر والقاضي الجرجاني وسواهما ؟

لست أدعو إلى الأول ولا أحبه ، وإن كنت لا أرى في الرأي الثاني ضيراً أو ضرراً ، وأوثر أن يضيف الأديب إلى الصور التي يولدها صوراً جديدة يستمدّها خياله من حياتنا وبيئتنا وألوان الحضارة التي نعيش فيها ، والاختراعات التي تجد دائماً بيننا والتي نبعث اللغة عنها ونحاول ألا نستمدّ بها صورنا الأدبية .

ويعدّ فهذه سمات الشعر الجاهلي والصلة الفنية بين حياتنا الفنية الحاضرة وما يصح وما لا يصح أن نقلده فيه .

صلة الشعر العربي بالتاريخ

تمهيد :

الشعر العربي الجاهلي كما يقول ابن فارس : « ديوان العرب وبه حفظت الأنساب وعرفت المناثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيها أشكال من غريب كتاب الله وغريب حديث رسوله صلوات الله عليه (١) » ، وهو

كما يقول ابن سلام : د ديوان علمهم ومنتهى حكمتهم به يأخذون وإليه يصيرون (١) .

وبحق ان الشعر الجاهلي وثيق الصلة بحياة الجاهليين وعاداتهم وأخلاقهم ومعارفهم لأنه يمثلها أصدق تمثيل ، مما يجعله سجلا لتاريخ العرب قبل الإسلام . وإذا كان العرب في الجاهلية لم يستطيعوا تسجيل حياتهم وتاريخهم في كتاب أو على الآثار ، فقد خلدها على صفحات شعرهم الذي ضمنوه أخبارهم وحياتهم وأسماء بلادهم وحيواتهم ونباتهم ، وأودعوه عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم وحروبهم وتجمعاتهم ، حتى كان الشعر الجاهلي أكبر مصدر تاريخي لحياة العرب في الجاهلية ؛ وفيه أسماء محبوباتهم وأبطالهم وشعوبهم وقبائلهم وأيامهم ووقائعهم وأسماء منازلهم ومياهم وعناق خيولهم وأوصاف سيوفهم وملاعب ولدانهم إلى ما سوي مما سبق الإلمام به .

الشعر الجاهلي صورة لأخلاق العرب في الجاهلية :

وأهم أخلاق العربي قبل الإسلام : الشجاعة والكرم والوفاء والأنفة والإباء والحمية والعفة وحب الاستقامة والأخذ بالثأر

يمثل شجاعتهم قول عمرو بن معد يكرب :

هم يـنـذـرن دمي وأنـذـر إن لقيت بأن أشدا
- كم من أخ لي صالح بوأته ييـدـى لـحـدا
ما لـن جـزعت ولا هـلـعت ولا يـرد بكـاى زندا
ألبسته أنوابه وخلقت يوم خلقت جـلدا

وقول الحصين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

فلمسنا على الأعقاب تدمى كلونا
ولكن على أقدامنا تقطر الدما
وقول ودّك :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم
لاية حرب أم بأى مكان
ويمثل كريمهم قول عتبة بن بجير :

فقالوا غريب طارق طوحت به
متون الفيافي والخطوب الطوانح
فقت ولم أجثم مكانى ولم تقم
مع النفس علات البخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما
ضمنا قرى عشر لمن لا فصاح
فقام أبو ضيف كريم كأنه
وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه
وأعراضنا فيه بواق صحاح
جعلناه دون الذم حتى كأنه
إذا عد مال المسكرين المنائح (١)
لنا حمد أرباب المثين ولا يرى
إلى يبتنا مال مع الليل رائع
ويمثل عفهم قول النابغة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم
يميدون بالريحان يوم السبائب
وقول ابن الاطنابة :

المساعين من الخنا جاراتهم
والحاشدين على طعام النازل
وقول شقران متهكما :

أولئك قومي بارك الله فيهم
على كل حال ما أتعف وأكرما
وقول حجر بن حية العبسى :

لا أحرّم الجارة الدنيا إذا اقتربت
ولا أقوم بها فى الحى أخزبها
إلى غير ذلك مما يمثل شتى أخلاقهم تمام التصوير .

(١) جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع إلى الجار لينتفع بابنها مادام فيها لبن

الشعر الجاهلي سجل لعقائد العرب :

ورغم ما ضاع من الشعر الوثني للعرب في جاهليتهم فقد بقي منه الكثير مما يعطيك صورة واضحة لحياة العرب الدينية .

(١) يقول عبد العزى المزني يحلف بمناة :

لأني حللت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج

ويقول أوس بن حجر يحلف باللات والعزى :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهم أكبر

ويقول عبيد في «اليعسوب» وهو صنم لجديلة طيء وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد فتبدلوا «اليعسوب» بعده :

فتبدلوا «اليعسوب» بعده لإلهم صنما ففروا يا جديلا وأعذبوا
إلى غير ذلك مما قيل في الأصنام والأوثان .

(ب) وكان من العرب دهريون ، ويقول شاعر منهم :

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى
وطلوعها حمراء صافية وغروبها صفراء كالورس
تجرى على كبد السماء كما يجري حمام الموت في النفس
اليوم أعلم ما يحى به ومضى بفصل قضائه أمس

(ج) وكان منهم الثائرون على الوثنية المتطلعون لدين من التوحيد ،

قال زيد بن عمرو بن نفيل :

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
عجبت وفي الليالي معجبات وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجلاً كثيراً كان شأنهم الفجور

ويقول أمية بن أبي الصلت :

— ٢٦٢ —

الحمد لله مسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الخليفة لم تنفذ خزانته مملوءة طبق الافاق اشطانا
وقال النابتة :

مجلتهم ذات الاله ودينهم قويم فما يرجون غير المواقب
وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل ، وولى الملامة الرجال
وقال أبو قيس صرمة من بنى النجار :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال
يا بنى الأرحام لا تقطعوها وصلوها قصيرة من طوال
يا بنى النجوم لا تظلموها إن ظلم النجوم داء عضال
ولكثير من الشعراء الجاهليين حتى امرئ القيس أشعار تدل على
عقيدتهم الديلية ، أليس هو الذى ينسب إليه :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيصة الرجل
ويقول : ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ومنه ذو دخل (١)

معارف العرب فى الشعر الجاهلى :

والشعر الجاهلى يصور لك معارف العرب فى جاهليتهم بوضوح ودقة ،
لحول الطب ومعرفة بهم الكثير من الآيات التى تدل بصورة واضحة
على هذا اللون من معارفهم ، قال الشاعر :

فهل لكم فيها إلى فانى خبير بما أعيان الناس خديما ؟
وفى العرافة جاء قول الشاعر :

جعلت لعراف اليامة حكمه وعراف تجد إن هما شفياني
ويدل على معرفتهم بالكتابة قول لبيد :

(١) وناسب لا مرى القيس بن عابس

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجدد متونها أعلامها
وقول المرقش : د كما رقص في ظهر الأديم قلم ،

وفي معرفتهم بالملاحاة قول عمرو بن كلثوم :
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
وقول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة خلا ياسفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طور أو يهندي
يشق حجاب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد
وفي الزجر قول الشاعر :

خبير بنو لخب فلا تك ملغيا مقالة لهي إذا الطير مرت
إلى غير ذلك من شتى أشعارهم التي تدل على معارفهم .

الشعر الجاهلي والحياة الاجتماعية عند العرب :

والشعر الجاهلي يصور لنا الحياة الاجتماعية في الجاهلية وعادات العرب
فيها أدق تصوير .

- ١ - فقد كانوا يطلقون نساءهم ؛ قال الأعشى :
أيا جارتا بيني فانك طالقسة كذاك أمور الناس غاد وطارقة
وكانوا يتزوجون نساء آبائهم بعد وفاتهم ، قال عمرو بن معد يكرب :
فلولا إخوتي وبنيّ منها ملأت لها بذي شطب يميني
- ٢ - وكانوا يشربون الخمر ، قال عنتره :

فإذا سكرت فإني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا سكحت فما أقصر عن ندي وكما علمت شمائلي وتكرمي

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمر الاندريسا
 وكان بعضهم يحرمها على نفسه ، قال قيس بن عاصم :
 لعمرك إن الخمر مادت شاربا لسالة مالى ومذهبة عقلى
 ٣ - وكانوا يعنون بالخيّل أتمّ عناية ، وحفظ الشعر الجاهلى أسماء الكثير
 منها ، قال الحارث بن عباد :

قربا مربوط النمامة منى لقحت حرب وائل عن حيال (١)
 ويقول بشر بن أبى خازم فى الفخر :

وبكل أجرد ساج ذى ميمة متماحل فى آل أعوج يلتقى
 وكانوا يحضرون الحلبة (٢) ويشتركون فى السياق ، قال عنتره :
 فله عينا من رأى مثل مالك عقيرة قوم إذ جرى فرسان
 فليتهما لم يجرىا قيد خطوة وليتهما لم ير سلا لرهان
 وفى سباق داحس والغبراء وقعت هذه الحرب المشهورة .

٤ - وكانوا يعقرون نوقهم وأفراسهم على قبور العظاماء ، من ذلك
 قول الشاعر :

فإذا مررت بقبره فانضح به كوم الجلاذ وكل طرف ساج
 وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخادم وذبايح
 ٥ - والميسر والقمار عندهم شائع . قال ليلى :
 وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامها
 وقال امرؤ القيس :

(١) أى عقم

(٢) هى الدفعة من الخيل فى الرهان وخيل يجتمع للسباق من كل أوب ،
 وتطلق على مكان السباق تجوزا .

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

٦ - وكانوا يستقسمون بالأزلام ، فإذا أرادوا عمل شيء جاءوا إلى هبل وهو أعظم صنم لقريش بمكة في الكعبة وهم مائة درهم فأعطوها صاحب القداح أجراً له حتى يحيل القداح لهم ؛ وهي سبعة محفوفة عند خازن الكعبة . اثنان للبضى في الأمور المهمة أول للثريت فيها كتب على أحدهما « أمرني ربي » وعلى الآخر « نهاني ربي » ، وثلاثة لمعرفة النسب على أحدهما « منكم » وعلى الثاني « من غيركم » ، وعلى الثالث « ملصق » ، واثنان لمعرفة القاتل ، على أحدهما « عقل » ، والثاني « غفل » ، وكانوا يستقسمون عند ذي الخلصة أيضاً ، واستقسم عنده امرؤ القيس حين عزم على الأخذ بثأر أبيه فنهاه فقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا لم تنه عن قتل العداة زورا
٧ - ومن عاداتهم تعليق الحلى والخلاخل على اللديغ ليفيق ،
قال النابغة :

فبت كاهني ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع
يسهد من ليل التمام سليمها حللى النساء في يديه قعاقع
٨ - ومن عاداتهم تحريم الخمر على أنفسهم في مدة طلب الثأر ، قال
تأبط شراً :

فادر كذا الثأر فيهم ولما ينتجم الحيين إلا الأقل
حلت الخمر وكانت حلالا وبلاى ما ألت تحل
٩ - وكانوا يتدون بناتهم وكان ذلك في بعض القبائل ، خوف الفقر أو
العار وذلك مشهور لاداعى للكلام فيه . ويفتخر الفرزدق بمجده في الجاهلية
لأنه أجاز البنات حتى لا يوأدن فيقول :

أجاز بنات الوائدين ومن يجر من الموت فاعلم أنه غير مخفر

١٠ - وكانوا إذا أوردوا البقر فلم ترد ضربوا الثور ليقتمحم البقر بعده
قال الشاعر :

لاني وقتلى سليمكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر
وإذا أصاب الجرب الإبل كوا العصيح ليرأ السقيم ، قال النابغة :
وكلفتني ذب امرئ وتركنه كذى العريكوى غيره وهو رانع
١١ - وإذا قتل منهم قتيل لم يؤخذ بثأره قالوا : إنه يخرج من رأسه هامة
فتنادى على قبره : اسقونى فىنى صدية ، قال ذو الإصبع العدوانى :
يا عمرو لا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى
وكانوا يؤخرون البكاء على القتيل ويحرمون الخمر عليهم حتى يؤخذ بثأره
١٢ - وكان الرجل البغيض إذا نزل ضيفاً عندهم أكرموه فإذا رحل
كسروا شيئاً من الأواني وراءه حتى لا يعود ، قال الشاعر :
كسرنا القدر بعد أبى سواح فعاد وقد رنا ذهب ضياء
وقال آخر :

ولانسكس الكيزان فى إثر ضيفنا ولسكننا نقضيه زادا ليرجعا
١٣ - وكانوا يعتقدون أن المرأة إذا شقت رداء الرجل وشق الرجل
برقعها صلح حبهما ودام . قال سحيم :
وكم شققنا من رداء محبر ومن برقع عن طعنة غير عابس
نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى وإفسد الهوى يغرى بهذى الوسواس
وكانت النساء إذا غاب عنهن من يحببنه أخذن تراباً من موضع قدمه
ويزعن أن ذلك أسرع فى رجوعه ، قالت امرأة :

أخذت تراباً من مواطىء رجله غداة غد ، كيما يؤوب مسلماً
١٤ - وكانوا يحبون الملوك بالريحان فى الأعياد ، قال النابغة : يحبون
بالريحان يوم السياسة .

١٥ - ومن عاداتهم السيئة وهو تأخير حرمة القتال في المحرم إلى صفر، وكانت كمانة هي التي يلجأ إليها في ذلك ، قال عمرو بن قيس الكنانى الشاعر الجاهلى :

ألسنا الناسئين على معد شهر الحبل نجعلها حراما

١٦ - وكان الرجل منهم إذا أراد سفرا عمد إلى شجرة وشد غصنين منها ، فإن رجع ووجدتهما على غير حالهما علم أن أهله خاتته . ويسمون ذلك عقد الرتم وهو ضرب من الشجر واحدته رتمة ، والرتمة والرثمة خيط يشد على الإصبع تستذكر به الحاجة ، قال شاعر :

خاتته لما رأت شيئا بمفرقه وغره حلفها ، والعقد للرتم

١٧ - ومنها ذهاب خدر الرجل بذكر الحبيب ، يقول الشاعر :

وأنت لعيني قرة حين نلتقى وذكرك يشفيني إذا خدرت رجلى

١٨ - وكانوا يستشفون من عضه الكلب بدم الرؤساء وشرب قطرة منه مخلوطة بالماء قال الشاعر :

بناة مكارم وأساءة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء

١٩ - وكانت العرب تؤرخ بالنجوم ، ثم أرخوا بالحوادث المشهورة فأرخوا بعام الفيل ، وأرخت قریش بهوت هشام بن المغيرة المخزومي لجلالته فيهم .

إلى غير ذلك من شتى عاداتهم التي يمثلها الشعر الجاهلى أدق تمثيل .

ويقول نيكلسون : « إن الشعر الجاهلى وصف نقدى لحياة الجاهلية وأفكارها ، ومعظم الشعر الذى قيده أبو تمام خاص بشجاعة العرب في الحروب وصبرهم على الشدائد ، ، ورأى نيكلسون أن شعر الحماسة يعد صورة لحياة الجاهلية ووصفا لأحلاقهم .

المحلفات ومنزلتها من الشعر الجاهلي

سبب تسميتها المحلفات :

- ١ -

١ - قال المفضل - في امرئ القيس م سنة ٥٦٠ ، وزهير م سنة ٦٣٥ ،
والنابغة سنة ٦٠٤ ، والأعشى سنة ٦١٢ ، ولييد م سنة ٦٤٥ ، وعمر بن كاثوم ،
وطرفة م سنة ٥٦٥ م ، - هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب
« السموط » ، وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهن سبعا ما هن
بدونهن ولقد تلا أصحابنا أصحاب الأوائل فاقصروا ، وهن « الجمهرات » ،
لهيود وعنترة م سنة ٦٠٠ وعدي م سنة ٥٨٠ ، وبشر بن أبي خازم وأميمة بن أبي
الصلت وخدش بن زهير والنمر بن تولب ، وأما منتقيات العرب فمن للمسبب
والمرقش والمتلس وعروة بن الورد ومهلل ودريد بن الصمة والمتنخل ،
وأما المذهبات فللأوس والخزرج خاصة ، وهن لحسان وابن رواحة ومالك
ابن العجلان وقيس بن الخطيم وأحيحة بن الجلاح وأبي قيس بن الأسلت
وعمر بن امرئ القيس ، « عيون المراني سبع » ، لأبي ذؤيب وعلقمة بن
ذى جندن (م ٥٤٠م) وكعب بن سعد الغنوي والأعشى الباهلي وأبي زيد الطائي
ومالك بن الربيع ومنعم بن نويرة ، وأما « مشوبات العرب » ، وهن اللاتي
شابهن الكفر والإسلام فللجمدي وكعب بن زهير والقطامي والحطيئة
والشماخ وعمر بن أحمروا بن مقبل ، وأما الملحمات السبع ، فمن للفردق
وحريز والأخطل والراعي وذو الرمة والكيث والطرماح . قال المفضل :
فهذه التسع والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام (١) .
ونحن في هذا النص نجد تقسيما جديدا لا إلف لنا به للقوائد الشعرية
في الجاهلية والإسلام ، حيث يقسمها المفضل م ١٨٩م إلى سبعة أنواع ويعدها .

(ب) والظاهر أن صاحب الجهرة وهو أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي كان يتنلذذ على الممض وتأثر به وبرأيه هذا فرتب الجهرة وقصائدها وفق هذا التقسيم . كما نلاحظ أنه بدلا من أن يقول « السموط ، سماها » المعلقة ، وعرضها واحدة بعد واحدة بعد أن قدمها بوصف المعلقة ولكنه زاد عليها واحدة هي قصيدة عنتره ، فهي عند أبي زيد ثمان ، وهي :

١ - معلقة امرئ القيس : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

٢ - « زهير : أمن أم أو في دمنة لم تكلم

٣ - « النابغة ومطلما :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار ؟

٤ - معلقة الأعشى ومطلما :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

٥ - معلقة لبيد : عفت الديار محلها فقامها

٦ - معلقة عمرو بن كلثوم : ألا هي بصحنك فاصبعينا

٧ - « طرفة : لخولة أطلال بركة شهد

٨ - « عنتره : هل غادر الشعراء من متردم ؟

وبذلك نجد أنفسنا أمام اسم « المعلقة » ، وهي قصائد سبع أو ثمان

لأشهر شعراء الجاهلية (١) .

(١) قال حماد طرواية : كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فقبلوا منه

كان مقبولا وماردوا منه كان مردودا فقدم عليهم علقمة الفحل فأنشدهم قصيدته

التي أولها :

هل ماعلت وما استودعت مكتوم أم جلبها إذ نأتك اليوم مصروم

فقالوا : هذه سمط الدهر ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته التي أولها :

« طحانك قلب » ، فقالوا : ما نان سمط الدهر

كما يروى أن حمادا لما رأى زهد الناس في الشعر جمع لهم هذه القصائد - السبع

(ح) ويروى أن زهيراً كان يسمى كبار قصائده الحوايات (١) .
ويقول الجاحظ : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة عنده
حولاً كريماً (٢) وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ، وكانوا يسمون تلك القصائد
« الحوايات » ، و « المقلدات » ، و « المنقحات » ، و « المحكمات » ، ليصير قائلها ،
فخلاً خنذيذاً وشاعراً مفلحاً » (٣) .
ونجد في هذه النصوص أسماء جديدة للقصائد الجاهلية ، ولكن الذي
يهمنا من كل هذه الأسماء هو « المعلقات » ،

(د) ويقول ابن قتيبة في قصيدة عبيد بن الأبرص « أقفر من أهل
ملحوب » : « وهذه القصيدة أجود شعره وهي « إحدى السبع (٤) » ،
فكانه يمدّها من السبع الطوال أو السبع المعلقات . ويقول في قصيدة
عنترة : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » : وكانت العرب تسميها

وقال : « هذه هي المشهورات ، فسميت « القصائد المشهورة » ، وعلى هامش شرح
الروزي للمعلقات ما نصه : « إنما سميت المعلقات لأن العرب في الجاهلية كان الرجل
منهم يقول الشعر في أقصى الأرض فلا يعبا به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة
فيعرضه على أندية قريش فإن استحسّوه روى وكان فخراً لقائله وإن لم يستحسنوه
طرح ولم يعبا به ، قال أبو عمرو بن العلاء : وكانت العرب تجتمع في كل عام بمكة
وكانت تعرض أشعارها على هذا الحى من قريش ، قال ابن الكلبي : فأول شعر
امرئ القيس علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه فعلق
الشعراء بعده وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية وعدد من علق شعره سبعة إلا
أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة ، وروى آخرون إن
بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسيماها المعلقات الثواني ، وبذلك
نجد أول تفسير لتسمية القصائد بالمعلقات وهي تعليقها على الكعبة وأول من
قال بذلك ابن الكلبي .

(١) الشعر والشعراء ، ١٤٩ ج ١ البيان والتبيين

(٢) أي كاملاً (٣) ٢١ ج ٢ البيان والتبيين (٤) ص ٨٥ الشعر والشعراء

الذهبية ، (١) . ويقول في قصيدة عمرو بن كاثوم : « ألا هي بصحنك الخ » .
« وهي من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقة » ، (٢) .

(٥) ويقول ابن عبد ربه في العقد :

وقد بلغ من كلف العرب وتفضيلها للشعر أن عمدت إلى سبع قصائد من
الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطى المدرجة وعلقتها في أستار
الكعبة ، فنه يقال مذهب امرئ القيس ، ومذهب زهير ، والمذاهب سبع
وقد يقال لها المعلقة (٢) ،

ونجد أنفسنا في هذا النص أمام تفسير للمعلقة وبيان لشعر تسميه هذه
القصائد بهذا الاسم (٤) ، وهو مقتبس من من رأى ابن السكبي .

(و) وفي المزهري للسيوطي مأخوذ عن العمدة لابن رشيقي :
وكانت المعلقة تسمى المذاهب وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت
في القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، وقيل بل كان الملك إذا
استمجدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه لتكون في خزائنه ، (٥) .

فمراهي ذكر - رواية عن غيره - سلباً آخر لتسمية هذه القصائد بالمعلقة (٦)

(١) ٧٦ المرجع (٢) ٦٧ المرجع

(٣) ٣٧٩ ج ٣ العقد ٣٠٩ تهذيب العقد الفريد

(٤) ويسير على ذلك الرأي البغدادي في خزنة الأدب ، وابن خلدون في المقدمة

(٥) ٢٩٨ ج ٢ المزهري ، ويقول ابن رشيقي . وكانت المعلقة تسمى المذاهب

وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت في القباطى بماء الذهب
وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهب فلان إذا كانت أجود شعره وذكر ذلك
غير واحد من العلماء ،

(٦) وهذا الرأي هو رأى أبي جعفر النحاس م سنة ٣٣٨ م

قال أبو جعفر النحاس في شرحه للمعلقة : « وقيل إن العرب كانوا
يحتسمون بمكاظ فيتناسدون الأشعار فإذا استحسن الملك - لعله النعمان بن المنذر -
قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائني . فأما قول من قال إنها علفت في

- ٢٧٢ -

وقريب من هذا ما ذكره الاسكندري تفسيراً لتسميتها بالمعلقات ، وهو أن العرب لم تكن تكتب في دقاف وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة .

ويقول الألوسي صاحب بلوغ الأرب في الجزء الأول منه : وفيها - أى في سوق عكاظ - علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بنصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل .

هذا ولكن المستشرقين ينكرون تعليق القصائد بأى حال .

- ٢ -

وبعد فنحن أمام رأيين في سر تسمية هذه القصائد الجاهلية المشهورة بالمعلقات ، وهما :

الرأى الأول : أنها علقت على الكعبة ، ويذهب إليه ابن عبد ربه في العقد ، وابن خلدون في المقدمة والبغدادى في خزنة الأدب (١) وتبهم كثيرون . وقيل : التعليق كان في سوق عكاظ وهو رأى الألوسي ، وقيل إن التعليق كان في الرواق أو الخيمة وهو رأى الاسكندري ، وقيل إن التعليق كان في خزنة الملك وهو رأى أبى جعفر النحاس العالم اللغوى الأديب م ٣٢٨ هـ ولعله يريد بالملك النعمان بن المنذر الذى كان عنده ديوان مكتوب

الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصح ما قيل إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضرهم عليها وقال لهم هذه المشهورات فسميت القصائد المشهورة لهذا ، وقال أبو جعفر في شرحه على تلك المعلقة : « واختلفوا في جمع القصائد السبع ، وقيل : إن العرب كانوا يجتمعون بعسكاز فيتنشرون الأشمار فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأنتوها في خزانتى ،

وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة

(١) وأول من قال بتعليقها على الكعبة وتسميتها بالمعلقات من أجل ذلك

هو - كما في كتاب الآداب العربية للرافعى - هشام بن الكلبي الراوية م ٢٠٤ هـ

جمع فيه أشعار الفحول ، ويتكر أبو جعفر تعليقها على الكعبة ذا كراً أن ذلك لا يعرفه أحد من الرواة . وبعض الباحثين كلبن رشيق والسيوطي يذكر الرايين « أنها علقت على الكعبة أو في خزانة الملك ،

أما الرأي الثاني : فينكر مسألة تعليقها بأى شكل من الأشكال ولون من الألوان ، ومن أصحاب هذا الرأي المستشرق الألمانى نولدكه الذى كتب بحثاً في هذا الموضوع ، ورجح (١) أن المعلقات معناها المنتخبات وأنها سميت بذلك تشبيها لها بالقلائد التى تعلق فى النحور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط والقلائد . وقد أيد رأيه الأستاذ كليمان هيوار الفرنسى الذى ألف بالغة لفرنسية كتاباً فى الأدب العربى ، فرأى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً السموط بمعنى العقود والآلى . وأيد هذا الراى « اسكندر أغا ايكتاريوس » فى كتابه « تزيين نهاية الارب فى أنباء العرب » حيث قال : إن العلماء من المتقدمين قد انتخبوا من نفائس أشعار القدماء القصائد المسبعات التى هى سبعة أسابيع ورواها صاحب الجهرة وأولها المعلقات ، ويرجح نيكلسون المستشرق الإنجليزى المشهور أن كلمة معلقة قد اشتقت من قولهم « علق » وهو الشئ النفيس الثمين العالى المستوى ، وذلك لأن الإنسان يتعلق بها تعلقاً شديداً ثم قال : وقد ظهرت خرافة تزعم أن تسمية المعلقات بهذا الاسم راجعة لتعليقها بأستار الكعبة تقدير الفضلها الذى قضى لها به المحكمون فى عكاظ على مقربة من مكة حيث يجتمع الثمراء متنافسين فى إنشاد أروع ما دبحته قرائهم وأنها كانت تكتب بماء

(١) ونص كلام نولدكه - كما ورد فى الفصل الذى كتبه عن المعلقات فى دائرة المعارف البريطانية - هو : « إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع إلى تسميتها بالقصائد المذهبات وهى تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها وكذلك يجب أن تؤول تسميتها بالمعلقات على هذا الأساس نفسه فن المحتمل جداً أن تعنى هذه التسمية أن هذه القصائد قد سمت إلى درجة خاصة ، وهناك اشتقاق آخر من المادة نفسها وهو كلمة علق بمعنى الشئ النفيس ، (١٨)

الذهب على القباطى الواردة من مصر قبل تعليقها على السكبة (١).
وعن استبعاد تعليقها على السكبة الأستاذ حامد مصطفى وأيد رأيه بعدة أدلة (٢)، وذهب إلى أنها سميت بالمعلقات لتعلقها وحفظها فى الرأس أو فى الدفاتر عناية بها لتعاستها.

وبرد أصحاب الرأى الاول على من ينكرون تعليقها على السكبة بأن تعليق الصحف الخطيرة على السكبة كان سنة فى الجاهلية والإسلام، كتعليق قریش الصحيفة التى وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بنى هاشم والمطلب، وتعليق هرون الرشيد لعمده بالخلافة من بعده إلى ابيه الامين والمأمون، فأى مانع يمنع أن تكون هذه القصائد لخطرها وبعد أثرها قد علقت فى السكبة؟ ولذلك مثيل فى الادب الاغريقى القديم. فإن القصيدة التى نظمها زعيم الشعر العتائى بن تدار فى المدح قد كتبها الإغريق بالذهب على جدران معبد أثينا فى لمنوس. هكذا يقول التبريزى: وذهب فريق إلى أن وجهه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صفارهم وكبارهم ومرؤوسيههم ورؤسائهم وذلك لشدة اعتنائهم بها.

وبعد: فالمعلقات كانت مشار إعجاب الرواة والادباء والنقاد وتقديرهم وحبرهم، علقت بأذهان الجميع، وحفظوها ورددوها.
فليس يبعد أن يكون رأى التبريزى هو أرجح الآراء فى هذه التسمية لتلك القصائد الرائعة.

(١) أما أن بعض هذه المعلقات قد أنشد فى عسكا ط فسلم وأما أنها سميت بالمذهبات لكتابتها فى القباطى بماء الذهب فغير مسلم، إذ ربما كانت تسميتها بالمذهبات لجليل قيمتها الأدبية وعظم خطرها الفنى.

(٢) تاريخ أدب اللغة العربية فى العصر الجاهلى ط ١٣٦ هـ ومن هذه الأدلة: ما فى بعض المعلقات من خبر ما يبعد تعليقها على السكبة، واختلاف الرواة فى عددها وأصحابها، وعدم ورود شىء لنا عنها فى عصر الرسول. ولأن أول من ذكر تعليقها على السكبة هو ابن الكلبي م ٤٢٤ هـ وهو رواية غير موثوق به.

عدد المعلقات :

وعدد هذه القصائد وأصحابها مختلف فيه :

١ - فقد سبق أن ذكرنا نقلا عن المفضل وسواه أنها سبع لأمريء القيس والنابعة وزهير والاعشى وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم .

٢ - ويجمعها صاحب الجهرة ثمانية بإضافة عنيزة ومعلقة الميمية إلى ما سبق .

٣ - ويجمعها الزوزني تسعة : لأمريء القيس والنابعة والاعشى وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنيزة ، بزيادة الحارث بن حلزة .

٤ - ويجمعها النعماني الحلبي شارح المعلقات في كتابه نهاية الأرب من شرح معلقات العرب ، الذي ألفه سنة ١٣٢٤ هـ - عشرة وذلك بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص :

ليس (١) رمم على الدفين ببالى فـلوى ذروة لجنى ذبال
ولكنه يجعل معلقة الأعشى هي :

ألم تغتمض عيناك ليللة أرمداء وببت كما بات السليم مسهدا (٢)
ومعلقة النابعة هي :

يادارمة بالعلباء فالسند أقوت وطال علمها سالف الأمد

٥ - وأكثر الرواة على أنها سبع لأمريء القيس وزهير وطرفة ولبيد

(١) الدفين : قرب مكة . اللوى : متقطع الرمل . ذروة : واد لبني فزارة
ذبال : رملة تواجه ذروة

(٢) وذلك بدلا من قصيدته : ما بكاء الكبير بالاطلال . وبعض الرواة
يذكرون أن معلقة الأعشى هي :

ودع هريرة إن الركب مر نحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وعنونة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة .

شرح المملقات :

وقد شرح هذه المملقات كثيرون منهم . أبو جعفر النحاس م ٣٣٨ هـ .
والزوزنى م ١٧٥ هـ ، ومحمد بدر الدين أبو فراس النعماني الحلبي في القرن
الرابع عشر الهجري ، كما شرحها كثيرون ممن عداهم .

وطبعت المملقات طبعت كثيرة باللغة العربية في الشرق والغرب وطبعها
سير شارلز ليل سنة ١٨٩٤ بكالكتا ، كما ترجم نولدكه خمس مملقات ؛ مسقطا
معلقة امري ، القيس وطرفة وأرفق بها شرحا بالألمانية وهي أمتع ترجمة كما
ترجمها إلى الإنجليزية شعراً مع شيء من التصريف مستر ولفرد بلنت ولادى
آن بلنت ، ومن أشهر طبعتها طبعة ليبسيا بعناية العلامة أنولد سنة ١٨٥٠ م

منزلة المملقات في الشعر الجاهلي :

وللمملقات منزلة عظيمة في الشعر الجاهلي ، فهي أعلى قصائده طمقة في
البلاغة وبعد الأثر وجلال التأثير والسحر ؛ وهي لشعراء عمازين في منزلتهم
في هذه الجربة المقفرة البدوية ، فوق أنها هي الناطقة بتجدد العرب ومخادهم
وأخبارهم ، شاعدا صدق على أخلاقهم وطبائعهم وعاداتهم ولون تفكيرهم ،
وتمتاز بطولها ورفقها وتهذيبها وروعتها وبجمال معانيها وسحر أساليبها وجزالتها
وشدة أمرها . فوق تنوع فنونها وأغراضها ، وما فيها من تشبيه سادح
واستعارة نادرة وكناية طريفة . وهي مع ذلك ثروة لغوية كبيرة لا غنى
عنها للباحثين والمتعلمين .

واهتمام الرواة والعلماء والأدباء والنقاد والشارحين والناسخين بهادليل
على مالها من مكانة في الأدب العربي قديم والحديث على السواء (١) .

وسنحلل هذه المملقات الآن واحدة واحدة فنقول :

(١) راجع في تفسير كلمة المملقات ٣٧٩ : ٣ العقد الفريد ، ٥٨١ ، مقدمة ابن خلدون .

معلقة طرفة

١ - طرفة بن العبد البكرى شاعر جاهلي مشهور ؛ نشأ يتيما في كفالة أعمامه ، يؤثر اللهو والدعة والبطالة ويدمن الخمر ، ويهجو الناس حتى الملك عمرو بن هند الذي أضمر له الشر وأرسله ليعامله بالبحرين فقتله ، ولم يتجاوز السادسة والعشرين ، وتقول أخته الخرنق في رثائه .

عددنا له ستا وعشرين حجة فلما توفاهما استوى سيدا نخبها

وكان طرفة ملتهب المشاعر والمواطف ، حاد التفكير واللسان ، متأرجح الشعارية ، نظم الشعر يصور فيه حياته وآماله وبطائنه ، وكان يعصف فيجيد الوصف ويأتى بالحكمة العالية والفكرة الرائعة ، وهو أجود الجاهليين طويلا كما يقول ابن قتيبة (١) وشعره قليل بأيدي الرواة (٢) .

٢ - ومطلع هذه المعلقة الرائعة :

لخولة أطلال ببرقة ثممد نلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد (٣)

وقد عدها الشاعر من فحول الشعراء الجاهليين ومشهورهم ، واستحق من أجلها أن يضعه أبو عبيدة في الطبقة الثانية منهم وابن سلام في الطبقة الرابعة وأن يذهب بعض الشعراء والنقاد إلى أنه أشعر الجاهليين . وهي أطول المعلقات ، أبيتها خمسة ومائة بيت ، وتمتاز بكثرة معانيها وجزالة أسلوبها . نظمها طرفة بعد عودته إلى أرض قومه إثر تنقله في الأحياء حين كان مغاضبا لقومه وعشيرته ، وقبل أن يتصل بملوك الحيرة وينادهم .

ويبدو من روح المعلقة ولهجتها أن الشاعر نظمها عتابا لابن عمه ، ويبدو أيضا أن السبب في عتابه له أن أخاه د معبدا ، كان له لبل يرعاها هو وأخوه

(١) ٤٩ الشعر والشعراء (٢) ٤٩ الشعر والشعراء ، و ٤٩ طبقات الشعراء

(٣) خولة : اسم محبوبته . ثممد : أكمة في بلاد خثعم نلوح : تظهر

طرفة ، فأغلبها طرفة في المرعى حتى دخلت مرعى ابن عمه فحجزها الام معبد
أخاه ، وألقى عليه عبـ طلبها واستردادها من ابن عمه . فذهب طرفة إليه
فلم يجد كلامه معه ، وعاد ثائراً غامباً ، وطم قصيدته يهاتب فيها عبد عمرو
عتاباً شديداً قاسياً مما تقرأه في المعلقة في قوله :

فألى أرائى وابن عمى مالـكا	متى أدن منه ينأ عني ويبعد
وأيأسنى من كل خير طلبته	كأنا وضعتاه على راس المجد
على غير شيء قلته غير أنى	نشدت فلم أعفل جمولة معبد
وإن أدع للجلى أكن من حماها	وإن تأتاك الأعداء بالجهد أجهد
فلو كان مولاي امراً هو غيره	لفرج كربي أو لأنظرنى شدى
ولكن مولاي امرؤ هو خانتى	على الشكر والتسأل أو أتا مفيد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة	على المرء من وقع الحسام المهند
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد	ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد ^(١)
فأصبحت ذا مال كثير وعادنى	بنون كرام سادة لمسود

ولما سمع عبد عمرو بن مرثد معلقة طرفة أرسل إليه ، فقال له : أما الولد
فأله يعطيك ، وأما المال فلا تبرح حتى تسكون من أوسطنا فيه ، وأمر سبعة
من أبنائه وثلاثة من بنى أبنائه أن يعطوه عشرة عشرة من الإبل ففعلوا .

ويذكر بعض الباحثين من المستشرقين أن المعلقة لم توضع مرة
واحدة ، كقوله :

إذا مت فاعمينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد

وما يليه من أبيات قالها وهو في سجن البحرين قبيل موته وهذا خطأ في
البحث ، فلم يقل طرفة هذه الأبيات وهو في سجن البحرين ، بل نظمها ونظم

(١) قيس بن خالد ذو الجدين من عظماء سادة الشيبانيين ، وعمرو بن مرثد ذو
ابن عم الشاعر .

القصيدة كلها مرة واحدة وهو صحيح مقيم في أرض قومه ، والقصيدة قطعة واحدة من الشعر الحى والتصوير الرائع والديباجة الساحرة ، والوصف الصادق .

٣ - وتمتاز المعلقة بوفرة معانيها وتنوع أغراضها وجمعها بين السهولة والغرابة فى اللفظ ، وبين الرقة والمتانة فى الأسلوب ، وبين الحكمة واللهو والجد والهزل فى النهج والحياة .

وتصور الشاعر وحياته وأمانيه وطامحه ولذاته ولجوه وبيئته والحياة فيها تصويراً جميلاً رائعاً بالغاً حد الدقة والإحكام والجمال .

٤ - وحدة القصيدة وفنونها :

ونحن نقف أمامها معجبين بجمالها وانسجامها وقوة شاعريتها وتأجيج عواطف الشاعر فيها ، وهذه الوحدة التامة الظاهرة على أغراضها وفنون القول فيها :

١ - بدأها الشاعر بالغزل : فذكر أطلال خولة محبوبته ووقف عليها وبكائها :

لخولة أطلال بيرة ثمند تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أمى ونجلد
ثم يذكر قباب خولة وهى طاعنة ، ويشبهها بالسفينة تشبيهاً جميلاً
قوياف يقول :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدواية أو من سفين ابن يامن يحور بها الملاح طوراً ويهتدى
يشقى حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد (١)

(١) الحدوج : القباب . المالكية : هى خولة . الخلايا : جمع خلية وهى السفينة الكبيرة . النواصف : مجاري الماء إلى البحر . دد أرض معروفة ، وعدولية ؛

وهو في هذا الوصف يرسم صورة جميلة للسفن الكبيرة التي كان يراها
ويشاهدها تسير في الماء على شواطئ البحرين وسواها .

ثم يصف جمال محبوبته وينعتها بجميلا قويامؤثرا عذبا يدل على امتلاء
نفسه بالحب وعلى خضوعه لأسر الجمال :

وفي الحى أحوى ينفض المرد شادن

مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد (١)

وتبسم عن ألمى كان منورا تحلل حر الرمل دعص له ندى (٢)

ووجه كان الشمس حلت رداها عليه ، نقي اللون لم يتخذ (٣)

ب - ثم يأخذ الشاعر في وصف ناقتيه التي يسير عليها ليسل عن نفسه
الهموم والأحزان ، ووصفه لها طويل في خمسة وثلاثين بيتا ، ويمجى به في

أى قديمة ، أوهى الكبيرة من السفن ، وتنسب إلى موضع يقال له عدولى . ابن
يامن : ملاح قديم من أهل البحرين . يحور : يضل . يهتدى : أى يعرف طريق
السير .

حباب الماء : طرائقه وما ارتفع منه . الحيزوم : الصدر . المغايل : الذى
يجمع ترابا ويخبي فيه شيئا مثل الحلقة ويقسم التراب نصفين ويطن به فى أحدهما فان
أصاب ظفر وإن أخطأ قر

(١) أحوى : فى لونه حوة وهى السواد . والمرد : شجر الأراك . الشادن :
ولد الظبية إذا قوى . سمطى : خيطى . مظاهر : يضع واحدا على آخر . اللؤلؤ
والزبرجد : جواهران معروفان

(٢) تبسم : يفتر ثغرها . ألمى : سواد فى الشفة . المنور : الأقحوان . تخلاه
توسطه ودخل فيه . حر الرمل : النقي منه . الدعص : الكشيب الصغير . من
الرمل . الندى : من صفة الأاقحوان يصفه بالتداوة

(٣) حلت : ألقت . رداها : بهاها . يتخذ : يضطرب حتى تصير فيه
شقوق .

لفظ غامض غريب لا تكاد تفهمه إلا بصوت وعسر ودشقة ومراجعة وطول عتا .

قال طرفه فيما قال في وصف ناقته :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتفتدى (١)
أمون كالواح الأران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد (٢)
إلى أن يقول :

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقا مخافة ملوى من القد محصد (٣)
على مثلها أمضى إذا قال صاحبي ألا إيتني أفديك منها وأفتدى (٤)
وجاشت إليه الذنفس خوفاً وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد (٥)
جـ - ثم يفتخر الشاعر بنفسه ويفرغ لها ويصف فتوته وكرمه ولذاته
ومجده ولهو بهشرب الراح ، في وضوح وسهولة فيقول :
إذا القوم قالوا : من فتي ؟ خلت أنى
عنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد (٦)

-
- (١) الهوجاء : الخفيفة الفؤاد ، ويروى بهوجاء وهي المهزولة . مرقال صفة للناقة ، أى كثيرة الأرقال ، وهو شدة السير
(٢) الأمون : المأمونة العثار . الأران : الثابت الذي تحمل فيه الموتى . نسأتها : زجرتها . اللاحب : الطريق الواضح . البرجد : كساء من أكسية العرب شبه استقامة الطريق بخط أبيض يكون في الكساء من قطن
(٣) الإرقال : ضرب من السير . القد : السوط . المحصد : المحكم الغتل
(٤) الضمير في « منها » للمغازاة والبرية
(٥) جاشت : علت . خاله : ظن نفسه . وإن أمسى الخ : أى وإن أمسى لا يرصد ولا يخاف
(٦) أتبلد : أنعيم . الكسل : المعجز

ولست محلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد (١)
 وإن تأتني في حلقة القوم تلقى وإن تقتضى في الحوائث تصطد (٢)
 وإن يلتق الحى اجميع تلاقى إلى ذروة البيت الرفيع المصمد (٣)
 ندماى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد (٤)
 ثم يذكر أثر لوه وشربه الخمر في حياته وبين قبيلته ، ويتحدث عن لذاته
 في الحياة ويصفها ، ويلوم من يعدله في اللهو والإسراف ويفند رأيهم ويقول
 إن الكرم المسرف والمخيل المقتدر مألهما واحد إلى القبر :

وما زال تشرابى الخمر ولذتى وبيعى وإنفاقى طربى ومتلدى (٥)
 إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت لإفراد البعير المعبد (٦)
 رأيت بنى غبراء لا ينكرونى ولا أهل هذاك الأطراف الممدد (٧)
 ألا أيها اللاتى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلى
 فإن كنت لا تسطيع دفع منى فدعنى أبادرها بما ملكت يدي
 ويعتد بلذاته اعتدادا كبيرا ويذكرها :

(١) التلاع : الأرض المرتفعة والمنخفضة ، والمراد هنا المعنى الثانى لأن
 البخيل يحل فى الأماكن المنخفضة ، لئلا يراه أحد ، وأرى أنه يجوز أن يحل
 فى الأماكن المرتفعة حتى لا يصل إليه أحد

(٢) حلقة القوم : مجالس أشرفهم . الحوائث : بيوت الخمارين

(٣) الذروة : أعلى الشئ ، المصمد : الذى يصمد إليه أى يقصد

(٤) الندامى : الأصحاب على الخمر . القينة الجارية ، البرد : الثوب الأبيض .

المجسد : المصبوغ بالجساد وهو الزعفران

(٥) الطريف : المكتسب . التليد أو المولد : الموروث

(٦) تحامتنى : اجتمعتنى . العشيرة : بنو العجم ، أفردت : أبعدت ، المعبد :

المذلل المطلى بالقطران

(٧) بنو غبراء : الأصوص ، الأطراف : بيت من جلد . يريد أنه لا ينكره

صعلوك ولا غنى

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحغل متى قام عودي
فمنهن سبق العاذلات بشرية كبيت متى ما تعل بالماء تزد (١)
وكرى إذا نادى المصاف بجنا كسيد اغضا نبتته المتورد (٢)
وتقصير يرم الدجن والدجن معجب بهم سكة تحت الطراف الممدد (٣)
أى شرب الراح وركوب الخيل ، والله مع امرأة جميلة :
أرى قـبر نعام بحيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد (٤)
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد (٥)
أرى الدهر كثر ما قصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفذ
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لا كالطول المارخى وثياه باليد (٦)
د - ثم يلتقل إلى عتاب ابن عمه مالك وقد سبق أن ذكرناه فى
أول المعلقة .

هـ - يعود إلى التحدث عن نفسه ووصفها بالذكا والشجاعة ، ويتنبأ
بموته ويطلب من ابنة أخيه معبد أن تبكيه إذا مات :

إذا مت فانبئى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كأمرى ، ليس همى كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى

-
- (١) كبيت : خمرة تضرب إلى السواد ، تعل : أى يصب الماء عليها
(٢) كرى : عطفى ، المضاف : الذى أضافته الهموم ، المنجب : الفرس
المعوجة الساقين ، السيد : الذئب ، الغضا : شجر
(٣) الدجن : المطر الخفيف ، معجب أى يعجب من رآه ، البهكة : التامة
الخلق أو الحسناء
(٤) النحام : يريد البخيل ، الغوى : الذى يتبع هواه ولذته ، البطالة : اتباع
الهوى والجهل
(٥) يعتام : يختار ، الكرام : الخيار الأماج ، يصطفى : ينتخب ، عقيلة
كل شئ : خيرته . الفاحش : القبيح السىء الخلق : المتشدد : كثير البخل
(٦) الطول : الحبل ، ثياه : طرفاء

وهو في هذا البيت يعرض بان عمه .
و - ثم ينتقل إلى الحكمة ، فيأتى منها بحكم رائحة وأمثال بليغة رويت
على مر الزمان :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لعمرك ما الأيام إلا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود
عن المرء لا نسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
لعمرك ما أدري وإنى لواجل أنى اليوم لإقدام المنية أو غد
إذا أنت لم تنفع بؤدك أهله ولم تنك (١) بالبؤسى عدوك فابعد

معلقة امرئ القيس (٢)

-- ١ --

هنا نرى من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فأومل
مطلع معلقة امرئ القيس الرائعة الذائقة الشهيرة ؛ التي تدل على شخصية
صاحبها المرحمة ، وروحه الموهوب ، ومجونه الماثور .
أسلوب القصيدة أسلوب جزل فيه أمر وقوة في عذوبة حيناً ، مع
الجمال والصدق والتنقل الخيال ، ومع سحر المطلع ونخامته .
ومعانيها قريية ، لاتعقيد فيها ، تشكى على الحس والمشاهدات ، فوحين
يتحدث عن الحب يصف جمال المرأة ومحاسنها ، وحين يصف الفرس يتحدث
عن ساقه ومنتنه وشعره ، وحين يتحدث عن المطر يصف كثرتة وأنه ألقي
مياهه على جبل كذا وكذا ففرغت العصم وهدمت البيوت وسقطت جذوع

(١) نسكى عدوه ؛ ألحق به العطب والضرر

(٢) درس الباقلا في كتابة : اعجاز القرآن ، المعلقة دراسة نقد وموازنة
وهي دراسة رائعة جديدة ،

النخيل ، دون أن يتحدث الشاعر عما وراء هذه الأوصاف الحسية في الخيل والمطر أو عن عواطفه الإنسانية في حبه وغزله .

وتمتاز المعلقة بأنها مظهر للبلاغة العربية بما فيها من أساليب البيان ؛ ومناهج الأداء ، وصور التعبير ، وألوان الرسم والخيال والفكر كبير ؛ وفيها تشبيهات جميلة كثيرة ، واستعارات بالغة حد الجلال وكنائيات أنيقة ساحرة ، وسوى ذلك من أدوات التعبير والبيان .

- ٢ -

ولتمصيل ذلك كله نقول :

١ - للمعلقة مطلبها الساحر القوي ، وأسلوبها الجزل ، وخيالها البدوي المزهوب ، وتشبيهاتها الحسية الساذجة المكرورة أحيانا ، وفيها فوق ذلك ورغم الكثير من العاظم البدوية الجافة رقة اللسيب ودقة الوصف وتنوع الأعراض وبراعة التصوير والبيان ، وفيها جل ما ابتكره أسرو القديس من المعاني الشعرية التي فضل بها على غيره من الشعراء وعد بها أميرهم وقائدهم ، فنيها بكاء الديار ، واستيقاف للصحب ، وتجويد في اللسيب ، وتصوير لاستهتاره وبجونه ، وقص لذكرياته وأيامه ، وإبداع في وصف الليل وطوله ، والفرس ومحاسنه ، والبرق ، والمطر وآثاره .

٢ - وفي المعلقة الكثير من التشبيهات الجميلة : كتشبيهه موقته حين رحيل أحبابه بموقف ناقف الحمظل في غزارة ما ينهمر منهما من دموع ، كتشبيهه عبق رائحة من حبيبته بعبق رائحة الميم وقد جاء برياً القرنفل ، وتشبيهه شحم ناقته بهداب الدمقس المقتل ؛ والشعر بالأقحوان المنور ، وتعرض الثريا في السماء بتعرض أثناء الوشاح المفصل ، وتشبيهه ترائب المرأة بالمرآة المجلوة ، وجيدها بجيد الطبا ، وبنائها بأساريع الظبي ، وجهالها المشرق بمنارة الراهب المتبتل ، وتشبيهه الليل بموج البحر ، واهتزام الفرس بغلى المرجل ، وأنه أخذ الحسن من جميع الحيوانات ، أخذ من الظبي خاصرته ومن النعامة ساقها ، ومن الذئب والشعلب مشيهما ، فهو جواد وباله من جواد ، ضاني

الذيل مستقيم العسيب (١). لماع الظاهر كما تلعب صلاية الحنظل بما يعلق بها من
الدهن اللامع أو صلاية عروس تدق فيها العطر والطيب ، وكانت دماء
هوادى فريساته في نحره المختوب عصارة حناء في شيب مسرح .

٣ - وتمتاز المعلقة بكنايانها الساحرة ، كنزومة الضحى في وصف المرأة
بالترف والنعمة ، وقوله « لم تلتطيق عن تفضل » في وصفها بأنها عزيزة منعمة
لم تعز بعد ذلك ولم تنعم بعد شقاء ، وقوله « إذا ما اسبكرت بين درع ومجول »
يريد إذا بلغت سن الشباب لأن الدرع هو قبص المرأة والمجول ثوب تلبسه
الفتاة وتجول فيه قبل أن تحدر ، وقوله « قيد الأوابد » في وصف انفرس
بسرعة العدو ، وقوله « ولم ينضح بماء فيمسل » في وصفه بالششاط . وفيها
كثير من المجازات الجميلة والاستعارات المبدعة ، كقوله « فسلى ثياني من ثيابك
تلسلي » يريد بالثياب القلب أو الصداقة ، وقوله « وبيضة خدر » يريد
إسراء كريمة محبرة ، وقوله في وصف الليل بالطول « فقلت له لنا تمطى
بصلجه » . وقوله « وتقي بناظرة من وحش وجرة » وكذلك قوله : « له أيعلا
ظبي وساقا نعامة » من أساليب التجريد أو التشبيه .

٤ - وقد نجد في المعلقة تنقلا في الخيال وفي رسم الصور الشعرية ولكن
لا ضير في ذلك : لأن الشعر فن ، والفنون تأبى أن تخضع لقيود المنطق
والفلسفة ، وحريتها في التعبير والتصوير هو سر جمالها وخلودها ، وفوق ذلك
فإن الشعر صورة للحياة العربية ، في سذاجتها وبساطتها فضلا عن أثر
الارتجال والبديهة في نظم الشعر وإنشاده وخاصة في العصر الجاهلي .

٥ - وفي المعلقة وصف لما يحبه العربي من مظاهر الجمال في المرأة وفي
الفرس ، وفيها بيان مفصل لزينة المرأة وترفها .

وفيها نواف للقصاص الشعري وخاصة في الغزل ، مما نهج نهجه عمر بن

أبي ربيعة ، ثم بشار ، وأبو نواس .

وليس فيها أثر للمدح ، لأن شخصية امرئ القيس العظيمة أرفع من المدح ، ولأن المعلقة لم تنظم إلا لوصف ذكرياته ولهوه وترفه ومجونه ، بما يرجح أنها نظمت في أيام صباه وشبابه قبل أن يحمل عبء الأخذ بثأر والده ، حيث تجدها خالية من ذكر الأحداث التي أطافت به بعد ذلك .

وتعدد الأغراض والفنون في القصيدة يتفق ونهج العربي والشعراء الجاهليين في صياغة قصائدهم ، حيث كانوا يروجون عن أنفسهم وسامعهم بهذا الاستطراد الخليل ، وتعدد نواحي القصيدة ومراميها ، حتى تكون أشد أثراً وسحراً .

٦ - وروح الشاعرية في المعلقة متحدة متناسقة إلا في أبيات يضيفها بعض الرواة إليها وهي :

وقربة أقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل

وما بعده من أبيات بما تخالف روحها روح المعلقة . والصحيح أن هذه الأبيات لتأبط شرا وأذكرها الكثير من الرواة ، وقيل هي لامرئ القيس في عصر مشيبه وكهولته وأضيفت إلى المعلقة إضافة فهي لا تمثل روحه في فترة شبابه اللاهية الماجنة التي تراها في معلقته .

٧ - وتمثل هذه المعلقة الحياة العربية في كثير من نواحيها المختلفة ، كما تصور حياة امرئ القيس وترفه وروحه اللاهية المسرقة في العبث والمجون أتم التصوير . فهي صورة جميلة واضحة لحياة الشاعر وقومه . وأثر أدبي كبير نستطيع أن نفهم منه الكثير من عادات العرب وأخلاقهم .

-- ٣ --

وقد نشأ امرئ القيس في بيت سرود ومجد ونعمة ، نخب في سبل الامور وذاق أفاويق الجمال والحب . وقضى أيام شبابه في مغازلة العبد الحسان ، فكانت له معهن أيام وذكريات قص الكثير منها في هذه المعلقة ، وما برح في لهوه ومجونه حتى ضاق به والده ذرعاً فأبعده عنه ، فأقام مع أمثاله من أهل البطالة

واللهو ، حتى قتل أبوه ، فذهبت سكرته ، وطالت حسرته ، وهب للاخذ
بشأره ، حتى قضى عليه أخيرا إسرافه في الانتقام .

ذلك هو امرؤ القيس قائد الشعراء في الجاهلية ، وحامل لواء الشعر في
ذلك العصر البعيد ، والمزمن في أبواب الشعر وأغراضه . والمجلى في بيان أسرار
الجمال واللهو ، وفي رقة الأسلوب وسحره ، وفي جزالة اللفظ وأسره ، وفي
روائع التشبيه وبدائع الخيال ، وفي ابتداع الكثير من المعاني الشعرية الطريفة
التي قلده فيها سواء من الشعراء .

وتتناول المعلة كثيرا من فنون الشعر ، وتحوى الكثير من الأفكار
المنوعة ، ففيها بكاء لديار أحبابه في ثلاثة أبيات وتصوير لحيرته وذوله يوم
رحيلهن واستيقاف لأصحابه ليحملوا معه عبء الحزن والشجى في بيتين ،
وفيها شرح للهوى وعبثه وقص لذكرياته وأشجائه مع محبوباته ووصف للجمال
العربي وزينة المرأة في الجاهلية ولأثر الجمال وسحره في النفوس وذلك في
عشرين بيتا ، وفيها مناجاة لليل وذكر لطوله وآلامه فيه في خمسة أبيات ،
ووصف دقيق لفرسه في ثمانية عشر بيتا وللبرق والمطر ونشوة الطبيعة في
عشرة أبيات ، فأبياتها تبلغ الستين أو تزيد . وهي كلها في درجة من الإحسان
ليس بعدها من مزيد . ويقول الزوزنى في سبب إنشاد هذه القصيدة :

« السبب في إنشادها هو قصة غدير دارة جلجل حيث كان امرؤ القيس
يحب ابنة عمه عنيزة فتركها تستحم في هذا الغدير مع أتراب لها وجمع ملبسهن
ثم لم يعطها لمن إلا بعد مرورهن أمامه عاريات ، ثم ذبح لمن ناقته ، وقسم
متاعه عليهن يحملنه ، وركب مع عنيزة في هودجها » .

فما نبك من ذكر حبيب ومزل بسقط اللوى بين الدخول لمخول (١)
وهو مطلع جميل ساحر . ثم يستمر فى وصف الديار وآثارها حتى
يقول :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تملك أسمى وتجمل
وان شفتائى عبدة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول ؟ (٢)
٢ - ثم يصف ذكريات لهوه وعيشه فيقول فيما يقول :

ويوم عقرت العذارى مطيى فيا عجباً من كورها المتحمل (٣)
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهذاب الدمقس المقتل (٤)
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلى (٥)
تقول (٦) وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل
فقلت (٧) لها سبرى وأرنخى زمامه ولا تبعدينى من جنائك المهلل
فذلك (٨) حبل قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمام محول
ثم يستمر فى غزله :

(١) اللوى : ما التوى من الرمل . سقط اللوى : منتهاه . الدخول وحومل
ونوضح والمقراة : أسماء أما كن يقع بينها سقط اللوى وفيه منزل الحبيب .
(٢) مهراقة : مراقبة مسكوبة . المعول . المستعان به
(٣) المطية هنا : الناقة . العذارى : الابكار . الكور الرجل . المتحمل المحمول
(٤) هداب الدمقس : أطراف الحرير . المقتل : المفتول .
(٥) الخدر : الهودج وهو فى الاصل السر . عنيزة اسم محبوبته . مرجلى .
فاضحى بين رجالى .

(٦) الغبيط : الرجل . عقرت بعيرى : أدميت ظهره لثقله .

(٧) الجنى : الثمر . المهلل : الذى جنى مرة بعد مرة

(٨) محول : مضى عليه جول

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجمل (١)
 وأنت قسمت القواد فنصفه قتيل ونصف بالحديد مكبل (٢)
 فإن تك قد ساءت منك منى خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي (٣)
 وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل (٤)
 إلى أن يقول :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة بمسى راهب متبتل
 تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواك بمسلي (٥)
 أغرك منى أن حبك قاتلي وأنت مهما تأمرى القلب يفعل

٢ - ثم يصف الليل ويطوله فيقول :

ولبل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلي (٦)
 فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكا-كل (٧)
 ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
 فيالك من ليل كان نجومه بكل مغار الفتل شدت ييذبل (٨)

٤ - ثم يصف فرسه فيقول :

(١) أزمع الأمر : ثبت عزمه على أمضائه ، الصرم : الهجر . الإجمال : الرفق
 (٢) مكبل : مقيد ، من الكبيل وهو القيد
 (٣) الخليقة السجية : الثياب هنا : القلب . تنسل : تسقط
 (٤) ذرف دمه : سال . السهمان هنا هما العينان . الأعشار : أجزاء الجزور
 الذي ينحر في الميسر يأخذ منه السهم المعلى مسبعة والرقب ثلاثة . مقتل :
 أهلكته العشق .

(٥) تسلت : تكشفوا وانزاحت . عمايات : ضلالات وغوايات مفسل سال
 (٦) السدول : الستور ، يبتلى ، يختبر
 (٧) الصلب : الظهر ، الأعجاز : المآخير ، الككل : الصدر : ناء : نهض
 (٨) مغار : محكم شديد . يذبل : اسم جميل ، يصف نجوم الليل بالثبات

وقد أعتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)
مكر مفر مقبل مدير معا كجلود صخر حطه السيل من عل (٢)
ثم يذكّر الصيد الذي صاده وطهى الطهاة له وسط الصحراء :
فظل طهاة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل (٣)
هـ — ثم يصف البرق والمطر في عذوبة وسحر وجمال ، بما لا داعي
لذكره في هذه العجالة السريعة ، فليرجع إليه القارئ في مجموعات
المعلقات المطبوعة .

معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي

١ — عمرو بن كلثوم شاعر قديم ، قتل عمرو بن هند الملك ، أمه ليلى
بنت مهلهل بن ربيعة وعمرها كليب أعز العرب ، ووالده كلثوم بن عتاب
فارس العرب ، وكان عمرو سيداً في قومه من بني تغلب ، وتوفي في أواخر
القرن السادس الميلادي .

وعمر وشاعر قوى الشاعرية مجيد ، ومعلقته « ألا هي بصحنك فاصبحينا ،
مشهورة ، « وهى من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقةات » ، وكان
قام بها خطيباً فيما كان بينه وبين عمرو بن هند (٤)

يمتاز عمرو في شعره بالبديهة والارتجال ؛ وبأسلوبه الرائع ، وأغراضه
العالية . وهو مقل لم ينظم في فنون الشعر جميعها . وكل ما روى عنه معلقته

(١) وكنات جمع وكنة وهى العش . منجرد : قضير الشعر رقيقه ، الأوابد :
الوحش النافرة

(٢) مكر مفر : سريع السكر والفر ، غل : فوق

(٣) الطهاة : جمع طاه وهو الطباخ . لحم صفيف : صف على النار ليشوى أو

فى الشمس ليتجدد . قدير : مطبوخ فى القدر

(٤) ٩٧ الشعر والشعراء

وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها وقد أجاد في الفخر إجادة منقطة النظير
٢ - وللمعلقة مشهورة بالركة والسلاسة والسهولة وفيها تكرير في بعض
معاييرها وألفاظها ، ومبالغة واضحة شديدة في الفخر بما لم يوافق نظيرها في
الشعر الجاهلي ، مثل :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخبر له الجبابر ساجدينا
ومثل :

لنا الدنيا ومن أضنى عليها ونيطش حين نيطش قادرينا
وفنون المعلقة كثيرة :

(١) فقد بدأها عمرو بن كلثوم بوصف الخمر ؛ وهذه المعلقة فريدة في هذه
الناحية ، فلم تبدأ معلقة أو قصيدة بوصف الخمر في الجاهلية إلا هذه القصيدة
ولعل من ذلك أن تغلب كانت النصرانية موجودة في بعض ربوعها وأن
الخمر كانت شائعة في هذه الربوع ، قال :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا (١)
مشعشة كأن الحصن فيها إذا ما المساء خالطها سبخينا (٢)
صددت الكأس عنا أم عمرو وكأن الكأس يجراها البيننا (٣)
وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا (٤)
وكأس قد شربت ببعليبك وأخرى في دمشق وقاضرينا (٥)
إذا صمدت حمياها أرييا من الفتيان خلعت به جنونا (٦)
(ب) ثم يأخذ في الغزل ووصف محبوبته وجمالها .

(١) هي : استيقظي ، الصحن : القدح العريض ، اصبحينا : أسقينا الصبح
وهو الشرب في الغداة . الأندرينا : جمع الأندروهي قرية بالشام جمعها بماحواليها
(٢) مشعشة : مزوجة . الحصن : الروس . سبخينا : جدنا وتكرنا من السخاء
(٣) صددت : أي صرفت . أم عمرو : هي والدته
(٤) أي لست أنا شر الثلاثة فمدلي عنى الكأس (٥) بلاد معروفة
(٦) صمدت : قصدت . الحميا : الحميا : سورة الراح . الأريب : العاقل

ففى قبل التفريق يا ظمينا نخبرك اليقين ونخبرينا
ففى نسالك هل أحدثت صرماً لوشك البين أم خنت الأمانة؟ (١)
أنى لىلى يعاتبنى أبوها وإخوتها وهم لى ظالمونا؟
(ح) ثم ينتقل إلى الفخر بقومه ومجدهم وعزتهم ، ويهدد الملك عمرو بن
هند وينذره ويتوعده فى أسلوب قوى جزل مع عذوبة وجال ، والظاهر
أن ذلك كان أيام التحاكم أمام عمرو بن هند والمفاخرة بين تغلب وبكر :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرننا نخبرك اليقيننا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حراً قد رويننا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا
ورثنا المجد قد علت معد نطاعن دونه حتى يديننا
والجزء الثانى من المعلقة يبدو أنه نظم بعد قتل عمرو بن هند ، وهو :

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتودريننا
تهبديننا وتوعديننا رويدا متى كئنا لأملك مقتوبنا
وان قناتنا يا عمر أعيت على الأعداء قبلك أن تديننا
ثم ينتقل إلى ذكر وقائع قومه مفتخراً بها على بكر ، ومنها يوم خزان ،
ثم يختمها بفخر قوى منه :

وأنا الحاكون إذا أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا النازلون بكل ثغر يخاف النازلون به المذونا
إذا ما الملك سام الناس خسفا أيدنا أن نقر الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحد علمينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ القطام لنا رضيع نخز له الجبابر ساجديننا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادريننا

(١) الصرم : الحجر . الوشك : السرعة . البين : الفراق . الأمين : الوفي بمعهده

٣ - وبعد فالمعلقة من روائع الفخر ، ويقال إنها كانت تزيد على الألف بيت وإنما وصل إلينا بعضها بما حفظه الناس منها .

والغالب - كما ذكرنا - أن الشاعر نظمها على مرتين : في مفاخرته لبكر عند عمرو بن هند ، وفي حادثة أمه ، ولذلك رأينا فيها إشارة إلى كليهما وقد وقف عمرو بن كلثوم بهذه المعلقة في عكاظ فأشدها في موسم مكة ، وكان بنو تغلب يعظمونها ويرويها صغارهم وكبارهم لما حوته من الفخر والحماسة مع جزالتها وسهولة حفظها .

وقد أثرت هذه القصيدة في نفوس قبيلة تغلب ونحروا بها ، واتخذوها أنشودتهم ، حتى قال فيها بعض البكرين :

ألمى بنى تغلب عن جل أمرهم قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفأخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسنوم

والميزة الواضحة فيها السهولة والقوة ؛ والاعتداد بالنفس والقبيلة ؛ والمبالغة في الفخر ، وأنها شعر صدر عن سيد قومه يعتز بسيادته وسيادة قبيلته ومجدها وأيامها وبطولة أبطالها وانتصاراتهم .

وبدؤها بالخمر يرجع إلى انتشار النصرانية في تغلب وانتشار الخمر بينهم ، وتسكاد تكون هي القصيدة الوحيدة في بدنها بالخمر على غير عادة الشعراء الجاهليين .

ويعجب النقاد بمعلقة عمرو إعجاباً شديداً ، قال ابن قتيبة : وهي من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقات (١) ؛ وقدمه بها النقاد (٢) ، وقال مطرف عن عيسى بن عمر : لو وضعت أشعار العرب في كفة وقصيدة عمرو ابن كلثوم في كفة لمالت بأكثرها (٣) .

(١) ص ٦٧ الشعر والشعراء (٢) ص ٤٠ جمهرة أشعار العرب

(٣) ص ٤١ المرجع

معلقة زهير

-- ١ --

وهي أثر آخر من آثار البلاغة العربية القديمة ، تقع في تسعة وخمسين بيتاً صاحبها زهير بن أبي سلمى ربعة بن رباح المزني ، نشأ في أقاربه بني غطاطان ، وتخرج في الشعر على خال أبيه بشامة بن الغدير ، وكان يروي لأوس ابن حجر أيضاً وكان أوس زوج أمه ، فكان شاعراً فخلاً ، كما كان صائب الرأي عاقلاً حازماً حكيماً .

كان يتأله ويتعفف في شعره ؛ ويدل شعره على إيمانه بالبعث :
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم (١)
وفضله عمر بن الخطاب على الشعراء لأنه كان لا يعاقل بين القول ولا يتبع حوشى الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه (٢) ،
وكان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق وأشدهم مبالغة في المدح (٣) .

كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ثورق زهيراً وتضايه ، وتشير شاعريته ، ولما سعى هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان في الصامع وحقن الدماء وتحملوا ديوات القتلى أنطلقت تلك المأثرة زهيراً ، فنظم معلقته هذه يمدح هذين السيدين وينزه بعلمهما الجليل ويدعو إلى السلم وينفر من الحرب ويصف مآسيها وآلامها ، وهي قصيدة رائعة ، وتمتاز بحكمها الكثيرة وكان زهير ذا حكمة في شعره .

تحليل للقصيدة :

-- ٢ --

١ . بدأ زهير معلقته بذكر الديار وزيارته لها ووقوفه فيها بعد

(١) ٤٥ الشعر والشعراء (٢) ٤٤ المرجع ، ٢٩ طبقات الشعراء ،
٣٠٥ ٢٣ المرمر ، وراجع ٣٢ المجرة (٣) ٢٩ طبقات الشعراء لابن سلام

عشرين عاما طوالا يتذكر ذكريات حبه ووفائه ، قال :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومة الدراج فالتشم؟ (١)
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم (٢)
فلما عرفت الدار قلت لربها ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم
ثم أخذ يصف النساء اللائق ارتحلن عندها ، فيتبعن ببصره كثيباً حزيناً ،
ويصف الطريق التي سلكها ، والهوادج التي كن فيها والمياه التي نزلنها في
عذوبة وسهولة وجمال إلى أن يقول :

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم (٣)
تذكرني الأحلام ليل ومن تطف عليه خيالات الأحبة يحلم
٢ - ثم ينتقل إلى مدح هرم والحارث والإشادة بمنقبتيهما السكريمة في
إنقاذ السلام وإطفاء الحرب بين عبس وذبيان وتحملهما ديات القتلى من
مالهما وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير . قال :

سعى (٤) ساعيا غيظ بن مرة بعدما تزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت (٥) بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرحهم
يمينا لنعم (٦) السيدان وجدتما على كل حال من سهيل ومبرم

- (١) أم أوفى : محبوبة الشاعر . الدمنة : آثار الديار . تكلم : تشكلم .
حومة الدراج والمتشم : موضعان
(٢) الحجة : السنة . لأيا : أى بعد لآى ومشقة . توهم : ظن
(٣) جمام الماء : ما اجتمع منه . والجمام الزرق : المياه الصافية . وضع العصي
كناية عن الإقامة . الحاضر : النازل على الماء . المتخيم : المقيم
(٤) غيظ بن مرة من غطفان اسم جد القبيلة . تزل : نفجر . الساعيان هما
هرم والحارث
(٥) البيت : الكعبة
(٦) السهيل : ضد المبرم ، والمبرم ، المفتول . والسهيل كناية عن الرخاء
والمبرم عن الشدة

تداركتما عيسا (١) وذييان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر ملشم
وقد قتلتما (٢) إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما (٣) منها على خير موطن بغيرين فيها من عقوق ومائم
٣ - ثم ندد بالحرب ووصف فظائعها ودعا إلى السلم وأكده وأوجه
على المتحاربين، قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم (٤)
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا هربتوها فتضرم (٥)
ثم ينصح قومه بأن يبقوا على السلم ، ويندد بالحصين بن ضمضم وبآثار
عمله في تهيج الشر وإعادة نار الحرب ، وكان الحصين حين اجتمع القوم
للصلح قد حمل على رجل له عنده نار في الحرب فقتله ، ويعيد التنويه بالرجلين
الذين احتملا ديوات القتلى واحدا واحدا على غير جريرة أو ذنب كان منهما
٤ - ثم ينتقل من هذا المجال الرهيب مجال النصيح والتوجيه وتأكيـ
د السلام إلى مجال الحكمة الإنسانية العامة ، حكمة الرجل المجرب للحياة الذي
ذاقها وخبرها وعاش في خضمتها ثم امتد به العمر فزهدا وانصرف عنها قال :
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذم
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بملسم (٦)

(١) ملشم : امرأة من خزاعة كانت تباع عطرا فإذا حاربوا اشتروا منها
كافورا لموتاهم .

(٢) واسعا : ممكنا أو غالبا

(٣) المعقوق : فطيمة الرحم . المائم : الاثم والعدوان

(٤) المرجم : المظنون

(٥) ضررته فضرى : أى هيجته فهاج . تضرم : تشعل

(٦) المصانعة : المداواة . يضرس : يعضض بالأضراس . الملسم ، الحافر

- ٢٩٨ -

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم (١)
ومهما تكن عند امرى من خليقة وإن غالها تخفى على الناس تعلم
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبالك يسأم
وأعلم ما فى اليوم واللبس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

ويختتمها بتأكيد معروف السيدين الممدوحين عليه فيقول :

سألنا فأعطيتم وعدما فعدتم ومن يكثر التسأل يوما سيحرم

معلقة عنثرة

- ١ -

عنثرة بن عمرو بن شداد العبسى م ٦١٥ م أحد فرسان العرب
وأبطالها وشعرائها ، كان عبداً أسود ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين أو
الثلاثة نفاصه رجل وعيره بسواده وسواد أمه وسوى ذلك ، وأنه لا يقول
الشعر فقال عنثرة : والله إن الناس ليرافدون الطعام فما حضرت أنت ولا
أبوك ولا جدك مرفد الناس قط ، وإن الناس ليدعون فى الغارات فيهرقون
ببسويمهم فما رأيتك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قط ، وإن اللبس
ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطاة فصل . وإنى
لأحضر البأس ، وأوفى المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكك
يدى ، وأفصل الخطاة الهباء ، وأما الشعر فستعلم . فغاب حيناً وعاد إليه
فأنشده معلقته :

هل غادر الشعر من متردم ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وهى أجود شعره ، وكانت العرب تسميها الذهبية .

وشجاعة عنثرة وبسالته وشاعريته دفعت أمه إلى أن يستأجده بأسبه ، وإلى أن

(١) يفره أى يهونه ويهينه

— ٢٩٩ —

يزوجه عمه ابنته محبلة ، وأصبح فارس داحس والغبراء ، كما كان فارس عبس ،
وأحد أغربة العرب المشهورين .

— ٢ —

تحليل ونقد للمعلقة :

١ - هي إحدى المعلقات السبع ، ومن روائع الشعر العربي القديم ، مطلعها :
هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
وتمتاز بالسهولة واللين ، الباديين فيها ، والذين قلما يوجدان في
الشعر النجدي القديم ، والذين لا يخلوان من غفامة وجزالة ، فهي واضحة
جلية ، سهلة اللفظ ، قريبة المعنى ، ليس بينها وبين النفس حجاب من هذه
الجزالة التي تكاد تبلغ الغرابة ، وإنما تسير في سهولة ويسر ، وترتفع عن
الإسفاف والابتذال دون تورط في الغلظة والاغراب .
وعنبرة فيها رقيق في غزله والإشادة ببطولته ، بل هو رقيق في حديثه
عن أعدائه ، أليس هو الذى يقول :
فشككت بالريح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
بل هو رقيق على فرسه ، يألم لآله ، ويشقى لشقائه ، ويرى بكاهه ،
ويسمع توجعه حين تعبت به رماح الأعداء :
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولسكان لو علم الكلام مكلمي
وعنبرة لا تنتهى به الرقة إلى الضعف ، كما لا تنتهى به الشدة إلى العنف ،
وكما لا ينتهى به السكر إلى ما يفسد الأخلاق والمروءة ، أو الصحو إلى
التقصير والعيب والبخل . وهو مقدم إذا كانت الحرب ، عفيف إذا قسمت
الغنائم ، يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به الرجل العربي عما يستغنى
عن الإبانة عنه ، فيقول هذه الكلمة الرائعة « وكما علمت شمائل وتكرمي » .

والمعلقة تصوير واضح لنفسية الشاعر ومشاعره وحياته وعواطفه
وبطولاته وقوته وبأسه ونضاله للأعداء ، ولا عجب فهي تلعب من نفسه
وحياته وتصورهما تمام التصوير .

ولولم نعرف عنتره أو نسمع بأخباره وحياته ، لعرفناه من معلقته بطلا
مقداما ، وشجاعا فارسا ، وعربيا كريم الخلق ، رقيق العاطفة ، حار الشعور ،
يضع روحه في كفه ، ويبدلها مضحيا في سبيل كرامته وشرفه وبطولته .

٢ - وقد سار الشاعر فيها على نهج غيره من الشعراء ، فذكر الديار كما ذكروها ،
ووصف الناقة كما وصفوها ، وافتخر بالكرم والنجدة والبطولة . وفيها كما يقول
الدكتور طه حسين معان قلها انتهى إلى مثلها غير عنتره من الشعراء ، ولم يخطئ ابن
سلام حين قال : إن هذه القصيدة نادرة ، فهي نادرة حقا ، وكانت طايفة من
الأنغام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، وفيها نغمة
واحدة متصلة منذ بدء القصيدة إلى نهايتها ، تظهر واضحة حيناً وتحسبها النفس
وإن لم تسمعها الأذن حيناً آخر ؛ وهذه النغمة التي تكون وحدة هذه
القصيدة كما كوَّنت الوحدة في معلقة لبيد ، هي حديث الشاعر إلى صاحبه
واستحضار صورتها في نفسه منذ بدء القصيدة ؛ ولكن بين هذه
النغمة في قصيدة عنتره وقصيدة لبيد فرقا واضحا جداً ، فهي في قصيدة عنتره
حلوله رقيقة تمازج النفس فتمتزج بها لأن عنتره فيما يظهر كان حلوا النفس
رقيق القلب ، قوى العاطفة ، جاء ذلك من أنه عز بعد ذلة ، وتحرر بعد
رق ، فهو قد شقي في صباه وطفولته ، واحتمل الأذى في شبابه ، والذل الذي
يتمتزج بالنفس فيصني عواطفها ، ويلطف حديثها ، على حين تجدد هذه النغمة
عند لبيد غليظة خشنة ، لبيد يتحدث عن صاحبه في أول القصيدة ويذكرها
أثناءها ولكنه ليس متهاكاً عليها ولا متحرجاً من الصد عنها ، فهو يبادل
القطيعة بالقطيعة والمهجر بالمهجر ، أما عنتره فيقول :

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المسكرم

٣ - وفيها عدة تشبيهات رائقة ، كتشبيهه الظلم وقد تبعته النعام بالعبد الاسود وقد ثابت إليه الإبل :

تأوى له قلس النعام كما أوت حرق بجانبه لأعجم طمطم
ومثل هذا التشبيه الرائع الذى يعجب به النقاد من القدماء ويحبونه ،
فى الآيات التى وصف فيها ثمر صاحبه بالجمال وطيب النشر ، فذكر فأرة
المسك وذكر الروضة الأنف التى ألح عليها الغيث حتى زكا نبتها وكثر فيها
الذباب مبهجا نشوان مترنما :

وكان فأرة تاجر بقسيمة	سبقت عوارصها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها	غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليه كل بكرة حرة	فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكبا فكل عشية	يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس يبارح	غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعاه بذراعاه	قدح المسكب على الزناد الأجزم

٤ - وكثير جداً من أبيات هذه المعلقة قد ظار عظم كبير من الإيجاز
والامتلاء والبراءة من اللغو والفضول حتى جرى مجرى الأسمال ، وأى
النفاس لا يتمثل قوله :

وإذا شربت فانى مستهلك	مالى وترضى وأفر لم يسلكم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شمائل وأكرمى

أو قوله :

يلبئك من شهد الواقعة أننى	أعشى الوغى وأعف عند المغنم
---------------------------	----------------------------

أو قوله :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر	لأحرب دائرة على ابني ضمضم
التسامى عرضى ولم أشتهمها	والناذرين إذا لقيتهما دى

بما احتذاه جميل فقال :

وليت رجلا فيك قد نذر وادى وهما يقتلى بابئين لقونى
أو قوله :

إن يفعلوا فقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

وجل هذه القصيدة يجرى بجرى المثل ، وينشد على اختلاف المصور
والبيئات والظروف ، فلا يمل إنشاده . ولا تحس النفس نبوعه ، أو نفورا
منه ؛ وإنما تحس كأها تجرى فيه أو كأن هذا المصور مرآة صافية صادقة
لسكل نفس كريمة واسكل قلب ذكى ولسكل خلق نقي .

ذلك لأن عنبرة بحياته وشخصيته ومشاعره وعواطفه وآلامه
كان كأنما يتحدث عن النفوس ، ويصف حياة الناس ، يأخذ من تجاربه
وخبرته ومن فراسته وذكاؤه أساليبه وصوره ، ويستمد من إلمامه بالحياة
ومعرفته ببيئته مادة يمانه وشعوره وشعره .

فعنبرة في معلقته شاعر يتحدث عن البطولة في البادية وعن المجتمع الذى
كان يعيش فيه وعن الحياة التى كان يتأثر بها وعن عواطف الشاعر وعن دخائل
نفسه حديث المصور الماهر والشاعر العبقرى .

وبعد فكل ما فى المعلقة جيد ، وكل أبياتها خليق أن تطيل الوقوف عنده
والتفكير فيه والإعجاب به كما يقول الدكتور طه حسين .

وفنون المعلقة كثيرة :

١ - بدأها عنبرة بالغزل فى ابنة عمه عبلة ومخاطبة دارها ذات الذكريات
الجميلة ، قال :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت اندار بعد توهم (١) ؟

(١) غادر : ترك . متردم : شئ ، يصلح لم يكونوا أصلحوه التوهم : الوهم

- ٣٠٣ -

يا دار عبلة بالجواء تسكمنى وعمى صباحا دار عبلة واسلمنى (١)
وتجلى عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتلم
حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
٢ - واستطرد إلى وصف الروضة :

أو روضة أنفأ تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بهلم (٢)
جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم (٣)
وخلا الذباب بها فليس بيارح غردا كعجل الشارب المترنم (٤)
هزجا يحك ذراعاه بذراعاه قدح المسكب على الزناد الأجنم (٥)
٣ - ثم يصف ناقته في أبيات كآيات طرفة تمتاز بالغرابة :

هل تبلغنى دارها شذنية لعنت بمحروم الشراب مصرم (٦)
٤ - ثم يفتخر بنفسه وشجاعته :

أفنى على بما علمت فأنى سهل غشا الفتى إذا لم أظلم
فاذا ظلمت فان ظلمى بأسل مر مذاقته كطعم الملقم
وإذا شربت فأنى مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يكلم

-
- (١) الجواء : بلد في نجد من أماكن عبس ، عمى : أى انعمى
(٢) الأنف : التام في كل شيء ، الدمن : المطر الخفيف ، الغيث : المطر ،
المعلم : ذو العلامة
(٣) جادت : من الجود وهو المطر الكثير : البكر ، السحابة في أول الربيع
والحررة : البيضاء ، القرارة : القاع كالدرهم . يعنى فى البياض والاستدارة
(٤) خلا : انفرج ، بارح : تارك ، غردا : مترنما
(٥) الهزج : السريع الصوت ، قدح المسكب : أى الذى أكد على الزناديقده ،
الاجنم : مقطوع اليد
(٦) تبلغنى : توصلنى ، دارها : منزلها . شذنية : ناقة . لعنت : جف ضرعها
محروم الشراب : أى ضرع لالين فيه ، مصرم : جانف

وإذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائل وتكرى
ويستمر في التنويه بشجاعته إلى أن يقول :

ولقد ذكرت لك والرماح نواهل منى ويبيض الهند تقطر من دى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذاكرون كررت غير مذمّم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بتر في لبان الأدم (١)
مازلت أرميهم بشجرة نحرة ولبانه حتى تسربل بالدم (٢)
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولما كان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس : ويك عنتر أقدم

هـ — ثم يختمها بتهديد ابني ضمضم وكانا قد نذرا دمه وتربصا له لأنه
قتل أباهما في الحرب ، قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتهمها والناذرين إذا لم ألتهمها دى
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم (٣)

معلقة لبید

١ — لبید بن ربیعۃ العامری من سادة العامريين القيسيين وأشرفهم
وكان يقال لأبيه ربیعۃ المعترین ، وعمه ملاعب الأسنة عامر بن مالك أخذ
أربعين مرباعاً في الجاهلية .

-
- (١) أشطان . حبال ، لبان : صدر ، الأدم : الفرس الأسود
(٢) الشجرة : الهزمة التي في الحلق ، اللبان : الصدر ، تسربل : لبس السربال
(٣) جزر السباع . أى طعمة لها ، القشعم . الكبير من الذنور

كان لبيد من شعراء الجاهلية وفرسانهم ، وقال الشعر في الجاهلية في كل غرض ، وأدرك الإسلام وأسلم وهجر الشعر ، وأقام بالكوفة إلى أن مات عام ٤١ هـ عن مائة وسبع وخمسين سنة .

« وسئل لبيد من أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضليل ، ثم الشاب القليل ثم الشيخ أبو عقيل يعني نفسه (١) » . وهو من أصحاب المعلقات ، وكان نظم لبيد في الجاهلية نغم العبارة منضد اللفظ قليل الحشو مزادنا بالحكمة العالية والكلم الرائعات ، وهو أحسن الجاهليين تصرفاً في الرثاء ، وأكثرهم قدرة على تصوير عواطف المجموع الحزين ، بلفظ رائق وأسلوب مؤثر ، وقدمه بعض النقاد « لأنه أفضل الشعراء في الجاهلية والإسلام وأقلهم لغواً في شعره (٢) » .

٢ - ومعلقة لبيد تمتاز بقوة اللفظ ومتانة الأسلوب ، وبما فيها من تصوير للبأدية والحياة والأخلاق فيها .

١ - بدأها لبيد بذكر الديار وخلوها من أصحابها وتعرضها للرياح والأمطار تعبت بها وتمحو معالمها ، قال :

عفت الديار محلماً فقامها بمنى تأبد غولها فرجامها (٣)
وبعلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجدد متونها أقلامها (٤)
فوقفت أسألها ، وكيف سؤلنا صما خوالد ما يبين كلامها (٥)

(١) ٢٩٧ ج ٢ المزهرة . وراجع ٨٨ الشعر والشعراء .

(٢) ٣٨ الجهرة ، وراجع ص ٣٩ من الجهرة أيضا .

(٣) عفت : درست . المحل والمقام : موضع الحلول والاقامة . منى : موضع قريب من طخفة . تأبد : توحش . الغول : ماء معروف للضبب بجوف طخفة به نخل . الرجام : جبال بقلوعة الحى حى ، ضرية .

(٤) يريد أن السيول كشفت عن الطلول فظهرت كالـكشب تجدد ظهورها . والزبر جمع زبور وهو الكتاب

(٥) صم : جمع صماء . خوالد : بواق جمع حالدة . والصم البواقى هى الأثافي

ثم يصف رحيل أحبابه عنها حتى يقول :
 بل ما تذكر من «نوار» وقد نأت وتقطعت أسبابها ورامها (١)
 مرية ، حلت بفيد ، وجاورت أهل الحجاز ، فأين منك رامها (٢)
 وأخير أرى لا أن يتسلى ويتعزى حتى يصل إلى رجائه وأمله ، ولكن
 أن يقطع أمله منها ويترك رجاءه فيها ويقطع صلته بها مادامت نوار قد
 تغير وصلها :

فأقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها (٣)
 ب - ثم يأخذ في وصف ناقته في لفظ غريب وتعبير بدوي متين :
 ويطيل في هذا الوصف ، ويشبهها بالأتان الوحشية وبالظبية الرؤوم المنجوعة
 إلى أن يقول :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى واجتأب أردية السراب أكامها (٤)
 أفضى اللبانة لأفرط ريبة أو أن يلوم بحاجة لوامها (٥)
 أو لم تكن تدرى نوار بأنى وصال عقد حبال جذامها (٦)
 تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حماءها
 ج - ثم يتحدث عن نفسه وعزتها ، ولذات الراح التي شارك فيها ،

(١) نوار : اسم حبيته . الرمام : جمع رمة وهي القطعة من الحبل البالي ، يريد
 أن الوصل تقطعت به الأسباب

(٢) مرية : تنسب إلى مرة بن عوف ، فيد : موضع في طريق مكة . رامها : منالها
 (٣) اللبانة : الحاجة . تعرض : تغير . الخلة : الصداقة .

(٤) رقص : ارتفع . اللوامع بالضحى : بمعنى الآل . اجتأب : لبس . أردية :
 جمع رداء . السراب : ما يتراعى للسائر في الصحراء من شبه الماء مما يكون لازقا
 بالقيعان . أكامها : جمع أكنة

(٥) اللبانة : الحاجة . لا أفرط أى لا أترك . الريبة : الشك والخفاقة . أن
 يلوم : أى أن لا يلوم . (٦) أى أصل وأقطع . وهذا منذهب لا يرتضيه
 المنيعون في الحب .

وشجاعته وبطولته في مواقف الزال والنضال، وكرمه وسخائه ونواله للجار
الفقير والضييف النازل والجار الغريب وللبائسين والمساكين :

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغلق متشابه أعلامها (١)
فالضييف والجار الغريب كأما هبطا تبالة مخصبا أهضامها (٢)
تأوى إلى الأطناب كل رزية مثل البلية قاص أهدامها (٣)
د - ثم يفتخر بقومه ومآثرهم وشرفهم ومجدهم فيقول :

من معشر سلت لهم آباؤهم ولـ لكل قوم سنة وإمامها
فبنوا لنا بيتا رفيعاً سمكه فسما إليه كهلها وغلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها
فهم السعاة إذا العشرة أنظمت وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم والمرمات إذا تظاول عامها

معلقة الحارث بن حلزة

الحارث بن حلزة اليشكري من بكر ، كان سيدا في قومه ، وشاعراً
مجيداً ، ارتحل معلقته ارتجالاً في مجلس عمرو بن هند يستدنى بها عطفه ويستعجب
رضاه ويذرد بها عن قومه ، وكان هوى عمرو بن هند مع تغلب ، فتحول إلى

(١) الأيسار : الذين يحضرون القسمة ويضربون بالقداح . المغلق : جمع
مغلق وهو السابع من سهام الميسر . متشابه : أى يشبه بعضه بعضاً
(٢) تبالة : قرية في نجد مشهورة بالخصب . أهضام : جمع هضم وهى بطون
الأرض المطمئنة .

(٣) الرزية : المرأة التى قد أرزها أهلها أى أهرطها : البلية ناقة الرجل تعقل
عند قبره حتى تموت . الاطناب : حبال الفساطيط . الأهدام : الخلقان . قاص :
قصير مرتفع .

العطف على البكرين بسبب هذه القصيدة الرائعة . وليس للعارث إلا آثار قليلة من الشعر مع معلقته هذه
وتمتاز معلقة العارث بإحكام نسجها وتنوع أعراضها وبأثر من آثار البديهة والارتجال :

١ - بدأها بالغزل في محبوبته أسماء :

أذنتما ببينهما أسماء رب ثاو يحمل منه الثواء (١)
بعد عم بدلنا ببرقة شما فأدنى ديارها الخلاء (٢)
لا أرى من عهدت فيها فأبكي اليوم دلهما وما يحير البكا (٣)

ب - ثم انتقل إلى وصف ناقته وكما يقول :

أتلمى بها الهواجر إذ كل ابن هم بلية عمياء (٤)
ثم يعاتب إخوانه من بنى تغلب لصلفهم على قومه :

إن إخواننا الأراقم يغلو ن علينا في قيلهم إحفاء (٥)
يخلمون البرى منا بذي الذنب ولا ينفع الخلى الخلا (٦)
أجمعوا أمرهم عشاء ، فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن نجيب ، ومن تصمها لخيال خلال ذاك رغاء
أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو ، وهل لذلك بقاء (٧) ؟

(١) الإيذان : الاعلام البين : الفراق . الثواء : الإقامة .

(٢) العهد : اللقاء . وبرقة شما : والخلاء : موضعان قريبان من دياره

(٣) يحير : يرد ، الدله : الحزن والتحير وذهب العقل

(٤) الهواجر جمع هاجرة وهي لفح الخمر وقت الظهيرة . عمياء : شديدة

(٥) الأراقم : بطون من تغلب . الغلو : مجاوزة الحد . الإحفاء : الإلحاح

القييل : القول

(١) الخلى البرى الخالى من الذنب

(٢) الناطق المرقش : أى الواشى المنمق أكاذيبه ووشائنه وأباطيله .

- ٣٠٩ -

فبقينا على غراتك لنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء (١)
فبقينا على الشنأة تنميننا حصون وعزة قعسا (٢)
ثم يمدح الملك عمرو بن هند حيناً ويستمر في عتاب إخوانه من تغلب
حيناً آخر :

ملك مقسط ، وأفضل من يمشى ، ومن دون ما لديه الشنأ (٣)
أيعا خطة أردتم فأدو ها إلينا تمشى بها الأملأ (٤)
ويسير على هذا النهج من المدح والعتاب .

ج - ثم يفتخر بقومه وبجدهم وأيامهم في صدق وجمال وقوة عاطفة :
هل علمتم أيام يذهب النسا من غوارا لكل حى عوا (٥)
إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التي يصنع لنا أن نعدّها ملحمة شعرية مصفرة
تنطق بمجد بكر ومفاخرها في الحرب والسلام في الجاهلية .

أبواب الشعر الجاهلي

١ - المدح

١ - من أهم أبواب الشعر العربي ، وكان للمدح مكانة كبيرة في العصر
الجاهلي ، وخاصة بعد أن تكسب الشعراء بالشعر واتخذوه صناعة ومدحوا
به الملوك والرؤساء كالأعشى والنابغة وزهير وغيرهم .

(١) الغرأة : اسم بمعنى الاغراء .

(٢) الشنأة : البغضاء . تنميننا : ترفعنا

(٣) مقسط : عادل

(٤) الخطة : الأمر العظيم الذي يحتاج إلى التخلص منه . أدوها أى فوضوها .

الأملا : الجماعات من الاشراف .

(٥) الغوار المغاورة العوا : صوت الذئب وهو مستعار للضجيج والصياح

كان الشعراء في الجاهلية يمدحون أبطال القبيلة وساداتها ، ويشيدون بمكانتهم بين القبائل ، ويصفون أخلاقهم ومآثرهم ومحامدهم وشجاعتهم ويتعنون ببطولتهم .

ثم قصد المتكسبون بالشعر منهم رؤساء القبائل والأمراء والملوك فدحوم وأشادوا بمفاخرهم ومكارمهم وأخلاقهم وخلقهم ، وقصة النابغة مع النعمان وزهير مع هرم مشهورة .

وتمتاز المدائح الجاهلية ببساطتها وصدقها وبهدا عن الغلو والمبالغة ، وهى أثر جميل لشاعريتهم القوية .

ب - صور للمدح الجاهلى :

قال الأعشى الشاعر الجاهلى الفحل يمدح الأسود بن المنذر وهو أخو النعمان لأمه ، وكان النعمان ولده على بنى سعد وغيرهم ، وكان عنده أسرى من بنى سعد بن ضبيعة فأتاه الأعشى فدحه وسأله أن يطلقهم ففعل ، ويعد صاحب الجهرة هذه المدحة من المعلقات ، ومطلع هذه القصيدة :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما ترد سؤالى
ومنها يخاطب الناقة :

لا تشكى إلى وانتجعى الأسود أهل الندى وأهل الفحال
فرع نبع يهتز فى غصن المجسد ، غزير الندى شديد المحال
عنده البر والتقى وأسى الشق (١) وحمل البعضلات الثقال
وصلات الأرحام قد علم الناس وفك الأسرى من الأغلال
وهوان النفس الكريمة للذكر إذا ما التقت صدور العوالى
أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبّت وجوه الرجال
ووفاء إذا ما أجرت فإغر ت (٢) حبال وصلتها بحبال

(١) الشق : الصدع والكسر . وأسى الشق . رأبه وإصلاحه

(٢) أى تقصت

وعطاء إذا سئلت إذ العذرة (١) فينا عطية البخال
أريحي صلت (٢) يظلل له القوم م وقوفا قيامهم للهلال
وأرى من عهساك أصبح محزو ناكعب الذي يطعمك على
جندك الطارفي التليد من الغا رات أهل الهبات والآكال (٣)
للعدا عندك البوار ومن وا ليت لم يعر عقده باغتيال
لن يزالوا كذلككم ، ثم لازالت لهم خالداً خلود الجبال

وقال زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف المري سيدي بني
غطفان لسميهم في الصلح بين عبس وذبيان ، وهي قصيدة من النمط العالي ،
ولها مكانتها في البلاغة العربية قال :

تداركتما الأحلاف قد تل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل
فأصبحتما منها على خير موطن سبيلكما فيه وإن أحزنوا سهل
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى إذا نبت البقل
وفيههم مقامات حسان وجوهم وأندية يلتابها القول والعمل
على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السباحة والبذل
وإن جنتهم ألفيت حول بيوتهم بجاس قد يشفي بأحلامها الجهل
سعى بعدم قوم ليكي يدركوهم فلم يفعلوا ولم يلبسوا (٤) ولم يألوا
فما يك من خير أتوه فأنما توارثه آباء آباءهم قبل
وهل يلبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل ؟

وقال أبو البرج القاسم بن حنبل المري في زفر بن أبي هاشم بن مسعود
ابن سنان :

(١) العذرة : المَعذرة

(٢) الأريحي : من الأريحية وهي الأرياح للندى . الصلت : الماضى في الحوانج

(٣) أى الاطماع

(٤) يلبسوا : أى لم يأتوا ما يلامون عليه . ويألوا : يقصروا

من البيض الوجوه بنى سنان لو أنك تستضيء بهم أضوا
هم حلوا من الشرف المعلي ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
بنات مكام وأساة كالم دماؤهم من الكلب الشفاء
فلو أن السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لكم السماء
وقصائد النابغة في مدح ملوك الحيرة وغسان مشهورة معروفة ولاداعي
لذكرها في هذا المجال الضيق الموجز .

٢ - الهجاء

١ - كان الهجاء في الجاهلية يقصد به الخط من شأن قبيلة أو عشيرة ،
أو فرد من أعداء قبيلة الشاعر وخصومه ، وكان الهجاء سوطاً يصبه الشاعر
على خصومه وخصوم قبيلته . فيثلبهم ويتنقص من مقامهم ، ويزري بهم ،
ويضع من مكاتبتهم ، ويلسب اليهم البخل والجبن والذلة والهوان ، وكانت
الخصومات الكثيرة بين القبائل ، والحروب المشتعلة في الجزيرة العربية في
العصر الجاهلي ، سببا في الاكثار من شعر الهجاء ، ولكن الماثور من هذا
الباب لا يضارع الماثور من باب المديح .

ويمتاز فن الهجاء في الجاهلية بالقصد في السب والشتم وتعتمد الأوصاف
الاجتماعية المزرية بالفرد والقبيلة من الهوان والبخل والجبن وسواها .

ب - صور لفن الهجاء :

قال عارق الطائي وهو شاعر جاهلي يهجو المناذرة :

والله لو كان ابن جفنة (١) جاركم لكسا الوجوه غضاضة وهوانا
وسلا سلا يثنين في أعناقكم وإذا لقطع تلسم الاقرانا (٢)

(١) يريد به ملك غسان

(٢) الاقران جمع قرن بفتح الراء وهو الحبل . وتقطع الاقران كناية عن

تبديد جمعهم

وقال مساور بن هند بن قيس بن زهير يهجو بني أسد :

زعمتم أن إخوتكم قریش لهم إلف وليس لكم إلف
أولئك أرموا جوعاً وخوفاً وقد جاءت بنو أسد وخافوا
وقال قريظ بن أنيف أحد بني العنبر :

ليكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل سوء إحساناً
كأن ربك لم يخلق الخشيتة سواهم من جميع الناس إنساناً
فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا بشدوا الإغارة فرساناً وركباناً
وقال مدرك الفقهسي يهجو عبسا :

وأعرضت عن سلبى وقلت لصاحبي سواء علينا بخل سلبى وجودها
فلا تحسدن عبسا على ما أصابها وذم حياة قد تولى زهيدها
تشبه عبس هاشما إن تسربلت سرايل خور أنكرتها جلودها

٣ - الفخر

وهو تباهى الرجل بنفسه أو قبيلته أو قومه أو أمته . والفخر باب كبير
في الشعر الجاهلي ، أكثر الشعراء فيه من الفخر بأحسابهم وأنسابهم وأيامهم
وأبطالهم وماثرهم .

وصوره كثيرة في الشعر الجاهلي ، قال عمرو بن كلثوم يفتخر بقومه أمام
الملك عمرو بن هند ملك الحيرة :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيننا
بأننا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يدينا
وقد علم القبائل غير نخر إذا قبب بأبطالهم بلينا

بأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا الغارمون إذا عصينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكون بما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا ما الملك سام الناس تحسفا أيينا أن نقر الخسف فينا
إذا بلع الفطام لنا رضيع نخر له الجبار ساجديننا
لنا الدنيا ومن أضحي عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

وعلى نمطها يقول أمية بن أبي الصلت :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البلينا
وكنا حيثما علمت معد أقنا حيث ساورا هاريننا
وأنا النازلون بكل نغر وأنا الضاربون إذا التقينا
وأنا المساعون إذا أردنا وأنا المقبولون إذا دعينا
وأنا الرافعون على معد أكما في المسكارم ما بقينا
نسرده بالخفاة من أنانا ويعطينا المفادة من يلينا (١)

وقال الخنفي من محارب واسمه عامر المحاربي :

وأبقيت لنا آباؤنا من تراثهم دعائم مجد كان في الناس معلما
ونرسى إلى جرثومة أدركت لنا حديننا وعاديا من المجد خضرما (٢)
بنى من بني منهم بناء فكنوا مكانا لنا منه رفيعا وسلميا
أوائلك قومي إن يلد ببيوتهم أخو حدث يوما فلن يتمضيا
وكم فيهم من سيد ذى مهابة يهاب إذا ما رأيد الحرب أضرمنا
لنا العزة القعساء تحتطم العدى بها ، ثم نستعصى بها أن نخطما

(١) راجع القصيدة في الجهرة ١٨٦ - ١٩٠ ، وقصيدة عمرو بن كلثوم في
الجهرة أيضا ١١٧ - ١٢٩

(٢) الجهرثومة : الاصل . العادي : القديم الخضرم : الكثير أو الواسع

وهم يدعون القوم في كل موطن بكل خطيب يترك القوم كظما
وكننا نجوما كلما انقض كوكب بدا زاهر منهن ليس بأقما
فما يستطيع الناس عقدا نشده وننقضه منهم وإن كان مبرما
وقال حجير بن خالد الشعلي وهو شاعر جاهلي :

وجدنا أبانا حل في المجد بيته وأعيان رجالا آخرين مطالعه
فمن يسع منا لا ينل مثل سميه ولكن متى ما يرتحل فهو تابعه
وقال عوف بن عطية النيمي (١) :

لعمرك إنني لأخو حفاظ وفي يوم السكريه غير غمر (٢)
أجود على الأبعاد باجتماعه ولم أحرم ذوى قربي وإصر (٣)
وماني ، فاعلموه ، من خشوع إلى أحد ، وما أرى بكبر
ألم تر أننا مردى حروب نسيل كأننا دفاع بحر (٤)
ونلبس للعدو جلود أسد إذا نلقاهم وجلود نمر
وزعى ما رعيناه بين عبس وطينها وبين الحى بكر
وكلمهم عدو غير مبق حديث قرحه يسعى بوتو

٤ - الرثاء.

١ - هو ذكر مناقب امت وما أثره ومماخره ، ووصف الحزن عليه
والجزع لفقدته ، وبيان مكانته في قومه وأثره في مجتمعه الذي كان يعيش فيه.
والرثاء كثير في الشعر الجاهلي ، ومن أمثلته عيبه لبيد في رثاء أخيه أربد ،
ورأية المهلهل في رثاء أخيه كليب ، والرثاء هو الذي هيج شاعرية المهلهل
فأطال القصيد في رثاء كليب سيد بني ربيعة ، ولامية نأبط شرا في رثاء ابن
أخته ، وسوى ذلك من عيون الرثاء في الشعر الجاهلي .

(١) شاعر جاهلي مفلق ومن فرسان العرب .

(٢) الغمر : الذي لم يجرب الامور . (٣) الإصر : العهد

(٤) مردى حروب : أى تقوم بها ، وأسبل المردى الحجر يرى به .

ب - صور لفن الرثاء :

قال المهلهل يرثى أخاه كليبا :

أهـاج فـذاة عـيني الـادكار
وصار الليل مشتملا علينا
وبت أراقب الجوزاء حتى
أصرف مـقلبي في إثر قوم
دعوتك يا كليب فلم تجبني
أجبنى يا كليب خـلاك ذم
أجبنى يا كليب خـلاك ذم
سقاك الغيث إلك كمت غيثا
أبت عـيناي بـعدك أن تكفـا
وإنك كنت تعلم عن رجال
وتمنع أن يسمهم لسان
وكنت أعد قـربي منك رجـا
فلا تبعد فـكل سوف يلقى
يعيش المرء عند بنى أبيه
أرى طول الحـياة وقد تولى
كأنى إذ نعى الناعى كليبا
فدرت وقد عـشى بصرى عليه
سألت الحى أين دفنتموه ؟
فمرت إليه من بلدى حيثنا
وحادت ناقتى عن ظل قبر
أتغدو يا كليب معى إذا ما
أتغدو يا كليب معى إذا ما
أقول لتغلب والعز فيها

هدوا فالدموع لها انحدار
كأن الليل ليس له نهار
تقارب من أوائلها انحدار
تبايلت البلاد بهم فغاروا
وكيف يجبنى البلد الفقار ؟
ضنينات النفوس لها مزار
لقد فجعت بفارسها مزار
ويسرا حين يلتبس اليسار
كأن غضا القتاد لها شفار
وتعفو عنهم ولك اقتدار
عخافة من يحير ولا يحار
إذا ما عدت الريح التجار
شعرباً يستدير بها المدار
ويوشك أن يصير بحيث صاروا
كما قد يسلب الشىء المعار
تطـاير بين جنـي الشرار
كما دارت بشاربها العقار
فقالوا لى بسفح الحى دار
وطار النوم وامتنع القرار
ثوى فيه المكارم والفخار
جبان القوم أنجاه الفرار ؟
حلق القوم يشحذها الشفار ؟
أثيروها لذلك اتصـار

تتابع إخوتى ومضوا لأمر عليه تتابع القوم الحسار (١)
ولست بخالغ درعى وسيفى إلى أن يخلع الليل النهار
وإلا أن تبعد سراة بكر فلا يبقى لها أبدا آثار
وقال تأبط شرا فى الرثاء :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطبل (٢)

(١) جمع حاسر وهو : من لا مغفرة له ولا درع ولا جنة ، ويرى : الخيار
(٢) الشعب : طريق فى الجبل . سلع : موضع وهو أرض قوم تأبط شرا .
طل دمه : ذهب هدرا لا يتأثر به . المعنى : أن القتل الذى بالشعب دون سلع لن
يذهب دمه هدرا .

ترجمة الشاعر :

هو ثابت بن جابر بن سفيان شاعر جاهلى مجيد . سمي تأبط شرا لأنه تأبط
سيفا وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : تأبط شرا وخرج وكان أحدهم وص
العرب المغيرين ، وكان هو والشنفرى الأزدى وعمر بن براق من أعدى العدائين
فى العرب ، والشنفرى هو ابن أخت تأبط شرا ، ويصف الشنفرى خاله تأبط
شرا فى قصيدة نائية له فى المفضليات فى الآيات ١٩ - ٣٧ من القصيدة العشرين
(ص ١٠٦ : ١٠٧ المفضليات طبعة المعارف ١٣٦١) . والشنفرى شاعر جاهلى لخل
وتجد ترجمة لتأبط شرا فى الشعر والشعراء (ص ٩٢ ط الخانجي ١٣٢٢ هـ)
القصيدة :

القصيدة عالية الطبقة فى الفصاحة وهى من عيون الشعر الجاهلى ورواها
صاحب الحماسة (٣٤٨ : ١ ديوان الحماسة طبعة محمود توفيق) وقد ترجمها جوته
إلى الألمانية ونشرها فى الديوان الشرقى .

وكانت هذيل قد قتلت ابن تأبط شرا ورمت به فى غار فرائه والده وذكر
أخذه بشأره فى هذه القصيدة أو هى له فى رثاء ابن أخت له . وقيل إن القصيدة
للشنفرى يرثى بها خاله تأبط شرا ، وقيل إن القصيدة منحولة فخلها بعض الرواة
لتأبط شرا وليست له وأنها مولدة ، بدليل قوله : « جل حتى دق فيه الاجل » ، فإن
ذهن الجاهلى لا يكاد يصل إلى مثل هذه الدقة فى الأسلوب والتفكير ، وبدليل ذكره

خلف العبد على وولى أنا بالعبد له مستقل (١)
 ووراء الثأر منى ابن أخت مصع عقدته ما تحمل (٢)
 مطرق يرشح سما كما أطرق أفعى ينفت السمل صل (٣)
 خبر ما ، نابنا ، مصمئل جل حتى دق فيه الأجل (٤)
 بزى الدهر وكان غشوما بأبى جاره ما يذل (٥)
 شامس فى القر حتى إذا ما زكت الشعرى فبرد وظل (٦)

لسلع و سلع بالمدينة وأين تأبط شرا من سلع ولكنه قتل فى بلاد هذيل، ويمكننا أن نقول: إنهم رموا بجثته بعيدا عن بلادهم أو أن قومه نقلوه من هذيل إلى سابع أرض قومه .

(١) العبد : الثقل . مستقل : محتمل يقال استقل كذا حمله ورغمه . والمعنى أنه ترك نعل الثأر على وذهب وأما قادر على حمل ثقله غير عاجز عن طلبه
 (٢) المصع : الشديد الثابت الشجاع . العقدة : العزيمة . والمعنى : أن هذا الثأر الذى أطلبه إن لم أقدر على أخذه نخلنى ابن أخت ثابت الجنان قوى العزيمة لا تنتقض عزمته .

(٣) أطرق : أرغى عينيه ينظر إلى الأرض . الرش كالعرق . ينفت . يقذف
 الصل : الحبيب من الأفعى . السم ما يقتل وهو مثلث السين .
 المعنى : إن ابن أختى بطرق إلى الأرض إطراق الحية الرقطاء ، شجاع فى الحرب ، مقدم فى النزال لا يسلم أعداؤه من شره .

(٤) المصمئل : الشديد . جل : عظم . دق : صغر . الأجل : الجليل
 والمعنى أن الذى نزل بنا وأصابنا بخبر موته أمر كبير يصغر عنده ما هو عظيم جليل من الحوادث

(٥) بزه الشيء : سلبه إياه والمراد : فجعنى به . الغشوم : الظلوم . الأبى : الذى لا يحتمل الضم .

والمعنى أن الدهر بتجبره وظلمه لجعنى وسلبنى رجلا عزيزا ذا أنفة لا يحتمل الذل يحمى جاره فيعز ولا يضام .

(٦) الشامس : الكائن فى الشمس . القر : البرد ذكت . استعلت
 والمعنى أن هذا الرجل ذر كرم وسخاء فمن لجأ إليه فى الشتاء وجد عنده

يابس الجنين من غير بؤس وندى الكفين شهم مدل (١)
ظاعن بالحزم حتى إذا ما حل حل الحزم حيث يحل (٢)
غيث مزن غامر حيث يجدى وإذا يسطو فليث أبل (٣)
مسبل في الحى أحوى رفل وإذا يغزو فسمع أزل (٤)
وله طعمان أرى وشرى وكلا الطعمين قد ذاق كل (٥)

ما يدفته من الطعام واللباس كالشمس تدفىء المقرور ومن وفد عليه في الصيف حين يطلع نجم الشعرى وجد عنده ظلا ظليلا وماء باردا يطفىء به حرارة جوفه (١) يابس الجنين أى هزيل وذلك دليل الشجاعة والقوة . البؤس : الفقر :

الشهم : الذكى القلب . المدل : الواصل بنفسه وبعده
والمعنى أنه قليل الأكل هزيل لاعتق فقر بل لأنه سخرى يؤثر أضيافه بالزاد على نفسه ، وهو ذكى القلب يقظان واثق بنفسه وبما أعده لحوادث الدهر (٢) النظم : ضد الإقامة . والمعنى أنه متصف بالحزم فى جميع شؤنه وأحواله

والحزم ملازم له حيث كان .
(٣) المزن جمع مزنه وهى السحابة البيضاء والمراد السحابة التى فيها الماء لأن السحاب الأبيض لا ماء فيه . غمره الماء : غلاه . يجدى : يعطى الجدوى وهى العطية . يسطو : يقهر ويصول . الليث الأبل : المصمم الماضى على وجهه لا يبالي ما لى والمعنى : أنه جواد كريم شجاع إذا أعطى أجزل العطاء كالسحاب الذى يفر الناس بكثرة أمطاره وإذا صال فكالأسد المصور لا يبالي بالعدو

(٤) مسبل فى الحى مفعوله محذوف أى مسبل إزاره فى الحى وهم يمدحون ذا النعمة بذلك وقت السلم فاما فى الشدائد فاتهم يمدحون الرجل بالتشمير وعدم اللين . الأحوى : من فى شفثيه سواد وهو محمود فيهما . الرفل : الكثير اللحم . والسمع : ولد الذئب . الأزل : السريع المشى الممسوح العجز

والمعنى أنه يتنعم فى حاله السلم ويسبل رداءه وياكل ما يشتهى وإذا نزل فى الحرب كان كالسميع الضارى

(٥) الأرى : العسل . الشرى : الحنظل ، وكلا مفعول ذاق . والمعنى أنه رجل سهل الجانب حلو المذاق لمحبه ، مر الطعم لعدوه ، وكل من المحب والعدو قد ذاق كلا الطعمين

يركب الهول وحيدا ولا يصحبه إلا اليماني الأفل (١)
 وفتو هجروا ثم أسروا ليلهم حتى إذا ما انجباب حلوا (٢)
 كل ماض قد تردى بماض كسنا البرق إذا ما يسل (٣)
 فادر كسنا النار منهم ولما ينجم الحيين إلا الأفل (٤)
 فاحسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشمعلوا (٥)
 فلمن فلت هذيل شباه لهما كان هذيل يفل (٦)
 صليت مني هذيل بخرق لا يمل الشر حتى يملوا (٧)

(١) وحيدا حال، اليماني: السيف الأفل: المنظم، المعنى انه شجاع
 لا يخاف الأهل لكثرة ممارسته لما يقتحمها بنفسه ولا يستصحب معينا إلا السيف
 اليماني المنظم من كثرة الضرب به

(٢) فتو: جمع فتى، هجر: سار وقت الهجرة وهي اشتداد الحر في نصف
 النهار. أسروا: لغة في سروا، والسرى: السير في الليل خاصة، انجباب:
 انكشف، حلوا: أقاموا، والمعنى ورب فتيسان واصوا مسيرهم من وقت
 الهجرة إلى آخر الليل فاذا انكشف الضوء أقاموا

(٣) تردى بسيفه مثل ارتدى به إذا تقلده ويسمى السيف رداء، سنا
 البرق: ضوءه، والمعنى ان كل رجل ماض منهم قد تقلد بالسيف الماضي الذي
 يحكي سنا البرق عند إخراجه من الغمد

(٤) ادركنا: أخذنا، والمعنى أخذنا نارنا منهم ولم ينجم منهم إلا اليسير
 (٥) احسبى الشراب: تناوله شيئا فشيئا، الأنفاس: الجرح، هوم الرجل:
 إذا هز الرأس من النعاس، اشمعلوا: أسرعوا في السير، رعتهم: أفرغتهم، يقول:
 كانوا في النعاس فلما أفرغتهم جدوا في السير

(٦) الفل: كسر حد السيف. الشبا: الحد. وقوله لهما كان، معناه
 كثيرا ما كان

(٧) صليت بكذا: قاست شدته. الخرق: الشجاع الكريم والمعنى أن
 هذيل قاست الشدائد من شجاع ذي صبر وثبات على القتال فلا يسأهه حتى يجد
 السأمة من أعدائه فيراف بهم

ينهل الصعدة حتى إذا ما نهلت كان لها منه عل (١)
 حلت الخمر وكانت حراما وبلاى ما ألت تحمل (٢)
 فاسقنيها ياسواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخل (٣)
 تضحك الضبع لقتلي هذيل وترى الذئب لها يستهل (٤)
 وعناق الطير تغذو بطانا تتخطاهم فلما تستقل (٥)

ولديـد بن الصمة قصيدة في الرثاء يرثي بها أخاه عبد الله بن الصمة لما
 قتل ، ومن الغريب أنه بدأها بالغزل ، ومطلعها :

أرث جديد الحبل من أم معبد لعاقبة أم أخلفت كل موعد
 ومنها :

تنادوا فقالوا: أردت الخيل فارسا فقلت أعبد الله ذلكم الردي
 فإن يك عبد الله خلى مكانه فما كان وقافا ولا طائش اليد
 صبا ما صبا حتى علا الشيب وأسه فلما علاه قال للبائل ابعد

(١) أنهل الشراب : سقاه إياه أول مرة . وعله : سقاه الثانية . الصعدة : القنابة
 نقيت مستوية . المعنى أنه لا يكتفي بطعن أعدائه بقناته مرة بل يكرره مرة بعد
 أخرى كالشارب الذي لا يكفيه النهل فيشتاق إلى العمل
 (٢) ألت من اللام وهي الزيارة الخفيفة . اللأى : البطء . والمعنى أنه فاز
 بأخذ الثأر بعد بطء ومضى مدة فصارت الخمر حلالا له بعد أن حرمها على نفسه
 جريا على عاداتهم من تحريم الخمر وغسل الرأس قبل أخذ الثأر
 (٣) سواد : مريم سودة . الخل : المهزول . والمعنى : اسقني الخمر الآن فإن
 جسمي قد هزل بعد خالي

(٤) تضحك الضبع استعارة عن سرورها ومثله الاستهلال للذئب . والمعنى
 أن الضبع والذئب في سرور يقتلي هذيل لحصولهما على كثرة الغذاء من لحومهم
 (٥) عناق الطير : جوارحها . تستقل : تطير . والمعنى أن جوارح الطير تنزل
 على القتلى من هذيل فتعالبونها حتى لا تكاد تطيق الطيران لكثرة أكلها من قتلاهم
 (٢١)

والقصيدة رواها صاحب الجهرة (١) وصاحب الحماسة (٢).
 وقصة عبدة جليلة - في رثاء كايب ورثاء حياتها الزوجية بعد أن ارتكب
 أخوها جساس جرما فظيما بقتله كلييا - مشهورة ذائعة ، وقد سبق بعضها .
 وقال امرؤ القيس لما بلغه مقتل أبيه حجر :

أرقت لبرق بليل أهل يضي سناه بأعلى الجبل
 أتاني حديث فكذبته بأمر تززع منه القل
 بقتل بني أسد زبهم ألا كل شيء سواء جمل
 وأين ربيعة عن ربها وأين تميم وأين الخول ؟
 ألا يحضرون لدى بابي كما يحضرون إذا ما استهل

وقال لبید فی رثاء النعمان :

ألا تسألان المرء ما إذا يحاول أنحب فيضة أم ضلال وباطل ؟
 ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
 وكل أناس سوف تدخل بينهم دويمة تصفر منها الأنامل
 فإن أنت لم ينفعك نملك فانتسب لملك تهديك القرون الأوائل
 وإن لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد فلتزك العواذل

وقال عبدة بن الطيب :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحم
 فما كان قيس هلك هلك واحد ولكنه بديان قوم تهدما

ولام السليك تربيته :

طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك
 ليت شعري ضلة أي شيء قتلك

(١) راجعها في ٢٢٤ - ٢٢٧ الجهرة
 (٢) ٣٢٦ - ٣٤٠ : ديوان الحماسة لابن تمام

- ٢٢٣ -

أمريض لم تعد أم عدو خلتك
 أم تولى بك ما غالب في الدمر السلك
 والمنايا رصد للفتى حيث سلك
 أى شيء حسن لفتى لم يك لك ؟
 كل شيء قاتل حين تلقى أجلك
 طالما قد نلت في غير كد أملك
 إن أمراً فادحا عن جوابي شغلك
 سأعزى النفس إذ لم تجب من سألك
 ليت قلبى ساعة صبره عنك ملك
 ليت نفسى قدمت للمنايا بذلك

وقصيدة أوس في رثاء فضالة بن كعدة والتي مطلعها :
 أيتها النفس أجمل جزعا إن الذى تحذرين قد وقعنا
 مشهورة معروفة .

هـ - الحماسة

وهي ما أثر عن العرب في جاهليتهم من شعر قالوه في وصف شجاعتهم
 ونضالهم وحرورهم وواقعتهم ؛ وفي الدعوة إلى الأخذ بالنار والانتقام من
 العدو ، وفي التحريض على القتال ، وبعث عزائم الأبطال في الحروب ،
 وفي ما سوى ذلك من شتى أغراض شعر الحماسة ومناحيه .

وهو باب كبير في الشعر الجاهلي ، وصدر به أبو تمام حماسته ، وبما ذبحه
 كثيرة ، ولنعرض هنا شواهد لهذا الفن من فنون الشعر .

قال الفند الزماني في حرب البسوس :

صفحننا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان (١)

(١) صفحننا: أعرضنا .

عسى الأيام أن يرجعن قوما كالذى كانوا (١)
 فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان (٢)
 ولم يبق سوى العدوان ن دناهم كما دانوا (٣)
 مشينا مشية الليث غدا واليـث غضبان (٤)
 بضرب فيه توهين وتخضيع وإقران (٥)
 وطعن كغم الزق غدا والزق ملآن (٦)
 وبعض الحلم عند الجمل للذلة إذعان (٧)
 وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان (٨)

والفهد الزمانى شاعر جاهلى كان أحد فرسان ربيعة المشهورين
 الممدودين شهد حرب بکرو تغلب وقد قارب المائة سنة واسمه أشهل بن شيان
 ابن ربيعة بن زمان .

وهذه القصيدة من عيون الشعر الجاهلى رواها صاحب الحماسة (١٥ ج ١)
 ديوان الحماسة طبعة محمود توفيق . وقد نظمها الشاعر فى حرب البسوس

-
- (١) كالذى كانوا : أى مثل ما كانوا ودا وإخلاصا
 (٢) صرح : انكشف : قوله « عريان » ضربه مثلا لظهور الشر ووضوحه
 ويروى « فأضحى » وهو أحسن لان الشئ فى الضحى أظهر وأبين .
 (٣) العدوان : الظلم الضريح . دناهم : جزيئهم والدين الجزاء يقول : جزيئهم
 بفعلهم القبيح كما ابتدأونا به .
 (٤) غدا : ابتكر . والمعنى مشينا إليهم مشية الاسد ابتكر وهو جاثع غضبان
 (٥) التوهين : التضعيف . والتخضيع : التذليل ، الاقران : الاسترخاء أو التتابع
 (٦) غدا : سال : شبه الطعنة إذا سال منها الدم بغم الزق - وعاء الخمر - إذا
 سال منه الخمر .
 (٧) الاذعان : الانقياد : اعتذر فى هذا البيت عن تركهم التحمل مع الاقرباء
 لأنه يفضى إلى الذل
 (٨) الشر : الانتقام . الإحسان : العفو

التي كانت بين بكر وتغلب وذلك أن بكر بن وائل قوم الفند بعثوا إلى بني حنيفة في حرب البسوس يستنصرونهم فأمدوهم به وبقومه بني زمان .

وقال وذاك بن ثميل المازني وهو شاعر جاهلي :

رويد بني شديان بعض وعيدكم تلاقوا غدا خيل على سفوان
تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى إذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها السكاة الغر من آل مازن ليوث طعان عند كل طعان
مقاديرهم وصالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمانى
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

ليس الجمال بمنزور فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان ساء بقة وعداء غلندي (١)
وعلمت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدا (٢)
كل امرئ يحرق إلى يوم الحياج بما استعدا
لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا (٣)
وبدت ليس كأنها بدر السماء إذا تبدى
وبدت محاسنها التي تحفى ، وكان الأمر جدا
نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دوى وأنذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لي صالح بوائه يبيد لحدا

(١) السابقة : الدرع الواسعة . العداء : الفرس كثير العدو . الغلندي : الشديد

(٢) الحلق : الدروع . القد : شبه درع كان يتخذ من الجلد

(٣) المعزاء : الأرض الصلبة . ويفحصن أى يؤثرن فيها من شدة الجري

ما إن نجزعت ولا بهلج ت ولا يرد بكاي زندا
اليسنته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا
أغنى غناء الذاهيين أعد للاعداء عدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

وقال الحسين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أنقدا
فلسنا على الأعتاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعز وأكرما
وقال الحارث بن وائلة الجرمى وهو شاعر جاهلى من فرسان قضاة
وأعلامها :

قوى هم قتلوا - أميم - أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى
ولئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهين عظمى
لا تأمنن قوماً ظلمتهم وابدأتهم بالشمم والرمم
وزعستم ألا حسلوم لنا إن العصا قرعت لدى الحلم

وقال عبد الشارق بن عبد العزى :

ألا حيث عنا يا ردينا نحيها وإن كرمت علينا
ردينة لو رأيت غداة جئنا على أضمامنا وقد اختويننا (١)
فأرسلنا أبا عمرو ريداً فقال ألا انعموا بالقوم عينا
ودسوا فارساً منهم عشاء فلم تقدر بفارسهم لدينا
فجأوا عارضا بردا وجئنا كمثل السيل نركب وازعينا (٢)
تنادوا يا لهبة إذ رأونا فقلنا : أحسنى ضرباً جهبنا
سمعنا دعوة عن ظهر غيب فجلنا جولة ثم ارعونا

(١) الأضم : شدة الحقد. اختويننا : أى لم نطعم شيئاً .

(٢) الوازع : الذى يرتب الجيش ويصلحه ، أى جئنا خلفه مباشرة

فلما أن تواقفنا قليلاً أنحننا للكلال فارتمينا
فلما لم ندع قوساً وسهما مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤم مزنة برقت لأخرى إذا حججوا بأسياف ردينا
شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية وقتلت قينا (١)
وشدوا شدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا جويننا (١)
وكان أخى جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زيننا
فآبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالرماح قد انحنينا

٦ - العتاب

العتاب فن ليس بذائع في الشعر الجاهلي . وشواهد عديدة ومن مثله :
قول أمية بن أبي الصلت يعاتب ابنه :

غذوتك مولودا وعلتك يادماً تعلم بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكولم أبت لشكواك إلا ساهداً أتملل
كأني أنا المطروق دونك مالذي طرقت به دوى وعيني تهمل
تحاف الردى نفسى عليك وإتها لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فبك أومل
جعلت جزأى منك جهاً وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسميتنى باسم المنعد رأيه وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل
تراه معدداً للخلاف كأنه برد على أهل الصواب وكل

وقال حكيم بن أقيصة الضبي يعاتب ابنه بشراً :

لعمري أبى بشر لقد خانته بشر على ساعة فيها إلى صاحب فقر
فما جنة الفردوس هاجرت تبتغى ولكن دعاك الخبز - أحسب - والتمر

(١) اسم فارس :

وقال ذوالأصبع العدواني :

لاه ابن عمك لأفضلت في حسب	عنى ولا أنت ديانى فتخزوني (١)
ولا تقوت عيالى يوم مسغبة	ولا بنفسك فى العزاء تكفينى
فان ترد عرض الدنيا بمنقصتى	فان ذلك بما ليس يشجيني
إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها	إن كان أغناك عنى سوف يغنينى
الله يعلمكم والله يعلمنا	والله يحزركم عنى ويجزينى
ماذا على وإن كنتم ذوى رحمى	أن لا أحبك إذ لم تحبوني
لو تشربون دى لم يرو شاربكم	ولا دماؤكم جميعا تروبنى
يا عمرو وإلا تدع شتمى ومنقصتى	أضربك حتى تقول الهامة اسقونى
كل امرئ صائر يوماً لشيمته	وإن تخلق أخلاقاً إلى حين
يا عمرو لو لنت لى ألفيتنى بشرا	سمحا كريماً أجازى من يمازىنى
والله لو كرهت كفى مصاحبى	لقلت إذا كرهت قربى لها بينى

٧ - الاعتذار

وأول من أجاد فيه واشتهر به هو النابغة الذبياني ، واعتذارياته إلى
النعمان بن المنذر ملك الحيرة من عيون الشعر الجاهلى .

وقصيدة النابغة :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى ونلك التى أهتم منها وأنصب
ومنها : فانك شمس والموك كواكب . إذا طاعت لم يبد منها كوكب

وقصيدته :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى وئلك التى تستك منها المسامع
والتي منها : فانك كالليل الذى مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قصيدتان مشهورتان فى الاعتذار .

(١) أى لله ابن عمك . الديان : القائم بالامر القاهر . خزاء : ساسه ودبره

وقال النابغة يعتذر إلى النعمان :

فلا لعمرى الذى قد ذرت به حبيجا
والمومن العائذات الطير يسبحها
ما إن نديت بشيء أنت تذكره
إذا فعاقبنى ربى معاقبة
إلا مقالة أقوام شقيت بهم
هذا التبرؤ من قول قدفت به
مـ لا فداء لك الأقوام كلهم
أنبت أن أبا قابوس أوعدنى
وما هريق على الأنصاب من جسد
ركبان مكة بين الغيل والسند
إذا فلا رفعت سوطى إلى يدى
قوت بها عين من يأتيك بالحسد
كانت مقاتلهم قرعا على السكبد
كانت نوافذه حرا على السكبد
وما أؤمل من مال ومن ولد
ولا قرار على زار من الأسد

٨ - الحكمة والأخلاق

وهى كثيرة فى الشعر الجاهلى .

تجدها فى معلقة زهير حيث يقول :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
ومن يقترب يحسب عدوا صديقه
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومهما تكن عند امرى من خليقة
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش
وأعلم ما فى اليوم والامس قبله
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
يهدم ومن لا يظلم الداس يظلم
يضرس بأنياب ويوطأ بمسهم
يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ثمانين حولا لا أبالك يسأم
ولكننى عن علم ما فى غد عمى
تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

كما تجدها فى معلقة طرفة حيث يقول :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الناحش المتشدد

أرى الدهر كثرأ ناقصاً كل ايلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكما طول المرخى وثليه باليد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لعمرك ما الأيام إلا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
وفي قصيدة عبيد بن الأبرص البائية حكمة كثيرة وقد رواها صاحب
الجمهرة . ويقول منها :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب
من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب
والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب

وكذلك في دالية عدى بن زيد التي رواها صاحب الجمهرة ويقول منها :

أعاذل ما يدريك أن منيتى إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
أعاذل ما أدنى الرشاد من الفتى وأبعده منه إذا لم يسدد
أعاذل إن الجهل من أذنة الفتى وإن المنايا للرجال بهرصد
ذرينى فإنى إنما لى ما مضى أمامى من مالى إذا خف عودى
وللوارث الباقي من المال فاتركى عتأى فإنى مصلح غير مفسد
كفى زاجراً للبرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتقتدى
فنفسك فاحفظها عن الغى والردى متى تنوها يغو الذى بك يقتدى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
وبالعدل فانطق إن نطقك ولا تلم وذا الذم فاذمه وذا الحمد فاحمد
عسى سائل ذو حاجة إن منعبته اليوم سؤلاً أن يفسر في غد

إلى آخر ما في هذه القصيدة الطويلة من حكم وتجارب وآراء (١). ويقول
الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولت فبالأشرار تنفاد
إلى ما سوى ذلك من ألوان الحكمة الكثيرة في الشعر الجاهلي بما
لاداعي إلى الإطالة في نشر صحائفه ، ويمكنك أن تقرأ قصيدة عبدة بن الطيب
في المفضليات (٢) التي مطلعها :

أبني لاني قد كبرت وراني بصرى ، وفي المصلح مستمتع
ويقول منها :

ونصيحة في الصدر صادرة لكم مادمت أبصر في الرجال وأسمع
أوصيكم بتقى الإله فإنه يعطي الرغائب من يشاء ويمنع
ويز واللكم وطاعة أمره إن الأبر من البنين الأطوع
إن السكير إذا عصاه أهله ضاقت يداه بأمره ما يصنع
لأن الذين ترونها إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تعصروا
فستجد حكمة وجمالاً ونصائح خلقية كريمة .

٩ - الوصف

وهو باب واسع في الشعر الجاهلي سعة مناظر الحياة ومشاهد الوجود
نفسها . ولقد صور الشاعر الجاهلي بيئته وحياته وألوان معيشته في شعره
تصويراً رائعاً بديعاً ، بما لا يمكن إحصاؤه وتعداد القول فيه .
فقد وصف الجبال والرمال والوديان والمياه والأنهار والسيول والبرق

(١) راجعها في المجرة ١٧٤ - ١٨٠

(٢) ١٤٣ ج ١ وما بعدها المفضليات طبع مطبعة المعارف سنة ١٣٦١

والرياح واختلافها . كما وصف الإبل والغنم والخيل والوحش والصيد
وما في بلاده من حيوان ونبات وجماد ، ووصف دياره وأماكن نزوله
ومواضع لهوه وكره . ووصف معارك الحرب والأسلحة التي يستعملها فيها ،
ووصف ملابسه وكل ما يتصل به أو بيئته ، بما تكتفي بالإشارة إلى شواهد
قليلة له .

قال امرؤ القيس في وصف الليل :

وليل كهج البحر أرخى سدوله على بأواع الهموم ليلتي
فقلت له لما تمطى بسلبه وأردف أعجازاً ونا . بكامل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل معار القتل شدت يذبل
وقال طرفة يصف السفينة :

كان حدوج المالكية غدوة خلأيا سنين بالنواصف من دد .
عدولية ، أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد
وقال عنتره يصف روضة :

ولقد مررت بدار عبلة بعد ما لعب الربيع بربعها المتوسم
جادت عليه كل عين ثرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكبا فكل عشية يجري عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كعمل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم
ولحسان السعدى يصف القمر :

مهما يكن ريب المنون فاني أرى قمر الليل المعذب كالغنى
يهل صغيرا ثم يعظم ضومه وصورته حتى إذا ما هو استوى

- ٣٣٢ -

تقارب يخبو ضوءه وشعاعه ويمصح (١) حتى يستسر (٢) فيأري
ويصف عنزة الغراب فيقول :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع
خرق الجناح كأن لحى رأسه جلدان ، بالأخبار دس مولع
ويصف فرسه الذى خاض به المعركة فيقول :

مازلت أرميهم بشفرة نحره ولبانه ، حتى تسربل بالدم
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكن لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسه وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم
والخيل تقتحم الخبار عوابسا ما بين شيطمة وأجرد شيطم
ويصف طرفه ناقتة فيقول :

وإني لأمضى الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتغنى
أمون كألواح الأران نسأتها على لاجب كأنه ظهر برجد
لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف يرد
فإن شئت لم ترقل وإن شئت أرفات مخافة ملوى من القد عهد

إلى آخر هذا الوصف الغريب . وحسبنا في باب الوصف ذلك فهو
يذى عن شاعرية موهوبة وملكة مطبوعة .

١٠ - السليب

وهو من أكثر أبواب الشعر العربى ، وأغزرها ، وقد أكثر الشعراء
الجاهليون منه ، وابتدأوا به قصائدهم (٣) .

(١) يذهب (٢) يخفى

(٣) لا تسكنا: غلو قصيدة منه الهم إلا قصيدة عمرو بن كلثوم :

ألا هي بصحك فاصبحينا ولا تبقى خور الاندرينا

والنسب هو ذكر جمال المرأة ووصف محاسنها وأثر تبرمج الشوق
بالشاعر وحنينه اليها وقص ذكرياته مع محبوبته وساعات لقائهما ، والديار
التي كانت تنزل بها ، ومسارح اللهو واللعب التي كانت تلعب وتلهو فيها ، إلى غير
ذلك من حديث الجمال والظلمة اليه وذكريات الحب والحنين والشوق إلى
المرأة . والغزل والنسب متقاربان في المعنى وإن كان بعض الباحثين يعرف
الغزل بأنه الاشتهار بموادة النساء وتقبهن والحديث إليهن ، والتشبيب
قاصر على ما يأتي به الشاعر في مطلع كلامه من ذكر للمرأة والأطلال والديار
وذكريات اللقاء والحب ، وإن كان بعض الباحثين يرى أن الجميع بمعنى
واحد لا اختلاف في مدلولها .

وامرؤ القيس هو أول من رقق الغزل وأطاله وشبه المرأة بالمها والظبي
والظلم ووصف ديبه اليها وفجوره في حبه ولهو مع محبوباته . وهامى ذى
أمثلة للنسب من الشعر الجاهلي .

قال امرؤ القيس إمام الشعراء ، وشيخ النسب والغزل ومبتدئه ، من
لأهية الطويلة المشهورة :

بلى رب يوم قد طوت و ليلة	بأنسة كأنها خط تمثال
يضىء الفراش وجهها لضجيجها	كمصباح زيت في قناديل ذبال
كأن على لباتها جمر مصطل	أصاب غضى جزلا وكف بأجدال
ومثلك بيضاء العوارض طفلة	لعوب تنسني إذا قت سر بالي
تنورتها من أذرعات وأهلها	يئرب أدنى دارها نظر عال
نظرت اليها والنجوم كأنها	مصاييح رهبان تشب لقفال
سموت اليها بعد ما نام أهلها	سمو حباب الماء حالا على حال
فقلت سباك الله إنك فاضحى	ألست ترى السهار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبحر قاعدا	ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
فلما تنازعنا الحديث وأسجحت	هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا
حلفت لها بالله حلفة فاجر
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلمها
يفط غطيط اليكر شد خناقها
أيقنتلى والمشرقى مضاجعى
ورضت فذلت صعبة أى اذلال
لثاموا فما إن من حديث ولاصال
عليه القتام كاسف الظن والبال
ليقتلنى والمرء ليس بقتال
ومسنوثة زرق كأنياب أغوال

وقال الأعشى:

ودع هريرة إن الركب مرتحل
غراء فرعاء مصقول عوارضها
كأن مشيتها من بيت جارتها
ليست كمن يسكره الجيران طلعتها
يسكاد بهرعها لولا تشدها
إذا تقوم يضوع المسك أصورة
ماروضة من رياض الحزن معشبة
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
يوماً بأطيب منها نشر رائحة
قالت هريرة لما جئت زائرهما
أما ترانا حفاة لا نعال لنا
وقد أخالس رب البيت غفلته
وقد أقود الصبي يوماً فيلبغنى

وهل تعابق وداعاً أيها الرجل؟
تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل
مر السحابة لا ريث ولا توجل
ولا تراها لسر الجار تختل
إذا تقوم إلى جارتها السكسل
والزنيق الورد من أردانها شمل
خضراء جاد عليها مسبل هطل
مؤزر بعميم النبت مكتمل
ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل
وبلى عليك وبلى منك يا رجل
إننا كذلك ما نحفى ونقتل
وقد يحاذر منى ثم ما يشل
وقد يصاحبنى ذو الشرة الغزل

وقال النابغة:

عوجوا فخيوا لنعم دمنة الدار
أقوى وأقفر من نعم وغيره
وقعت فيها سرة اليوم أسأله

ماذا تحيون من نوى وأحجار؟
هوج الرياح بهابى الترب موار
عن آل نعم أمونا عبر أسفار

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا
فما وجدت بها شيئاً ألوذ به
وقد أراني ونعماً لاهيين بها
أيام تخبرني نعم وأخبرها
لولا حبايل من نعم علمت بها
نبئت نعماً على الهجران عانة
رأيت نعماً وأصحابي على عجل
فريع قلبي وكانت نظرة عرضت
ببضاء كالشمس وافت يوم أسعدنا
والطيب يزدد طيباً أن يكون بها
أقول والنجم قد مالت أواخره
ألمحة من سنابرق رأى بصرى
بل وجهه نعم بدا والليل معتكر

وقال المخيل السعدي :

ذكر (الرباب) ، وذكرها سقم فصبا وليس ان صبا حلم (١)
وإذا ألم خيالها طرفت عيني ، فمأ شؤونها سجم (٢)
كاللؤلؤ المسجور أغفل في سلك النظام نخافه النظم (٣)
وأرى لها دانا بأغدره السيدان لم يدرس لها رسم (٤)

(١) الرباب : اسم محبوبته - الصبوة : العشق ، الحلم : العقل
(٢) الشؤون : مجارى الدمع واحدا شأن ، سجم مصدر من سجم الدمع :
سال والمراد بالمصدر اسم الفاعل
(٢) المسجور ، المنظوم المسترسل ، أغفل ، أهمل ، والمعنى أنه حين يرى
خيال حبيبته تسيل دموعه كأن قطراتها در منظوم في سلك انقطع فتحدر منه الدر
(٤) الأغدره جمع غدير ، السيدان : أرض لبني سعد قوم المخيل ، الرسم :
الأثر بلا شخص ، درس : عفا وذهب ، يريد أن دار حبيبته لم تذهب آثارها

إلا رماداً هامداً دفعت عنه الرياح خوالد سحرم (١)
 فكان ما أبقي البوارح وال أمطار من عرصاتها الوشم (٢)
 وكان أطلاء الجآزر وال غزلان حول رسومها البهم (٣)
 والمخبل أبو يزيد التميمي السعدي ، شاعر مشهور ، واسمه ربعة بن مالك
 عمر في الجاهلية والإسلام طويلاً ، ومات في خلافة عمر أو عثمان وهو
 شيخ كبير (راجع ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٦ ط الخانجي
 ١٣٢٢ هـ ، ١٧٧٧ المؤلف للأمدى)

والقصيدة عالية الطبقة في البلاغة ، رواها صاحب المفضليات وذكر منها
 أربعين بيتاً .

بل بقيت بعض رسومها ، فهو حين يراها ، يذكر صاحبته ويحزن كثيراً
 لفراقها وبعدها
 (١) هامد : خامد ، وإنما همد لطول مكثه . الخوالد : البواقى قصد بها الأثافي
 وهى الحجارة التى تنصب عليها القدور . سحرم من السحمة وهو لون يضرب إلى
 السواد . يريد أن الأثافي حفظت الرماد من أن تذرره الرياح .
 وقوله « لا رماداً » ، إلا ، هنا بمعنى الواو كما يقول أبو عبيدة . يقول : وأرى
 لها رماداً .

(٢) د ما ، اسم موصول . البوارح الرياح الشديدة من الشمال خاصة وهى
 من رياح الصيف . العرصات : جمع عرصة وهى ساحة الدار . الوشم : النقش
 فى اليد .

والمعنى : أن الآثار الباقية من دار حبيبته التى كادت تعفوها الرياح والأمطار
 تبدو كأنها الرسم المنقوش فى اليد .

(٣) الأطلاء : جمع طلا وهو الصغير من ذوات الظلف . الجآزر : جمع
 جؤزر وهو الصغير من ولد البحر . البهم . صغار أولاد المعزى الواحدة بهمة

وفد بدأها الشاعر بالذكرى والطيف ، ووصف دار صاحبه الدارسة ثم
وصف جمالها وبياض وجهها وكثافة فرعها ، ثم أنحى على لائمه التي لامته على
كرمها وإنفاقه ، واحتج بأن الخلود في البذل والجود لا في الثراء والشح ،
وبأن المنية غاية الاحياء ومنها :

ولقد تحمل بها الرباب لها سلف يفل عدوها نفم (١)
بردية سبق النعيم بها أقرانها وعلا بها عظم (٢)
وتريك وجهها كالصحيفة لا ظمآن مختلج ولا جهم (٣)
كعقيلة للد استضاء بها محراب عرش عزيز العجم (٤)
وتضل مدرها المواشط في جعد أغم كأنه كرم (٥)

وتقول عاذلى وليس لها بغد ولا ما بعده علم (٦)
إن الثراء هو الخلود وإن المرء يكرب يومه العدم (٧)

-
- (١) السلف : الخليل المتقدمة . يفل ، يزوم ، يرد أن قومها ذرو شجاعة
واستعداد ضخم في الحرب
- (٢) بردية أى كبردية ، يشبهها بالبردى في صفائها وبياضها واستوائها ، علا:
ارتفع ، المعنى أنها يعضاء زاء : النعيم والترف في شبابه حتى لثراها كبيرة السن عن
أقرانها وهى صغيرة ، كبيرة الجسم والعظم .
- (٣) يشبه وجهها بالصحيفة لللاسته وليسته ، المختلج : القليل اللحم الضامر .
الجهم : الكثير اللحم البشع .
- (٤) العقيلة : الكريمة ، وعقيلة كل شئ خيرته . العجم فاعل استضاء وهو
لازم ، ومحراب منصوب على نزع الخافض ، والمحراب صدر المجلس
- (٥) المدرى : المشط . الجعد : الشعر المتقصب ليس بالسبط . الأغم : الشعر
الكثير . الكرم . سجر العنب شبه به الكثرة
- (٦) الماذلة : اللائمة
- (٧) يكرب : يدنى . العدم : الفقر

إني وجسدك ما تخلدني مائة يطير عفاؤها ؛ آدم (١)
 ولئن بليت لي المشقر في هضب تقصر دونه العصم (٢)
 لتثقبن عني المنية إن الله ليس كحكمه حكم (٣)
 إن وجدت الأمر أرشده تقوى الآله وشره الأثم (٤)
 وقال المنخل الإشكري وهو شاعر جاهلي كان يعاصر النابغة وبادم
 النعمان بن المنذر :

ولقد دخلت على القناة الخدر في اليوم المطير
 السكائب الحسناء تر في الدمقس وفي الحرير
 فدفعتهما فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير
 ولثمتها فتتفتت كتنفس الظبي الغدير
 فدنت وقالت يا منخل ما بجسمك من حرور
 ما شف جسمي غير حبك فاهدني عني وسيرو
 وأجهها وتحبني ويجب فاقتهما بعيري

وقال ورد الجعدي :

خليلي عوجا بارك الله فيكما وإن لم تكن هندا لأرضكما قصدا
 وقولا لها ليس الضلال أجارنا ولكننا جرننا لنلقاكمو عمدا
 وقال المرقش الأكبر :

-
- (١) يطير عفاؤها : يذهب وبرها من سمن . الأدم : الإبل الخالصة البياض
 (٢) المشقر : حصن بالبحرين ، وكان الخيل وأولاده قد هاجروا إلى البصرة وأقام
 بعض أبنائه بالاحساء والبحرين ، وهم شعراء . العصم : الوعول واحداها عصم
 يريد أن الهضبة عالية لا ترقاها الوعول
 (٣) تثقب : تبحث : المنية : الموت
 (٤) أرشده من الرشد وهو الهدى والاستقامة . الأثم : الذنب

وهي قصيدته المفردة في الغزل (١) :

سرى ليلاً خيال من سليمى	فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال	وأرقب أهلها وهمو بعيد
على أن قد سما طرفى لمار	يشب لها بذى الأرطى وقود ٢
حواليها مهاجم التراقى	وأرآم وغزلان رقة-ود
نواعم لا تعالج بؤس عيش	أوانس لا تراح ولا ترود
سكن ببلدة وسكنت أخرى	وقطعت المواقى والعمود
فما بالى أنى ويخان عهدى	وما بالى أصاد ولا أصيد
ورب أسيلة الخدين بكر	منعمة لها فرع وجيد
وذو أشر شتيت النبت عذب	نقى اللون راق برود
لهوت بها زماناً من شبابى	وزارتها النجائب والقصيد
أناس كلها أخلقت وصلا	عنانى منهم وصل جديد

وقال طرفة : (وهي قصيدته المفردة في الغزل) ، ومعالمها :

اتعرف رسم الدار فقرا منازلها كجفن اليماني زخرف الوشى مائله
ومنها :

ديار سليمى إذ تصيدك بالمنى	وإذ حبل سلمى منك دان تواصله .
وإذ هى مثل الرئم صيد غزالها	لها نظر ساج إليك تواعله
غنيما وما نخشى التفرق حقبته	كلانا غرير ناسم العيش باجله
ليالى أقتاد الصبا ويقودنى	يجول بنا ريمانه ونجاوله

ثم يصف خيالها ، ويتعجب لاهتدائه إليه ثم يقول :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله فهل غير صيد أحرزته حباته ؟

(١) راجعها في المفضليات ٢٣ ج ٢ طبع دار المعارف ١٣٦١ هـ

(٢) سما : ارتفع . يشب : يرفع الخطب حواليها وهو الوقود . الأرطى
بسكون الراء : شجر ينبت في الرمل : وذو الأرطى : موضع

- ٣٤١ -

كما أحرزت أسما. قلب مرقش بحب كلبع البرق لاحت مخايله
ثم يذ كر قصة المرقش مع محبوبته أسما. ، ويختمها بقوله :
فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش بأسما. إذ لا تستفيق عواذله
قضى نعبه وجدا عليها مرقش وعلمت من سلمى خيالا أوطله

النقد الأدبي في الجاهلية

- ١ -

النقد الأدبي هو الحكم الذي تصدره على الشعر والنثر ؛ وهو عند
المحدثين تقدير النص الأدبي تقديرأ صحيحاً وبيان قيمته ودرجته الأدبية (١)
وهو كما أقول : تحليل الآثار الأدبية والحكم عليها وبيان قيمتها الأدبية
والموازنة بينها وبين ما يشابهها من الآثار، وأصول النقد قراءة وفهم وتفسير
وحكم ، والغرض منه دراسة الأساليب أو الكتاب أو الآراء والأفكار (٢)
لم يكن النقد الأدبي عند العرب في أول نشأته بهذا اللون من الدراسة
والموازنة ، إنما كان تعبيراً خاطفاً ينم عن رأى في الإجابة أو الاستمجان
للنصوص الأدبية العامة ، ثم تدرج في الدقة في أحكامه الأدبية عصرأ بعد
عصر حتى وصل إلى ما هو عليه وعلى ما نفهمه الآن .

نشأ النقد في الجاهلية مرتجلاً : وكان هينا يسيرا ملائماً لروح العصر
وللشعر العربي نفسه (٣) ، عرى النشأة كالشعر لم يتأثر بمؤثرات أجنبية ولم
يقم إلا على الذوق العربي السليم (٤) .

وجد في أطوار تهذيب الشعر وفي اختيار المعلقات وتعليقها على الكعبة (٥)

(١) أصول النقد الأدبي للشايب (٢) ٩٠ وما بعدها مقدمة لدراسة بلاغة
العرب (٣) ٢٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب (٤) ٢٥ تاريخ النقد الأدبي
عند العرب (٥) ٣٧٩ :٣ العقد

وفي حكومة أم جندب بين امرئ القيس وعلقمة (١) . وحكومة النابغة بين الشعراء وكان تضرب له قبة حمراء في عكاظ ويأتيه الشعراء ويلشدونه أشعارهم (٢) ، ومن حكم ربيعة بن حذار الأسدي على الزبرقان بن بدر والمخبل السعدي وعبد بن الطيب وعمرو بن الأهتم (٣) ، ووجد في نقد الشعراء للشعر : فاسرؤ القيس يمر بكعب وأخويه : الغضبان والقعقاع فأشددوه فقال : إني لأعجب كيف لا تمتلي عليكم نارا جودة شعركم فسو ابني النار (٤) ويقول النابغة : أشعر الشعراء من استجيد كذبه وأضحك رديته (٥) ، وسمى كعب الغنوي كعب الأمثان لكثرة ما في شعره (٦) منها ، وسمى طفيل الغنوي طفيل الخيل لكثرة وصفه إياها ، والنمر بن تولب المحجر لحسن شعره (٧) ، وسموا قصيدة سويد بن أبي كاهل : بسطت رابعة الحبل لنا ، الأيتيمة كسوا بعد ذلك خطبة لسحبان الشوهاة لحسنها (٨) ، ويقول زهير يروى لحسان :

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أشدته صدقا

ورأى لبديد بعد شيخوخته أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفه ثم نفسه (٩) إلى غير ذلك من مظاهر النقد في الجاهلية .

(١) ١٢٨ : الأغاني . ونقد الرافعي هذه الحكومة (٢٢٥ - ٢٣٤ : ٣ : آداب العرب للرافعي) وتابعه في ذلك محمد هاشم (١٨٤ : الأدب العربي في العصر الجاهلي) ويرتاب باحث في صحة هذه الحكومة ويرى جورها ويقول : ولعل ذلك مما حمل ابن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعر امرئ القيس (٢٢١ و ٢٢٢ تاريخ النقد الأدبي عند العرب)

(٢) ١٢٣ الشعر والشعراء

(٣) ١٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب و ٧٥ موشح (٤) ٧٠ من المؤلف

للأمدى

(٥) ٢٥٦ سر الفصاحة لابن سنان ، ٥٠ و ٥٨ : العمدة

(٦) ٣٤١ معجم الشعراء

(٧) ١٨٤ المؤلف ، ١١٢ : العمدة (٨) ١ : ٢٢٥ البيان والتبيين

(٩) ٢٠ المجرة ٣ : ٣٨٠ . ويقول ابن عبد ربه :

- ٣٤٣ -

-- ٢ --

صورة من النقد الأدبي في الجاهلية :

١ - كان النابتة تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء وتشدده أشعارها ، فأناه الأعشى فأشده ، ثم أناه حسان فأشده ، فقال لولا أن أبا بصير أنشدني أنا فلعلت أنك أشعر الجن والإنس ، قال حسان والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابتة على يده ثم قال يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك راسع
ثم قال للخلساء وقد أنشدته :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ دخلت من أهلها الدار؟
فلما بلغت قولها ،

وإن صخرنا لتأنم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
قال : ما رأيت ذا مثانة أشعر منك قالت ولا ذا خصيتين (١) وتزاد في
هذه الرواية زيادات فيها مبالغة كثيرة تتصل بنقد قول حسان :

لنا الجففات الغريبلعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا واكرم بنا ابنا
وهي مشهورة ولا داعي لذكرها .

٢ - وسمع طرفة وهو صغير بيت خاله المسيب بن علس :

وقد أتنامي الهم عند احتضاره بناج عليه الصعيرة مكدم

وهذا - أي تفضيل شاعر وأنه أشعر الشعراء - عما لا يدرك غايته ولا يوقف
على حد منه والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتي منه بديع إلا أتى ما هو أبداع منه ،
ولله در القائل : أشعر الناس من أنت في شعره (٣:٣٨١ العقد)

(١) راجع ١٢٣ الشعر والشعراء

فنفقه وأزرى بقوله : « استنوق الجبل » ، لأنه وصف الفحل بالبعيرية
وهى عندهم من صفات إناث الإبل .

٣ - وتنازع امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة حول قصيدتين لهما وأيهما
أشعر من الآخر ، والقصيدتان فى وصف الفرس والحيد ، ومطلع قصيدة
امرىء القيس :

خليلي مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات العوادم المذهب
ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب
فتحاكما إلى أم جندب الطائفة زوج امرىء القيس ، ففضلت علقمة
عليه ، قالت وقد سمعت قول امرىء القيس :

فللسوط ألحوب وللحاق درة وللزجر منه وقع أهوج المنعب (١)
وقول علقمة :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كمر الراح المنحلب
فما قلت له : فرس علقمة أجود من فرسك لأنك حركته بساقك
وامتريته بسوطك وزجرته بصوتك ، وأدرك فرس علقمة ثانيا من عنانه
٤ - وقال الأعشى يمدح قيس بن معديكرب :

ونبت قيساً ولم أبله وقد زعموا ساد أهل الين
فعابوا عليه قوله « زعموا » .

٥ - وتحاكم الزبرقان بن بدر وعمر بن الأهم وعبد بن الطبيب والخيل السعدى
إلى ربيعة بن حذار الأبدى فى الشعر أيهم أشعر فقال الزبرقان : أما أنت
فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيتا فينتفع به . وأما أنت

(١) الألحوب : شدة الجرى . الدرة : الجرى اللين . الأهوج : الاحق .
المنعب : الذى يستعين بصوته .

يا عمر فإن شعرك كبرود - حبر يتلأأ فيها البصر فكلاهما أعيد فيها النظر
نقص البصر . وأما أنت يا غنبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن
شعر غيرهم ، وأما ما أنت يا عبدة فإن شعرك كزادة أحكم خرزها فليس
تقطر ولا تمطر (١)

وتروى برواية أخرى في المرجع نفسه وهو الموشع ، قال المرزبانى :
اجتمع الزبرقان وعمرو بن الاثم وعبدة بن الطبيب والخنبل التميميون في
موضع فتناشدوا أشعارهم فقال لهم عبدة : والله لو أن قومًا طاروا من جودة
الشعر لطرتم فيما أن تخبروني عن أشعاركم ولما أن أخبركم قالوا : أخبرنا .
قال : فإننى أبدأ بنفسى ، أما شعرى فمثل سقاء وكيع (٢) وغيره من الأسقية
أوسع منه .

وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بحزور منهجرة فأخذت من
أطايها وأخايتها (٣) .

إلى غير ذلك من مظاهر النقد في الجاهلية

فنون الشعر الجاهلى أو اغراضه

- ١ -

أغراض الشعر هى فنونه وموضوعاته التى يقول فيها الشعراء من مدح
وهجاء ونحو ورثاء وغزل وحكمة وما شأ كل هذه الموضوعات التى عرفها
الشعر والشعراء من قديم .

وأغراض الشعر طرقها الشعراء فنا ولكن لم يصطلحوا عليها اصطلاحاً ،
وكانت أقسام الشعر فى الجاهلية كما يقول أبو هلال خمسة : المديح والهجاء
والوصف والتشبيب والمرأى حتى زاد فيها النابغة سادساً هو الاعتذار ،
فأحسن فيه ولا أعرف أحداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحترى (٣) ،

(١) ٧٥ موشع (٢) شديد (٣) ٩١ - ١ ديوان المعاني .

وليس للعرب شيء ينسب إلى التهانى وما جاء عنهم من شكلها فهو من جملة المدح (١)
وقالوا : بنى الشعر على المدح والهجاء والنسيب والرثاء ، وقالوا : قواعد
الشعر : الرغبة ومنها يكون المدح والشكر ، والرغبة ومنها يكون الاعتذار
والاستعطاف ، والطرب ومعه يكون الشوق ورقة النسيب ، والغضب ومعه
يكون الهجاء والعتاب . وقال الرمانى : أكثر أغراض الشعر خمسة : المدح
والمدح والهجاء والفخر والوصف (٢)

وقالوا : للشعراء فنون كثيرة تجمعها أربعة : المديح والهجاء والحكمة
واللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون : فمن المديح المرائى
والافتخار والشكر واللفظ في المسألة وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ،
ومن الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب وما أشبه ذلك وجانسه ،
ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ وما شاكل ذلك ، ومن اللهو الغزل
والطرد وصفة الخمر وما أشبه ذلك وقاربه (٣) . وأول من عد فنون الشعر
وميز بينها تمييزاً هو أبو تمام فإنه رتب كتابه الحماسة في عشرة أبواب :
الحماسة ، والمرائى ، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ،
والصفات ، والسير ، والملح ومذمة النساء .

أما البحرى فقد خالف أبا تمام في ذلك وجعل حماسته التى عارض بها
حماسة أستاذه أبى تمام ١٧٤ باباً وأهداها للفتح بن خاقان . ونجد الحماسة
البصرية (٤) لأبى الحسن البصرى اثني عشر باباً : الحماسة والمديح . الرثاء .
الأدب . الغزل . الأضياف . الهجاء . مذمة النساء . الصفات . النعوت .
السير . الأكاذيب والخرافات . الزهد

ويجعل عبد العزيز بن أبى الأصبح أغراض الشعر ثمانية عشر (٥) .

-
- (١) ٩٢ : ١ المرجع السابق (٢) ١٠٠ : ١ العمدة
(٣) ٨١ نقد النثر (٤) ٥٢٠ أدب مخطوط بدار الكتب الملكية
(٥) ٧١ : ٣ تاريخ آداب العرب للرافعى .

ورواة الشعر العربي في العصور الأولى كان لهم أثر كبير في تقسيم الشعر إلى فنون وأبواب :

فجامع ديوان أبي نواس (١) يقسمه إلى فنون ثمان : المديح . المراثي . العتاب . الهجاء . الزهد . الطرد . الخزيات . الغزل والمجون .
وديوان أبي تمام (٢) مقسم إلى أبواب : المديح . المراثي . المعانيات .
الأوصاف . الغزل . الفخر . الهجاء .

وديوان ابن المعتز رواة الصولي مقسم إلى عشرة أبواب : الفخر . الغزل . المديح . الهجاء . الخزيات . المعانيات . الطرد . الأوصاف . الرثاء . الزهد .
وكان كثير من دواوين الشعر ترتب بحسب الحروف الهجائية للقوافي لا بحسب الأغراض ، ومنها ديوان البحتري (٣) ، أما ديوان ابن الرومي فلم يطبع إلا مختارات منه ولا نعلم على أي نهج سار جامعه في ترتيب شعره (٤) على أنه ليس من السهل تقسيم الشعر العربي إلى أبواب شاملة تستوعب جميع ما جادت به قرائح الشعراء فالأبواب التي يطررها الشعراء تختلف باختلاف العصور وباختلاف شخصيات الشعراء .

وبعض العلماء والنقاد يدخل بعض هذه الفنون في بعض . فقدامة يرجع في نقد الشعر الرثاء إلى المدح ويرى أن لا فرق بينهما إلا في اللفظ دون

(١) اعتنى بجمع شعره جماعة منهم الصولي وعلى بن حمزة الأصفهاني وإبراهيم ابن أحمد الطبري .

(٢) جمعه الصولي ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهاني ورتبه على الأنواع (٢٨٣ : ١ كشف الظنون)

(٣) جمعه الصولي ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهاني ورتبه على الأنواع (٣٧٨ : ١ كشف الظنون)

(٤) عمل شعره ورتبه على الحروف الصولي وجمعه أبو الطيب وراق بن عبدوس من جميع النسخ فزاد فيه نحو ألف بيت وابن سينا انتخبه وشرح مشكلات شعره (٢٨٢ : ١ كشف)

المعنى (١) ، وإن كان هذا لم يحمل بينه وبين أن يجعل أغراض الشعر ستة :
المديح والهجاء والرثاء والتشبيه والوصف والسيب.

وأغراض الشعر عند ابن رشيق كما عدها في عمدته : السيب والمديح
والافتخار والرثاء والاستنجاز والعتاب والوعيد والانذار والهجاء والاعتذار
نم جاء البارودي في العصر الحديث فسار قريباً من نهج أبي تمام في تقسيم
الشعر إلى فنونه المختلفة وهي عنده سبعة : الأدب والمديح والرثاء والصفات
والسيب والهجاء والزهد .

هذا وأدباء الغرب يجعلون أبواب الشعر عامة ثلاثة : الشعر القصصي أو
شعر الملاحم ، والشعر الغنائي أو الانشادي والشعر التمثيلي أو المسرحي ،
وهذه الأقسام الثلاثة قد ظهرت للمرة الأولى في الأدب اليوناني ثم أخذ
الرومان يقلدون اليونان في فنونهم وسار الأدب اللاتيني في الطريق التي سار
فيها الأدب اليوناني ، وفي عهد النهضة أخذ الأوربيون يدرسون الأصول
اليونانية فتأثرت بها آدابهم تأثراً مباشراً ، وبني الشعر الأوربي الحديث على
الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة (٢) ، والعرب
مع اطلاعهم على علوم اليونان وفلسفتهم لم يهتموا بالإنتاج الأدبي اليوناني فلم
يصل فن التمثيل إلى البلاد العربية إلا في العصر الحديث عن طريق الغربيين ،
كذلك لم يلبس شعراء العربية قصصاً منظومة على طريقة الإلياذة (٣)
والشعر العربي الذي بأيدينا اليوم كله من الشعر الغنائي (٤) .

- ٢ -

وبعد فإني أرى أن يقسم الشعر إلى أقسام يكون من أهمها :

١ - الشعر الوجداني ، وهو الذي يصف عواطف النفس ومشاعرها
وآمالها وآلامها وأحزانها ومسراتها وحبها ولهاها

(١) ٦١ فقد الشعر

(٢) ٢٥٨ التوجيه الأدبي (٣) ٢٢٠ المرجع . ويمكننا اعتبار أرجوزة
ابن المعتز في المعتمد وتاريخه من شعر الملاحم والقصص (٤) ٢٢١ التوجيه

- ٢ - الشعر الاجتماعي ، وهو الذي يتحدث عن المجتمع وحالته والبيئة ،
والمؤثرات فيها والشخصيات وأثرها الاجتماعي في حياة المجموعة العامة
- ٣ - الشعر السياسي ، ويتناول وصف الحياة السياسية وأحداثها والرجل
الذين يبدعهم زمام الأمور في الدولة من تربطهم بالشاعر صلات خاصة أو عامة
- ٤ - شعر الآداب والحكم والأخلاق
- ٥ - الشعر الفني ، وهو الذي يصور الحياة ويصف مظاهر الطبيعة
والأحياء ويرسم لك صوراً حية لكل ما في الوجود من كائنات .
- ٦ - الشعر الإنساني الذي يتناول وصف أحداث الحياة والكون والوجود
وقضايا البشرية العامة ، وحقائق الحياة الخالدة ؛ بالعرض والتفصيل .
- ولكن لا ضير علينا في أن نقول إن الشعر الجاهلي ينقسم إلى فنون
كثيرة منها : المدح ، الهجاء ، الرثاء ، الفخر ، الوصف ، الغزل ، الاعتذار ،
الحماسة ، الحكمة ، العتاب
- وسماني الكثير من مثل كل فن من هذه الفنون والشواهد له من صميم
الشعر الجاهلي وعيونه

معاني الشعر الجاهلي

- ١ - يقول الأمدى في الموازنة : وهذا مذهب من مذاهب العرب
عام في أن يصفوا الشيء على ما هو وعلى ما شوهده من غير اعتماد لإغراب
ولا إبداع (١) ، ويقول في امرئ القيس :
« وهذه الخلة - لطف المعاني - دون ما سواها ، فضل امرئ القيس ، لأن
الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع
الحكمة ، فوق ما استعار سائر الشعراء ، من الجاهلية والإسلام ، حتى إنه
لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع وأواع ،

ولولا لطيف المعاني ، واجتهاد امرئ القيس فيها ، وإقباله عليها ، لما تقدم على غيره ، وإن كان كسائر شعراء أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لالفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لالفاظهم ، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا في تقديمه بأن قالوا هو أول من شبه الخيل بالعصى وذكر الوحش والطير ، وأول من قال « قيد الأوابد » ، وأول من قال كذا وكذا . فهل هذا التقديم إلا لأجل معانيه (١) .

ومكنا نجد بعض التصوير لمعاني الشعر الجاهلي في كتب الأدب والنقد كالوساطة والصناعتين وسر الفصاحة وسواها .

ب - وبعد فمعاني الشعر الجاهلي تمتاز بما يأتي :

١ - البساطة والوضوح والصدق وعدم التكلف أو الإغراق ، وقلة المبالغة ، وإنما يعبر الشاعر الجاهلي عن المعاني التي تدور بخياله في سذاجة وصدق ويسر لا مثيل لهما .

وما في الشعر الجاهلي من بعض المبالغات ، مثل قول النابغة في السيوف :
تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الجباحب
وقول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لودب محول من الذر فوق الإتب منها لأثرا
وقوله :

تنورتها من أذرعات وأهلها يثيرب أدنى دارها نظر إلى
وقول المتلمس :

أحار لنا لو تساط (١) دماؤنا تزايلن حتى لا يمس دم دما

(١) ١٨٠ و ١٨١ المرجع . وقد ذكر ابن رشيق بعض ما اخترعه امرئ القيس من معاني الشعر (٢٣٢ : ٢ : العمدة) وكذلك ابن سلام في طبقات الشعراء (٢٦ طبقات لشعراء) ، و ٢٩٧ : ٢ المزهري للسيوطي . (٢) أي تخطط

يقول إن دماهم تمتاز من دماء غيرهم ، وهذا ما لا يكون كما يقول
ابن قتيبة (١) :

وقول المهلهل :

ولولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تفرع بالذكور (٢)
وقول عنتره :

وأنا المنية في المواطن كلها والطعن منى سابق الآجال

وقول الفر بن تولب في السيف :

تظل تحفر شنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي

فإنما كل هذه المبالغات مثل مفردة في الشعر الجاهلي الذي يمتاز في عمومها
بقلة المبالغة والتكلف والتهويل في الوصف لأن الشعراء الجاهليين كانوا
يسلكون دائماً في معانيهم التعبير الصادق الواضح الساذج البريء من
الغلو والإسراف .

٢ - عدم تركيب المعاني أو تعقيدها ، وقبلنا نجد معاني مركبة و الشعر
الجاهلي ، وإنما قد توجد معاني حسية متعددة نلاحظ أشكالها وألوانها
كأنها متصلة بعضها عن البعض الآخر ، كقول النابغة :

فأنك شمس والماوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
وقول امرئ القيس :

كان قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
وقول زهير يشبه امرأة بثلاث أشياء في بيت واحد :

نازعت المهيا شبيهاً ، ودر البحور ، وشاكت فيها الظباء
فأما ما فوق العقد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء
وأما المقلتان فمن مهاة ولدر الملاحاة والعفاء

(١) ٥٢ الشعر والشعراء (٢) هي أصلب الجديد وأشد ييسا

وقول امرئ القيس :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعمل به يرد أنيسابها إذا طرب الطائر المستحضر

٣ - المعاني في الشعر الجاهلي مستمدة من أوصاف حسية ولا أثر للمعاني العقلية فيها ، فتجد امرأ القيس حين يصف الليل يقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الأصباح منك بأمثل
ويقول النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع
إلى غير ذلك من المناظر الحسية المشاهدة .

٤ - ومعاني الشعر الجاهلي مستمدة من البيئة العربية في العصر الجاهلي ، وهي تصورها تمام التصوير لأنها تعبير دقيق عن الحياة الجاهلية :
سلاماً وحرباً ، وجداً ولها ، وفرحاً وحزناً ، وألماً وأملأ . كما تكثر في
الشعر الجاهلي أوصاف جبال الجزيرة وصحراواتها وقفارها ووديانها ومياهها
وأوصاف أعشابها وحيواناتها وخيامها ومنازلها إلى غير ذلك مما يتصل بالبيئة
الجاهلية ويصورها تمام التصوير ، ألا ترى إلى قول امرئ القيس :

قفأ نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول بفومل
كيف ذكر الأماكن وحددها هذا التحديد الجميل الدقيق ؟

٥ - قلة ترتيبهم للمعاني أو تأنيهم في نظمها ، إنما كانوا يرسلون الكلام
على ما خيلت نفوسهم واستدعته فطرتهم وسجيتهم وبديهم ، فيدخلون معنى
في معنى ويلتقلون من غرض إلى غرض في اقتضاب واضح دون عنـاية
بالتلطف وحسن التخيل في الانتقال ، وأحياناً يقولون : دع ذا وعد عن ذا

ويكتفون بها في الانتقال من معنى إلى معنى ومن غرض إلى غرض ، كما قال
زهير في هرم بن سنان يمدحه :

دع ذا وعد القول في هرم خير البداة وسيد الحضرة
وسبب ذلك أمية العرب وبدادتهم وقلة حظه من الثقافة والتفكير
الحضري العميق .

ج . ويمتاز امرؤ القيس كما سبق بإبتكاره المعاني الجديدة الكثيرة ، بما
انبغته الشعراء فيها . وكان أوس بن حجر عاقلاً في شعره كثير الوصف
لمكارم الأخلاق ، وهو من أوصفهم للخمر والسلاح ولا سيما القوس ،
وسبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة (١) ، وكان أبو دؤاد الإيادي
أحد نعات الخيل المجيدين (٢) ، وكان الأغشى أوصفهم للخمر والحمر
وأمدح وأهيجي (٣) ، إلى آخر هذه النواحي التي امتاز بها الشعراء الجاهليون
في المعاني وفنون الشعر .

أخيلة الشعر الجاهلي

الخيال في الشعر العربي :

الخيال ملكة خصبة تقدر على تخيل الأشياء وتصوير العواطف والآراء
تخيلاً وتصويراً يوضح لنا نواحيها الغامضة ويعرض علينا ما فيها من أسباب
الروعة والجمال عرضاً مؤثراً نحسبه حقيقة أو كالحقيقة المدوسة ، يأخذ الشاعر
الأشياء المألوفة التي يراها الناس جميعاً ، ثم يعمل فيها خياله فيخرجها
في صورة جديدة لم تكن تنوهمها ، فليس الخيال دائماً مجافاة للحقائق وبعداً
عن المألوف وقدرة على الاغراب والابتعاد بما لا يكون ، بل المهم أنه مراة

(١) ٤٧ الشعر والشراء (٢) ٦٩ المرجع (٣) ٨٢ المرجع

تنطبع فيها الصور فيعكسها وقد صفها من كل شائبة وأخرجها إخراجاً جديداً والخيال خادم للحقيقة وغايته تصوير ما حجب عنا من حقائق الوجود، وهو في حسن اختيار التفاصيل المميزة وحركة الذهن في انتقاء هذه التفاصيل وضم بعضها إلى بعض وترتيبها، فالشاعر يشعر بما حوله ويعتاد الملاحظة الدقيقة في الحياة المحيطة به بما يتصل بالإحساس والشعور والعاطفة والتفكير ويلاحظ ذلك جملة وتفصيلاً فتسجله ذاكرته بدقة ثم يركز ذلك في ذهنه وأعماق شعوره تركيزاً تاماً، ويأخذ في الغوص في أغوار الذهن على التفاصيل ودلالاتها، مستغرقاً في نشوته الروحية وفي تأملاته، وتصوره وتخيله استغراقاً تاماً يساعده على نشر المألوف من الملاحظات وإظهارها في فن جميل وآية من سحر القريض وهذا الاستغراق وتلك الدشوة والتعبئة بالتعبير عن النفس يفجران يندبوعاً من القوة الباطنة يلهم الشاعر روائع الشاعرية وآثاراً من الفن والجمال، فإدراك الشعر الأولى في العواطف الإنسانية من حب وحزن وأمل وبأس وغير ذلك مما يشعر به الشاعر ويمس به الإنسان، وهذه العواطف هي الإنابيع الصادقة للشعر (١)، وهي التي يعمل الخيال عمله لتصويرها ويسمى ليركب الصور المودعة في العقل الباطن ومشاهده ليصوغها فناً شعرياً يعبر عنها ويوضع ما خفي منها، فليس الشعر صوراً وألفاظاً وعبارات إنما هو عواطف الشاعر وشعوره يركبها خيال صنّاع وملكات قادرة ومقدرة فنية موهوبة في صور من الألفاظ والأساليب، وجمال الشعر وروعته وموقفان على مدى إحساس العاطفة وقدرة الخيال على تصويرها، فإذا كانت صور الخيال

(١) القدماء من النقاد يختلفون في مادة الشعر اختلافاً كبيراً، فالجاحظ يراها في الأسلوب والنظم كما يدلنا على ذلك قوله: والمعاني مطروحة في الطريق وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وجودة السبك فإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير (٤٠: ٣ الحيوان)، وعلى رأى الجاحظ يسير عبد القاهر في الدلائل، أما قدامة فيرى أن مادة الشعر هي المعاني (١٤ نقد الشعر) والآدى وابن خلدون يريانها في الألفاظ (١٨٣ الموازنة، ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون)

ناشئة عن عاطفة سقيمة أو سطحية ، كان الأثر الأدبي متكلفاً مصنوعاً لاحظ له من التقدير ، وإذا كان عمل الخيال محكماً وإحساس العاطفة قوياً نال الشعر حظه من الجودة والإعجاب ، والخيال إذا كان عمله وتأليفه لصوراً جديدة اختيرت عناصرها من بين الحقائق والمشاهدات المبعثرة المخزونة في الذاكرة وألفت تأليفاً جديداً سمى خيالا مبتدعاً ، ونهاية هذا الحديث أن هناك صلات وثيقة بين الخيال والعاطفة فهو الذي يصورها ويبنها قوية مؤثرة ، وقوة الخيال مرتبطة بقوة العاطفة ، فإذا كانت صادقة قوية خلقت خيالاً رائعاً ، وإذا أردنا للأدب قوة وخلوداً فعلينا أن نعني بهذيب الشعور ليكون إدراك الشاعر للحياة صادقا عميقاً وآثاره الأدبية جميلة رائعة ، وخياله الأدبي موهوباً ملهماً ، فالخيال أنفع المواهب والممككات في فن الشعر لأنه المعبر عن العاطفة واللغة الطبيعية لأداء الانفعالات والمواقف الإفسانية .

الشعر الجاهل وحظه من الخيال :

١ - في الشعر الجاهل الكثير من التشبيهات والاستعارات والأمثال والكنايات ، وهذه هي أجنحة الخيال في التعبير والتصوير ، فتجد أمراً القيس كثير التشبيهات في معلقته ، وكنايته البليغة :

وتضحى فتات المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تلتطاق عن تقضلي
لا يماذلها جمال ، وقوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل
من أسلوب التمثيل البارع .
وكذلك قول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد
وقول النمر بن تولب :

فصدت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضلت بحاجب
تشبيه جميل جيد .

ويقول زهير : «لدى أسد شاكي السلاح مقذف» ، وهي استعارة واضحة :
ويقول تأبط شرا :

إذا حاص عيبيه كرى النوم لم يزل
له كالىء من قلب شيعان فانك
وهي كذلك استعارة قريبة: ويقول النابغة :

رقاق النعال طيب حيزاتهم يحمون بالريحان يوم السباب
فنجود كناية جميلة عن العفة والعطر
ويقول الأعشى :

تشبُّ لمقرورين يصظليانها وبات على النار الندى والمحلق
وهي كناية عن الكرم والجود في غنى عن الإشادة وأوصاف البلاغة
إلى غير ذلك من مثل هذه الأخميلة القريبة الواضحة الجميلة .

٢ - والخيال في الشعر الجاهلي خيال واضح مألوف يحلق قريباً من هذه
البيئة الطبيعية الجاهلية ومناظرها وألوانها وما تحفل به من شتى المشاهدات
والأوصاف (١) ، وإن كان بعض الشعراء قد طاف في البلاد القريبة من
الجزيرة العربية فاستمد بعض صور خياله وتصويره منها ، كما يقول النابغة
يزرى بالفرات لأن مدوحه النعمان أكثر منه جوداً وسخاء :

فما الفرات إذا هبَّ الرياح له . ترمى أو ذايه العبرين بالزبد
يظلُّ من خوفه الملاحُ معتصماً . بالخيزرانة بعد الأين والتجبد
يوماً بأجود منه سيبَ نافلة . ولا يحول عطاء اليوم دون غد

(١) انظر قول الأعشى :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وكالأعشى وعدى بن زيد الذين طافا بكثير من البلاد .

٣ - الأخيصة البعيدة البديعة قليلة جدا في الشعر الجاهلي لبدوية الأمة العربية وحياتها وبعدها عن آثار الثقافة والحضارة والرفاهية وبعد فاما أكثر الخيالات الساذجة في شعر الجاهليين، فتجدون الأعشى يسمو في قوله :

وقد أراها وسط أترابها في الحى ذى الهجة والسامر
كدمية صُور محرابها بُذْهب في مرمر مافر
يشفى غليل النفس لاه بها حوراء تسي قلة الناظر
ثم يقول في سذاجة الشاعر وخيال البدوى

عهدى بها في الحى قد سُسر بِلت هيفاء مثل المهرقة الضامر

ألفاظ الشعر الجاهلي وأسلوبه

ألفاظ الشعر الجاهلي تمتاز بما يأتى :

١ - كراهة استعمال الألفاظ الأعجمية إلا ما جاء قليلا فيه على سبيل الفكاهة والظرف والتلميح كما في شعر الأعشى وعدى بن زيد وأبي دؤاد الأبادى . وكان عدى يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف فنقل لسانه واحتمل عنه شيء كثير جدا وعلماؤنا لا يرون شعره حجة (١) والعرب لا تروى شعر أبي داؤد وعدى بن زيد وذلك أن ألفاظهما ليست بنجدية (٢) .

(١) الشعر والشعراء .

(٢) المرجع . ويقول أبو الفرج : كان عدى بن زيد شاعرا فصيحاً من شعراء الجاهلية وهو نصراني وليس ممن يعد من في الفحول . وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدى في الشعر بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها ، وكذلك كان عندهم أمية بن أبي الصلت (ص ١٧ : ٢ الأغاني) وكان امرؤ القيس يتوكل على أبي دؤاد ويروى شعره (٢٩٨ : ٢ المزهرة)

ويقول الأعشى :

وشاهدنا الجبل والياسمين والمسمعات بأقصابها
وبربطها دائم معمّل فأى الثلاثة أذى بها
فتجد أسماء فارسية بعيدة عن إلف العربى وسمعه ، وذلك أن الأعشى
دخل بلاد الفرس وجالسهم وصدر عن ملوكهم وعلق بسمعه بعض ألفاظهم.
ويقول الأعشى أيضاً :

لها جُلُسانٌ عندها وبنفسج وسيسنبر والمرزجوش منمنما
٢ - كثرة استعمال الألفاظ في معانيها الحقيقية الموضوعة لها ففى بعيدة
غالباً عن أسلوب المجاز والكناية والتشبيهات وما شابهها .
٣ - كثرة القريب والحوشى ولا سيما عند وصف منظر أو حيوان أو
غيرهما من مشاهد البيئة العربية في جاهليتها .

٤ - استعمال الألفاظ الجزلة غالباً . والجزل من الكلام هو الذى
تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها (١) ، وأجود الكلام ما يكون
جزلاً سهلاً لا ينفلق معناه (٢) . ويقول ابن الأثير : الألفاظ تنقسم في
الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ،
فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوافع التهديد
والتخويف وأشباه ذلك . وأما الرقيق منها فانه يستعمل في وصف الأشواق
وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه
ذلك . ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه
عنجهية البداوة ، بل أعنى به أن يكون متيناً على عذوبته في الفم وإذذته في
السمع . وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً وإنما هو اللطيف
الرقيق الحاشية الناعم الملمس كقول أبى تمام :

ناعمات الأطراف لوأنها تلبس أغنت عن الملاء الرقاق (١) ،

ويقول : وأما البداوة في الألفاظ فتلك أمة قد خلت وقد عيبت على مستعملها في ذلك الوقت فكيف الآن (٢) وقد عرف النقاد أمر الجزالة والرقعة وشأنهما في الكلام ، وبحسبها منهم كثيرون في تقدم ودراساتهم ، فالفرزدق يقول في جرير : ما أحوجني مع فسوقي إلى رقة شعره ، وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى (٣) ، فهو يرى أن الجزالة والرقعة بحسب الشاعر والموضوع الذي ينظم فيه . ويقول عبد الملك في الأعشى : قاتله الله ما كل أعذب بحره وأصلب صخره (٤) ، ويقول الأصمعي في شعر النابغة : إن قلت ألين من الحرير صدقت ، وإن قلت أشد من الحديد صدقت (٥) ، وقال أبو عبيدة في شعره : له ديباجة إن شئت قلت شهداً إن مسسته ذاب ، وإن شئت قلت صخر لو رديت به الجبال لأزالها (٦) .

وبحث الجرجاني في وساطته الجزالة والرقعة بتفصيل (٧) وذكر أثر نفس الشاعر وحياته وبيئته وعصره ولون معيشته فيها ورأى أن الرقعة إنما تأتيك من قبل العاشق المتيقن والغزل المتهاك ودعا إلى تنزيل الجزالة والرقعة منازلها بحسب المعاني والأغراض والموضوعات (٨) . وقد ذكر الجاحظ في البيان الجزالة والرقعة غرضاً فتراهم يقول : ومن الكلام الجزل والسخيف والخفيف والثقيل وكل عربي وبكل قد تسكمو (٩) وذكر أن سخييف الألفاظ مشاكل لسخييف المعاني وأنه قد يحتاج إليه في بعض المواضع وربما أمتع كثيراً .

ويقول : وحاجة الكلام إلى الخلاوة كحاجته إلى الجزالة (١٠) ويدعو إلى ترك الوحشي والسوقي في مواضع كثيرة من بيانه (١١) وعرض لهما ابن المدبر

-
- (١) ٦٨ المثل السائر (٢) ٦٨ المثل السائر
(٣) ١٢٧ الشعر والشعراء (٤) ٣٨ الجهرة (٥) ٣٨٠ : ٣ العقد
(٦) ٢٢ جمرة أشعار العرب (٧) ٢٢ وما بعدها من الوساطة
(٨) ٢٩ المرجع (٩) ١١٠ ج ١ البيان والتبيين (١٠) ١٣٠ البيان
(١١) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ ج ١ المرجع

عرضا فقال : لا يعتد بالمعنى الجزل مالم تلبسه لفظا جزلا (١) وعرض لهما
أرسطو في كتابه الخطابة فذكر أنه « لا ينبغي أن تكون الألفاظ سفاسفة
ولا مجاوزة في المثانة مبلغ الأمر الذي يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا
تصوج إلى الكلفة المشنونة » وذكر أنه « ينبغي أن يلام بين اللفظ والمعنى
فالمدى الجزل يعبر عنه بالألفاظ جزلة والمعنى الرقيق يعبر عنه بلفظ رقيق (٨) .
وبعد فالشعر الجاهلي فريد في جزالته ونخامته وجلالته وشدة تركيبه
وقوة أسرته ، وإن شئت فاقرا قول زهير :

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا
إن تلق يوما على علانه هرما تلق السباحة منه والندى خلقا
لوناك حتى من الدنيا بمكرمة أفق السماء لتالت كفه الأفقا
أو قول أمية بن أبي الصلت :

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك؟ ، إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع لك الحسب المذهب والثناء
خليل لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء
وأرضك كل مكرمة بدتها بنو تيم وأنت لها سما
إذا أتني عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء
تبارى الريح مكرمة ومجدا إذا ما الكلب أججره الشتاء
وقول امرئ القيس في عذوبة وخفة :

وما ذرفت عيناك إلا لتضرنى بسهميك في أعشار قلب مقتل
أغرك مني أن حبك قانلي وأنت مهبا تأمرى القلب يفعل
إلى غير ذلك من الشواهد والمثل

أما أسلوب الشعر الجاهلي فنحدث عنه بإفاضة فنقول :

(١) الرسالة العذراء

(٢) راجع الفن الثامن من الخطابة لابن سينا مخطوط

ماهو الأسلوب :

الأسلوب في اللغة الطريق وعنق الأسد والوجه والمذهب

والأسلوب الأدبي يعرفه ابن خلدون في حديث طويل بأنه « المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه (١) » ، فهو يراه في الصورة الأدبية الممتازة التي يتميز بها الأدباء والشعراء وينسجون في أديهم وشعرهم على منوالها . ويعرفه بعض المحققين بأنه طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الاقتناع والتأثير ، أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير (٢) .

ويعرفه آخر بأنه المعنى المصوغ من ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفضل في نفوس سامعيه ، ويعرفه آخرون بأنه طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر في نفس القارئ . أو السامع . ويذكرون أنه غرضين : نقل الحقائق أو المعاني إلى ذهن السامع أو القارئ ونقل شعور الكاتب أو المتكلم إلى نفسيهما للتأثير

ويعرفه محن بأنه نهج الكاتب والشاعر في صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعاينه والطريقة التي يسير عليها في اختيار كلماته وتراكيبه وما يثر في لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعة ، وألوان الصنعة في شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة وتورية وتدريج وعكس ومشاكلة ؛ وطرق الأداء التي يسير عليها في صياغته من تقديم وتأخير وذكر أو حذف وفصل أو وصل وإيجاز أو إطالة إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب ، وما يراعيه الكاتب والشاعر من أوصاف في بدو كلامه وفي فصوله وخاتمته : والأسلوب هو الوسيلة التي ينقل بها الأديب فكرته

وعاطفته وأراءه وممانيه إلى الناس . ومقياس جودة الأسلوب هو القدرة على نقل ذلك والتعبير عنه بدقة وقوة تأثير

ويمتاز أسلوب الشعر بما فيه من عاطفة ، وما يشيع في نظمه من خيال وسحر صنعة وعذوبة موسيقى وحرية في الأداء والتصوير ، وبشدة تأثيره في النفوس وأثره في العاطفة والشعور والوجدان . أنشد أبو العتاهية قصيدته :

أنته الخلافة منقادة إليه تيجر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلاها

وكان بشار حاضرا ، فلما سمع الأبيات اضطرب وسبح وقال : انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده (١) وسمع الجاحظ رجلا يشد أرجوزة أبي العتاهية التي سماها ذوات الأمثال ، فبلغ قوله :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب
فقال للشهد : قف ثم قال : انظروا إلى قوله : «روائح الجنة في الشباب»
فإن له معنى كعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتمعجز عن ترجمته
الأسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير .

نعم إن الشعر ينبعث غالبا عن إحساس قوى ، ويلبس حلة جميلة من النظم تصور المعانى تصويراً قويا رائعا فكل ذلك يجعله ذا أثر شديد في نفوس سامعيه وقارئيه على السواء .

وأهم خصائص أسلوب الشعر الجاهلي هي :

١ - القصد إلى المعنى في إيجاز وعدم إطتاب أو تطويل ، وتلك ميزة شعراء الجاهلية عامة ، وإن كان زهير كما يقول ابن سلام « أجمعهم لكثير

من المعنى في قليل من المنطق كما كان أشدهم مبالغة في المدح (١) .

٢ - الزهد في المحسنات البديعية وعدم الإلمام بها إلا لما ما وعن غير قصد وكان العرب لا يعرفون ألوان البديح والبيان علما وإنما يعرفونها فنا وذوقا وملكة . وما جاء من المحسنات البديعية - من سجع وجناس وطباق ومقابلة وغيرها - في شعرهم قليل نادر وعن غير قصد ولا التذات .

٣ - الاستداء في قصائدهم بذكر الأطلال والديار ، والرويح عن النفس بالإلمام بالتشبيهات القوية البديعة .

٤ - متانة الأسلوب وقوته ودويته في الأذن والذوق ، كما يقول النابغة :

عوجوا حيويا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار ؟
وقول امرئ القيس :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فعلت له لا تبك عينك إنما نحال ملوكا أو نموت فنعذرا
وقول الذعش في ناقته :

فأليت لأرثي لها من كلاله ولا من حنى حتى تلاقى محمدا

٥ - هذا الطابع البدوي الذي يمتاز به أسلوب الشعر الجاهلي الذي نما وعاش في هذه البيئة البدوية الغربية وكثرة ما فيه من مخاطبة الأطلال وذكر الناقة والفرس وسواهما .

٦ - كما يمتاز بحذف الفصول والسلامة من اللحن والقصد إلى المعنى ، في بلاغة وسحر ودقة تصوير

الرجز في العصر الجاهلي

كان الشعر الجاهلي قبل أن ينتقل إلى النهضة الفنية الواسعة على يد مهمل وامرئ القيس ، كان كله رجزاً ، يتعلق الشاعر بالبيت أو البيتين فيما يعرض له من شئون الحياة ، كالأبيات التي تؤثر عن دريد بن زيد والعنبر ابن عمرو بن تميم وأعصر بن سعد والمنوغر بن ربيعة وسواهم (١) .

ولكن هذا الرجز كان خالياً من آثار التهذيب ، وخمل شأنه ببدء النهضة الفنية في الشعر على يد امرئ القيس وسواه .

ثم جاء الأغلب العجلي ، فاتخذ الرجز صناعةً فنيةً ونظمه وأجاد فيه فكان الأغلب أول من طوّل شعر الرجز ، ويرى بعض النقاد كالبهجي وغيره أنه أول من رجز ، وينفي ذلك ابن رشيق لأن الأغلب أدرك عصر الرسول وليس بتقديم جداً مع أن الرجز كان قبله . ويذكر أبو عبيدة أن المعراج هو أول من أطال الرجز وقصده وشبب فيه وذكر الديار واستوقف الصحاب عليها واستوصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيدة فكان في الرجاز كامرئ القيس في الشعراء وأرجوزته « قد جبر الدين الاله فجبر ، نحو من مائة بيت وهي موقوفة مقيدة (٢) » ، ويؤيد ابن قتيبة أن الأغلب هو أول من أطال الرجز (٣) وهو الصحيح ؛ وأما المعراج فقد انتقل بالرجز خطوة جديدة فسار فيه على نهج الشعراء في القصيدة .

واشتهر بعد ذلك من الرجاز : المعراج وابنه روبة ، وأبو نخله ، وأبو النجم ، ودكين ، والأغلب .

(١) ٢٩٤ و ٢٩٥ : ٢ المزهر ، ١٨ - ٢١ طبقات الشعراء .

(٢) راجع في ذلك كله ص ٣٠١ : ٢ المزهر ، ٢٤١ وما بعدها طبقات الشعراء .

(٣) ٢٣٥ الشعر والشعراء .

الشعر الجاهلي بين الرجز والقصد

١ - علمت أن الجاهليين سبقوا افتقاروا النثر في جمل صغيرة ، كما ترى في الأمثال العربية ، ثم صاروا يوازنون كل جملة من النثر بالآخرى حتى توصلوا رويدا رويدا إلى نظم البيت أو البيتين . وكان الشاعر في تلك الأبيات يعبر عن الاحساسات التي كان يشعر بها كالحب والغضب والحماسة وغير ذلك وكانوا يستعملون في ذلك الشعر بحر الرجز لسهولته وخفته ، ويسمون القطعة منها أرجوزة والجمع أراجيز ؛ وبعد ذلك صاروا يرتجلون منه أكثر من بيتين ، ويمبرون بها عن إحساساتهم النفسية ويصفون الوقائع الحربية والخيال والإبل والصحراء وغير ذلك مما يقع تحت نظرهم ، وصاروا يستعملون عدا الرجز أوزاناً أخرى منها الطويل والكامل والوافر وغيرها من البحور ويصف الأغلب العجلى (١) الذي عاش قبل الرسول في أراجيزه محبوبته ويذكر آثار حبها ويتأسف على ماضى من شبابه . ونرى في آخر الجليل الخامس أشعاراً في أرق نظم وأدق لفظ وأوسع معنى وأبدع صورة تدعى قصائد والواحدة قصيدة ، ويقال كما علمت إن أول من قال قصيدة هو المهمل ابن ربيعة من بني تغلب قالها في قتل أخيه ، وذهبوا إلى أن الفرق بين الأشعار المرتجلة والقصائد هو أن الشعر المرتجل يعبر الشاعر فيه عن إحساساته النفسانية حالما ينفع من شيء ويقول الشعر بدون تحضير وأكثر ما يكون الشعر المرتجل من بحر الرجز ولا تتجاوز القطعة منه العشرة الأبيات وقيل

(١) بعد المعراج أول من أطال الرجز وكان الشاعر قبل ذلك يقول البيتين والثلاثة ، فهو في الرجز كأمريء القيس في الشعراء ، وهذا قول أبي عبيدة ، وقال غيره : أول من طول شعر الرجز الأغلب وهو قديم وزعم آخرون أنه أول من رجز وكان على عهد رسول الله (ص ٣٠١ المزهري ج ٢) ، وراجع ٢٣٥ الشعر والشعراء .

بل السبعة، والقصائد ترد من جميع الابحر ولا تسمى قصيدة إلا إذا زادت
عن السبعة الآيات وكان نظمها مقصودا وقلما يقال مرتجلة بل إن أكثر
الشعراء كانوا ينقحونها قبل إنشادها .

٢ - وكانت القصائد تبتدىء بالغزل ويلم الشاعر فيها بأغراض كثيرة ،
قال ابن قتيبة : وسمعت بعض أهل العلم يقول إن مقصد القصائد إنما ابتدأ
فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فشكا وبكى ، وخاطب الربيع واستوقف
الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطامنين عنها . إذ كان نازلة العمد في
الحلول والظمن على خلاف ما عليه نارلة المدر ، لاتجاعهم السكلا ؛ وانتقالهم
من ماء إلى ماء ، وتقبهم مساقط القيث حيث كان ، ثم وصل ذلك باللسيب
فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب
ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأن اللسيب
قريب من النفوس ، لا تخط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من
عجبة الغزل وإلف اللسان . فليس يسكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه
بسبب ، وضاربا فيه بسهم ؛ فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه .
والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا التعب والسهر
وسرى الليل وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه
حق الرجاء وزمام التأميل ، وقرر عنده ماناله من المسكاره في المسير ، بدأ
في المديح ، فبعثه على المسكافات ، وهزه على السماح .. فالشاعر المجيد من
سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام (١) . وهكذا يفهم النقد
القداى النهج الفنى للقصيدة أو وحدة القصيدة عند الشعراء الجاهلين .

ومن غير شك أن النهج الذى ذكره ابن قتيبة هو نهج أغلب القصائد
الجاهلية ، وقلما تجد قصيدة في موضوع واحد ، وبما شذ عن ذلك قصيدة
تأبط شرا :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل (١)
وبعض قصائد أخرى نادرة

هذا والقصائد الجاهلية كثيرة بكثرة الشعراء أنفسهم ، وبعد الباحثون أكثر من مائتى شاعر عاشوا فى الجاهلية عددا من ضاع ذكرهم ونسيت أشعارهم ، ولكن لم يصل إلينا من أشعار هؤلاء إلا القليل ، لأن جمع الشعر الجاهلى وتدوينه لم يبدأ إلا بعد سنة ١٥٠ هـ وأول مجموعة من مجموعات الشعر الجاهلى وصلت إلينا هى المفضليات .

٣ - ومن الشعراء الذين جمعوا بين الرجز والتصيد : امرؤ القيس ، وطرفة ، وليبد ، أما زهير والناخبة والأعشى فليس لهم من الرجز شئ . (٢)
ويقول الأغلب الراجز :

أرجزا سألت أم قصدا . لقد سألت هينا موجودا

العربيات الشاعرات فى العصر الجاهلى

نسمع من أسماء الشاعرات فى العصر الجاهلى ، العدد العبد ، ولا ترى لواحدة منهن ديوانا مجموعا . أو شعرا مشروحا . كما نرى لأكثر شعراء الجاهلية .

فمن شاعرات العرب : جمل الضبابية من بنى كلاب ، وأم موسى الكلابية وزهراء السكلبية ، وريطة بنت العباس السلمى ولها أبيات تروى أحباها وقد قتله بنو خشم ، وأم الفضل بنت الحارث الهلالية ، وضباعة بنت عامر من بنى عامر من صمصعة وكانت زوجا لعبد الله بن جعدان التميمى ، وأم

(١) ويسمىها بعضهم « نشيد الانتقام » ونقلها إلى الألمانية جوته الشاعر ونقلت إلى الفرنسية والإنجليزية والإيطالية مرارا
(٢) ٢٥٩ ج ٣ البيان والتبيين

الأسود الكلاية ، وجل السلبية ، وضاحية الهلالية - ، والخنساء بنت الخنساء ،
وليل العفيفة زوج البراق ، وكانت من أجمل نساء زمانها ؛ ومن شعرها وهي
في بلاد فارس :

ليت للبراق عينا فتري ما ألاقى من بلاء وعنا
عذبت. أختكم يا ويلكم لعذاب النكر صبحا ومسا
يكذب الأعجم ما يقربني ومعى بعض حشاشات الحيا
فامطبار أو عزاء حسن كل نصر بعد حين يرتجى

وكثيرات سوى هؤلاء وقد ذكرت غيرهن في كتاب « شاعرات
العرب » .

ولقد عني الرواة بدواوين الشعراء من الرجال عناية شديدة ، وبذلوا
وسهمهم في الحديث عنهم وعن شعرهم .

ولم يكن لعلماء اللغة ورواتها مثل هذه العناية بشاعرة من شعراء
الجاهلية فيما أعلم حتى إن الذين تغيروا الشعر الجيد منهم وجمعه في ديوان
يحفظ كأنهم لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بحساب
قصائد الرجال .

فهذا أبو زيد القرشي قد اختار تسعاً وأربعين قصيدة من القصائد العاوال
ولم يحى فيها بواحدة لامرأة لا من الجاهلية ولا من الإسلام ، مع أن في
كلام ليل العفيفة ، وجليلة بنت مرة ، والخرنق والخنساء ، وليل الأخيلية ،
مالا يذكربجانبه شعر كثير للشعراء من أصحاب المذاهب والمشوبات والملحمات
والمنتقيات . فإن كنت في ريب من ذلك ، فإني ذاكر لك منتقاة انتقيتها
للخنساء ، ومنتقاة انتقاها أبو زيد للمتلس ، ثم وازن أنت بينهما ، واحكم بما
تشاء . فأما التي للخنساء فهي قولها في رثاء أبيها وأخوها :

كان لم يكونوا حمى يتقى إذ الناس إذ ذاك من عز برا (١)

(١) أى من سلب غاب

هم منعموا جارهم والنسا . يحفز أحشاءها الموت حفزا
 ببيض الصقاح وسمم الرماح فبا لبيض ضربا وبالسمر وخزا
 وخيل تكس بالدارعين وتحمت اللجاجة يجمزون جمزا (١)
 جزونا نواصي فرسانها وكانوا يظنون أن لن نجزا
 وكانت العرب إذا أسرت أسيرا جزت ناصيته ، وألقتها في السكناة
 أطلعتنه تفتخر بذلك .

فمن ظن بمن يلاقى الحروب بأن لن يصاب فقد ظن عجزا
 نفع ونعرف حق القرى وتتخذ الحمد مجدا وكنزا
 ونلبس في الحرب نسج الحديد وفي السلم نلبس خزا وقزا
 وهذه منتفاة المتلبس التي قالها حين هرب من عمرو بن هند هو وطرفة
 ألقى الصحيفة فنجا ولم ينبج طرفة :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع اللبس
 ومن ذرى علم طام مناهله كأنه في حباب الماء مغموس
 القذف والقذف : البعيدة أى كان الجبل مغمورا في الماء من الآل ..
 جاوزته بأموه ذات معجزة (٢) تهوى بكالكها (٣) والرأس معكوس
 يا آل بكر ألا لله دركم طال الثواء وثوب العجز ملبوس
 أغذيت فاغنوا اليوم شأنكم وشروا في مراس الحرب أو كيسوا (٤)
 حنت قلوصى بها والليل مطرق بعد الهدوء وشاقتها النواقيس
 معقولة ينظر الاشراق (٥) راكبا كأنه من هوى الرمل ملبوس

-
- (١) التكس : اجتماع الخيل ووثبها معا ، والدارع لابس الدرع .
 (٢) ذات معجزة أى قوة وبقية على السير وأصلها التي ربت وثنت في سنة
 واحدة (٣) الكلكل الصدر والمعكوس المطوى
 (٤) أى كونوا ناطقين إما برأيكم وأما بسيوفكم
 (٥) الاشراق سوق بالطائف وجبل لذيذ أو إشراف الشمس ، والاشراق
 الذهاب إلى الشرق (٢٤)

وقد أضاء سهيل بعد ما هجموا كأنه ضرم في الكف مقبوس
 حنت إلى النخلة القهوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهازيس
 آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس
 فليس في منتفاه أكثر من استبعاده ديار صاحبه ثم ركوب ناقته فراراً
 من الظلم قاصداً الشام بدل العراق وتحريمه العراق على نفسه وليس فيها كلها
 شيء يروع أو يزن قول الخلساء :

كأن لم يكونوا حى يتقى إذا الناس إذ ذاك من عززا
 أو مثل قولها :

ومن ظن من يلاقى الحروب بأن ان يصاب فقد ظن عجزا
 فكم ترى في الأول من تفخيم شأن قومها ، وفي الثانى من تهوين المصيبة
 على الشجاع ، وما أحسن ما وصفت الخيل في نشاطها ، وهى تمشى مؤتلفات ،
 وتذب بمجتمعات تحت العجاج بفرسانها الدارعين الوائعين بالظفر بقولها :

وخيل تكس بالدارعين وتحت العجاجة يجمزون جوا
 وما أبدع كنايتها عن غلبة قومه لهاؤلاء الشجعان في قولها :

جوزنا واهى فرسانها وكانوا يظنون أن لن نجوا
 وناعيك باعتذارها عنهم وتسليتهم عن مصابهم والإشارة من طرف نفي
 إلى لومهم لظنهم في أنفسهم أكثر مما تستحق وذلك قولها :

فمن ظن من يلاقى الحروب بأن ان يصاب فقد ظن عجزا
 أفترك مثل هذا الكلام النقي الهزاز الآخذ ويجعل كاشيء لللقى ، ولا
 عيب فيه فيما أظن إلا أنه كلام امرأة ، ولا حسن في كلام المتلئس إلا أنه
 كلام رجل .

فإن لم يكن هذا كما ظن فلم لم يجمع الرواة دواير فضليات النساء ؟ فأين
 ديوان جليلة وأمينة بنت عيينة . وأمامة بنت ذى الأصبع العدواني .
 وأم بسطام ، وأم السليك ، وأم الصريح السكندية ، وأم كاثوم بنت عبود ،

وجنوب أخت عمروذى الكلب ، وبنات عبدالمطلب : صفية ، وبرة ، وعائكة ،
وأم حكيم ، وأميمة ، وأروى ، وريطة بنت العجلان بن عامر الهذلي ، وسارة
القرطبة ، وعميرة الخثعمية ، والفارعة بنت شداد ، وخاصة الخزاعية ،
وأضراب دؤلا . من شواعر الجاهلية ، ولا يزال ديوان الخرنق مخطوطا ،
وقدرأيته فوجدت جميع ما في الديوان من شعرها خمسة وخمسين بيتا جمعه
أبو عمرو بن العلاء ، وما وصل إليه متفرقا ، وكتبه المرحوم الشيخ الشنقيطي
بخطه ، وهو في دار الكتب المصرية ، ولم يسنده إلى راو ؛ ولو لم يكن
للخمساء النابهة في الجاهلية والإسلام ، المسكنة العالية في سوق عكاظ ،
والبلاء في الجهاد ، هي وأولادها في حرب القادسية ، لما كان حظنا من كلامها
اليوم إلا كحظنا من كلام ليلي العفينة .

وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة
أبيات لامرأة مجهولة من بنى حنيفة ، والمفضليات هي أجود كلام العرب
الذي اختاره المفضل الضبي بأمر أبي جعفر المنصور للمهدي العباسي
ليتأدب بها .

فهذه مكانة شعر النساء في نظر المؤرخين والرواة والعلماء في ذلك الزمن ،
وكان الذين جاؤا بعدهم احتذوهم حذوا النعل بالنعل فما رأيهم دونوا شعر ليلي
الأخيلية في ديوان كما دونوا شعر المجنون .

وقس على هذا سائر المفضليات من الشاعرات ، خصوصا بعد سقوط
بغداد ، ثم أفول قرطبة ، فإن شعر المرأة في هذا الزمان قد اختبأ تحت
جبهات الرجال ولم يظهر منه إلا القليل .

ولعل ظهور عائشة التيمورية وطبع شعرها كان فلتة نادرة .

والمرزباني جمع أشعار النساء في كتاب يوجد بدار الكتب المصرية
بخط أندلسي قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة ، والظاهر أنه أحفل كتاب
روى الشعر الصحيح ، ولولا مثله لبقى تاريخ أدب المرأة مطموسا .

ومن شعر النساء قالت أم نندة تخرض زوجها حذيفة بن بدر على أخذ
نار ابنها نندة ، وكان قيس بن زهير العبسي قتله في حرب داحس والغبراء
فرضى زوجها حذيفة بأخذ ديتة فعاظها ذلك :

أيقتل نندة قيس وترضى بأنعام مبنوق سارحات
أما تخشى إذا قال الأعادي حذيفة قلبه قلب البنات
نخذ نأراً بأطراف العوالي وبالبيض الحداد المرفقات
وإلا خلني أبكي نهاري ولبلى بالدموع الجاريات
لعل منيتي تأتي سريعاً وترميني سهام الحاديات
أحب إلى من بهل جبان تكون حياته أردا الحياه
فيا أسنى على المقتول ظلماً وقد أمسى قتيلاً في العلاء
ترى طير الحمام ينوح مثلي على أعلى الغصون المائلات
وهل تجدد الحائم مثل وجدى إذا رميت بسهم من شتات
فيا يوم الرهان فجعت فيه بشخص جازع من حد الصفات
ولا ذال الصباح عليك ليلاً ووجه البدر مسود البجعات
ويا خيل السباق سقيت سما مذاباً في المياه الجاريات
ولا زالت ظهورك مثقلات باحمال الجبال الراسيات
لأن سباقكم ألقى علينا هوما لا تزال إلى الممات

ولهذا الشعر نظائر من شعر النساء يؤخذ منها أن المرأة لضعفها لا تضبط
نفسها عند شدتها حتى إنها لتدعو على أقرب المقربين إليها وقد تدعو على
نفسها وعلى من لا يتصور منه الجنابة عليها لذهاب رشدها عند النوائب ولا
كذلك الرجل فإنه أقدر على ربط جأشه وحفظ بواذره وكظم غيظه ومن
هنا علم أن شعر المرأة يظهر من أخلاقها أكثر مما يظهر شعر الرجل من
أخلاقه فإن شعر المرأة مرآة مصقولة تشف عما في نفسها .

وقالت جلييلة زوج كليب ، وأخت جساس بن مرة حينما ضعتها أخت
كليب من الدخول في مأتم أخيها ، وقد كان قتله جساس في حديث

مشهور ، وقد نقلت هذه القصيدة على أصح رواية من كتابه أشعار
النساء للربزباني .:

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا	تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت التي	عندها اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امرئ لميت على	جزع منها عليه فافعلي
فعل جساس على وجدى به	قاطع ظهري ومفن أجلي
لو بعين غير عيني انفقات	عيني اليتي إذا لم أحفل
أيتم المجد كليب وحده	واستوى العالی معا بالأسفل
من لحكم الناس في حيرتهم	وقرى الأضياف كوم البزل
ولإصلاح وإفساد معاً	في صدى الرمح ودك المنصل
جل عندى فعل جساس فيا	حسرتي عما انجلت أو تنجلي
يا قتيلا خرب الدهر به	سقف بيتي جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته	وبدا في هدم بيتي الأول
ورماني قتله عن كسب	رمية المصمى به المستأصل
يا نسانى دونكن اليوم قد	خصني الدهر بأمر معضل
خصني قتل كليب بلظي	من ورائي ولظي مستقبلي
ليتة كان دمي فاحتلبوا	بدلا منه دما من أكحلي
إنى قاتلة مقتولة	ولعل الله أن يرتاح لي

ومن كلام أم السليكم بن السليكم ، وقد انقطعت عنها أخباره ، وغلب على
ظننا أنه قتل ، وكان عداء مشهوراً :

طاف يبعث نجوة	من هلاك فم لك
ليت شعري ضلة	أى شيء قتلك
أمر يض لم تعد	أم عدو ختلك ؟
أم تولى بك ما	غال في الدهر السلك ؟
والمنيا رصد	للقتي حيث سلك

- ٣٧٤ -

أى شىء حسن لفتى لم يك لك
كل شىء قاتل حين تلقى أهلك
طالما قد نلت فى غير كد أملك
إن أمراً فادحا عن جوابى شغلك
سأعزى النفس إذ لم تجب من سالك

وفيه من السهولة والنقاء والتأثير والوقوف به عند حد الشعور مافيه ،
ونجده بمكانة لا تحتلها إلا عواطف النساء .

ومن ذلك قول الخنوق بنت بدر أخت طرفة بن العبد لأمه ، وزوج
بشر بن عمرو بن هميرد ، ولها فى رثاء أخيها وزوجها ، ومدح قومها
أشعار جيدة :

ألا أقسمت آمى بعد بشر على حى يموت ولا صديق
وبعد الخير علقمة بن بشر إذا نزلت النفوس إلى الخلق (١)
ومال بنو ضبيعة حول بشر كما مال الجدوع من الحريق
وقالت فى قومها :

لا يبعدن قوى الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلون بكل معترك والطيبون معاهد الأزر
الضاربون بحومة نزلت والطاعنون بأذرع شعر (٢)
والخالطون نعيمهم بنضارهم وذوى الغنى منهم بذى الفقر
وقالت لعبد عمرو ، حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو بن هند
وقتلته عامله :

أرى عبد عمرو قد أساط ابن عمه وأنضجه فى غلى قدر وما يدرى
فهل ابن جساس قتلت ومعبدا هما تركاك لا ترش ولا تبرى
وقالت فى رثاء طرفة :

(١) أى علت (٢) الأشعر الذى فيه شعر وهو أقوى

عددنا له خمسا وعشرين حجة فلما توفاهما استوى سيدا نخما
لجمعنا به . لما انتظرنا إياه على خير حين لا وليدا ولا قهما

قالت ذلك حينما بلغها قتل طرفة ، وكان قد ذهب هو وتهد عمرو بن
الشريد وعم طرفة ، وعمرو بن مرثد بن عمه ، إلى عمرو بن هند ، ونادموه مدة
فوشى بطرفة عبد عمرو ، وكان طرفة قد هجاه ، فكتب إليه عمرو بن هند
كتاباً وأرسله إلى عامله بالبحرين ، وأوهمه أن فيه إنفاذ جائزته ، وكذلك
أعطى المتلمس ولكنه ألقى كتابه في النهر ونجا إلى الشام ، وأما طرفة فذهب
بكتابه إلى المسكبر عامل عمرو على البحرين ففرض الكتاب ، وقتله بعد أن قطع
يديه ورجليه ، ودفنه حيا .

والذي يهنا من سرد شعرها هو الاستعانة على إثبات ما لشعر النساء من
الخصائص ، وقد أوردنا فيما سبق أبيات ليلي العفيفة وذكرنا قصتها وهي
في طبقة جليلة ، وإن كانت أقدم منها ، وخصائص أشعارهما واحدة ، بيد أن
في شعر الخرنق شيئاً كثيراً من متانة شعر طرفة أخيهما .

هذا ولم يمر بنا في كل ما روينا شيء من الغزل والتشبيب والوقوف على
الديار وترسم الآثار مع أننا لا نكاد نجد قصيدة جاهلية للرجال خالية
من مثل هذا .

وسبب ذلك أن النساء لغلبة الحياء عليهن تركن باب الغزل ، وأبقينه
مفتوحاً للرجال ، وقد تصفحت أشعار أكثر من ستين من شاعرات الجاهلية
فلم أجد واحدة منهن غزلاً ففرت صحة السبب الذي أوردته ، وعددت هذا فارقا
بين شعرهن وشعرهم .

ثم نظرت كذلك فلم أجد لمن في الجريبات شيئاً ، وما سمعت واحدة
تمدحت بشربها ، ولا نعمت غيرها من النساء بهذا النعت . فدل ذلك على أن
الشرب لم يكن من خلق النساء ولا كان محموداً عند الرجال ، ولذلك لم يقلن فيه
وتركته كما تركن فن الغزل .

آراء علماء الأدب في الشعر الجاهلي

- ١ -

الشعر الجاهلي ، الذي اتخذ الشعراء في مختلف العصور ، أصلاً يحتذون
حذوه ، وينهجون منهجه ، ويبنون عليه ، ويقلدونه في مناحيه الفنية والأدبية
تقليداً كبيراً ؛ هذا الشعر هو الذي نريد أن نتحدث عن موقف النقاد منه ،
وآرائهم فيه ، ومذاهبهم حياله ، حديثاً يجمع مع الإيجاز أطراف هذا الموضوع
المتشعب الدقيق .

- ٢ -

وأول ما نذكره في هذا البحث ، آراء أنفسهم في الشعر
الجاهلي ونقده ؛ وهذه الآراء كثيرة متعددة ؛ طائفة منها تتحدث عن
منزلة بعض الشعراء الأدبية في الشعر ، وطائفة أخرى فيها نقد لبعض الشعراء .
فأنت تعلم أن كل قبيلة في الجاهلية ، كانت ترفع منزلة شاعرها على
الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأولهم في دولة الشعر . فكان اليمينيون
يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسد يذهبون إلى
تقديم عبيد ، وتعلب تقدم مهلهلا ، وبكر تقدم المرقش الأكبر ، وإياد
ترفع من شأن أبي دؤاد ، وهكذا . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون
زهيراً والنابعة ، وأهل العالية لا يعدلون بالنابعة أحداً ، وأهل الحجاز
لا يعدلون بزهير أحداً . وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرئ
القيس : هو سابق الشعراء ؛ ورأى لبيد أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفه
ثم نفسه .

كما تعلم أن الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراء كثيرة في نقد الشعراء :
فكان النابغة يضرب له قبة حراء في سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء وتشدده
أشعارها ؛ أتاه الأعشى يوماً فأنشده ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال : لولا

أن أبا بصير - الأعشى - أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الهجن والإنس ؛
فقال حسان : والله لأننا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على
يده وقال : يا ابن أخى أنت لاتحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المتأى عنك واسع
ثم أنشدت الخنساء :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار
فلما بلغت قولها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار
قال : ما رأيت امرأة أشعر منك ؛ قالت : ولا رجلاً .

وحكومة أم جندب الطائية بين امرئ القيس وعلقمة بن عبدة
الشاعرين ، وتفضيلها علقمة على زوجها امرئ القيس مشهورة ؛ ولاداعى
لذكرها ، فلما حديث آخر^١ إن شاء الله .

ومر امرؤ القيس بكعب وأخويه : الفضبان والقعقاع ، فأنشدوه ؛ فقال :
إنى لأعجب كيف لا تملى عليكم ناراً جودة شعركم ، فسموا بنى النار .

وروى المرزبانى فى كتابه « الموشح » أن الزبرقان وعمر بن الأهم
وعبد بن العلييب والمخبل السعدى ، تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدى
الشاعر ، فى الشعر وأيهم أشعر ؛ فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك أكهم
أسخن ، لاهو أنضج فأكل ، ولا ترك ندياً فيلتفع به ؛ وأما أنت يا عمرو فإن
شعرك كبرود حبر ، يتلألاً فيها البصر ، فكأها أعيد فيها النظر نقص البصر ؛
وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم ؛
وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر .

كما روى أيضاً أن هؤلاء الشعراء اجتمعوا فى موضع فتناشدوا أشعارهم
فقال لهم عبدة : والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فيما أن
تخبرونى عن أشعاركم وإما أن أخبركم ، قالوا : أخبرنا ، قال . فإنى أبدأ بنفسى ،

- ٣٧٨ -

أما شعرى فمثل سقاء شديد ، وغير من الأسقية أوسع منه ؛ وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بجزير منحورة ، فأخذت من أطايبها وأخابها . إلى غير ذلك من مواقف النقد والنفاد للشعر في العصر الجاهلي ، والتي لا تخرج عن الاستهجان أو الاستهزاء .

- ٣ -

وجاء الإسلام ، فكان له ولرسوله الكريم ، موقف جليل من الشعر الجاهلي . أنكر بعضاً وعرف بعضاً . أنكر هذا الشعر الذي يتأني الأخلاق الكريمة ، والمثل العليا ؛ من الغزل الفاحش ، والمجون الخليع ، والهجاء الكاذب ، والمدح المقرق ، والمبالغة ؛ وعرف هذا الشعر الذي يدعو إلى الفضائل والأخلاق والدين ، ويحث على الأدب والعلم وأداء الواجب وحب الجماعة والتضحية في سبيل الأمة والإنسانية . فكان هذا الموقف الخالد للإسلام ونبيه العظيم ، توجيهاً جليلاً لرسالة الشعر ، وتهذيباً نبيلاً للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير ، وآفاق الحق والعدل والحرية والنور ؛ بل كان نقداً عميقاً للشعر ومنهج الشعراء في الجاهلية ، وإنكاراً لاتخاذ الشعر وسيلة للتكسب والثراء .

وظهر أثر الإسلام والقرآن في تهذيب أسلوب الشعر وأنفاظه وفي البعد به عن الخوشية والغرابة ، وطبعه بطابع انقوة والجلالة والروعة مع الخلاوة والبلاغة والسلاسة . كما ظهر أثر القرآن والحياة الجديدة في عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعاييرهم وأخيلتهم .

- ٤ -

وفي عصر دولة بني أمية ، انتشرت العصبيات ، وكثرت الخلافات السياسية والدينية وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم ؛ فعادوا إلى مذاهب الجاهليين في الشعر ، واتخذوه أداة للدفاع عن الرأي والعقيدة ، واساناً لإذاعة محيادهم ومفاخرهم . وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلي ،

- ٣٧٩ -

والشباب على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه ، ووضعت في هذا العصر أصول النحو العربي ، فأخذ العلماء ينقدون الشعر الجاهلي والشعراء نقداً يحصل بالإعراب . وكان ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم . وكان عيسى يقول : أساء النابغة في قوله :

فبت كأنني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها المم نافع
ويقول موضعه : ناقماً (١) .

- ٥ -

ومن أشهر رواة الشعر الجاهلي ونقاده في القرن الثاني الهجري : أبو عمرو بن العلاء البصري المتوفى عام أربعة وخمسين ومائة بعد الهجرة ؛ وحماد الراوية السكوني (٧٥ - ١٥٦ هـ) ، وخلف البصري م ١٨٠ هـ ، والمفضل الضبي م ١٨٩ هـ ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب في كتاب ، وأول من فسر الشعر بيتاً بيتاً ، ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

ومنهم ابن السككي م ٢٠٤ هـ ، وأبو زيد الأنصاري صاحب كتاب الجيزة المتوفى عام خمسة عشر ومائتين ، وأبو عبيدة البصري م ٢٠٩ هـ صاحب النقائض ، وديباج القرآن ، والأصمعي البصري م ٢١٦ هـ ؛ وقد أدرك بعض هؤلاء جزءاً من أوائل القرن الثالث . وكان هؤلاء الرواة أثر كبير على الشعر الجاهلي ، فقد اهتموا بجمعه وروايته وتدوينه ، ووضعوا الجاهليين في طبقات ، ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً .

وكان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس إكباراً للجاهليين ، وتعظيماً لشأنهم ، جلس إليه الأصمعي عشر سنين فما سمعه يحتاج بيتاً إسلامياً ؛ ويروي عنه : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه

(١) ٤١ الموشع ، ١١ و ١٢ طبقات الشعراء لابن سلام .

أحدا ، وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام في
« طبقات الشعراء » : أشد الناس تسليها لهم . وكان المأمون رغم ثقافته
الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع
ملك بني أمية .

وكان الأصمعي - مع تحامله على المحدثين وشعرهم - معتدلا في عصبية
للشعر الجاهلي ، كان يحب الجيد منه ، وينقد الرديء ، عاب امرأ القيس في
قوله في وصف الفرس .

وأركب في الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر
والخيفانة في الأصل هي الجرادة ، وتشبه بها الفرس في الخفة ؛ قال
الأصمعي : شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن
الفرس كريما ؛ كما عاب غير امرئ القيس من الشعراء ؛ وكان يقول : ختم
الشعر بالرماح ، وهو شاعر أموي مشهور .

وفي القرن الثالث الهجري نجد التفاد في موقفهم من الشعر الجاهلي
طائفتين :

فطائفة تعجب بالجاهليين وشعرهم إعجاباً شديداً ، ولا ترى الشعر إلا
لهم . ومن هؤلاء ابن الأعرابي م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ،
ويشيد بشعر القدماء ؛ وكان يعيب شعر أبي نواس وأبي تمام ، ويقول :
ختم الشعر بابن هرمة ؛ وقال في بشار : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته
على كثير من الشعراء .

ومنهم أيضا : إسحاق الموصلي م ٢٤٠ هـ ، وكان في كل أحواله ينصر
الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتد ببشار ، ولم يكن موقفه
قاصرا على الشعر وحده ، بل كان كذلك في الغناء ؛ كان يتعصب للغناء القديم ،
وينكسر تغييره ويعظم الإقدام عليه . ومثل ذلك التعصب للقديم موجود في

الآداب الأوربية ، فقد كان هوراس ، الشاعر الرومانى يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن تدرس ليلا ونهاراً ، وأن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه ، وكان فى فرنسا خلال القرن السابع عشر مذهب أدبى يرى إلى إكبار البلاغة القديمة وتقليدها ، لأنها تمثل صور البيان خير تمثيل ، وكان يتزعمه جماعة من النقاد أشهرهم « باولو » ، حتى ألف شارل بيرو كتابه الموازنة بين القدماء والمحدثين ، يدعو فيه إلى التحرر من التقليد ، ويشيد بالمحدثين ، ويقول : إنهم فاقوا القدماء فى البلاغة

وقد اعتذر الباقلانى عن هؤلاء النقاد العرب المحافظين ، بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى : واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى المثل والشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ؛ ولكن الجرجانى فى الوساطة يذكر أن ذلك أثر لتعصب علماء اللغة ووراثتها للشعر القديم ، وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (١) .

وطائفة أخرى من النقاد فى القرن الثالث ، حكموا الذوق الأدبى والطبع وحدهما فى الشعر ، وحكموا بالفضل لمن يستحقه ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً ، فلم يفضلوا الجاهليين لسبقهم فى الزمن ، ولم يفضلوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم ، ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٠ هـ . وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ .

يقول ابن قتيبة فى أول كتابه « الشعر والشعراء » (٢) : « ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيتهما كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ؛ فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب عنده إلا أنه قيل فى زمانه ،

(١) ٤٩ و ٥٠ الوساطة ط بيروت .

(٢) ٧ و ٨ الشعر والشعراء .

ورأى قائله ؛ ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا في عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو يقول : لقد نبغ هذا المحدث حتى هممت بروايته .

وقال المبرد : ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحقه (١) . وأنكر ابن المعتز عصبية دولا . النقد للشعر القديم ، وذمهم لشعر المحدثين ، وقال : إنما عيب قبيح ، ومن فعل ذلك فإنما غرض من نفسه ، وجعل هذا ناشئا عن جهل بنقد الشعر وتمييزه (٢) . وكان الجاحظ هو السابق إلى إقامة نقد الشعر على أسس فنية خالصة ، وحارب هذا التعصب الممقوت للقديم لقدمه ، وآراؤه في ذلك في كتابيه : الحيوان والديان والنبين كثيرة ؛ ففي الحيوان ينكر الجاحظ على المتعصبين للقديم فعلهم ، ويقول : ولو كان لهم بصر . لرؤوا موضع الجيد من كان وفي أي زمان كان ، (٣) .

وفي القرن الثالث أيضا كثرت مؤلفات النقد في الشعر والشعراء الجاهليين ، وكتاب ابن سلام « طبقات الشعراء » مشهور ، وهو أبرز عمل أدبي منظم في النقد ، وقد قسم الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المرأى وشعراء المدن العربية ، ووضع في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابعة ، ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفني للشعراء الجاهليين وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذي قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع في الأولى امرأ القيس والنابعة وزهيراً ، وفي الثانية الأعشى وطرفة وليبدا ؛ ويذكر ابن سلام في « طبقات الشعراء » الإسلاميين أيضا ويقسمهم طبقات عشرة ، ولا يذكر أحدا من المحدثين . بعكس ابن قتيبة ، الذي ألف

(١) ١٨ : ١ الكامل للمبرد .

(٢) ١٣ و ١٤ : رسائل ابن المعتز ، محمد عبد المنعم خلفا .

(٣) ٤٠ : ٣ الحيوان .

كتابه: الشعر والشعراء، وذكر فيه الكثير من المحدثين الذين عاشوا قبيل منتصف القرن الثالث الهجري؛ وهذا يدلما على أن ابن قتيبة كان أكثر تقديرًا للشعر الجيد وحده، بصرف النظر عن قائله وتصرفه. وذلك بذكرنا بجمع المفضل وأبي زيد الأنصاري للشعر العربي، فقد جمع المفضل في مفضلياته مختارات للشعراء الجاهليين، وللقليل جدا من المخضرمين؛ أما أبو زيد الأنصاري ففي كتابه «الجمهرة» مختارات للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، فسكأه لا يقف إعجابه على الشعر الجاهلي وحده، بخلاف المفضل.

وألّف ابن المعتز أيضا كتابا في طبقات الشعراء المحدثين، طبع في أوروبا ومصر، ويسير فيه على نهج ابن قتيبة من حيث ذكر الشعراء وحياتهم ومذاهبهم الفني في شعر، ونماذج من مختارات شعرهم، ولكن الكتاب وقف على المحدثين وحدهم من بشار إلى عصر ابن المعتز، وهو أوفى كتاب في دراسة طبقة بشار، وطبقة أبي نواس، وطبقة أبي تمام، والبحتري. وهذا يدلنا على إعجاب ابن المعتز بالمحدثين، وتقديره لبلاغتهم وشغله بهم عن الجاهليين والإسلاميين إلى حد ما.

- ٧ -

أما القرن الرابع فقد كان أحفل قرن بالنقد والنفاد؛ وظهرت فيه أصول كتب النقد الأدبي مثل: نقد الشعر لقدامة م ٣٣٧ هـ؛ ونقد الشعر المنسوب إليه أيضا؛ ومثل أخبار أبي تمام للصولي م ٣٣٦ هـ، والموازنة للآمدى م ٣٧١ هـ، والوساطة لاجرجاني م ٣٩٢ هـ، وإيجاز القرآن للباقلاني م ٤٠٣ هـ.

كما ظهر في القرن الخامس: ابن رشيق م ٤٦٣ هـ، صاحب «العمدة»، وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ صاحب «سر الفصاحة»، وعبد القاهر الجرجاني صاحب «الأمرار والدلائل» م ٤٧١ هـ.

وكان النفاد في هذين القرنين يسيرون على نهج الجاحظ، فلم يتعصوا

للشعر الجاهلي لتقدم زمنه ، أو يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ؛ بل حكموا الذوق وحده في كل شيء ، حتى لقد وقفوا معددين لأخطاء الجاهليين ، كما فعل الأمدى في الموازنة ، والجرجاني في الوساطة ، وابن رشيق في العمدة ، وسواهم ؛ قال الأمدى في كتابه « الموازنة » : وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وقال صاحب « الوساطة » في أول كتابه : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أبيات ، لا يمكن لعائب القدح فيه ، إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه ، أو إعرابه ؛ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة ، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ، ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب . وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام (١) ؛ ولو تصفحت ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج ، وتبليت ماراموه في ذلك من المرامى البعيدة ، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التي يشهد القلب أن المحرك لها ، والباعث عليها ، شدة إعظام المتقدم ، والكاف بنصرة مامبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس لا يقنت بما ذكرت .

كما أزرى الأمدى والجرجاني بموقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين (٢) ؛ كالأصمعي الذي أنشده إسحاق الموصلي :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروى الصد ويشقى الغايل
إن ماقل منك يكثر عندي وكثير من تحب القليل

فقال : لمن تلهثني ؟ قال : لبعض الأعراب ، قال : هذا والله هو

(١) ص ٣ و ٤ الوساطة .

(٢) ١٠ الموازنة طبع صبيح ، و ٥٠ الوساطة طبع بيروت .

- ٣٨٥ -

الديباج الخسرواني ، قال إسحاق : إنهما ليلتهما ، فقال الأصمعي : لا جرم والله ، إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما ؛ وكان الأعرابي الذي أنشده بعض الناس شعراً وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبي نواس أنكره . . . ونقد الباقلاني في إعجاز القرآن معلقة امرئ القيس :

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحول
نقداً طويلاً ، وهو أول نقد أدبي مفصل قصيدة كاملة من الشعر العربي ،

- ٨ -

وفي العصور الوسطى ضعفت الملكات ، وعقمت الأوزان ، وتضاءلت الفطر الأدبية السليمة وتعصب العلماء والأدباء للشعر القديم لقدمه ، فأحاطوا الشعر الجاهلي بهالة من التقديس والجلالة ، لا يرون أحداً أحسن مثل إحسان الجاهليين أو أجاد إجادتهم ، بل رأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد ، واستمر هذا المذهب سائداً حتى العصر الحديث .

- ٩ -

وفي العصر الحديث تفاوتت ثقافات الأدباء والنقاد ، فوقف أولو الثقافات العربية الخالصة موقف الإعجاب والتقدير للشعر الجاهلي . وهب جماعة من أولى الثقافات الحديثة يطعنون على الشعر الجاهلي ، ويرمونه حيناً بالضعف والتفكك ، وحيناً بأنه كله أو جلّه منتحل مختلق .

عاب العقاد الشعر الجاهلي بأنه لا يصلح أن يكون نموذجاً يقتدى به في النظم ، لأنه في الغالب أبيات مبثورة ، تجمعها قافية واحدة ، يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود إليه ، ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ، ولا ترتيب مقبول ، وأن فيه غير التفكك ، وضعف الصياغة ، كثيراً من العيوب

(٢٥)

العروضية ، والتكرير الساذج ، والافتسار المكره ، والتجوز المعيب ،
الذى يؤخذ من روايته أن الشعر لم يكن فنا يستقل به صناعه الخبIRON به ،
وإنما كان ضربا من الكلام يقوله كل قائل ، وىروى المحكم منه وغير المحكم
على السواء (١) . . فنرى العقاد يأخذ على الشعر الجاهلى مأخذ أهمها :

أولا — ضعف وحدة القصيدة . وفى مناقشة هذه الفكرة نكتفى
بهايتين الكلمتين :

قال نولدكه المستشرق الهولندى المشهور : « فى أحوال كثيرة يحتفظ
الشاعر الجاهلى بوحدة الفكرة فى قصيدته ، بأن يجعل كل قسم من أقسامها
خاصا بوصف منظر . وحوادث من حياة الشاعر نفسه ، أو الحياة العامة التى
يعيها البدو فى الصحراء . . وقال جميل صدقى الزهاوى الشاعر المجدد
المشهور (٢) : « وهناك شئ يستحبه الذين تشبعت أدمغتهم بالآدب الغربى ، هو أن
تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة ، أو وصفا لشئ واحد ، من
غير خروج إلى غير الموضوع ، ولو كان فى فصل منعزل عن الأول ؛ وهذا
ليس من الشعر فى أصله ، بل هو تابع للأذواق ، ولطريقة الشاعر فى شعره ؛
ولا ينوع الشاعر المبرز فى العربية الموضوع فى كل قصيدة ، فكثيرا ما يصر
شعره فى القصيدة الواحدة فى موضوع واحد ؛ وإذا نوع الموضوع فهو
يخرج إلى الثانى بمناسبة وبعد فصله عن الأول ، مريدا بذلك أن تكون
قصيدته كالروضة الغناء . محتوية على مختلف الأزهار ، وهذا أقرب إلى الطبيعة
وليس فيه ما يؤخذ عليه غير كونه ينافى ما يفعله شعراء الغرب ، ولحل أمة
سياق ونزعة ليست لأختها ؛ وأعتقد أن الكتاب الذين يزرون بشعر شعرائنا
على الإطلاق ، لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء ، لما خرجوا كثيرا عن النهج
الذى يمشى عليه المبرزون من هؤلاء ؛ والسبب هو ما قدمته من اختلاف
ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين من جهة . وقيد الثقافية وإعرابها

عندنا وفقدانه عندهم من جهة أخرى ، وقد هم كثير من الشعراء المتعلمين من العلوم العصرية ، بتقليد الغرب في شعره ، فلم يكن ما أتوا به غربيا ولا شرقيا ، ولم يوفقوا إلا في ألوان من من الشعور ، هي مشتركة بين الأمم جميعها ، ومهما تكرر الشاعر الكبير على الأساليب والتصورات في أمته ، فهو لا يستطيع أن يطرأ مرة واحدة إلى تصورات وأساليب تخالف ما ألفه شعبه . فيقطع الوشائج القوية التي تربط الحاضر بالماضي ... ويعيب العقاد الشعر الجاهلي ثانيا بأنه لم يكن فنا مستقل به صناعه الخبيرون به ؛ وذلك لايسير مع الحقيقة الأدبية أو الواقع المأثور ، فشعراء المملقات ودهابهم الفنية في الشعر معروفة ؛ يقول الدكتور طه حسين في كتابه « الأدب الجاهلي » : « أما مضر فكان لها في الجاهلية شعراء ، يتخذون الشعر فنا ، يمثلون به نهضة فنية عقلية ، في هذا الإقليم من جزيرة العرب » . ويعيبه ثالثا بهلته صياغته ، وما فيه من عيوب عروضية ، وتكرار ساذج ، وتجاوز معيب ، وفي هذا ولا ريب مقالة لا يكاد يسلم بها دارس للأدب الجاهلي شعره ونثره .

أما أن الشعر الجاهلي كثير العيوب العروضية ، فلا أدري ما هو دليل الناقد عليه ؟ أهو قصيدة عبيد أم بعض هذا الشواهد المروية لعيوب الشعر من الاكفاء والايطاء والتضمين والسناد الخ ؟ وأين تكون هذه كلها في الشعر الجاهلي ؟ ثم ما هذا التكرار الساذج ؟ أهو مثل قول مالك بن الربيع :

لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا مزار ، ولكن الغضا ليس دانيا
أو في مثل قول الخطيب :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد
أو في قول النابغة :

عوجوا فخيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار
أقوى وأقمر من من نعم وغيره هوج الرياح بها في الترب موار
وقفت فيها سراة اليوم أسألهما عن آل نعم أمونا عبر أسفار

وقد أراى ونعما لاهيين بها والدار لو كلمتنا ذات أخبار
أيام - تخبرنى نعم وأخبرها ما أكرم الناس من حاجى وأمرارى
واین هو هذا الاقتسار المزعوم . ثم هل مافى الشعر الجاهلى من مجازات
وكنایات وتشبیهات وأخیلة - رغم قلتها وقربها من حقائقها - يدعو إلى
أن نهجر الشعر الجاهلى ونطرحه ظهرياً ؟ .

وأما أن الشعر الجاهلى لم يكن فناً (١) يستقل به الخبيريون به ، فهذا خطأ
بعيد . وهل نلسى رجال المعلقات ، والناطقة وحكومتها بين الشعراء فى سوق
سوق عكاظ ، وهؤلاء الشعراء الذين خلد ذكرهم على مر العصور ؟
واقدر كان الناشئ فى الجاهلية يقتلذ على شاعر مشهور يروى شعره ويأخذ
عنه فنه الأدبى ، وكان الشعراء يعرضون قصائدهم على غيرهم من الخبيريين
بفن الشعر وصناعتها ، واستمر هذا إلى ما بعد الإسلام . ثم إن هذه المجازات
والأخیلة هى من خصائص البيان العربى وبميزانه التى تنكسبه روعة وجمالاً .

إن من العقوق للعربية أن نذهب مذهب العقاد فى الغلو فيما
رمى به الشعر الجاهلى من التفكك وعدم اتساق الفكرة وارتباطها واتصال
معانيها ، وما أظن أن ذلك وإن كان موجوداً فيه عما يؤخذ عليه الشعر
الجاهلى إلى هذا الحد البعيد ، وفيه الفرق إذأ بين الأسلوب الفنى الجميل وبين
الأسلوب العلبى وحقائقه المنطقية المرتبة ، إن الشعر فن قبل أن
يكون فلسفة .

وأخيراً فللعقاد رأيه فى عدم اتخاذ الشعر الجاهلى مثلاً يحتذى ، ولقد
أخذ هو نفسه بذلك ، فلم يكن له حظ من الخلود فى الشعراء . أما نحن فنقول :

(١) إذا أردنا أن نسكت مزاعم العقاد المجدد برأى مجدد مثله هو د طه حسين ،
فلا أكثر من أن نسوق إليه قول طه حسين فى الأدب الجاهلى : وأما مضر فكان
لها فى الجاهلية شعراء يتخذون الشعر فناً يتلون به نهضة فنية عقلية فى هذا الإقليم
من جزيرة العرب (راجع ١٩٧ وما بعدها من الأدب الجاهلى .

إنه لاداعي لأن يملأ شعراؤنا المعاصرون شعرهم بألفاظ العققل والسججل والجنبدل والحنظل كما فعل امرؤ القيس مثلا ، ولا بالإثمء والبرجد والمسرهء كما فعل طرفة ، وليس من المناسب أن نترسم خطاهم فى بكاء الأضلال ووصف الدمن وذكركم حاسن الخيل وكلاب الصيد ، فلنأبدلنا بذلك كله - بحال فسيح لقول الشعر فى عصر الكهرباء والذرة والأثير والطائرات . أما فيما عدا ذلك من الألفاظ والأغراض فالشعر الجاهلى أروع ما يحتذى فى مذاهب النظم وجمال الصياغة وحسن الأداء .

ونشر أحمد أمين عدة مقالات فى الثقافة بعنوان « جنابة الشعر الجاهلى على الأدب العربى » ، تحامل فيها عليه ما شاء له الهوى . وقد رد عليه النجدى ناصف فى مقال عنوانه « هل جنى الشعر الجاهلى على الأدب العربى (١) » .

ويشك أنصار الجديد فى الأدب الجاهلى (٢) بدعوى أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء ، إنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، ففى تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ، وما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شىء ، والعصر الجاهلى القريب من الإسلام يمثل القرآن والأساطير (٣) . وعلى هذا لا يصح الاستشهاد بهذا الشعر المنحول فى تفسير القرآن بل بحجب العكس (٤) والشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يمثل حياة غامضة جافة بعيدة عن الدين ، ، القرآن يمثل لنا حياة دليية وعقلية قوية بما كان عليه المستذرون عليه من العرب ويمثل

(١) مجلة دار العلوم (ص ٢١ - ٤٠ - عدد اكتوبر ١٩٣٩) .

(٢) ٥٩ - ٦٤ الأدب للجاهلى لطفه حشيش

(٣) ٦٤ و ٦٥ المرجع و ٧٠ وما بعدها .

(٤) ٦٦ المرجع

لنا القرآن الكريم أيضا اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة كما يصور حياة العرب الاقتصادية (١) ، والأدب الجاهلي أيضا عندهم لا يمثل اللغة الجاهلية لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، والمأثور من شعر الشعراء القحطانية مروى باللغة العدنانية الفصحى مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام كما حدث بعد الإسلام ، مما يدل على انتقال هذا الشعر وسواء من فنون الأدب على هؤلاء القحطانيين ؛ ف هؤلاء المجددون ينكرون ما يضاف إلى أهل الجنوب من شعر ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الإسلام (٢) كما أن اختلاف اللهجات العدنانية أمر ثابت لا شك فيه ولا نجد أثرا لهذا الاختلاف في الشعر الجاهلي المأثور مما يدل على انتقال هذا الشعر وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام (٣) . ثم يحمل الدكتور طه في الأدب الجاهلي أسباب انتقال الشعر كما يزعم ويروى ، فيذكر البواعث السياسية والدينية وأثر القصص في الانتقال وأثر الشعورية والرواة فيه (٤) . ثم يذكر الشعر والشعراء ، ذاهبا إلى أن كثرة ما يضاف إلى الشعراء الجاهليين منحول ، وإلى رفض الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش ، وهجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا فالشعر الذي أضيف إلى جرهم وسواهم من الذين عاصروا اسماعيل منحول ، وليس لليمن في الجاهلية شعراء ، أما ربيعة - من عدنان وكانت تسكن في الشمال فشعرها دون شعر المضريين أما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنا ، فالشعر أصل في مضر دون اليمن أو ربيعة ؛ فنظرية تنقل الشعر في القبائل غير صحيحة ، فالشعر إنما كان في مضر ؛ ثم انتقل إلى أقرب القبائل العربية إليها وهم ربيعة ثم إلى القبائل البعيدة كاليمن ثم إلى الموالي وليس كما يقولون من أنه كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم إلى قيس من مضر ثم إلى تميم ، وشعراء المدينة لبسوا

(٢) راجع ٨١ - ٩٥ من المرجع

(٤) ١٢٢ - ١٨٦ المرجع

(١) ٧٠ - ٨١ المرجع

(٣) ٩٦ وما بعدها من المرجع

يمنيين بل هم مضربون (١)، ثم درس الدكتور من الشعراء : امرأ القيس فعبيد فعلقمة . ثم عمرو بن قتيبة فهلhel فخليلة . ثم عمرو بن كلثوم فالخارث ابن حلزة . ثم طرفة فالتملس . ثم الأعشى . . . وذلك على ضوء نظريته في انتحال الشعر (٢) . ثم علق على الشعر المضرى على ضوء هذه النظريات (٣) ووضع مقاييس لتمييز المنحول من الشعر الجاهلي (٤) ثم درس أوسا وزهير والحطيئة وكعب بن زهير والنابعة (٥) وبذلك ينتهى نقده للشعر الجاهلي . وترتكز آراء الدكتور في الشعر الجاهلي على أساس واحد هو انتحال الشعر الجاهلي مؤكدا هذا الانتحال بأدلة كثيرة : منها أن المأثور منه لا يمثل حياة الجاهليين الديلية أو العقلية ، ولا يصور اتصال العرب السياسى بغيرهم من الأمم المجاورة لهم ؛ فوق أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نفسها لاختلاف اللغة الحيرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، فالمأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروي باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر على القحطانيين ، فوق أن الشعر الجاهلي لا يصور اختلاف اللجات العدنانية المتعددة ، التى لا شك فى اختلافها ، ويشرح الدكتور أثر البواعث السياسية والديلية فى الانتحال ، وعمل القصاص والرواة ، ويبنى على ذلك كله رفضه الشعر المنسوب إلى شعراء اليمن ، لأن لليمنيين لغة تخاف قریش ، ولأن جيرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا ، وشعراء المدينة ليسوا عنده يمنيين بل مضربين . ويرى أنه ليس لليمن فى الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان ، وكانت تسكن فى الشمال ، فيرى الدكتور أن شعرها دون شعر المضربين ، لأنها لم تكن تتكلم لغة قریش ، ويتردد فى قبول الكثير منه ، وأما مضر فكان لها شعراء ، يتخفون

(١) راجع من ١٩٣ - ٢٠٨ من المرجع

(٢) ، ، ، ٢٠٩ - ٢٩٦ ، (٣) راجع من ٢٦٧ - ٢٨١

(٤) ، ، ، ٢٨٢ - ٢٩٥ (٥) ، ، ، ٢٩٦ - ٣٤٢

الشعر فنا ، وقد درس شعراء مضر دراسة نقد وتحليل ، كما درس غيرهم ، على ضوء نظريته في انتقال الشعر الجاهلي ، ووضع مقاييس لتمييز المنحول منه ، وجعل الشعر أصلاً في مضر ، ثم انتقل منها إلى ربيعة فاليمن فالموالي . وبذلك يعكس نظرية القدماء في انتقال الشعر الجاهلي بين القبائل . .

ولمناقشة هذه الآراء ، نعود إلى تلخيصها والرد على كل رأى منها ، إن الدكتور يذهب في الشعر الجاهلي إلى :

١ - أن هذا الشعر الجاهلي أو أكثره منحول بدليل .

(١) أنه لا يمثل الحياة الجاهلية .

(ب) و د د د اللغة د

(ج) د د د اللهجات العربية

٢ - وأنه لم يكن لليمن شعراء وما يروى من شعر للقبائلتين فأنما هو منحول عليهم

٣ - وأن أكثر شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى ربيعة منحول لأنه لا يمثل لهجاتهم التي كانوا يتكلمون بها ،

٤ - وأنه ليس صحيحاً أن الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم إلى قيس من مضر ثم إلى تميم بل إنما كان في مضر ثم امتد إلى ربيعة فاليمن ثم إلى الموالي (١) .

٥ - وأنه كان للرواة (٢) والقصاص والعوامل السياسية والدينية للمصبيات أثر في الانتقال .

ولما صودر كتاب « الشعر الجاهلي » أعاد الدكتور نشره باسم الأدب الجاهلي بعد أن حذف منه بعض فقرات كانت موصغة النقد ، وقد ألف في نقد هذا الكتاب عدة مؤلفات أهمها :

(١) راجع ٢٠٦ المرجع (٢) وراجع أصول نظرية طه حسين عن الشعر الجاهلي وروايته في كتاب مقدمة لدراسة بلاغة العرب لصنيف (ص ٥٠-٦٢)

- (١) الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعة المحامى وقد طبعه عام ١٩٢٦
(ب) النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
(ج) نقض كتاب الأدب الجاهلي للشيخ الخضر حسين
(د) نقد الأدب الجاهلي للخضري

(هـ) نقض مطاعن في القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة
ولا نجد بدا من التنويه بعناصر الرد على آراء الدكتور في كتابه في إيجاز
بالغ فنقول :

أولاً : أما قصة انتحال الشعر لجاهلي ونفي وجود شعراء يمينيين والذهاب
إلى عكس ما يراه الباحثون حول نظرية تنقل الشعر في القبائل فذلك لا يعتمد
على أكثر من الحدس ، ولا داعي للافاضة في نقده وتحليله (١) فقد سبق
الكلام فيه .

ثانياً : الشعر الجاهلي يمثل حياة الجاهليين ، ويرسم ألوان معيشتهم ، ويروي
عاداتهم ويتحدث عن أديانهم ويصف يثثهم ولون ثقافتهم . وهل هناك ريب
في أن الشعر الجاهلي يصف البيئة الجاهلية وصفاً دقيقاً : من حيوان ونبات
وأرض وجبال ووديان وقرى ومن جو ورياح وأمطار الخ ؟ . وهل هناك
شك في أنه سجل لتاريخهم وأخبارهم وأيامهم ، يقول : نيكلسون في كتابه
« تاريخ آداب اللغة العربية : » إن الأدب الجاهلي المنظوم منه والمنثور يمكننا
من تصوير حياة تلك الأيام الجاهلية تصويراً أقرب ما يكون من الدقة في
مظاهره الكبرى ، ويقول ثوريكس الألماني في كتابه عنثرة أحد شعراء
الجاهلية ، : لا نملك مصادر موثوقة قامنا لتدوين تاريخ تلك الغارات البدوية
سوى القصائد والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية ، وقال أيضاً : يمكن
تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها
فقد صور العرب أنفسهم في الشعر صورة منطقية على الحقيقة بدون تزويق

(١) راجع في ذلك ١٥٨ - ٢٧٣ من الشهاب الراصد ، وراجع آراء المستشرقين
الذين يؤيدون صحة الشعر الجاهلي في الشهاب الراصد (٢٩٩ - ٣٠٤)

ولا تشويه، وقال نولدكيه المستشرق الهولندى فى كتابه عن الشعر العربى القديم : إن عادات عرب الجاهلية وأحوالهم معلومة لنا بالدقة نقلا عن أشعارهم وفى الشعر الجاهلى ما يفتن القارىء من أوصاف الحياة والعادات فى البادية ،

ويقول لطفى جمعه فى كتابه الشهاب الراصد : يدل الشعر الجاهلى فى جملة على نفوس ناظمة وحياتهم ، ثم قال : والشعر الجاهلى أشد ما يكون اتصالا بحياة القوم وتاريخهم وأكثر ما يكون تمثيلا ووصفاً لبيئتهم بل أنا أصدق مثال لحياة العرب أنفسهم ، فأثر تلك البيئة الطبيعية والمحيط الاجتماعى ظاهر فى شعورهم بجانب بلاغتهم النادرة ، وهل هناك أكثر من الدلالة على الحياة الجاهلية أكثر من الشعر الجاهلى نفسه الذى هو ديوان العرب ومستودع تاريخهم ومرآة حياتهم وصناعاتهم وعاداتهم

والشعر الدينى الذى يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير مبثوث فى شتى الكتب ، وقد جمع منه الأستاذ لطفى جمعه الكثير (١) ، والذين يذهبون إلى ما يذهب إليه الدكتور طه حسين من أن الشعر الجاهلى خال من تصوير حياة الجاهليين الدينية كثيرون منهم مرجليوث (٢) . ويرى جورجى زيدان أن منظومات العرب الجاهليين فى الناحية الدينية قد ضاعت فى أثناء الأجيال لعدم تدوينها لاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التى كانت بينهم قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها لأنها وثنية والإسلام يحو ما قبله ، ويقول الأستاذ ادوار براندلش فى رده على مرجليوث فى مجلة الأدبيات الشرقية عام ١٩٢٦ : لاحظ العلماء أن الشعر الجاهلى قلما دل على شئ من دين العرب قبل الإسلام وقد ذكر بعضهم فى سبب ذلك أن

(١) راجع ص ٨٥ - ٩٢ من كتاب الشهاب الراصد .

(٢) يقول مرجليوث : قلما نعثر فى الأشعار الجاهلية على شئ يلقى بالدين

علماء المسلمين يرفضون من الشعر ما خالف دين الإسلام ، وهذا مما يثق
الإنسان بوقوعه ؛

وأما أن الشعر الجاهلي لا يدل على اتصال العرب بغيرهم من الأمم
كما يزعم الدكتور طه حسين فهذا خطأ في الرأي، ألا تسمع لعمر و بن كاثوم
يقول : د وكأس قد شربت ببلعبك ، : أو لا مريء القيس وهو يصف
رحلته إلى القسطنطينية حيث يقول :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لا حقان بقيصرا
وهل شعر النابغة لا يمثل اتصاله بملوك الحيرة وغسان أتم تمثيل؟ وعدى
ابن زيد واتصاله بديوان كسرى معروف ورحلات بني عبد مناف في البلاد
لتأمين طرق التجارة مشهورة ويقول الشاعر الجاهلي :
يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بأرض عبد مناف؟
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
ويقول الأعشى :
قد جبت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في المعجم تردادي وتسياري
ويقول :

وطوفت للبال آفاقه عمان نخمص فأوريشلم
أتيت النجاشي في داره وأرض النبط وأرض المعجم

ثالثا : الشعر الجاهلي ولهجات العرب (١) :

(١) يستدل الدكتور طه على اتصال الشعر الجاهلي بأنه لا يمثل اللغة
العربية ولهجاتها (٢) .

(١) راجع ص ١٠٠ - ١٥٩ من الشهاب الراسد

(٢) راجع رد الأستاذ لطفي جمعه على رأى الدكتور طه وهو أن الشعر الجاهلي
لا يمثل لهجات القبائل حيث أثبت الأستاذ لطفي عكس هذه النظرية بأدلة من الشعر
الجاهلي الذي يمثل لهجات القبائل المختلفة (١٥٤ - ١٥٧ الشهاب الراسد)

ويبدو من أفراد الدكتور كلية اللهجات مرة وعطفها على اللغة أخرى أنه لا يفرق بين اللغة واللهجة والفرق بينهما تنظيم، فاللهجة طريق أداء الكلام إلى السامع ويتمثل ذلك في التفعيم والترقيق والامالة وعدمها، لا يؤثر في ذات الحرف ولا يقتضى العدول عنه أو عن السكامة إلى غيرها فالجمله الواحدة نستطيع النطق بها بمختلفة الهيئة مع بقاء حروفها وكتابتها في كل صورة من صور النطق كما في تلاوة القرآن بالقراءات المتنوعة التي لم تختلف فيها الكلمات إلا بما قدمنا. وبعد ذكرنا لهذا الفرق نقول: إن اختلاف اللهجة لا يؤثر في وزن الشعر ولا في قوافيه، فشلا وقفا تبك الح، لا يحدث تفعيم الألف في قفا ولا إمالتها في ذكرى شيئاً في وزنه، ونحن لا نخالف الدكتور في أن العرب كانوا في الجاهلية مختلفي اللغات واللهجات، ولكننا لا نسلم بما استنبطه الدكتور من ذلك وهو أنه كان يجب أن نرى في الشعر اختلافاً بين المروى عن القحطانيين والعدنانيين، ذلك لأننا نؤمن مع إيماننا بهذا الاختلاف أنه كان بتقادم العهد واتصال العرب ورحلة أهل الجنوب إلى الشمال وقيام قریش بالسيادة على العرب، قبل ظهور الإسلام، والاشتغال بالتجارة بين الجنوب والشمال وقيام عكاظ، كل ذلك قرب من هذه اللغات واستطاعت قریش أن توجد لها لغة مختارة من شتى لغات العرب وقد ارتضاها الخطباء والشعراء لغة لهم في المحافل العامة، لأنها مختارة من شتى لغات القبائل فهي حيوية لهم مفهومة عندهم وهي لغة قریش ذات السيادة، أما اتصال القبائل الذي حاول الدكتور أن ينفيه بقوله « وثبت أن العرب كانوا متباذلين ليس بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللغات، هذا الاتصال ثابت بالتاريخ، فصلة المصاهرة كانت شائعة بين شتى القبائل يصهر القيسى إلى القرشى، والربعى والتميمي والعدناني إلى القحطاني، فزدير بن خزيمه العبسى سيد بنى عبس أصهر إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة، فقد زوجه ابنته المتجردة، وكانت صلوات الحلف تجمع بين القبائل العربية، كما كان بين أسد وعطمان وبين قریش وثقيف.

(ب) وما يذهب إليه الدكتور من اختلاف لغة حمير عن اللغة العدنانية
جد الاختلاف مبالغ فيه وردنا عليه هو أن :

١ - ما ذكره الدكتور من الأمثلة للغة الحميرية يدل على علاقة العدنانية
بالقحطانية وأن الأولى وليدة الثانية ، وأوجه الخلاف التي يمكن استنباطها
من هذه الآثار هجائية ، ونحوية وانحوية ، وهذه الأنواع من الخلاف لا تجعل
اللغتين متمايزتين كما استنبط الدكتور فإنه حاصل في اللغة الواحدة ، كما أنه
يسلم معنا بأن في اللغتين ألفاظاً متحدة في الصيغة والمعنى مثل أخ وأخت ونعمة
وحلف ووثن وغير ذلك ، ثم إن هذه الآثار لا يعلم تاريخ كتابتها ، وبعض
المؤرخين على أنها كتبت قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً .

٢ - لو سلمنا بوجود الخلاف الكبير بين اللغتين العدنانية والقحطانية
فلا يترتب على ذلك وجوب تمثيل القحطانية في شعر الشعراء القحطانيين
المروى شعرهم ، لأن القحطانيين قسمان : سبتيون وحميريون ، فالسبتيون
نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ومنهم الاعميون
ملوك الحيرة والغساسنة ملوك الشام والأوس والخزرج سكان المدينة وسواهم
أما حمير فهي التي كانت بأرضها في ظفار وصنعاء وما جاورها ، وهي التي قال
فيها أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن لساننا ولا عربيتهم
عربيتهنا » .

٣ - لا ننكر أن هناك اختلافاً بين لغات العرب إلى جانب اختلاف
لهجاتها ، ولكنه اختلاف لا يستوجب التباين الذي تصوره الدكتور ، وقد
عرف العلماء هذا الاختلاف ودونوه ، فمن ذلك الترادف مثلاً . وقد ذكرنا
سابقاً بعض وجوه الاختلاف بين اللهجات واللغات العربية فلاداعي لذكرها
هنا الآن .

ويقول المرحوم الأستاذ محمد عبيد المطلب في مقالة له نشرها في البلاغ
يرد فيها على الدكتور زكي مبارك في ذهابه إلى هذه النظرية الجديدة ، نظرية

اختلاف لغة أهل الجنوب عن لغة أهل الشمال : يعتمد الدكتور في تأييد رأيه على الأدلة الآتية :

أولا - كان القدماء من مؤرخي اللغة العربية يفهمون حق الفهم اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية في كثير من الألفاظ والتعابير وشواهد ذلك كثيرة . . ومن القدماء من صرح بأن لغة أهل اليمن غير أهل الحجاز ومن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء . وليت شعري أترجع الدكتور عن شيء من دعواه ؟ فشتان ما بين « اختلاف اللغتين اختلافا جوهريا » وبين أن « اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية في كثير من الألفاظ والتعابير » . ساق الدكتور هذه العبارة دليلا أولا على مدعاه فهي قائم الكتاب في الاستدلال وأنا أقول معه ومع المتقدمين نعم إن اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية مع بقاء الوحدة بينهما لأن هذا هو اختلاف الحروف واللهجات الذي أثبتته في أصل دعواه وهل هذا يسمى بالاختلاف الجوهري ؟ وإذا أخرج البرهان العقلي الذي استأثرت به المدرسة الجذرية في صورة القياس الآتي : بين لغة اليمن ولغة العدنانيين خلاف جوهري « أي في جوهر اللغة لا في أغراضها » - وأول دليل لذلك أن المتقدمين كانوا يفهمون حق الفهم أن اللغتين تختلفان في كثير من الألفاظ والتعابير . فاللغتين يقصد المؤرخون بما قالوا ؟ أم هي اللغة التي أثر عنها الأدب العربي الإسلامي ؟ أم هي اللغة التي كانت قبل هذا ولم يصلنا من أدبها شيء ؟ فإن الثاني فهو ممنوع . لأن لغتين لم يصلنا شيء منهما لا يمكن لباحث ولا مؤرخ يدعي الخلاف بينهما ، لأن وجود هذا الخلاف فرع عن وجود اللغتين والعقل يقول باتحاد اللغتين في هذه الأزمان لا باختلافهما . وإذا كان الأمر فإنه لا يجوز لعقل أن يحمل ما قالوه على ظاهره كما حملته المدرسة الجديدة أيحكم أبو عمرو وأمثاله بالتعابير بين اللغتين على المعنى الذي فهمه الدكتور واضرابه ، وهو يسمع شعراء مذحج وكندة وطيه والأزد حوله يقول ما يقولون . فهذا عبد يغوث المذحجي يقول :

الا لا تلوماني كفى اللوم ما ييا فسالكم في اللوم خير ولا ليا
وهذا الافوه الاودى المذحجى يقول أيضاً :
لا يصلح للناس فوضى لاسرافهم ولا سراة إذا جمهم سادوا
ويقول السكندى :
وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
ويقول عمه شرحبيل :
تعلم أن خير الناس طرا قتيل بين أحجار الكلاب
ويقول حاتم الطائي :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللثيم نكرما
وكذلك يسمع حسانا وابن الخطيم وابن رفاعة يقولون ما يقولون بما هو
معروف من شعرهم وهم أزدبون . وإذا فكلام أبي عمرو ومن قال به لا ينصرف
إلا إلى اختلاف اللامجتين لا إلى اختلاف اللغتين . وكأني بالدكتور ينكر
أن ما قدمت من الشعر لثو لا . اليمانيين عدنانى الديباجة .. إن اختلاف اللامجات
أمر طبيعى لا فى لغة العرب وحدها بل فى جميع اللغات حتى لقد يصل الخلاف
فيها إلى حد أن أحدهما لا يفهم الآخر .

ثانياً - يقول الدكتور زكى فى دليله الثانى ما نصه : إن النقوش التى
اكتشفت فى اليمن ودرسها المستشرقون تبين فى وضوح تام أن اللغة الحميرية
لغة مستقلة لا تتشابه مع اللغة العدنانية إلا فى طائفة من الألفاظ ، أما أصولها
من حيث النحو والتصريف وطرائق التعبير فتختلف عن اللغة العدنانية أشد
الاختلاف . إلى أن قال : « وتلك النقوش أوثق من الروايات الشفوية التى
يعتمد عليها بعض الناس . والاستهانة بهذه النقوش تعد جرأة عجيبة لأن
الأثر المنقوش أوثق من الأثر المكتوب فى عرف أهل التاريخ وما يلجأون
إليه من التشكيك فى قيمة النقوش لا يفهم فتبلاً لأن تلك النقوش إليها
المرجع حتماً فى درس أصول اللغات . » إن النقش أثر على الأحجار إن صبح

كان أوثق الأدلة كما يقول، وإنما يجب علينا الإيمان بالنقوش الحجرية إذا اجتمعت فيها الشروط الآتية :

- (١) أن يثبت باليقين أنها نقشت في الزمن الذي تتكلم بلغته ولم تصطنع اصطناعاً لأغراض سياسية أو اجتماعية أو نحو ذلك من الأغراض .
- (٢) أن تكون بأيدي أهل تلك اللغة صنعت وبلغتهم نقشت .
- (٣) أن تكون من السكثرة بحيث لا يحتمل الشك فيها .
- (٤) أى يعرض لها من الشبه ما يوجب الشك فيها . على فرض توفر الشروط السابقة .

إذا ثبتت هذه الاعتبارات للآثار النقشية ثبوت اليقين وجب المصير إلى ماتحكم به إذا ، لأنه يقين ، وإذا لم تثبت هذا الثبوت كان الحكم المبني عليها ظنياً أو مشكوكاً فيه فليست أولى من الرواية بشئ ، في إفادة العلم وكان بناء اليقين عليها بناء متصدعا أحشى أن ينهار على المدرسة الجديدة فيتهدع به بليانها .

فأما الشرط الأول فإن أحداً من الناس لا يستطيع الجزم به في تلك الآثار وفوق هذا فإن بين أيدينا ونحن بلاد الآثار ما يؤيد بقوة ، احتمال الصنعة في تلك النقوش .

ونحن نرى بأعيننا إلى أى حد وصلت صناعة التقليد في آثار المصريين من الاجمال ، الجمارين ، والدمى وغيرهما ثم لينظر كيف أحكم عليها نقش الهيروغليفية . فهل لدى الدكتور دليل واحد يمنع أن أجوز هذا التقليد فيما ذكر هو من الآثار . ولعل الدكتور يعلم ولا ينكر هذا العلم إن بعض أهل العلم بالآثار يصطنعون بعض هذه الأحجار لبعض الأسباب ، كما افترض حضرته أن بعض الرواة قد اصطنعوا بعض الأخبار لبعض الأسباب ، أتحدأك يادكتور .

وأما عن الشرط الثاني فهل يستطيع الدكتور أن يدلنا على من كتب

النقوش التي يستند اليها ويعتمد حتما عليها ؟ أكان من الحيريين أهل اللغة الحيرية أم هو من غيرهم من الأمم المجاورة لهم من أمم الآثار كالمصريين ، مثلاً أو الكلدانيين . وهل يمكنه أن يثبت لي من طريق آخر ليزيل هذا الشك من نفسي أن لغة هذا النقش حيرية ، أو لا بد لي أن أؤمن بأنها حيرية ولو لم يدل عليها دليل . إن أمرني الدكتور بهذا الإيمان فعلت حتى أخرج في نظره من هذه الجرأة العجيبة ، ولكن هل يقبل العقل « وهو الذي يحكمه » ، هذا الإيمان ؟

وأما عن الشرط الثالث فهل يداني أخى الدكتور على عدد من أحجار هذه النقوش بمعنى بكثرته واختلاف صانعيه وأمكنته عن الشك فيه ؟ فيكون ذلك عند المدرسة القديمة بمثابة الخبر الذي تتمدد فيه الروايات ؟ إنا قلنا إن بضعة الأحجار التي في طلل من الأطلال بعد ما قدمت له تفيد القطع باليقين ، فأنا السميع بذاتي دون عقلي لأن حكمه يقضى على بالأأوقن وقد أمرني أخى باليقين وهو الذي يعرف وحده كيف يحكم العقول .

وأما عن الشرط الرابع فإن أسأله - وعمدى به ألا يغالط أو ينكر العلم - ألم يسمع بأن بعض المشتغلين بالآثار من المستشرقين اصطنع بعض هذه الأحجار لبعض الأسباب كما سمع أن بعض الشعراء من الرواة كان يصنع بعض الشعر ويدسه على المتقدمين لسبب من الأسباب أيضاً ؟ وهل هو لم يسمع أن بعض الملوك في أكبر أمة أثرية « مصر القديمة » محاسب وأثبت في الآثار ؟ وهل يحمل الدكتور أن من هؤلاء الملوك رمسيس ؟

أما ما أورده الدكتور من الدلائل اثالث الذي يقول فيه : « طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغة واحدة في جميع أرجاء الجزيرة قبل الإسلام » . فإننا نقض دليله هذا على الخط المستقيم فأقول إن طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغات مختلفة ذلك الاختلاف الجوهرى الذى يشير إليه .
(٢٦)

طبيعة الأرض واحدة وبيئاتها متشابهة تشابه كلياً ومؤثرات الاجتماع والطبيعة واحدة والحكومة في أكثر الأحيان واحدة واللغة الأصا واحدة والأمة في عزلة تامة عن سواها، فمن أين يجيء الاختلاف في غدا اللامجات ؟

- ١١ -

ويقول الدكتور طه حسين في كتابه « الشعر الجاهلي » : « يقول القدماء إن أبناء إسماعيل تعلموا العربية من القحطانيين فسموا المستعربة كما سم الأولون العاربة .. ثم تساءل كيف يحصل هذا التمايز العظيم بين اللغتين الذ اثبتته الآثار المكشوفة بأيدي المستشرقين ؟ ثم قال : فواضح جداً لمن إلمام بالبحث التاريخي عامة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذا النظرية متكافئة ومضطربة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة ديدنية اقتصادية أو سياسية .. ثم رأى أن قصة إسماعيل وورودها في الكتب الديا لا يكفي لإثبات صحتها التاريخية ، قال : نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القه نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية من جهة والقرآن والتوراة من جهة أخرى وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهو يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويننون فيه المستعمرات فنحن نعلم أن حروباً عنيفة نشبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد ، فليس يبعد أن يكون هذا الصالح الذي تم به المستعمرين وبين العرب أصحاب البلاد ملشاً هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء عم لاسيما وقد رأوا أولئك هؤلاء أن بين الفريقين شيئاً التشابه غير قليل فأولئك هؤلاء ساميون ، ولكن الشيء الذي لا شك في هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة بينه وبين وثنية العرب غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة بين الدين الجديد والديانتين القديمتين ديانة النصارى واليهود ، »

، أما الصلة الدينية فثابتة واضحة بين القرآن والتوراة والإنجيل ، اشتراك في الموضوع والصورة والغرض ، كلها ترمى إلى التوحيد ، ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تقيدها صلة أخرى مادية ملموسة ، فإلا الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟ وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت إلى حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنوي على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية وكان مصدر هذه النهضة أسواق التجارة والدين : فأما التجارة فنحن نعلم أن قريشا كانت تسافر إلى الشام و مصر وبلاد الفرس واليمن والحبشة ، وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع قريش حولها ويحج العرب إليها كل عام والتي أخذت تبسط سلطانها على نفوس هؤلاء العرب نوعا من السلطان قويا والتي أخذ هؤلاء العرب المشتركون يجعلونها رمزا لدين قوي كأنه كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهودية والمسيحية من ناحية أخرى ، .

وهذا الرأي لا يدعمه الدليل اللهم إلا : ليس ما يمنع ، و ليس بعيد ، و أسر هذه القصة واضح ، . على أن هذه الآراء هي من صنع المستشرقين ووليدة شكوكهم ، وهي تهدم من حيث لا مبرر للهدم ولا نجد ما نقوله له إلا أن نقول إن الدين في هذا الموضوع لم يعدم بالعلم وإنما اصطدم بالهوى والهوى لا يثبت أن ينكسر عند أول صدمة على أن السبب الذي ذكره الدكتور لوضع اليهود الحديث واه لا يصلح أساساً لأنه إذا صح إنما يثبت القرابة بين الاسماعيلية وبينهم من العدنانيين وبين اليهود ، وأما العرب الذين أغار عليهم اليهود ثم صالحوهم فهم عرب يثرب وهم من القحطانيين لأنهم من غسان إحدى قبائل الأزد فالحديث لا يؤدي إلى المطلوب الذي يريده الدكتور والدكتور يتبع في ذلك رأى الدكتور مرجليوث فقد قال في مقالته : ذيل مقالة الإسلام ، : وحقيقة الأمر في قصة إسماعيل أنها

دسيسة لفقها قدما، اليهود تزلقا إلى العرب وتذرعا منهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة في بلاد العرب ، . ونقول كان يكفي وجود القصة في القرآن ليؤمن بها الباحث والناقد جميعاً .

الحكومة الأدبية

بين قصيدتي علقمة وامرى القيس

- ١ -

علقمة بن عبدة التميمي شاعر جاهلي مشهور ، عاصر امرأ القيس زعيم الشعراء الجاهليين ، وتوفي عام ٥٦١ م ، بعد وفاة امرى القيس بسنة واحدة ، ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حتماً كل هذا انتجنب
ومطلع قصيدة امرى القيس :

خابلي مرا بي على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد الملعوب

والموازاة الأدبية بين القصيدتين بمعناها الصحيح معدومة في القديم والحديث . قالوا : إن علقمة ضاف امرأ القيس وكان صديقاً له ، فذاكرا القريض ، وادعاه كل منهما على صاحبه ، ولجا في ذلك ؛ فقالت لهما أم جندب ، زوج امرى القيس : قولاً شعراً تصفان فيه الخيل ، وتذكران الصيد ، وعلى قافية واحدة وروي واحد (١) ، ، لأنظر أيكما أشعر ، فرضياً بحكمها ، وأنشداها على البديهة قصيدتين كبيرتين بائيتين ، سبق ذكر مطلعهما ولما فرغا من إنشادهما قالت أم جندب لبعها : علقمة

(١) هذا كلام صاحب الشعر والشعراء . (ص ٥٨) ، وقد يكون ذلك من زيادة الرواء .

أشعر منك ، فقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : وكيف ذاك ؟ قالت :
لأنك قلت :

فلسوط ألحوب وللساق درة وللزجر منه وقع أهوج منعج
فزجرت فرسك ، وجهده بسوطك ، ومربته بسافك . وقال علقمة :
فأدر كهن ثانيا من عنانه يمر كمر الريح المتحلب
فأدرك الطريدة وهو ثان من عنان فرسه ، لم يضربه بسوط ، ولا مرأه
بساق ، ولا زجره . فتردد وجهه ، وقال لها : ما هو بأشعر مني ولكنك له
وامق ، وطلعتها خلفه عليها علقمة .

وقد ذكر هذه الرواية ابن قتيبة (١) ، وأبو الفرج (٢) ، وصاحب
الموشح (٣) ، مع بعض تغيير فيها ؛ ويزيد المرزباني على هذه القصة رواية
أخرى عن أبي عمرو الشيباني يقول فيها (٤) . تزوج امرؤ القيس امرأة من
طىء ، وكان مفركا ، فلما كان ليلة ابنتى بها أبغضته ، فجعلت تقول :
« أصبح ليل ، يا خير العتيان أصبحت أصبحت » ، فينظر فيرى الليل
كهيئته ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ، فنزل به علقمة ، وكان من فحول
شعراء الجاهلية وكان صديقا له ، فقال أحدهما لصاحبه أينما أشعر ؟ فقال
هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، فتلاحيا ، حتى قال امرؤ القيس : أنعت ناقك
وفرسك وأنعت ناقى وفرسى ، قال : فافعل ، والحكم بينى وبينك
هذه المرأة من ورائك ، فقال امرؤ القيس : « خليلي مرأى على أم جندب » ،
وقال علقمة : « ذهبت من الهجران فى غير مذهب » ؛ فلما فرغا من
قصيدتيهما عرضاها على الطائية امرأة امرئ القيس ، فقالت . فرس ابن
عبدة أجود من فرسك ؛ قال لها : وكيف ؟ قالت : إنك زجرت
فرسك وحركت ساقيك وضربت بسوطك . تعنى قوله :

(١) ٥٨ الشعر والشعراء (٢) الأغاني ج ٨ ص ١٢٨ .

(٣) ٢٨ الموشح للمرزباني (٤) ٢٩ المرجع .

فلان جر الهوب والساق درة والسوط منه . وقع أخرج مذهب (١)

وإن علقمة جاهر الصيد فقال :

إذا ما اقتصنا لم نقده بجنة ولكن ننادى من بعيد ألا اركبي
هذه هي حكومة أم جندب الأدبية بين الشعارين ، في كثير من رواياتها
التي تختلف قليلا وتتفق كثيراً ، والتي لا تخرج عن أن أم جندب فضلت
قصيدة علقمة على قصيدة امرئ القيس .

ويرتاب بعض الباحثين في صحة هذه الحكومة ويرى جورها ويقول :
ولعل ذلك بما حمل ابن المعتز على أن ينسكح هذه القصيدة فيما أنسكح من شعر
امرئ القيس (٢) .

وذلك هو رأى الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي الذي رأى أن
هذه القصة منتحلة (٣) . وقد وقف الباحثون حيال هذه الحكومة الأدبية

(١) الهوب : ألهم جريه حين زجره . درة . أى إذا غمر در بالجرى . الأخرج :
الظلم وهو ذكر الثعام والأثني خرجاء في حال لونه وهو سواد وبياض لون لرماد
والأخرج الرماد . مذهب : مسرع في عدوه .

(٢) ٢١ و ٢٢ تاريخ النقد الأدبي عند العرب للرحوم الأستاذ طه إبراهيم
وقد أخطأ هذا الباحث فيما زعمه من أن ابن المعتز أنكر قصيدة امرئ القيس ، ذلك
أنه يعتمد في ذلك على المرزباني في الموشح : ونص كلام المرزباني هو : قال المرزباني
بعد ذكره للحكومة أم جندب : « وقد روى هذا الحديث أيضا هشام بن الكلبي
ورواه أيضا ابن المعتز وذكره فيما أنسكح من شعر امرئ القيس ، (ص ٣٠
الموشح) وكلمة أنكره هنا بمعنى نقده وغايه لا بمعنى إنكار القصيدة ودنوى أنها منتحلة
ذلك اصطلاح عند صاحب الموشح يفهم من قراءة الكتاب ، وهب أن الأمر كما
يقول هذا الباحث فكلام المرزباني يجوز أن يحمل على إنكار أبيات من القصيدة
لا على إنكارها كلها .

(٣) راجع الأدب الجاهلي ٢٢٠ - ٢٢٥ .

موقفين متعارضين : فريق يؤيد أم جندب في رأيها ، وفريق آخر يرى جور
حكومتها الأدبية ؛ ومن الفريق الأخير الرافعي الذي عرض لحكومة
أم جندب وبين حيفها ، وفضل قصيدة امرئ القيس على قصيدة علقمة ،
وأيد ذلك ببعض الآراء والحجج الأدبية (١) .

يقول الرافعي : وقصيدة علقمة بحملتها ليست بشيء ؛ لأن كل ما فيها من
الآلغاز البارعة ، والمعاني الحسنة ، مأخوذ من قصيدة امرئ القيس ، حتى
ليأخذ البيت برمته ، والشطر بحاله ، ومع ذلك فقد أبر عليه امرؤ القيس
في الصنعة وما أدرى كيف هذا ، فلولا أن الزواة يجمعون على أن قصيدة
علقمة بمصح لقلت إنها مصنوعة ، وإن صح خبر هذه المنازعة فيكون ذلك
هو السبب في تعنف امرئ القيس على الشعراء وإدلاله بشعره (٢) .
وقال : وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارس من بعلمها ،
فقرعت أنفه على حية ونخوة ، وهي تعلم أنها لا بد مسرحة في زمام هذه
الكلمة ؛ وإلا فالبيت الذي توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل ، لأن
في قصيدة امرئ القيس ما هو أبلغ في هذه الصنعة من بيت علقمة ،
وهو قوله :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول هزير الريح موت بأنايب (٣)
ومن تدبر صنعة امرئ القيس للخيال في شعره وجد السوط لا يمارقه
فلعلها كانت عادته (٤) ويقول : وما رأيت أحداً من أهل النقد وازن

(١) ٢٢٥ - ٢٣٤ : ٣ آداب العرب للرافعي طبعة ١٩٤٠ .

(٢) ص ٢٢٧ : ٣ تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي طبعة ١٩٤٠ .

(٣) يقول الرافعي : ليس بين الناس اختلاف في أن أمراً القيس أول من
ابتكر هذا المعنى : فبالغ في صفة الفرس وجعله على هذه الصفة ، بعد أن يجرى
شأوين ، وابتل عطفه بالعرق ، ثم زاد إبعالا في صفة بذكر الأنايب وهو شجر
الريح في أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت (٢٢١ : ٣ المرجع) .

(٤) ص ٢٢٧ : ٢ المرجع

بين القصصيتين ، بل كلهم متبعون كلمة هذه المرأة ؛ وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرئ القيس ، وامرئ القيس يقول في قصيدته :

ولأنك لم يفخر عليك كفخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلوب (١)

والطريف أن الرافعي لم يوازن بين القصصيتين موازنة أدبية ، وإنما اكتفى بعد ذلك بأن ذكر القصصيتين كاملتين دون تعليق . وعلى رأى الرافعي سار الأستاذ هاشم عطية في كتاب « الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي (٢) » ، قال بعد أن عرض أبحاثاً كثيرة من القصصيتين : « والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفركاً تكرمه النساء ، وأن هذه المرأة كانت تكرمه ، وكانت ضلوعها مع علقمة (٣) ، يدركون في سهولة أنها جارت في حكمها على امرئ القيس ، لأن الذي قصد من ذكر السوط والساق والزجر — وإن كان فيه شيء من الهجنة — إنما هو التلميح على مبلغ عنايته بريضة فرسه وتأديبه ، وأن عنده أفانين من الجرى ، فيعطى راكمه من كل حالة ما يشبهها من العدو (٤) » ، على أنه مع ذلك قال : « فأدرك لم يجهد ، وهو يدل على ما يدل عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريدته ، وهو لا يزال كما هو لم يتعب ولم يثن شأوه ، أى لم يعد الشوط بل أدرك من أول حضر (٥) » .

- ٢ -

ونحن هنا في أول موازنتنا الأدبية بين القصصيتين لا يصح أن نحكم في هذه الموازنة أى باعث غير البواعث الأدبية في الحكومة بين

(١) ٢٢٦ : ٣ المرجع (٢) ص ١٨٤ .

(٣) هذه الأسباب الأولى في تحليل جور حكومة أم جندب الأدبية . مضحكة

لغاية (٤) وهذه أيضاً حجة أدبية رائعة مثل ما سبقها .

(٥) ص ١٨٤ الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي .

القصيدتين نفسيهما ، فلا يصح أن نفضل امرأ القيس لأنه زعيم الشعراء
الجاهليين ، فنحن نعلم أن لعلمة أيضاً شاعر فحل وإن كان لا يصل إلى منزلة
امرىء القيس في زعامة الشعر الجاهلي ؛ قال له ربيعة بن حذار الأسدي
الشاعر الجاهلي : « شعرك كزادة قد أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء » ،
يريد أن شعره يثبت على النقد ولا يطرح منه شيء ، وقال ابن سلام :
لعلمة ثلاث روائع جياذ لا يفوقهن شعر :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب
والثانية : طحا بك قلبك في الحسان طروب .
والثالثة : هل ما علمت وما استودعت مكتوم (١) .

ولعلمة معان جيدة ، واشتهر بوصف النعام بما أشاد به ابن الأعرابي ،
ولكنه على أى حال لا يصل إلى منزلة امرىء القيس ، فقد وضعه ابن سلام
الناقد الكبير في الطبقة الرابعة مع عدى وعبيد وطرفة (٢) ، ووضع امرأ
القيس في الطبقة الأولى . فاختلاف منزلة الشاعرين الأدبية وما تلقيه في
روعنا زعامة امرىء القيس للشعر الجاهلي من أثر عميق باطى ، كل ذلك لا يصح
تحكيمه في الموازنة بأى حال ، إنما يجب أن نهج منهجاً عادلاً فيما نتناول به
القصيدتين من أحكام .

أما قصيدة امرىء القيس فقد بدأها بالغزل العذب الجميل ، وفن امرىء
القيس في الغزل محبب إلى النفوس مستوفى البلاغة ، قريب من القلب والروح ،
يقول فيما يقول :

خليلي مرا بى على أم جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذب
ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب
فإن تنأ عنها حقبة لاتلاقها فإنك بما أحدثت بالبحر

(١) ص ٥٠ طبقات الشعراء لابن سلام .

(٢) ص ٤٩ المرجع .

فلا عيأ من رأى من تفرق أشت وأناى من فراق المحصب (١)
 فربقان : منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب (٢)
 فعيانك غرباً جدول فى مفاضة كمر الخليج فى صفيح المصوب (٣)
 فتجد عذوبة فى جزالة ، وقرة عاطمة فى أسلوب عال من الشعر .
 ثم انتقل إلى وصف الدوية التى جابها على ناقته فى أسلوب رائع تمتع
 بليخ فقال :

ودوية لا يهتدى لفلاتها يعرفان أعلام ولاضوء كوكب (٤)
 تلافيتها والبوم يدعوبها الهدى وقد ألست أطرافها ثنى غيب (٥)
 ثم ألم بنافته وشبهها بالحمار الوحشى ووصفه فقال فيما قال من وصفه :
 يغرد بالأسحار فى كل سدفة تغرد مياح الندامى المطرب (٦)
 ثم انتقل إلى وصف فرسه ، فأجاد الوصف ؛ وأمتع فى الأسلوب ؛
 وامرؤ القيس أوصف الناس للخيال ، فلا غرو أن يحمى هذا الوصف جيلا
 بمتعاً قويا على غرابة فيه ، ومن قوله فيه :
 له أيطلا ظي وساقا نعامة وصهوة غير قائم فوق مرقب (٧)

(١) أشت : أكثر تفرقا أناى : أبعد . المحصب : المكان الذى ترمى فيه الجمال بمنى
 (٢) جازع : قاطع بطن نخلة : موضع . نجد كبكب : جبل يستديره الواقفون
 بعرفات (٣) الغرب : الدوا العظيم . الجدول : النهر . المفاضة : الأرض الواسعة
 الخليج : الماء المتخلىج وهو الذى تعترضه العقبات فى سيره فيتياسر مرة ويتيا من
 أخرى الصفيح : العريض من الحجارة . المصوب : المنحدر .
 (٤) الدوية : الغلاة التى لا يهتدى فيها بعلامة أو ضوء كوكب .
 (٥) تلافيتها : قطعها . الغيب : الليل الخالك .
 (٦) يغرد : يطرب بصوته السدفة : القطعة من الليل . المياح . الميأس .
 (٧) الايطال : الخاصرة الصهوة : الظهر . العير : حمار الوحش قائم : منتصب
 المرقب : المكان المرتفع .

كثير سواد اللحم مادام بادنا وفي الضمر: شوق القوائم شوذب (١)
وصف امرؤ القيس خلقه وصفاً دقيقاً ، ثم وصف قوته وسرعة عدوه ،
فقال فيما قال :

إذا ماجرى شأوين وابتل عطفه نقول : هزير الريح مرت بأناب (٢)
إذا ماركننا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتي الصيد نخطب (٣)
ثم انتقل إلى وصف الصيد ، وهو فن من فنون شعر امرؤ القيس
الجيدة العالية ، فذكر خروجه للصيد حول ثعالة ، ورؤيته لقطيع كبير من
الصيد ، وامتطاه متن فرسه ، وحمله غلامه خلفه ، وعدوه الشديد بهما على
آثاره ، وذكر أنه لم يمهل مع ذلك هذا الفرس ، بل ألح عليه يجهده ،
ويستحثه بساقه وسوطه وبزجره له ، حتى أدرك القطيع ، قال فيما قال :

فلمساق الهوب وللسوط درة وللازجر منه وقع أهوج منعب (٤)
فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يركن خذوف الوليد المتعب (٥)
وذكر معركة الصيد وفيثته إلى بيت مشيد ، وجلسه فيه هو وأصحابه
في يوم جميل تمتع :

فظل لنا يوم لذيد بنعمة فقل في مقيل نحسه متغيب (٦)

-
- (١) البادن : السمين . المشوق : حسن القوام . الشوذب : الطويل الجسم
للخلق المنسجم (٢) شأوين : شوطين . ابتل عطفه : سال عرقه على جانبيه .
هزير الريح : صوتها . أناب : اسم شجر .
(٣) نخطب : نجمع الخطب للطبخ والشواء .
(٤) الالهوب : الجرى الشديد ، الدرة الدفعة . الزجر : النهر . الاهوج : اللاحق
المتعب : الذي يصاح عليه وبهذا البيت حكمت أم جندب على امرؤ
القيس بالتقصير وفضات علقمة عليه .
(٥) الخذوف : لعبة للأطفال .
(٦) يريد أنه كان ذلك اليوم من أيام السعادة التي غاب عنها النحس

يتمتعون فيه بأكل الشواء المصنوب (١) .
ثم ذكر رجوعه على فرسه إلى منزله ، وفرسه محبب إلى الأصحاب
غير ملعن :

حبيب إلى الأصحاب غير ملعن يفدونه بالأمهات وبالأب
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مخضب (٢)
وتلتهى هذه القصيدة الرائعة القوية الخصبة الخيال ، البليغة الأسلوب ،
الكثيرة المعاني ، المشبوبة العاطفة والشعور ، الطويلة حتى لتبلغ أيمانها
خمس وستين بيتاً .

أما قصيدة علقمة فعدد أيمانها خمسة وأربعون بيتاً بدأها بالغزل كما بدأ
امرؤ القيس قصيدته ، فقال :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب
ليألى لا تبلى نصيحة بيننا ليألى حلوا بالستار فقرب (٣)
مبتلة كأن أضاء حليها على شادن من صاحبة متربب (٤)
وبعد أن تحدث عن ماضى حبه لها ، ذكر الحاضر المولم الذى تقطعت
فيه أسباب المودة والحب ، فقال فيما قال :
إذا ألجم الواشون للشر بيننا تبلى رس الحب غير المكذب (٥)

-
- (١) أى الذى لم ينضج تماماً (٢) الهاديات : أوائل الوحش
(٣) الستار جبل بعالية الججاز . غرب : موضع تلقاءه .
(٤) مبتلة : الحسنة الخلقة وتقسيم الاعضاء ، أو الضامرة المكشع الانضاء
جمع نضو : الهزيل : الحلى ، والحلى : ما تزين به المرأة ، الشادن : ولد الغزال .
اصاحة : موضع . متربب : مربى فى البيوت . شبه جيدها وما عليه من الحلى بجيد
هذا الشادن الذى تربيته الجوارى وتزينه بالحلى .
(٥) ألجم : أدخل للشر اللام رائدة . الرس : الثابت الراسخ . المكذب :
الزائل المتقطع

أطعت الوشاة والمشاة بصرمها فقد أنهجت حبالها للنقض (١)
ويذكر وعدمه له ، ودلالها الشديد ، ورجوع المودة والصلة من جديد ،
ثم يقول :

فحشنا بها من الشباب ملاوة فأنجح آيات الرسول المخيب (٢)
ثم يذكر تسليه بالأسعار على ظهر ناقته :
فإيك لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أو رواح مؤوب
ثم ينتقل إلى وصف الناقة ، فيجيد وصفها في خمسة أبيات جميلة قوية
بليغة الأسلوب ، فيقول فيما يقول في وصف عينها :
بعين كمرآة الصناعات تديرها لمحجرها من النصيف المثقب (٣)
وفي وصف ذيلها :

تذب به طورا وطورا تمره كذب البشير بالرداء المهدب (٤)
ثم ينتقل إلى وصف الفرس فيجيد إجادة عالية ، قال فيها قال :
وقد أغندى والطير في وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذنب (٥)
بمنجرد قيد الأوابد لآحه طراد الهوى كل شار مغرب (٦)

(١) الصرم : المجر . أنهجت حبالها للنقض : ضعفت العلاقة بيني وبينها
وكادت أن تنقطع ، والنقض : التقطع .
(٢) ملاوة : دهر أطويلا . عشنا بها : أى نعمنا بوصولها . آيات : علامات
غيب معلم الخب وهو الخداع أو من الخيب يريد المشى بين الحبيبين والخيب نوع
من السير ، يريد الرسول المفسد .
(٣) أى بعين صافية صفاء مرآة الصناعات وهى المرأة الحاذقة العمل . المحجر :
ماحول المين . النصيف : الحمار . المثقب : ذو الثقوب
(٤) تذب : تدفع الذباب : المهدب : ذو الأهداب .
(٥) أغندى : أخرج في الغدو . ركناتها : أعشاشها . المذنب : مسيل الماء إلى
الرياض . (٦) منجرد : قصير الشعر . الأوابد : بقر الوحش . لآحه : أهزله

وينسف أذنيه فيقول .

له حرتان تعرف العتق فيهما كسامعتي مذعورة وسط ررب
وهكذا يصعبه علقمة وصفا دقيقا ؛ ثم انتقل إلى الصيد فقال في أسلو

بمتع وتصوير خصب وخيال جميل :

رأينا شياعا برعين نخيلة كمشى العذارى في املاء المهذب
فبينما ثماريا وعقد عذاره خرجن علينا كالجمان المثقوب
فأدركهم ثانياً من عنانه يمر كمر الراح المتحلب
وهذا البيت الأخير من أسباب حكومة أم جندب الأدبية اتى فضا
فيها علقمة على امرىء القيس ؛ إلى أن قال :

فعمادى عدا بين ثور ونعجة وتيس شبوب كلشيمة قرهب
ثم يذكر عودته إلى خباته المطلب المضروب :
فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص نخبوا علينا فضل برد مطلب
(١)

الطراد : المطاردة ، الهوادي : أوائل الوحش ، الشاو : الشوط ، المغرب : البحر
(١) الحرثان : الأذنان جعلهما حرتين للطافتها واتصافهما ، السامعتان
الأذنان ، المذعورة : المفزعة يريد بقرة الوحش ذعرت فتصهت أذنيها وحددت
الررب جماعة بقر الوحش .

(٢) الشياخ : النعاج الوحشية . الخيلة : الأرض السكيرة النبات والشجر
المهذب ذر المهذب . (٣) الثمارى : التجادل والتشكك . عقد عذاره : أى إلجا
الحبل . الجمان حب يصنع من فضة على هيئة العقد أى خرجت متتابعة منتظمة كالجمان
المنظوم . (٤) ثنى عنان فرسه : جذبه نحوه الراح السحاب ، المتحلب : المتساقط
المتتابع (٥) فعمادى عدا : جرى أشواطاً متتالية ، التيس : الذكور من الظب
الشبوب الفوى ، المشيمة : الشجرة البالية وشبهه بها فى حالة صيده وسطة وطاصريه
على الأرض كالشجرة التى تقع وهى بالية .

(٦) نخبوا : أى فضربوا علينا خياما ، البرد : كل ثوب موشى ، المطلب
المشدد بالاطناب وهى حبال الخيمة

وتمنعهم بالأكل من الصيد ورميهم لعيون الصيد حول الخباء .
 كأن عيون الوحش حول خيانتنا وأرحلها الجزع الذى لم يثقب (١)
 ثم يذكر عودته من رحلة الصيد على فرسه الذى سار في نشاط وحدة
 يسابق النوق وتسابقه ؛ ويشبهه بالحياة المسابقة :
 وراح يبارى في الجنباب قلوصلنا عزيزا علينا كالجنباب المسبب (٢)
 وبذلك تنتهى هذه القصيدة .

- ٣ -

ومن ذلك العرض المريع نرى أن القصيدتين :

١ - وتشابهاً في الوزن والقافية .

ب - وفي الموضوع أيضاً ، فبكنا القصيدتين مبدوءة بالغزل ،
 ووصف كل من الشعاعين في كليهما الناقة والفرس ورحلة الصيد ونزوله
 في الخباء المضروب للراحة وتناول الطعام ، وعودته من هذه الرحلة الجميلة
 المبتعة ، ويزيد امرؤ القيس بوصف المرقبة (٢) بيتين والدوية (٤) في بيتين
 آخرين بعد الغزل مباشرة .

ج - وتشابه القصيدتان أيضاً في الخيال والروح ، وفي هذا الارتجال
 الغنى والهدية الحاضرة الذين تفيض في ذكرهما الروايات المختلفة .

د - وتشابهاً فوق ذلك في كثير من المعاني وأساليب الشعر :

١ - قال امرؤ القيس في الفرس :

حبيب إلى الأصحاب غير ملعن يفدونه بالأمهات وبالألب

(١) الجرع : خرز فيه بياض وسواد

(٢) يبارى : يسابق . الجنباب : مصدر جانبه بجانب إذ صار إلى جنبه ، الفلصر

الناقة الشابة القوية ، الجنباب : الحية . المسبب : المنسابة

(٣) هي المكان المرتفع الذى يقف عليه الديدبان ليرقب العدو

(٤) الدوية : الفلاة الواسعة

وقال علقمة :

أخا ثقة لا يلعن الحى شخصه صبوراً على العلات غير مسبب
فذكر امرؤ القيس أنه غير ملعن ، وفصل علقمة فقال : الحى ،
وشخصه ، ثم عاد فأجل فقال : « غير مسبب » أى غير ملعن ؛ وزاد
امرؤ القيس بقوله : « يقدونه بالأمهات وبالأب » ؛ وزاد علقمة بقوله :
« أخا ثقة » أى يوثق به وبنجابته وأصالته وقوته ومروءة عدوه عند
المطالب ؛ وبقوله « صبوراً على العلات » أى على مختلف الحالات أو على
ما يلزمه من تعب وإفناء .

٢ - وقال امرؤ القيس فى الفرس أيضا :

فكان تنادينا وعقد عذاره وقال صحابي : قد سأرك فاطلب
وقال علقمة :

فبينما تمارينا وعقد عذاره نخرجن عاينا كالجمان المنقب
يقول امرؤ القيس : أبصرنا قطيع الوحش فنأدى بعضنا بعضاً وأجمت
الفرس ، فسبق الصيد ، وقال أصحابي : قد سبقك القطيع فاطلبه . . ويقول
علقمة : أخذنا فى الجمال والكلام والشك وأنا أجم فرسى وإذا نعايج
الوحش تخرج علينا متتابعة منتظمة كالجمان المنظوم ، فلم يذكر علقمة أن
الصيد قد هرب منه ، ولا أن أصحابه قالوا له شيئاً ، وزاد بهذا التشبيه الرائع
« الجمال المنقب » زيادة رائعة .

٣ - وقال امرؤ القيس فى الفرس :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كخندوف الوليد المنقب
وقال علقمة :

فأدركن ثانيا من عنانه يمر كمر الراح المنقلب
فذكر امرؤ القيس أن فرسه أدرك الصيد بشوط واحد وأنه كان شديد

الجرى لا يبصره الناظر وأن مثله مثل هذه اللعبة التي يلعب بها الأطفال بما
يسمونه « المقلع » فإذا ضربت لم تسكد تراها العين ؛ وذكر علقمة أن
فرسه أدرك الصيد وهو ثمان من عنانه أى يجذبه نحوه ، وشبه سرعته النادرة
بسرعة السحاب المتساقط المتتابع . . فنجد امرأ القيس ينص على أن فرسه
لم يصبه إجهاد وأنه أدرك الصيد من شوط واحد ، ونجد علقمة لا يذكر
شيئاً من ذلك ولكنه يذكر أن فرسه كان شديد العدو حتى كان يجذب
عنانه نحوه ليهداً في سيره ، وبأنى بهذا التشبيه الجيد الذى أفضله على تشبيهه
امرئ القيس .

٤ - وقال امرؤ القيس فى فرسه :

وراح كتيس الربل ، ينفض رأسه أذا به من صانك متحلب (١)
وقال علقمة :

وراح كشاة الربل ينفض رأسه أذا به من صانك متحلب
فنجد اتفاق البيتين فى أكثر الأسلوب وفى المعنى ، وإن كان علقمة .
مستبقاً ، والفضل لامرئ القيس .

٥ - ويقول علقمة :

ترى الفأر عن مسترغب القدر لا ثما

على جدد الصخر من شد ملهب (٢)

(١) شاة الربل وتيس الربل يعنى الثور الوحشى وقد شبه به الفرس فى نشاطه
وحديثه ، ينفض : يحرك ، الصانك : العرق ، المتحلب : السائل المتقاطر ، يقول
إن هذا الفرس راح يحرك رأسه لينزل العرق المتقاطر السائل

(٢) عن معنى من ، مسترغب القدر : واسع الخطو ، لا ثما : ظاهراً ، الجدد
الطريق . شد ملهب : أى من جرى فرس ملهب وهو الشديد الجرى المثير للغبار

خفي الغار من أنفاقه فكأنما تجلله شؤبوب نيك منقب (١)
وظل لثيران الصريم غماغم يداعسهن بالنضى الملب (٢)
فهاو على حر الجبين ومقق بمدراته كأنها ذاق مشعب (٣)
وقال امرؤ القيس من قصيدته في المعنى نفسه :

ترى الغار في مستنقع القاع لاجبا (٤)
على جدد الصحراء من شد ملب
خناهن من أنفاقهن كأنها حذاهن ودق من عشى تجلب (٥)
وظل لثيران الصريم غماغم يداعسها بالسهمرى الملب
فكاب على حر الجبين ومقق بمدرية كأنها ذاق مشعب
فتجد تشابه المعنى والأسلوب والآهاظ والخيال في القطعتين .

٦ - وقال امرؤ القيس :

وقلنا امتيان كرام : ألا انزلوا فعالوا علينا فضل ثوب مطب
وقال علقمة :

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص نخبوا علينا فضل برد مطب

(١) خفي الغار : أخرجه من أنفاقه ، وهو جمع نفق وهو الجحر . تجلله : غشيه
وأحاط به ، الغيث المطر ، المنقب : الذي ينقب في الأرض ويستخرج ما فيها لشدته .
الشؤبوب : الدفعة من المطر

(٢) لثيران الصريم : بقر الرمل ، الغماغم : حوار الثيران عند الطعن يداعسهن
يطاعنهن : النضى : الرمح ، الملب : المشدود بالعلباء وهي عصبة كانوا يشدون
بها الرماح والسهام لئلا تنكسر

(٣) هاو : ساقط ، حر الجبين : ما أقبل عليك منه ، المدرا : القرن ، الذاق
الحد والطرف ، المشعب : الخرز الذي تخرز به الجلود

(٤) مستنقع القاع : الأرض المنخفضة التي تنقع فيها المياه . لاجبا : ظاهرا

(٥) الودق : المطر ، مجلب : شديد الجلبة والصوت

فيزيد علقة بذكره « صيد القانص » ، ويوجز فيحذف ذكر النزول ،
ويزيد امرؤ القيس فينص على كرم الفتيان وعلى ذكر النزول .

٧ - ويقول امرؤ القيس :

وقد اغتدى قبل الشروع بسابح أقب كيغفور العلاء بمنجب (١)
ويقول علقة :

وقد اغتدى والطير في وكماتها وماء الندى يجري على كل مذب (٢)
بمنجرد قيد الأوابد للاحه طراد الهوادي كل شأ ومغرب (٣)
فنجده علقة يزيد هذه الزيادات الجميلة الرائعة حفا : « وماء الندى
يجري على كل مذب » ، و « بمنجرد قيد الأوابد - البيت كله » ،
ويزيد امرؤ القيس في وصف فرسه بما وصفه به ، وإن كانت « بمنجرد »
وقيد الأوابد ، مما ابتكره امرؤ القيس وأخذ عنه ، إلا أن علقة هنا أرفع
بلاعة من غير شك .

٨ - ويقول امرؤ القيس في الناقة :

بمجنفرة حرف كأن قتودها على أبلق الكشجين ليس بمغرب (٤)
ويقول علقة :

بمجنفرة الجنبين حرف شملة كهملك مرقال على الأين ذعلب (٥)

(١) السابح : الفرس السريع الجري . الأقب : الضامر البطن ، اليمفور : حمار
الوحش ، العلاء : الصحراء (٢) المذب : مسيل الماء إلى الرياض
(٣) منجرد . قصير الشعر ، الأوابد ، بقر الوحش ، للاحه ، أهزله ، الطراد
المطاردة ، الهوادي ، أبائل الوحش ، الشأو : الشوط ، الغرب : البعيد
(٤) المجنفرة : الناقة العظيمة البطن ، الحرف التي تماثل حرف الجبل في صلابتها
القتود : أداة الرجل ، أبلق الكشجين يريد حمرا وحشيا أبيض الخاصرة ، المغرب
الذي أبيضت أشفاره وحماله ،
(٥) الحرف ، الضامرة أيضا . الشملة ، المربعة . كهملك أي كما تشتهي وتريد المرقال

- ٤٢٠ -

٩ - ويقول امرؤ القيس في الفرس :

و هو هواء تحت صلب كأنه من الفضة الخلقاء زحلوق ملعب (١)

ويقول علقمة في المعنى نفسه :

وجوف هواء تحت متن كأنه من الهضبة الخلقاء زحلوق ملعب

١٠ - ويقول امرؤ القيس في ذنب الفرس :

وأسحم ريان العسيب كأنه عشاكيل قنو من سميحة مرطب (١)

ويقول علقمة في ذنب الناقة :

كأن بماذيها إذا ما تشذرت (٢) عشاكيل قنو من سميحة مرطب

فيزيد علقمة بالشطر الأول أو أغلبه على امرؤ القيس .

١١ - ويقول امرؤ القيس في الفرس :

وعينان كلماويتين (٤) ومحجر إلى مند مثل الصفيح المنصب

ويقول علقمة في الناقة :

بهين كمرأة الصناع تديرها لمحجرها من النهيف المثقب

فيشبهه امرؤ القيس عيني الفرس بمرآتين صافيتين ويقول : إن عينه

يستندها عظم الوجه القوي الصلب المنصب ، ويقول علقمة : إن عين

الكثيرة الرقلان وهو المشى السريع ، الاين ، التنب ذعاب ، خفيمة في سيرها

(١) البهو ، جوف الصدر ، هواء ، واسع ، الصلب ، الظهر ، الخلفاء ، المساء ،

الزحلوق ، ما يتزحلوق عليه الاطفال أثناء لعبهم

(٢) الاسحم ، الاسود ، والمرادية الذنب ، ريان ، متلى ، العسيب ، أصل الذنب .

العشاكيل : الاغصان الرقيقة وهي الشماخيخ ، القنو : العذق وهو العنقود . سميحة

بتر على حافته نخل مشمر

(٣) الحاذان ، ما وقع عليه الذنب من الفخذين ، تشذرت الناقة ، ضربت بذنبها

(٤) تثنيه ماوية وهي المرأة الصافية لمحجر : نقرة العين . الصفيح المنصب :

الواح الحجارة الثابتة .

- ٤٢١ -

الناقة شبيهة بعين المرأة الصباغ التي تديرها وتنظر بها من خلال ثغوب
الخار ؛ فتجد إحكاما في التشبيه عندهما واختلافا في تفاصيل المعنى ، واتفاقا
في عمومهما . وهذا الاتفاق كله يبين لنا مدى هذا التشابه الفنى الواسع بين
تيمك القصيدتين الكبيرتين .

- ٤ -

وهناك خلاف كبير أيضا بين القصيدتين يتجلى لك في ما يأتي :

١ - قصيدة امرئ القيس تزيد على قصيدة علقمة عشرين بيتاً
فأزولى خمسة وستون والثانية خمسة وأربعون .

٢ - وثمان بين غزل القصيدتين ، فغزل امرئ القيس تمتع خصب
بعكس غزل علقمة ، علقمة لا يحسن أن يتغزل كما يتغزل امرؤ القيس ،
فنهجده يقول :

فإني لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أرواح مؤوب
فيرى أن يقطع آماله في حب محبوبته ويقطع صلاته بها بالسفر مبكراً
أورائها ؛ ويقول أيضاً :

فقلت لها : فيئى فما يستفزنى ذوات العيون والبنان المخضب

وإذا لم تستفزه هؤلاء فمن الذى يستفزه بعدهن ؟

ولكن امرئ القيس لا يدور ببلده شيء من ذلك ولا يطابق به أسانه ،
إنما نراه يقول :

فإنك لم يفخر عليك كفأخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فتجده يذكر ضعف المرأة وأنوثتها وسحرها مع ذلك وامتلاكها بهذا
الضعف القلوب والأرواح : وقد ذكر علقمة في غزله الوصل ومظاهر الجمال
في خلق حبيبته وفي ذيلتها ، ثم صور ما وقع بينهما من صرم وعودة
الصلوات ثم قطعها بالأسفار . أما امرؤ القيس ويدكر لبانات الفؤاد

المعذب وحاجة قلبه إلى اللقاء وجمال محبوبته الفاتن ، وراحتها الذكية حتى في غير وقت الزينة والطيب ، وإقامتها على المودة وثقته بها ، وينذكر ساعات رحيل أحبابه وهو ينظر إليهن نظرة اليأس الحزين ، تنهمر دموعه حزناً لفراق أحبابه .

وعلمقة في غزله الذي يبلغ الأربعة عشر بيتاً لا يصل على أى حال إلى منزلة امرئ القيس شاعر الغزل والجمال الذي رسم في مطلع قصيدته صوراً رائعة لأحبابه وذكرهم في إيجاز وفي ثلاثة عشر بيتاً .

٣ - أما الناقة فقد وصفها علمقة في خمسة أبيات ووصفها امرؤ القيس في بيت بل في شطره فقط ، ويزيد امرؤ القيس فيصف حمار الوحش الذي شبه ناقته به وصفاً جميلاً ، فعلمقة إذاً يتفوق على امرئ القيس في وصف الناقة ، وإن كان امرؤ القيس يزيد عليه بوصفه للحمار الوحش في ثلاثة أبيات :

٤ - ووصف الشاعران الفرس ، ووصفه علمقة في ثلاثة عشر بيتاً ثم ذكره في بيتين في آخر القصيدة ، ووصفه امرؤ القيس في سبعة عشر بيتاً ثم عاد إليه في ذكره لرحلة الصيد ، وفي نهاية القصيدة عاد لذكره في سبعة أبيات أخرى . ووصف امرئ القيس للفرس وصف دقيق ، لا يترك شيئاً منه إلا ويصفه ويصوره ومن أولى من امرئ القيس بذلك وهو الذي قيل فيه : « أشعرهم امرؤ القيس إذا ركب » ؛ ولكن امرؤ القيس مع ذلك يخطئ في بعض معانيه ، أما علمقة فلا يخطئ في شيء وذلك ما لاحظناه أم جندب ونقدت امرؤ القيس من أجله وفضل علمقة عليه .

٥ - ووصف الصيد عند الشاعرين وصف جميل ، تتع . . وصفه علمقة في ثمانية أبيات ووصفه امرؤ القيس في اثني عشر بيتاً . مع اتحاد في بعض الأساليب والمعاني ، ولكن امرؤ القيس يزيد في وصف الصيد على علمقة من غير شك ، وزاد عليه أيضاً بوصف الخباء الذي نزل هو ورفاقه فيه لتناول الغذاء وأكل لحم الشواء المصهوب كما يقول :

وبذلك نجد تفوق امرئ القيس في الغزل ووصف الصيد وتفوق
علقمة في وصف الناقة والفرس .

٦ — على أن في قصيدة علقمة صورا شعرية كثيرة أرجح أنه اقتبسها
من قصائد امرئ القيس الأخرى ، كقول علقمة : « وقد أغتدى والظفر
في وكأنتها » ، وقوله « بمنجرد قيد الأوابد » ، وقوله : « فهادى عداه
بين ثور وبعجة » ، وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم ينقب

— ٥ —

وامرؤ القيس له سبق في إنشاء قصيدته وإبتكار معانيها ، فعلقمة تابع
له في المعاني التي شارك امرأ القيس فيها من غير شك . ولكن بماذا نسفى
عمل علقمة ، أنسميه معارضة أم تقليداً فنياً ، أم أنه عمل جديد بكر كعمل
امرئ القيس الشاعر الأول . إن عمل علقمة الفني ليس جديداً بكرأ ،
ولكنه جديد في بعض نواحيه ، وهو تقليد في بعض النواحي ، ومعارضة
أدبية في باقيها ، واسنا نذهب مذهب من يفضل أحد الشعارين على الإطلاق
كما فعل القدماء ، ففضلوا علقمة على امرئ القيس ، فقالت أم جندب ما
قالت ، وقال ابن رشيقي . ونزع - امرؤ القيس - علقمة بن عبدة ، فكان
من غلبة علقمة عليه ما كان (١) ، وكما فعل بعض المحدثين وفضلوا امرأ
القيس على أى حال ، ولكن نهجنا في الموازنة نهج يسير على العدل والحق
والإنصاف في الحكومة الأدبية دون نظر إلى ما بدا ذلك . إن عمل علقمة
الفني في قصيدته جديد في الكثير من معانيها وأساليبها وخيالاتها ، وهو
تقليد فيما أسلفناه لك من معانٍ احتذى فيها علقمة امرأ القيس الذي سبقه
بارتجال قصيدته ، ولكن العمل الفني الذي عمله علقمة كله وعلى وجه
الإجمال أصمية معارضة ، والمعارضة في الشعر أن يقول الشاعر القصيدة ،

(١) ١٣٥ : العدد ط ١٩٢٥ طبعة هندية بمصر

- ٤٢٤ -

فيتبعه شاعر آخر بقصيدته في خيالها وروحها وموضوعها مع الاتفاق في الوزن والقافية في أحيان كثيرة ، ويقصد الشاعر الثانى أن يسجل بقصيدته على الأول تفوقا أو أن ينقض فكرة الأول في قصيدته . والمعارضات في الشعر العربى القديم والحديث كثيرة ؛ ولكن المعارضة في قصيدتنا - موضوع هذا البحث - أظهر وأبين وأوضح .

- ٦ -

وبعد فقد حاول علقة بقصيدته أن يتفوق على امرئ القيس في حكم النقد الأدبى ،

وقد نال ما أراد عند القدماء ، وحرمه منه بعض الباحثين من المحدثين ولكننا نقدر عمل الشاعرين الفنى معا :

١ - فلا امرئ القيس ميزة البدى وفضيلة الابتكار ، وله فضل التفوق فى الغزل والصيد :

٢ - ولعلقة فضل المعارضة وفضل الابتكار الذى يظهر فى قصيدته أحيانا حتى ليكاد يجعلها جديدة من نواحيها ، وله فضل التفوق على امرئ القيس زعيم الشعر الجاهلى فى وصف الناقة وفى وصف الفرس وهو الفن الذى شهر به امرؤ القيس

إن الصور الفنية الممتعة فى القصيدتين كثيرة جدا ، وخيالهما قوى خصب يتكىء على الحس ، ومعانيهما متدفقة ثرة جياشة لا تكاد تلتئم . ووحدة الموضوع والروح والوزن والقافية فى القصيدتين تكاد تتمازج بينهما إلى حد بعيد . وهذا هو آخر تلك الموازنة الأدبية الدقيقة لى فلما القول فيها لنتخذ منها منهجا أدبيا واضحا فى النقد والموازنة ،

الموازنة بين الشعراء

الموازنة هي المعادلة بين كلام شاعرين فأكثر ومقابلة معنى كل واقعة بالآخر حتى يتبين رجحان أحدهم فيقال « إنه أشعر ، وإن كان من شهوات العقول المفاضلة بين الأشياء والظفر بالأفضل ولهذا كان الأدباء من يوم أن كشف لنا التاريخ وجودهم إلى اليوم مولعين بالموازنة بين الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض فإذا نظرنا إليهم في الجاهلية رأيناهم في سوق عكاظ يتحاضرون إلى النابتة تحت قبته الحمراء ولحننا هنالك الأعشى وحسان والخدساء يتناشدون ويتنافسون ، ومقاول العرب في تلك الحلبة يستمعون وهم أشوق ما يكونون إلى التساق في البيان واستماع حكم النابتة في ذلك .

وإذا رجعنا إلى آراء الأدباء في نوابغ شعراء الجاهلية وجدنا كلماتهم مفترقة في امرئ القيس والنابتة وزهير والأعشى : لكل منهم شعبة تفضله على غيره وتقيم البراهين على تفوقه وكذلك حالهم مع كل نابه من الشعراء المخضرمين كالخطيب وكعب بن زهير وحسان والنابتة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والخدساء وأضراب هؤلاء .

وإذا تخطينا بهم هذه الطبقة إلى طبقة الشعراء الإسلاميين رأيناهم أبعد خلافا وأكثر شقاقا ، ورأينا الملوت والأمراء والعلماء يشاركونهم في هذا ويتناضلون عن يفضلون نضالا ولا كنضال الحرب تدفع عن العرض والنفس ، وهذا تاريخ جرير والفرزدق والأخطل والراعي والقطامي ونصيب مشحون بأحداث المفاضلة وأحكام المحكمين من الشعراء والعلماء والأمراء ، وهي أحكام كثيرا ما تكون مطبوعة بطابع الهوى الشخصي يتجلى لنا ذلك في مجالس عبد الملك ابن مروان وأكثر ملوك بني أمية فقد كان المفضل عندهم هو الذي ينال فن عددهم أو يمدحهم بما ليس في سواهم وكذلك القول في الشعراء الغزلين من هذه الدولة : كمكثير ، وجميل ، وليلبي

الأخوية : وقيس ن الملوح ، وعمر بن أبي ربيعة . والعرجى .

فإذا ذهبنا إلى بنى العباس وجدنا الأدباء هناك يتنازعون للتفضيل بين
أبي نواس وصريع الغواني . مسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية . ثم نراهم أشد
ما يكونون تماصيا وتقاطعا في أبي تمام والبحتري . ثم بين ابن المعتز وابن
الرومي . ثم بين المتلبي ، وابن هاني ، والشريف الرضي ، وهيار الديلمي ،
ولا يزال الخلاف الذي كان بين المتقدمين قائما بين أدبائنا إلى اليوم .

وما ترى مذاهب أكثر انشعابا ، ولا طبائع أبعد افتراقا ، من مذاهب
الناس وطبائعهم في تفضيل الشعراء

فمنهم من يرى الفضل للشاعر في جريه على الفطرة مع السلامة وإصابة
الغرض ، ومن هؤلاء هارون الرشيد . فقد كان يقدم أبا العتاهية ، حتى
يجوز الحد في تقديمه إليه إلى عفو الخاطر وحاضر البديهة والكلام الذي يجري
في مجرى العادة حتى لقد بلغه أن إسحاق بن إبراهيم الموصلى يفضل العباس
ابن الأحنف عليه ، فلما حضر بين يديه ، وأنشده العباس أجود ما يرويه
ولأبي العتاهية أرداه . تعصبا للعباس . قال هارون : فأين أنت عند
قول أبي العتاهية :

قال لي أحمد ولم يدرك ما بي أنحب الغداة عتبة حفا

فتنفست ثم قلت نعم حبيبا جرى في العروق عرقا فعرقا

ثم قال : ويحك أنعرف لأحد مثل هذا أو تعرف أحدا سبقه إلى قوله
فتنفست ، ثم قلت كذا وكذا اذهب ويحك فاحفظها .

ولما عرف هذا الخلق من هرون ، كان الشعراء يتقربون بهذا النوع من
الشعر ، ومن ذلك أن العباس بن الأحنف اشتاق أهله ، وقد كان خرج مع
الرشيد إلى خراسان ، وطال مقامه بها ، ثم إلى أرمينية . فعارضه العباس
في طريقه وأنشده :

قالوا خراسان أنهى ما يراد بنا ثم القه قول فقد جئتنا خراسانا

ما قدر الله أن يدني على شحط سكان دجلة من سكان جبرانا
مضى الذي كنت أرجوه وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت وعذبت بصنوف المجر الوانا

فقال له الرشيد قد اشتقت يا عباس أذنت لك خاصة ، وأمر له بثلاثين
ألف درهم ، ولولا أن الشعر جاءه من الوجه الذي يحبه لما كان منه هذا
العطف ولا هذا الإحسان .

ومنهم من يرى فضيلة الشعر في الصدق والرفق . وجميل الأحذوثة .
ومن هؤلاء دوحه المجد والادب . بضمة سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما . فقد أصبحت الشعراء على لسان
وصيبتها نقدها الصحيح ، وغيرتها على أخلاق الأدباء ، وأتت عليهم درسا
ما كان أحوج أمثالهم إليه فقد ذكر صاحب الأغاني أنه اجتمع في ضيافتها :
جرير ، والفرزدق ، وكثير ، وجميل ، ونصيب . فنكثوا أياماً ثم أذنت لهم
فدخلوا عليها فقمعت حيث تراهم ولا يرونها ، وأسرع كلامهم ، ثم أخرجت
وصيفة لها وضيئة قد رويت الأشعار والأحاديث فقالت « أيكم الفرزدق ،
فقال لها : ها أذا . فقالت أنت القائل :

هما دلتاني من ممانين قامة كما انحط بازاقم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا

أحى يرجى أم قليل نحدذه

فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا

وأقبلت في أعجاز ليل أباده

قال نعم . قالت « فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك
وعليها خذ هذه الألف والحق بأهلك » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت « أيكم جرير ، قال « ها أذا ،
فقال أنت القائل :

طرقتك سائدة القلوب وايس ذا وقت الزيارة فارجمى بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام .
فقال نعم . قالت : أولا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ، أنت
عفيف وفيك ضعف ، خذ هذه الآلف والحق بأهلك .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت : أيكم كثير ، فقال : هاهنا ،
فدأبت أنت القائل :

وأعجبي يا عز منك خلاق كرام إذا عد الخلاق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المني حين يطامع
فوالله ما يدرى كريم ماطل ألبسك إذ باعدت أو يتصدع
قال نعم . قالت : ملاحظ (١) وشككت ، خذ هذه الثلاثة آلاف (٢)
والحق بأهلك .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ، قال : هاهنا ،
فدأبت أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلبت بنفسى المشأ الصغار
بنفسى كل مهنوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار
قال نعم . قالت : ربيقتنا صغارا ، ومدحتنا كبارا ، خذ هذه الآلف
والحق بأهلك .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل مولاتي تفرئك السلام
وتقول لك والله ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادى القرى إني إذا لسعيد
لكل حديث بينهم بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

(١) الملاحظة الحسن والشكل الغزل
(٢) الثلاثة آلاف هذه رواية الأغاني
ولها تحريف والصوات الآلف

جملت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، خذ هذه الألف ديناراً
والحق بأهلك .

وقد قالت مرة لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول :

فيما لىنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على . كلامها
قال نعم . قالت « رحم الله صاحبك إن كان صادقاً فى شعره » . انتهت
رواية الأغانى .

فأنت تراهما قد أكثرت جائزة كثير وجميل لعفتها وصدقهما فى الحب
ورفقهما بالقوارير ، وتعطف عليهما أيما تعطف كما عنفت أجلاف الدشاق
وكذبة المحبة مثل جرير والفرزدق . وإن كانت مروءتها أثبت عليها أن
تحرهما الجائزة وهما فى حرهما خاصة .

ومنهم من يرى الفضل فى المبالغة والقصد إلى الخيان الغريب ولا يبالي
أصدق الشاعر أم كذب بل يجرى على قولهم ، « أعذبه كذبه » ، ومن هؤلاء
عبد الملك بن مروان ، فقد روى أبو على اللقالى فى ذيل أماليه . أن
عمر بن أبى ربيعة ، وكثير عزة ، وجميل بن معمر . اجتمعوا بباب عبد الملك
ابن مروان فأذن لهم فدخلوا . فقال أنشدونى أرق ما قلتم فى الغواني أناشده
جميل بن معمر :

حلفت يميناً يا بئينة صادقاً فان كنت فيها كذبا فعميت
لئن كان جلد غير جلدك مسنى وباشرنى دون الشعار (١) شريت (٢)
ولو أن راقى (٣) الموت يرقى جنازتى بمنطقها فى الدساطعين حيت

وأناشده كثير غرة :

(١) الشعار وبفتح ما تحت الدثار من اللباس بلى شعر الجسد
(٢) شراء أصابه بعله الشرى وهى بؤور صغار حمر حكاكة محدث دفعة غالباً
وتشند ليلاً (٣) رقاء يرقيه نفث فى عوزته

بأبي وأمي أنت من مظلومة طين (١) العدو لها فغير حالها
ولو أن غرة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى إلى بصرم عزه نسوة جعل المليك خدودهن نهالها
وقال ابن أبي ربيعة المخزومي القرشي :

ألا ليت قبري يوم تقضى منيتي بتلك التي ما بين (٢) عينيك والقم
وايت طهوري كان ريقك كله وايت حنوطي من مشاشك والدم (٣)
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي هنا أو هنا في جنة أو جهنم
فقال عبد الملك لحاجبه اعط كل واحد منهم ألفين وادع صاحب جهنم
عشرة آلاف .

فحكم لا كثرهم أمانى ، وأبعدهم في الخيال ، ولم يبال بما وراء ذلك من
المحاسن التي في شعر صاحبي عمر ولا سيما قول كثير :
ولو أن غرة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
فإن قوله عند موفق بما لم يوفق إليه سواء ، ولو ألهم جميل أن ينشد
عبد الملك أبياته التي غالى فيها بقتاعته في حب بثينة لرجوت له أن يرضيه كما
أرضاه عمر ، وذلك قوله :

وإني لأرضى من بثينة بالذى لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبالألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد غاب آمله
وبالظرة العجلى وبالحول تنقضى أو آخره لا ، ناتيقي وأوائله
وهو في العفة والقناعة غاية ليس بعدها غاية .

ومنهم من يفضل الكلام لحسن التشبيه وتجلى الوصف كما روى الأصمعي
وقد حضر ندى أدب في بني عامر بن صعصعة ، وفيهم شيخ لهم طويل الصمت
عالم بالشعر وأيام الناس ، يمتنع إياه فتيانهم ينشدونه أشعارهم فإذا سمع

(١) طين كغطى وزنا ومعنى (٢) ما بين عينيك والقم لعله يريد فتحة
أنفها (٣) المشاش جمع مشاشة بالضمه وهي رأس العظم الممكن المضغ

الشعر الجديد قرع الأرض بمحجن في يده ، فينفذ حكمه على من حضر بمكر (١)
للملشد وإذا سمع مالا يعجبه قرع رأسه بمحجنه فينفذ حكمه عليه بشاة إن
كان ذا غنم ، وابن مخاض إن كان ذا إبل فإذا أخذ ذلك ذبح لأهل النادی
وما زال يسمع ويضرب الأرض بمحجنه لما يستحسن حتى أنشده شاب
يصف ليله :

كأن شميط (٢) الصبح في أخرياتها ملا . بنقى من طيا الساة خضر
نخال بقاياها التي أسار (٣) الدجى تد وشيعاً (٤) فوق أردية الفجر
فقام كالبحنون مصاة سيفه حتى خالط البرك ، وهى إبل أهل الحواء بالغة
ما بلغت ، وجعل يضرب يميناً وشمالاً

فانظر كيف راعه من الشاب الملشد حسن تشبيهه منظر آخر الليل وقت
ابتداء أشعة الفجر في الظلمات وتصويرها بصورة ملا . طويل مختار من
الطيا الساة الخضر ، وكيف صور الأشعة في طبقات السحاب ، والأجواء في
أخريات الليل بالآردية يجىء بعضها فوق بعض . ويتضام بعضها إلى بعض
عليها الأعلام الموشاة حتى كأن الفجر تغيرها يودع بها الليل ويستقبل
بها النهار .

ومنهم من يرى المزية للناعر في كثرة فنونه ، واتساع بجره ، ومن دؤلاً
بشار بن برد ، فقد روى ابن سلام قال : سألت بشاراً المرعك أى الثلاثة
أشعر ، يريد - جريراً ، والفرزدق ، والأخطل - فقال : لم يكن الأنطل
، ولهما ، ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه ، قلت فمذاق . قال : كانت
لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق . ولقد ماتت النوارق ، وإيها حون
عليها بشعر جرير ، يشير إلى قوله :

(١) البكر الجبل (٢) الشميط المخلوط من بياض وسواد
(٣) أسار : أبقى (٤) الوشيع على الثوب كما يصنع الآب على ثياب
الحفريات من الوشى

لولا الحياء لعاذني استعبار (١) ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد سبق بشارا إلى هذا الحكم السيدة سكينة رضى الله عنها . وما ذاك
إلا لرفته وكثرة فنونه . وكذلك رأى خالد بن صفوان ، فإنه قال في مجلس
عبد الملك ، وقد كان يصف الثلاثة : أما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ،
وأهتكمهم لعدوه مترا - الأغر الأبلق - الذى إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم
يلحق ، جريير . وقد فضله الراعى حتى على نفسه لما سمع قوله :

وعاوى من غير شىء رميته بقارعة انفاذا (٢) تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها قرا هندوان إذا هن صما
وقال لما عرى مجلسه دألام على أن يغلبنى مثل هذا ، ؟ .

وقد قال الصلتان العبدى لما حكم بين جريير والفرزدق ، وفضل جريرا
بشعره ، والفرزدق بلسانه :

أرى الخطفى بر الفرزدق شعره ولكن خيرا من كليب مجاشع
فيا شعرا لا شاعر اليوم مثله جريير ولكن فى كليب تواضع
جريير أشد الشعارين شكيمة ولكن عليه الباذخات الفوارع (٣)
يناشدنى النهر الفرزدق بعد ما ألحت عليه من جريير (٤) صواقع
نقلت له إني ونصر ككالى يثبت أنفا كشمته الجوارع

ومهم من يرى الفضل فى قرب الكلام وصحة سبكه وعدوبة لفظه وكثرة
مائه ورونقه ، فيفضل النابغة الذبياني فى الجاهليين ، والخنساء فى المخضرمين
وعمر فى الإسلاميين ، وابن المعتز فى المولدين ، والشاب الظريف فى المتأخرين
ومهم من يراها فى الصنعة ، والخصى على المعاني والاختراع ، فيفضل زهير
ومسلم بن الوليد ، وأبا تمام ، على غيرهم من معاصريهم ، وطائفة تحسّم
على الكلام بأثره فى نفس السامع ، وهم أهل الفطرة ، والراسخون فى الأدب

(١) استعبر جرت عبرته وحزن (٢) انفاذا : فتحاتها
(٣) الفارغ المرتفع الظاهر الحسن (٤) كشم . أنفه أى قطعه

البعيدون عن الهوى . وهؤلاء قلما يمدحون إلا كلام الوالدين من العشاق
والمفجعين بالثكل والمصابين ، والناهضين بالإصلاح في الأمم من الحكماء ،
لأن كلام هؤلاء يخرج من قلوبهم ، فيقع في قلوب الناس ، فإذا سمعوا مالك
ابن الريب يرقى نفسه ، ويذكر مرضه ، وغربته بخراسان شاركوه في مصابه
وتوجعوا لبلائه ، وذلك قوله :

تذكرت من يبكي على فلم أجد سوى السيف والرحم الرديني باكيا
وأشقر محبوبا يحمر عنانه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا براية إلى مقيم لياليا
ولا تحسداني بارك الله فيكما

من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجرائي ببرد إلىكما فقد كان قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت سريعا لدى الهيجا إلى من دعائيا
يقولون لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا
غداة غد يا لطف نفسي على غد إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويا
ويعجبهم شعر ابن المدينة وخاصة إذا سمعوه يقول :

ولو أنني أستغفر الله كلما ذكرتك لم تسكتب على ذنوب
وإني لأستحييك حتى كأنما علي بظهر القيب منك رقيب
أر سمعوا على بن الجهم ، وهو يقول في الاغتراب :

وارحمنا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعنا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعنا
أو سمعوا عروة بن حزام وهو يقول في ابنة عمه عفراء :

فقد تركتني ما أعي لمحدث حديثا وإن ناجيته ونجاني
كأن قطاة علفت بمناحها على كبدي من شدة الخفقان
(٢٨)

فيا ليت كل اثنين بينهما هوى من النامس والأنعام يلتقيان
أو سمعوا أبا العلاء يقبح جفء الإنسان للحيوان ، وقلة الشفة
عليه في قوله :

وبين بني حواء والخلق كلهم عدا ، فها هذا التخاذل والدخل (١)
هذه طائفة من وجوه التفضيل ذكرناها لتكون عنوانا لسواها ، وقبلها
تنحصر أذواق الناس وأهواؤهم .

وكان السواد الأعظم من المفضلين متسرعين في الحكم جأرا ، فقد يحكم
للشاعر بالسبق ، وهو لم ير من كلامه إلا القصيدة أو القصيدتين بما استجيد
من كلامه ، وقد يحكم على غيره بالتأخر عنه لأن الذي رآه من كلامه كان دون
الذي رآه من كلام السابق . ولو اطلع على كل ما قال الشعراء وعلى أسباب
قولها ، وقارن بين معانيهما المتحددة الموضوع ، وأساليبيهما ، ومقدار تأثيرهما
بالحوادث التي قالا فيها الشعر . وحاذى البديهة بالبديهة . والروية بالروية ،
وعلم أن اللاحق لم يسرق من السابق ، ولم يخترع لنفسه اختراعه ، لعدل
عن حكمه ، ولما أطلق القول في التفضيل بل قال : فلان أشعر في قصيدة
كذا ومعنى كذا ، والآخر أجود في كيت وكيت من جهة المعنى أو الديباجة
أو حسن التصوير ، ولا يسوغ له أن يقول « أشعر » على الإطلاق ،
إلا بعد أن يستقرى المحاسن والمساوى ويقارن بين ما لكل من الشعراء منهما ،
حتى إذا وجد أحدهما أنضر ديباجة وأبلغ معنى وأغزر فنونا وأحضر بديهة
وأقل سقطا ، وأكثر غوصا على المعاني ، وأجل أخذا وأوفر مادة ، حكم له
على الآخر حكما يؤيده الدليل الصحيح ، والذوق السليم . لا حكم كثير من
المفضلين الفضوليين . ومنهم جماعة من النحاة . عرضوا قوانينهم على بعض
الشعر الرائع كشعر النابغة فلم يتفق مع بعضها ، ففضوا من فضله ، ونسوا
أن قواعدهم بحكومة شعره ، لاحاقة عليه .

ومنهم آخرون حملتهم المعاصرة والمنافسة على الخط من شعر أقرانهم وقد
قدم في ذلك بعض المؤلفين ، فحاضوا في أقدارهم وهم لا يشعرون .
وقد يلتقد الحضري البدوي فيعييه لاختلاف الذوقين وربما كان البدوي
في باديته أشعر من الحضري في حضارته .

وعندى أن الاعرابية التي كانت تندب ولدها بريدا عند قبره فتقول :

هل خبر القبر سائليه أم قر عينا بزائريه ؟
أم هل تراه أحاط علما بالجسد المستكن فيه ؟
لو يعلم القبر ما يوارى تاه على كل ما يليه
يا جبلا كان ذا امتناع وطود عز لمن يليه
ونخلة طلعمها نصيد يقرب من كف محتليه
ويا مريضاً على فراش تؤذيه أيدي ممرضيه
ويا صبورا على بلاء كان به الله يبتليه
يا دهر ماذا أردت مني أخلفت ما كنت أرتجيه ؟

أشعر من إبراهيم بن المهدي في رثاء ولده الذي مات بالبصرة وإن كست
الحضارة كلامه ثوبا مرقشا وذلك قوله من جيد قصيدته الطويلة :

كان لم يكن كالغصن في ميعه الضحى سقاء الندى فاهتر وهو رطيب
كان لم يكن زين الفتاء ومقل النساء إذا يوم يكون عصيب
وريمان صدرى كان حين أشمه ومؤنس قصرى كان حين أغيب
وكانت يدي ملاهى به ثم أصبحت بحمد إلهى وهى منه سليب
كظل سحاب لم يقيم غير ساعة إلى أن أطاحت به فطاح جنوب
أو الشمس لما من غمام تحسرت مساء وقد وات وحن غروب
سأبكىك ما أبكت دموعى والبكا بعينى ماء يا بنى يجيب

ولا بد أن يكون الموازن من الذوق الصحيح والاطلاع الواسع ، محيطا
بكل ما قاله الشعراء ، بعيدا عن الهوى والتقليد ؛ دقيق النظر في المقابلة

بين المعاني والالفاظ ، فيوازن بين المفردات والأساليب والمعاني المخترعة وحسن الخيال وقبحه والبراعات والمخالص والمقاطع والأخذ والابتداع وأن يذكر تحليل كل تحسين أو تقبيح بما يقتضيه حتى يرسم للنظر ما يهيم له الحكم فلا يسهه قبل أن يأتي على آخر الموازنة إلا النطاق بالحكم قبل سماعه كما فعل أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحتري ، فإنه قال : لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر لكى أوازن بين قصيدتين من شعرهما إذا انفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيدة وذلك المعنى ثم أحكم أنت على جملة ما لكل واحد منهما إذا استطعت علما بالجميل والردى ، ثم ذكر مساوى الشعراء فسردهم سرقات أبى تمام وإحالاته وغلظه وساقط شعره وقبح استعاراته وتجنیه واضطراب وزنه ثم ذكر ما وجدته من ذلك للبحتري وقارن بين ما افتتحا به القول من الوقوف على الديار ووصفها والسلام عليها والدعاء لها إلى غير ذلك وبه على الجيد وفضله على الردى وبين علل ذلك .

ثم قال : وبقي ما لم يمكن إخراجه إلى البيان وهو ما لا يعرف إلا بالدربة ثم ضرب المثل بالفارسين والجاريتين تقساويان فى كل شيء من الصفات الحسنة ومع هذا يفضل إحدهما على الأخرى المجربون ولا يستطيعون بيان ذلك ثم ذكر ميزان الموازنة وهو أن يكون الناقد من أصحاب الذوق السليم الخفى على النظر فى الوجوه التى فضل بها الأئمة شعر أوس بن حجر على الدابة الجعدى مثلا فإن عرفها فضل على مقتضاها وحكم حكما مقبولا وإلا فحسبه أن يكون مع الجمهور .

أما فائدة الموازنات فتحصيل ملكة الأدب وصحة للنقد وكشف القناع عن المحاسن لتحذير ، والمقايح لتجنب . وكما أن اللسان لا يمر على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمر على الفهم الصحيح ولا يحول فى ميدان فسيح من المعاني ولا يقدر الأشياء قدرها إلا بالمقارنات

الكثيرة التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكما غير مزعزع ولا مدافع . ولو أن المتقدمين عنوا بهذا الموضوع عنايتهم بسواه ، لما بقى كثير منا مضطربا مضطرا بهم إلى اليوم في منازل الشعراء ولعلنا نوفق إن شاء الله إلى مقدار صالح من المقارنات نبليخ به غايتنا

وسلباً ذلك بالموازنة بين زهير والأعشى لا تحادها في صفات كثيرة تجعل الموازنة صحيحة .

الموازنة بين شاعرين جاهليين

١ - نحددنا عن الموازنة والموازنين وتمييز المقبول من آرائهم والمردود فيها وكيف تكون الموازنة صحيحة متقبلة . ومتى يصلح الموازن لتولي هذه الحكومة وأتينا على فائدة المقارنات بين الشعراء وانها تضم إلى علم الأدب ملكة .

والآن نبدأ الموازنة بين زهير والأعشى على منهجنا من استيفاء ما للشاعرين ومقابلة كل بالآخر على وجه يحلى لكل منهما صورة بيذة ومنزلة معينة ور بماض علمنا الزمن فتركنا بعض الشيء مما يدركه الطالب وقد نكل إلى الذوق السليم مالا يقام البرهان عليه ولكن لا يفوتنا أن نعرض على القارىء ليحكم ذوقه كما حكمنا ولعله يرشد إلى ما لم نرشد إليه من وجوه التوضيل فقد يجيب من عفو الخاطر مالا يجيب من كد القريحة . وقد رأينا أن نهد للموازنة بين هذين الشاعرين بذكر الصفات المشتركة بينهما والصفات الخاصة ليسكون ذلك أعون على الحكم الصحيح وبعد فنقول :

٢ - كلا الرجلين شاعر جاهلي مكثر مجيد متفنن معدود في الطبقة الأولى متكسب بشعره وإن كان الأعشى أكثر الحفا ونجعة في طلب رزقه . وهما معدودان من أصحاب المعلقات : زهير واحدة باتفاق الرواة والأعشى اثنتان لا ميتين أحدهما مرفوعة وهي التي قال في مطالعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟
والثانية مجرورة وهي التي قال في مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأظلال وسؤال وما ترد سيؤالي
ولكن الرواة لم تنفق عليها فصاحب الجهرة عد الأخيرة من المملعات
وغيره عد الأولى، ومن اللغويين من أسقطهما كما فعلوا ذلك في قصيدة
الناطقة الذياني لإحدهما الرائية وهي التي أولها :

عوجوا فحيوا النعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار؟
وأخراهما الدالية التي مطلعها :

يا دارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وكما اختلفوا في معلقة عنترة والحارث بن حلزة اليشكري

٣ — ويتخالف الشعراء في الملشأ والأخلاق فزهير رباه خاله بشاء
ابن الغدير في غطفان . وكان بشامة هذا شاعرا مجيدا غنيا حازما لا تبت
غطفان في أمر دونه ، ولا تصدر إلا عن رأيه . وقد روى زهير شعر
وحجب إليه القول ومهد له سبيله حتى فطق به صغيرا ، وقد ورثه من ما
وشعره فذمنا شغوبا بالشعر قليل الحاجة إلى التكسب به ، وقد كان مع هذا
أبوه شاعرا وكان كثيرا ما يختلف إليه ويعلمه ويستخبره ، وكانت اختا
سلمى والخنساء (١) شاعرتين ، وكان ابنه كعب وبجير شاعرين وكذلك
المضرب بن كعب

فبيت زهير بيت عريق في الشعر جاهلية وإسلاما وكان زهير في الجاهلية
سيدا كثير المال . حليما ، معروفا بالورع . ولهذا كان يكره الهجاء
كرهاته الناسك الأثام ، وقد صرح مرة بهجاء قوم حصن في قوله :
قصيدة طويلة :

(١) الخنساء : هي غير السيدة تماضر أخت صخر

-- ٤٢٩ --

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء ؟
فان قالوا النساء مخبات فحق لكل محصنة هدا (١)
فأسف لذلك أسفاً شديداً وقال : « ما خرجت في ليلة ظلماء ، إلا خفت
أن يصيبني الله بعقوبته لهجائي قوما ظلمتهم » .

ولا كذلك الأعشى في هذا كله فقد كان خاله عبداً من نخاعة وأبوه قيس
ابن جندل قاتل الجوع لم يكن له في قومه ما كان لأبي سلمى وخاله وقد تيره
بذلك جهنم أحد معاصريه من شعراء قبيلة قيس بن ثعلبة فقال :

أبوك قاتل الجوع قيس بن جندل وخالك عبد من نخاعة راضع
فدشاً في اليمامة نشأة غير المياسير ، وأخذ في الزاني إلى هودة بن علي
صاحب اليمامة ببعض المدائح فيه حتى قر به منه ، ثم جعل الشعر متجراً ثم
اقترب من بني عبد المدان بنجران ، فأجزل لهم الشاء ، وأجزلوا له المعطاء ،
ثم وفد على ملوك الحيرة ، وهدح الأسود بن المنذر أخا النعمان ، وما زال
يلتجع البلاد متكسباً بشعره ، حتى وفد على ملوك فارس ، ولهذا كثرت
الفارسية في شعره ، من أسماء الأشربة وآلة الملامى ، كالنساء والبربط (٢)
وغيرهما ، وكأسماء الأزهار في قوله :

لها جلسان عندها وبنفسج وسيسنبر المرزجوش منمها (٣)
وآس وخيري ووردوسوسن يصبحن في كل دجن (٤) تغمها (٥)

(١) الهداء زفاف العروس إلى زوجها ، ومعنى البيت : إنني حصن إن قالوا :
نحن النساء مخبات ، يجب أن يزفن إلى أزواجهن وهو كلام في غاية التحقير .

(٢) البربط العود ، أعجمي ليس من ملامى العرب ، وقد عر بته حين سمعت به

(٣) المنمنم المصفر الورق

(٤) الدجن : ظلام الغيم في اليوم المطير

(٥) تغيم كان ذا غيم . الجلسان والبنفسج والسيسنبر والمرزجوش والآس

والخيري والسوسن : كل هذه ضروب من الرياحين .

وقد سمعه كسرى يوما يتغنى بقوله :

أرقت وما هذا السهاد المأورق وما بي من سقم وما بي تعشق؟

فقال « ما يقول هذا العربى » فقالوا : يتغنى بالعربية فقال : فسروا قوله ، قالوا : زعم أنه سهر من غير مرض ، ولا عشق ، قال « فهذا الصبي » ، وعندى أن هذا من قصور المترجم وسوء فهم من ترجم له ، فإن الشاعر أنكر على نفسه هذا السهاد ثم بين سببه بعد ، على أن أسباب السهاد لم تنحصر في السقم والعشق واللصوصية حتى يتم ما فهمه كسرى .

ومن هنا تعلم مقدار مصيبة الأمام بالتراجمة ، وخاصة مصيبتنا بضمائرهم اليوم ، وهم ألسنتنا عند السياحين وغيرهم ، من لا يبالون أن يأخذوا علمهم بنا من أفواه هؤلاء الجملة ، المتصدرين للإرشاد .

ولقد كانت خاتمة مطافه ، أن قصد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومدحه بالداية التي طلعا :

ألم تفتن عيناك ليلة أرمد (١) وبت كما بات السليم مسهدا ؟
وايكنه طمع في جائزة قریش (٢) فأخذوا ورجع أدرجه فما كاد يبلغ بلده منفوحة باليامة حتى رمى به بعيره فقتله ، ولقد صدق في صفة نفسه وطلبه للمال كل حياته بقوله في آخر قصيدة رويث عنه :

وما زلت أبغى المال مذ أنا يافع وايدا وكهلا حين شبت وأمردا
وقوله في أخرى :

وطوفت للمال آفاقه عمان فخص فاوريشلم
أتيت النجاشى فى داره وأرض النبط وأرض العجم

(١) أرمد الرجل : افتقر أو أجذب وهلك مواليه

(٢) جائزة قریش مائة من الإبل جعلوها له على أن يعود عن قصده النبي صلى الله عليه وسلم وينظر سنة ، وبعد ذلك يكون مع الغالب

فنجران فالسرو من حمير فأى مرام له لم أرم
ولهذا لم يكن يتخرج من الهجاء المقذع (١) ، وقد بلغ من أمره أنه كان لا يهجو
أحدا إلا وضعه ، ولا يمدح أحدا إلا رفعه ، وقد سمته العرب صناعتها لجودة
شعره أو لغنائهم به ، أو لأنهم شبهوه بالصنّاج ، وهو الضارب بالصنّج ، وهي آلة
بأوتار يضرب بها فيجتمع الناس لسماع شعره كما يجتمع العرب على الصنّاج ،
ويرجع هذا ما كان له من المشاهد في عكاظ . وإلى هنا فقد عرفنا حال
الرجلين نشأة وأخلاقا . فلنبدا في موازنة شعريهما .

٤ - وأجود ما قال زهير في المدح قوله :

قد جعل المبتغون الخير في هرم والساثلون إلى أبوابه طرقا
إن تلقى يوماً على علاته هراً تلقى السباحة فيه والندى خلقاً (٢)
لو نال حى من الدنيا بمنزلة وسط السماء لالت كفه الأفقا
وقوله :

متصرف للمجد معترف (٣) للنايات يراح للذكر
جلد يبحث على الجميع إذا كره الظنون جوامع الأمر
فلأنت تفرى (٤) ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى
والستر دون الفاحشات وما يلقاك دون الخير من ستر
لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر

(١) المقذع : المملوء شتائم ومكروها

(٢) أى أن تلقه على قلة ذات يده تجده سمحاً ندياً فكيف به على غير الملامات

(٣) المترف : الصابر

(٤) تفرى : تبعد . وتخلق : توجد ، والمعنى : ولأنت توجد فتباعد ، وبعض

القوم لا تبعد فيما يوجد

وقوله :

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السباحة والبذل
وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل يثبت الخطي إلا رشيجه (١) وتغرس إلا في منابتها النخل

وقوله :

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وقوله :

لو كان يقع فوق الشمس من كرم قوم لأولهم أو يجدهم قعدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا مرزءون بهاليل إذا قعدوا
وقال الأعشى في مدح المخلق :

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم فأنجد أقوام به ثم أعرقوا (٢)
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقروين يصطليانها وبات على النار الندى والمخلق
رضيعي لبان ندى أم تحالفا بأسهم داج عوض لا تفرق

وقال :

ما النيل أصبح زاخرا من مده جاءت له ريح الصبا لجرى لها
يوما بأجود نائلا منه إذا نفس البخيل تجهمت لسؤالها

وقال :

ولو أن عز الناس في رأس صخرة مليلة (٣) تعي الأبى الخدما
لأعطاء رب العرش مفتاح بابها ولو لم يكن باب لأعطاء سلما

(١) الخطي الرمح نسبة إلى الخط وهي جزيرة بالبحرين، والوشيج: القنا الملثف

(٢) أنجدوا : ذهبوا إلى نجد ، وأعرقوا : ذهبوا إلى العراق

(٣) المللم : المجتمع المدور المضموم

- ٤٤٣ -

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ولا بحر بانقيا إذ أراح مفعما
بأجود منه نائلا إن بعضهم إذا سئل المعروف صد وججها (١)
وقال :

لا يرقع (٢) الناس ما أوهى وإن جهدوا
أن يرقعوه ولا يوهون ما رقعا
غيث الأرامل والأيتام كلهم لم تطلع الشمس إلا ضرأ ونفعا
وقال :

المهينين ما لهم في زهان السوء حتى إذا أفاق أفاقوا
وقال :

فرع نبع يهتز في غصن المجد عظيم الندى كثير الجمال (٣)
وقال :

قبل امرئ طلق اليدين مبارك ألنى أباه بنجوة فسما لها
هذا أجود ما رأيت من مدائح الرجلين ، وكل منهما انفراد بهمان ،
لم يشاركه فيها صاحبه . . فأما زهير فقد انفراد بكل معانيه ، في الأبيات
المختارة ما عدا قوله :

من يلقى يوماً على علاقته هرما يلقى السباحة فيه والندى خلقا
وقوله :

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
فإنه شارك فيهما الأعشى في قوله : المهينين ما لهم الخ ، وقوله : قبل
امرئ الخ ، وقد قصر الأعشى عن زهير في هذا المعنى فإن الأعشى قال

(١) ججها : لم يقدم

(٢) يرقع الثوب ونحوه يلحم خرقه ، وأوهاه خرقه أوهياه للتخرق

(٣) الجمال الدية ، يحملها قوم عن قوم

د لانهم يهيشون ما لهم في زمان السوء حتى إذا ما أفاق الزمان أفاقوا من إهانة المال ، ، ولكن زهيراً قال « إن الذي يلقي هرماً على قلة ذات يده في أى وقت كان يلقاه سمحاً جواداً يصد عنه الجود والسماح . صدور الغرائز ، فما بالك به أيام الرخاء . وسعة العيش ، فزاد في المعنى زيادة رائعة ، ولم يقيد بقيد الأعشى الذي جعل يديه لا يسير كما سار بيت زهير .

فأما البيت الثاني : فإن معنى الأعشى فيه أجود لأنه بين أن الممدوح سما بنفسه إلى المنزلة العالية التي كان فيها أبوه ، فأثبت أنه عمل للمجد حتى بلغه ، وقد مهد لذلك بقوله « طلق اليدين مبارك » .

وأما زهير فقال إن خير الممدوح موروث فأثبت له الحسب ولم يشر إلى أنه في جدد بلوغ ما هو فيه ، على أن قوله « أبوه » قد يشعر بأنهم جادون ولكن ذلك محتمل لا مقطوع به كما في بيت الأعشى .

ه - هذا وبقى أن نقارن بين المعاني الرائعة مما اخترنا من شعر الشعارين فنقول ليس للأعشى إلا معنيان رائعتان أحدهما قوله « لم تطلع الشمس إلا ضر أو نفعاً » فإنه معنى ضخم في لفظ نخم مهد له بالبيت قبله وهو قوله :

لا يرقع الناس ما وهى وإن جهدوا أن يرقوه ولا يوهون ما رقما
فأحكمه أيما إحكام ، ووضع موضع النتيجة من المقدمات الصحيحة ،
والثاني قوله « وبات على النار الندى والمخلق » فإنه من أبدع الكنايات عن وصف المخلق بالسكرم وقد مكنها فضل تمكن وزادها حسناً بقوله بعد :

رضيمى لبان ندى أم تحالفا بأسهم^(١) داج عوض لا تنفرق
فإذا كان المخلق قد ارتضع هو والندى من ندى أم واحدة ، وتحالفا بعد على الاصطحاب بما يخالف به من يبيع نفسه للدفاع عن بيضة قومه فيغمس يده في الدم ليستحق إهراق دمه ، وإن كانت يمينه غموساً . إذا

(١) الأسهم الدم نغمس فيه أيدي المتحالفين

كان المحلق هو والندى كذلك كان الندى فطريا فيه ؛ لا يفارقه حتى عسرتة ،
أو تفارق نفسه بجسمه .

أما زهير فله كناية لا تنقص عن هذه معنى وتزيد عنها رشاقة وعبارة
وهي قوله :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر
فإنه صدر الكلام بلوهي من مقربات المبالغة ومحسناتها ، ثم جاء بما يفيد
أنه خير من البدر ليلة تمامه بأبداع كناية وهي قوله « كنت المنور ليلة البدر »
لأن نوره غلب على نور البدر فلا يظهر البدر منه إلا كما يظهر من النجم في
رائحة النهار ، وهذا معنى دقيق في لفظ وجيز رشيق .

وقد جاء زهير بما لم يحمى به سواه من شعراء الجاهلية والإسلام فيما علمت
وهو قوله « كانك تعطيه الذي أنت سائلة » وقوله :

جن إذا فرغوا إانس إذا أمنوا مرزءون بها ليل (١) إذا قصدوا (٢)
فإن الأولين في المدح بالجد ، غاية لم يبلغها سواه ، وأما الثالث فله روتان
لفظية ومعنوية ، فأما اللفظية فهي المقابلات البديعة ، والتقاسيم المحكمة ، وأما
روعة المعنى ، فلما تراه فيه ، من غرر الأخلاق ، التي هي لباب ما يلتهى إليه
عقل العاقل ، وحكمة الحكيم ، إذ أراد أن يختار الأنفسهما أشرف الفضائل
ومن أعلى الكنايات عن الحمد قوله :

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس بمخلد
وهذا وما تقدم لا نظير له في كلام الأعشى ، على أن زهير في المديح
مختارات كثيرة لا تكاد تبعد عما ذكرنا . وقد استقرت كلام الأعشى
في المديح فما رأيت يعلو إلا على سبيل الندور ، ولهذا : كان زهير أمدح ،
وهو في مدحه أصنع .

(١) البهلول السيد الجامع لسكل خير

(٢) ويرى : جهودا ، من جهد عيشه كاستعب نكد

٦ — وأجود نسيب زهير مطلع القافية التي مدح بها هرما وأباه وإخوته
وقد غنى به وهو قصيدته :

إن الخليط (١) أجدالين فإنفرقا وعلق القلب من أسماء ما عاقما
وقوله من قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المري :
وقد كنت من سلمى سنين ثمانيا على صير (٢) أمر ما يمر وما يخلو
و كنت إذا ما جئت يوما الحاجة مضت وأجبت حاجة القدماء مخلو (٣)
وكل محب أحدث النأي عنده سلو فؤاد غير حبك ما يساو
وقوله :

قف بالديار التي لم يعرفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم
كأن عيني وقد سال السليل (٤) بها وعبرة مام لو أنهم أم
غرب (٥) على بكرة أولؤاؤ قلقي في السلك خاز نه رباته النظم (٦)
وقال الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وذاعا أيها الرجل؟
غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشى الهويناء كما يمشى الوجى الوجى
علقتها عرضا وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل
وعلقتني أخرى ما تلائمني فاجتمع الحب حب كله تبل (٧)
فكلنا مغرم يهذى بصاحبه ناء ودان ومحبول ومحبيل (٨)

-
- (١) الخليط : المخاط (٢) الصير : الطرف
(٣) أجبت : دنت أى متى انقضت حاجة دنت حاجة
(٤) السليل : واد . وما زائدة ، والمعنى هم عبدة لى لو أنهم قريون فما حالى
على البعد (٥) الغرب : الدلو (٦) النظم : جمع نظام
(٧) تبل : سقم
(٨) المحبول : الذى نصبت له الحباله وهى ما يصاد بها والمحبيل الذى أخذ فيها

وقال :

وأذكرتني وما كان الذي نكرت منى الحوادث إلا الشيب والصلما
والناظر إلى غزلها يرى بينهما فروقا .

الاول : أن غزل الأعشى في سهولة لفظه ، وخفة روحه أحب
من غزل زهير .

الثاني : أن المعاني النابهة في كلام الأعشى أكثر منها في كلام زهير على
أنه ليس في كلام زهير جميعه ما يعادل قول الأعشى « وأنكرتني - البيت ، لأنه
معنى نادر يحى . مثله للفطرين ، وقلة يوفق له المذكفون .

الثالث : أن الأعشى لم يشغل نفسه بوصف الديار ورحلة الراحلين ،
ولم يملأ كلامه بالامكنة ومحاط السفر كما فعل زهير في مطلع معلقته بل شغله
وصف صاحبته بالوقار والعفة والأمانة ، وكال الزينة ، وطيب الرائحة ،
ثم وصف حال المحبين من توزيع أهوائهم ، على من لا يحبونهم . ثم
ما يصير اليه أمرهم بعد هذا .

الرابع : أن الأعشى أغزر مادة من زهير في هذا الباب ، والظاهر أن
زهيراً لورعه كان يتغزل على طريقة الشعراء ، ولم يكن هو عاشقاً . أما الأعشى
فقد كان يعاقر الراح ، ويعاذل الملاح ، خصوصاً أيام أعياد نجران وفي أيام
الاحاد حينما كان يقول :

نازعهم قنب الريمان متكثا وقهوة مزة راووقها خضل
أما زهير فليس في المختار من غزله أجود من قوله :

وقد كست من سلبى سنين ثمانيا على صير أمر ما يمر وما يحلو
وقوله :

وفارقتك برهن لا فكك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا
ومعنى الاول : أنه كان من حبا ثمانى حجج على طرف في منزلة بين

المر والحلو إذ لا يأس ولا وصل وهو معنى حسن لكنه يجرى مثله في
متعارف الناس ومتناول المحبين من عامتهم ،

وأما الثاني وهو رهن القلب عندها فإنه ليس شيئاً ذاتاً على أصل
الحب الصحيح وليس أمره فيه يُبدع هذا مع غض النظر عن التكرار في
قوله (لا فكاك له) وقوله (فأسمى الرهن قد غلقا) واستعماله عبارات .
هي بكلام الفقهاء أشبه منها بكلام الشعراء .

والأمر العجيب أن زهيراً على ورعه يشبه ريق صاحبه بعد النوم
بالخمرة الممتلئة . ولا أدري : أهو على تقواه يستطيب رائحتها . والأعشى
على تهتكه يشبه أنفاس صاحبه بأنفاس الرياض . وما كان أخرى كلا
أن يكون محل الآخر في ذلك ولكن خطرات الشعر لا تنقيد بحال الشاعر
الخامس أنه ليس في كلام الأعشى شيء من التعميد ولا المبالغة المردودة
كما في كلام زهير في قوله :

كأن عيني وقد سال السليل بها وعبرة ما هم لو أنهم أمم
غرب على بكرة أو لؤلؤ قلق في السلك خان به رباته النظم
فإن عجز البيت الأول . لا يفهم إلا بعد أن تتأمل في « ما » لتعرف أنها
ذائدة وفي عبرة لتعرف أنها خبر مقدم وتنبصر في جواب لو . والمعنى وهم
حزن لي لو أنهم قريبون فما حالي إذا كانوا بعيدين . وفيه عيب آخر
وهو تعليقه على الثاني ، وأما المبالغة المردودة في الثاني فهي تشبيه عينه
بالدلو على البكرة من غير أن يقول هذا التشبيه بما يقرب المبالغة فيه ،
ولكن لا يخفى حسن التشبيه الذي هو قوله « أو لؤلؤ قلق في السلك »
فإنه في غاية الإحكام ، لأن وقوع حبات اللؤلؤ من النهر لا يسكاد يفرق
عن وقوع ماء الشؤون من العيون .

وإلى هنا عرفنا أن الأعشى أغزل وأطبع .

٧ - وللشاعرين حكم كثيرة :

قال الأعشي في آخر عمره من القصيدة التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقي	ولا قيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثل	وترصد الأمر الذي كن أرصدا
فإياك والمينات لا تقربنها	ولا تأخذن سهما حديدا لتقصدا
وإذا النصب المنسوب لا تقربنه	ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
وإذا الرحم القربى فلا تقطعنه	لعاقبة ولا الأسير المتيدا
ولا تسخرن من بأس ذى ضرورة	ولا تحسبن المال للمرء بخلا

وقال :

فإن القريب من يقرب نفسه لعمر أهلك الخير لا من نلسبا
وقال زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفره (١) ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيمخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذم
ومن هاب أسباب المنايا بفلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن لم يزد (٢) عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يعتر ببحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومها نكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكان ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التسكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

(١) يفره : يكثره أو يحفظه (٢) أى من لم يحرم حريمه ضاع

زهر هنا أكثر حكمة ، وأغزر مادة ، وأشد غوصا على المعاني
الآخذة بالنفس ، والرأى الذى لا أظن أني أخالف فيه أن زهيرا هنا أشعر
من الأعشى ، وإنى تارك تعليل ذلك للذوق السليم للصعوبة وإن كان لظهوره
ظهورا بينا .

٨ - وللأعشى في الفخر والحماسة الكثير من الجيد الرائع وليس لزهر
فيها نصيب يذكر ، وأما الأعشى فله منها حظ وافر ، من ذلك قوله :

وإن منيت بنسا في كل معركة لا نلنا عن دماء اقوم نقتل
قالوا انطراد فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإنا معشر نزل
قد نخب العير من مكنون نائله وقد يشيط على أرماحنا البهل

وله من مثل هذا كثير ، وقد تصفحت شعر زهير فما وجدت له إلا بيتا
واحدا يشبه هذه الأبيات وهو قوله :

قد أتيتك القرن مصفرا أمامه يمد في الرمح مبد المائح (١) الأسن (٢)

٩ - ولم أر الشعراء من اشترك في شيء من الأوصاف اشتراكهما في صفة
الصيد . قال زهير في ذلك قصيدته :

إذا ما غدت ما نبتغى الصيد مرة متى نره فإننا لا نخسأله (٣)
وقال الأعشى في ذلك أيضاً قصيدته :

واقعد أغتدى إذا صقع (٤) الديك بمهر مشذب (٥) فقال

فإذا قطعنا النظر عن بقية أوصاف الأعشى في غير هذا الموضع من نعت
القصور والقلاع والليل والنهار ومجالس اللهو ، وتفوقه فيها على زهير وجعلنا

(١) المائح : الداخل في البئر ليلا الدلو لقله ماها (٢) الأسن : المنير

(٣) أى لا نسارقه بل نجاهره لو ثوقنا بجودة فرسنا

(٤) صقع الديك : صاح

(٥) المشذب : قليل اللحم

وصفه الاصطياد يازاء وصف زهير له ، لانجد مندوحة من أن نقول إن الأعشى أحكم في وصفه وأدق ، فإنك تجده قد بدأ الأمر من أوله من حين صياح الديك إلى آخره من الأكل والسماع والشراب ، ولا نجد ذلك في كلام زهير فإنه وقف بالوصف عند اصطياد الحمار ، ثم إن جواد زهير أباته عاريا هو وعلامه من شماسه وعدم خضوعه ثم لما تم له أن يركبه غلامه هوى به إلى حيث لا يعرف النجاة ، ولا كذلك جواد الأعشى الذي قال فيه في إجادة وبراعة :

جواد يملأ العين عاريا ومقودا ومعري وصافنا في الجلال
ثم إذا نظرنا إلى ما اتحدا فيه من تشبيه الحصان عند كرهه على الصيد فرى أن تشبيهه الأعشى مصور للمشبه حتى كأنه رسمه وذلك قوله :

يجرى بالغلام شبه حريق في يابس تذروه ريح الشمال
فقد اطلعنا على لون الحصان وأنه لا يرى على الأرض وأنه يسرع إسراع ريح الشمال في اليبس . وأما زهير فإنه شبهه بالدفعة من المطر فلم ينظر إلا إلى السرعة ، ومع هذا لم يكن جواده في الإسراع بالاصطياد كجواد الأعشى . ولا ما قصه كذلك فإن الأعشى يقول :

لم يكن غير لمحمة الطرف حتى كب تسمما يعتامها كالمغالي
وأما جواد زهير فلم تعرف مدة اصطياده ولم يصطد إلا حمارا واحدا بعد أن أطل وصية غلامه ، هذا من جهة المعنى وأما من جهة الأسلوب فإنه في كلام الأعشى أسلس وأحكم .

١٠ — ولولم يكن زهير ورعا لكان أجهى من الأعشى ولكن ورعه أبى عليه أن ينطلق لسانه بالفاحشات ومخازي الناس ، ولهذا لم يهج إلا مرة واحدة كما أسلفنا وقد كاد يذوب أسفا عليها ، ولكنه دل بهذه المرة على أنه ناضج في هذا الفن لا ينقص عن درجة الدحول فيه ، ولولم يكن له منه إلا البيتان المنتقذان لكنني ، فكيف به إذا كان له في باقي القصيدة شيء كثير ، لا يكاد ينزل

غن درجتهما مثل قوله :

فلم أر معشرا أسروا هديا ولم أر جاز بيت يستبأ (١)
فملا آل عبد الله عدوا (٢) مخازى لا يدب لها الضرا (٣)
أرونا ستة لا عيب فيهما يسوى بيننا فيها السوا (٤)

وقد كان زهير هجا آل حصن لأن رجلا كان في جوارهم قامرهم على ماله وأهله فقمر فأخذوا ماله وامرأته . وأما الأعشى فقد هجا كثيرين واستباح أعراض الناس لشهوات نفسه ولأوهى الأسباب ، ومن ذلك أنه كان معه جائزة من الأسود العنسي ، وكانت حللا وعنبرا ودهنا ، فلما مر ببني عامر ضافهم عليها ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له أجرني ، قال قد أجرتك . قال من الجن والإنس ؟ قال نعم ، قال ومن الموت ؟ قال لا ، فأتى ابن الطفيل فقال أجرني ، فأجاره حتى من الموت . فقال له الأعشى : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلك الدية ! قال الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت . فمدح عامرا ، وهجا علقمة . فقال علقمة : لو علمت الذي أراد كنت أعطيته إياه ، فانظر كيف هجا شخصا أراد أن يجيره من الجن والإنس ، ولم ياب عليه إلا الإجارة من الموت الذي لا يجار منه أحد ، ولم يفهمه الأعشى مراده ، وأخذ يقذع في دجائه بلا سبب صحيح ويقول :

تيفتون في المشتى ملاء بطوانيكم وجارانيكم غرثي يبيتن خائضا
كلا أبويكم كان فرع دعامة ولكمهم زادوا وأصبحت ناقصا
فمض حديد الأرض إن كنت ساخطا بفيلك وأحجارا كلاب الروادها (٥)

(١) أى تؤخذ زوجه أو يقتل . والهدى : الرجل ذو الحرمة

(٢) أى انركوا مخازى لا يخفى أمرها

(٣) الضراء ما توارين به من شجر والمعنى مخازى لا يطامع في سترها

(٤) أى أروني طريقة لاتعاب عليكم تدوى بيننا في الحق

(٥) يقال رمص الحائط إذا دعه

هذا ولا أحب أن أكثر من ذكر الهجاء . وإنما أقول إن الأعشى فيه
أكثر قولا ، وإنه ينعت الناس بما ليس فيهم ، وإن زهيرا أقل قولا ، وأشد
على المعنى غوصا . ولا ينعت أحدا إلا بما هو فيه ، ولم أر في كل ما قرأته
للأعشى من الهجو أظح من قوله :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يتن خنائها
وهو دون قول زهير :

فلم أر معاشرأ أسروا هديا ولم أر جار بيت يستبها
والهدى : الرجل ذو الحرمة وهو المستجير بالقوم ، الم يجر أو يأخذ عمدا .
فإن أخذ العهد وأجير فهو حينئذ جار .
فالأعشى وصف قوم علقمة بأنهم لامرؤة لهم لتركهم النساء الجارات
جاراتهن في وقت لا كسب لهن فيه ، وهم ملاء البطون لا تعطفهم رحمة ،
ولا تأخذهم بهم شفقة .

وزهير يصف آل حصن بأنهم يأسرون المستجير بهم ، ويستبيحون
حرمته ، ولكن لفظ الأعشى في بيته أرق ، وأسلوبه أعذب ، وتأثيره في النفس
أشد ، ولهذا أرى أنهما يتعادلان في هذا الفن .

١١ - ولا مجال للمفاضلة في الخريات ومجالس الشراب . فإن الأعشى
فيها ابن بجدتها ، وهو في الجاهليين كآبي نواس في الإسلاميين ، وقد سد هذا
الباب على زهير ورعه .

وأما الأعشى فإن شيطانه لم يكتف بفتح الأبواب له بل كسرهما فكان
كل حياته يشرب ويطرب بمثل قوله :

من نخر عانة (١) قد أتى لختامها حول تسل غمامة المزكوم

(١) عالة : بلدة على القمات ينسب إليها نوع من الخور الجيدة .

وقد تغنن في وصف الخمر والكأس والساقى والنديم والمطرب . فمن ذلك قوله :

وكأس كعين الديك باكرت خدرها
بفتيان صدق والنواقيس تضرب
سلاف كأن الزعفران وعندما يصفق في ناجورها ثم يقطب
لها أرج في البيت عال كأنه ألم به من بحر دارين أركب (١)
إلى غير ذلك مما قاله في الخمر ؛ ولا محل لرواية أجود ما قبل فيها .

١٢ - وللموازاة بين الشاعر في مطالع القصائد نذكر بعض مطالع قصائد الأعشى ، قال :

- ١ - ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي ؟
- ٢ - ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطبق وداعا أيها الرجل ؟
- ٣ - أرقى وما هذا السهاد المورق وما بي من سقم وما بي تعشق ؟
- ٤ - ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم مسهدا ؟
- ٥ - رحلت سمية غدوة أحمالها غضبي عليك فما تقول بدالها
- ٦ - شافتك من قتلة أطلالها بالسفح فالحبتين من حاجر
- ٧ - ألا قل لثيا قبل مرتها اسلمى تحية مشتاق إليهما مسلم
- ٨ - ألم خيال من قتيلة بعد ما وهى حبلى من حبلى فتصرما
- ٩ - أنرحل من ليلى ولما تزود وكنت كمن قضى اللبانة من دد

ومن مطالع قصائد زهير ، قوله :

- ١ - أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالماشلم
وقوله :
- ٢ - لمن طلل برامة لا يريم عفا وخلاله حقب قديم
وقوله :

(١) الأركب : واحد مراكب البر والبحر .

٣ - عفا من آل فاطمة الجواء فيمن فاقوا بدم فالحسنا (١)
وقوله :

٤ - صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلمو

وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل (٢)

٥ - صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرس أفراس الصبا ورواحله (٣)

٦ - لمن الديار غشيتها بالدفند كالوحي في حجر المذيل المخلد

٧ - غشيت ديارا بالبقيع فثهمد درارس قد أقوين من أم معبد

٨ - إن الخليط أجد البين فافرقا وعلق القلب من أسماء ما علقا

٩ - إن الخليط أجد البين فانبجروا وأخلفوك عدل الأمر الذي وعدوا

فبين مطالع الرجلين فروق ظاهرة : الأول : أن مطالع زهير مكررة المعاني فإن الأول منها والثاني والرابع والخامس والتاسع في السؤال عن الظلال والسابع والثامن في سأل قلبه عن صاحبه ، والحادي عشر والثاني عشر في سفر صاحبه ، وأنها نوت ألا تصله ، والعاشر مطلع تافه ، وأما الثالث فغير مكرر ، وهو متوسط الجودة . . الثاني : أن مطالع الأعشى أشد تأثيراً في النفس ، وأنها : أغزر معنى ، وذلك أما لو قارنا مطلع الأعشى الأول وهو قوله :

ما بكاه الكبير بالاطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

بأحسن مطلع لزهير وهو أول معلقته لرجح الأعشى رجحاناً عظيماً فإن الأعشى أنكر على نفسه وقوفه بالاطلال وهو كبير ، وكذلك سؤال الخوالداني لا يبين كلامها كما قاله ابيد ، فأثبت أنه بكى وأنه سأل الظلل لدهشته ، فلما لم يجبه ، ورأى من نفسه شيخاً عاشقاً يسأل سؤال الخرق ، أنكر ذلك على نفسه ،

(١) الجواء : ما انحدر من الأرض ويمن والقوادم والحساء مواضع في بني غطفان

(٢) مرضعان (٣) أي عريت أفراس الصبا ورواحله التي كنت أركها للهي

وأما زهير فلم يزد على أن قال : هل هذه الدمنة التي لا تبين من منازل أم أوفى ؟ وهذا السؤال من شأنه أن يحجى ، عند كل من عرف أم أوفى ، وكانت مارا بأطلالها سواء أكان محبا أم غير محب ، فليس في مطلعته شيء يحجى ما عنده من الشوق ويقف في مصاف العشاق ، وقد تكرر هذا المعنى منه في المطالع من غير أن يزيد عليه شيئا ، وليس له مطلع ما يكى فيه أو أنكر على نفسه البكاء ولا كذلك الأعشى .

وكذلك لا نجد نظيراً من كلام زهير لمطلع الأعشى في الوداع خصوصاً قوله « وهل تطيق وداعاً أيها الرجل » .

وأما زهير فإنه قال في مطلعين : إن الخليط أجود البين ، ولم يذكر أنه هم بتوديعه أو خشى وقفة الوداع فوجم منه كما فعل الأعشى .

نعم إن زهيراً له مطلع واحد يتفوق فيه على الأعشى في نظيره ، وذلك قوله :

صح القلب عن سلبى وأنصرباطله وعرى أفراس الصبا ورواحله
وقول الأعشى :

صح القلب عن ذكرى قتيلة بعدما يكون لها مثل الأسير المكبل
فإن في بيت زهير استعارة حسنة ، وزيادة بدیعة ، لم يقع مثلها للأعشى في بيته ، ولعل الأعشى كان على نية أن يعود ؟ فلم يؤكد كما أكد زهير في تعربة أفراس الصبا ورواحله ، التي كان يركبها للهو ، ويؤيد هذا قوله في مطلع آخر :

ألم خيال من قتيلة بعدما وهى حبلها من حبلنا فتصرما
فالأعشى أنسخ في مطالعه ميدانا ، وأكثر تفنناً ، ألا تراه ذكر الخيال والماسم بعد الانصرام في هذا المطلع ، والشوق والتسليم في مطلع آخر ، وهو قوله :

ألا قل لتيا قبل مرثا اسلبى تحية مشتاق إليها مسلم

وإنكاره اتخذ الزاد قبل الراحلة في قوله :

أترحل من ليل ولما تزود وكنت كمن قضى اللبانة من دد
فظهر أن الأعشى في المطالع يتفوق على زهير في كثرة تفننه وروعة
معانيه وسهولة أسلوبه .

١٣ — أما من حيث المخالصة فإن أكثر مخالصة زهير مقتضبة كما في
معلقته ، حيث انتقل من الكلام في الظعان إلى مدح الحارث بن حوف ، وهرم
ابن سنان فجأة . وأما الأعشى فأكثر مخالصة تكاد لا تستشعر النفس بانتقاله
إليها مثل قوله :

فأليت لا أرثي لها من كلاله ولا من حفي حتى تزور محمدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا
ولا أطيل بإيراد أسرار الشواهد ، وإنما أقول : إذا كان انتقال الشاعر
من معنى لمعنى لمناسبة محكمة تسرق نفس القارىء من الأول إلى الثاني هو الأنضل
فالأعشى في هذا أمثل من زهير .

١٤ - وزهير أيسر أمثالا ، وأغزر حكمة ، ولا تكاد تجد مثالا للأعشى
مثل قوله : وإنما العزة للكاثر ، حتى تجد أضعافه لزهير مثل :

ومهماتكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ولولم يكن لزهير من ذلك إلا آخر معلقته لكفى .

١٥ — أما عن طبع الشعراء فقد رأيت اتفاق الرواة على هذه المسألة
في محله وهو أن زهيراً أصنع ، والأعشى أطبع ، وأذواق الناس في استحسان
أحد الوجهين مختلفة ، وأما أنا فإني ميال إلى الأطبع لأنه مقتضى الفطرة .

والخلاصة : أن زهيراً أيسر أمثالا ، وأغزر حكمة ، وأمدح وأصدق
وأصنع ، وأن الأعشى أغزل وأنخر وأوصف وأجود مطالع ومخالص ،
وأما الخمریات ومجالس الشراب والأنس فهو ابن بجدتها الذي لا يضارعه

- ٤٥٨ -

في الجاهلية أحد فيما نعلم ، وأما المهجاء فالشاعران فيه سيان . وخلاصة ذلك كله : أن زهيراً تفوق في ثلاثة فنون ، والأعشى في ستة ، وأن روح الشعر في الأعشى أظهر منها في زهير ، وللقارىء أن يحكم بعد ذلك بما يشاء .

قصيدتان جاهليتان

- ١ -

أما الأولى فهي معلقة : عمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر الجاهلي المشهور (٥٠٠ - ٦٠٠) ، ومطلعها :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
وأما الثانية فهي بحجرة أمية بن أبي الصلت :

عرفت الدار قد أقوت سدينا لزيبب إذ تحمل بها قطينا

والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر ، وملاحها الحربية التي انتصرت فيها على أعدائها ، وهي فريدة في نوعها ، فهي جدرة حقاً أن تسمى ملحمة ، لأنها تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ، ومنها يوم خزاز الذي انتصر فيه كليب قائد النزاريين على اليمنيين ، وفيها تهديد لأعداء تغلب ، وتلبية للملك عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٦٢ - ٥٧٩ م) كي لا يطيع بهم الوشاة أو يتحيز لبكر شقيقة تغلب ومزاحمتها في المجد والنفوذ والسلطان . . وقد بدأها الشاعر بوصف الخمر بما يعد ميزة فريدة لها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر ، وختمها بقوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عما وماء البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الرضيع انا فطاما تخز له الجبابر ساجدين
وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجل بعض معلقته أمام الملك عمرو بن
هند وهو الجزء الذي هدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك من الاستماع لوشاة
والميل معهم على قومه ، ومنه :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرتنا فخبرك اليقينا
أبا بورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قدروينا
ثم أكل القصيدة كلها ، وأنشدها في سوق عكاظ ، وقد عدتها
تغلب سجل مجدها ونفارها فاعتزت بها اعتزازا كثيرا ، ويقال إنها أضافت
إليها الكثير ، حتى بلغت أبياتها نحو ألف بيت ، وقال بعض شعراء
بكر فيها :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفأخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لفخر غير مستوم
وأما بجمرة أمية فقد تحدث فيها الشاعر عن مجد قبيلته « ثقيف » ،
وهي من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ والسلطان في الطائف من بين
قبائلها ؛ ولم يبدأ بوصف الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم بل بدأها كما يبدأ
الشعراء قصائدهم ، فذكر أطلال محبوبته « زيب » وعفاها ولعب الرياح
المعصرات بها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر بمجد القبيلة وشرف
الآباء فقال فيها قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البينينا
وكنا حيثما علمت معد أقننا حيث ساروا هاريننا
وتخبرك القبائل من معد إذا عدوا سعاية أولينا
بأنا النازلون بكل نعر وأنا الضاربون إذا لقينا

إلى آخر ما ذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجدهم ومنابتهم وما أرسدوه
لريب الدهر من الخيل والرماح والسيوف والشيب المجربين والشبان الأقوياء ،

— ٤٦٠ —

ووراثتهم المجدد عن كبرى تزار إلى غير ذلك من مظاهر الكبرياء والعزة والسيادة التي أضافها أمية إلى قومه . . ولا ندرى شيئاً عن التاريخ الأدبي للقصيدة ، وإن كنا نرجح أن الشاعر نظمها في مفاخرة من هذه المفاخرات التي تحدث كثيراً بين القبائل العربية وخاصة في العصر الجاهلي .

— ٢ —

والقصيدتان تنفقان في الموضوع والوزن والقافية ، وفي خيالهما الفني الغالب على القصيدتين ؛ وتنفقان كذلك في هذه المبالغة الواضحة في الفخر . بما لا يؤثر نظيرها من المبالغات في معاني الشعر الجاهلي إلا قليلاً ؛ كما تتشابهان في هذه السهولة الفنية الغالبة على القصيدتين وخاصة عندما ينتقل الشاعران إلى العرض الأصلي من قصيدتيهما وهو الفخر ، وليست هذه السهولة الفنية بعربية على الشعارين ، فارتجال عمر وقصيدته ومواقف الفخر فيها ، بما يقتضيه السهولة ، ونشأة أمية في الطائف ذات الخصب والزرع والثمار والهواء المعتدل والجو الجميل وتنقله في رحلاته التجارية بين الشام واليمن ونفاخته العامة وقراءته في الكتب السماوية ، كل ذلك رقق من طبيعته وهذب من أسلوبه وأكسبه مواهب فنية ممتازة ، وصقل من ملامكاته الأدبية ، فظهر آخر ذلك في شعره وضوحاً وسهولة وإسجاحاً .

وتتفق القصيدتان فوق ذلك في كثير من معاني الشعر وأساليب الفخر ؛ ومن مظاهر ذلك الاتماع هذه المعاني والأساليب والآيات :

١ — قال عمرو :

ورثنا الجـدد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبيننا

أى حتى يظهر الشرف لنا ، وقال : ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال وهو يتحدث عن الخيول الكريمة التي يخوض قومه عليها المعارك :

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بديننا
فقال أمية :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا بديننا
ونستطيع أن نوازن بين البيتين الأخيرين إذا علمنا أن وراثة المجد في
بيت أمية أبلغ في الفخر من وراثة الخيل في بيت عمرو ، وإن كانت وراثة
الخيول من أسباب المجد لأن الخيل وركوبها واتخاذها عتادا دليل الشجاعة
والبطولة وحب النضال ، وقول أمية « فأورثنا مآثرنا البنية » أبلغ من قول
عمرو : « ونورثها إذا متنا بديننا » لأن أمية ذكر أن أبناءهم ورثوا مجد الآباء
في حياتهم ، وأما عمرو فقد ذكر أن الأبناء سيرثون هذه الخيول بعد وفاة آبائهم ،
فلم يسند إليهم الشجاعة والبطولة وحماية الذمار في حياة الآباء ، وهذا قصور
في الفخر ، وقال أمية « البنية » وقال عمرو : « بديننا » فشهرهم أمية وأبان عن
وضوحهم ، وقال عمرو : « آباء صدق » فدل على شجاعتهم أو وضوح نسبهم
وطهارة أعراقهم ، وهي زيادة لانظير لها في قول أمية . وقد أخذ أمية لفظ
« قد علمت » من قول عمرو فقال :

وكنا خيثما علمت ممد أقبلنا حيث سماروا هاربينا

ب - ويقول عمرو : « وأنا المهلكون إذا ابتلينا » أي نهلك
أعدائنا ونبيدهم إذا اختبرنا بقتال الأعداء ، فيقول أمية : « وأنا الضاربون
إذا لقينا » ، فتجد قول عمرو أبلغ ، حيث نص على إهلاك الأعداء ، ولم يذكر
أمية إلا الضرب ، وإن كان يكتفي به عن الشجاعة والإقدام والعزيمة والجد
في طلب الأعداء ، ولكنه على أي حال لم يصور نتيجة الحرب كما صورها
عمرو بن كلثوم بقوله « المهلكون » .

ج - ويقول عمرو « وأما الممانعون لما أردنا » ، ويروي : الحاكمون
بما أردنا ، فيقول أمية « وأما الممانعون إذا أردنا » .

د - ويقول عمرو :

- ٤٦٣ -

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا
ويروى من مجهرة أمية :
وأما الشاربون الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا
هـ - ويعمول عمرو :

بفتيان يرون القتل بجداً وشيب في الحروب مجربينا
وقد روى من المجهرة :
وفتياناً يرون القتل بجداً وشيباً في الحروب مجربينا

- ٣ -

ومعلقة عمرو تمتاز بأنها الأصل الذى نسج على منواله أمية ، كما تمتاز
بتنوع أغراضها ، وبعلوها ، وأنها ملحمة تاريخية نادرة ، وهى إحدى
المعلقات السبع ، التى هى قصائد تحتل الذروة فى الشعر الجاهلى . وقد انتخبت
من بين القصائد الجاهلية لشهرتها وخصائصها الفنية والأدبية الممتازة . وقال
ابن قتيبة فى قصيدة عمرو : وهى من جيد شعر العرب .

أما قصيدة أمية فلا تبلغ إلا نحو الثلاثين بيتاً أو تزيد قليلاً فهى نثرية
قصيدة عمرو ، وقد وضعها النقاد مع المجمرات . . والمجمرات سبع قصائد
من الشعر الجاهلى رواها أبو زيد الأنصارى فى « المجهرة » ، وأصحابها هم :

١ - عبيد بن الأبرص ، وبجهرته مشهورة وهى فى الحكمة ومطلعها :

عينك دمعهما سرور كأن شأنهما شعيب

والسرور : الكثيرة الجريان . والشعيب : المزايدة ... وتشتهر بإضطراب
وزنها ، ومنها :

والمرء ما عاش فى تكذيب طول الحياة له تعذيب
من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

ب - عدى بن زيد ؛ وبجهرته فى الحكمة ومطلعها :

أتعرف رسم الدار من أم معبد؟ نعم ورماك الشوق قبل التجلد
وهى شبيهة بمعلقة طرفة فى وزنها وقافيتها وحكمتها ، وتنفع معها فى
مضى الآيات مثل :

عن المرء لا نسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
ج - النمر بن تولب ، وبجهرته فى الحكمة أيضا ومطلعها : د تأبى من
طلال عمرة مأسى .

د - أمية بن أبى الصلت ، وبجهرته موضع الحديث ، وهى فى الفخر .
ه - بشر بن أبى حازم ، وبجهرته فى الفخر بقومه وبطولتهم
وعزمهم ، ومطلعها :

لن الديار غشيتها بالأنعم ؟ تعدو معالمها كاون الأرقم
ز - خدش بن زهير ، وبجهرته فى الفخر بقومه أيضا ، ومطلعها :
د أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر ؟ .
ز - عنزة ، وقصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟
وبعدها بعض النقاد من المعلقات والآخرى من المحمدرات .

وهذه القصائد السبع لم توضع فى مرتبة واحدة لانفاق موضوعاتها ؛
إذ أن موضوعاتها مختلفة : ثلاث منها فى الحكمة وأربع فى الفخر . كما أنها لم
ترتب بالنظر إلى الناحية التاريخية ، إذ أن أصحابها لم يعيشوا فى عصر واحد ؛
فمعدى توفى نحو عام ٥٨٠ م ، وعبيد عام ٥٥٥ م ، وأمى عام ٦٢٤ م ،
وعنزة عام ٦١٥ م الخ ؛ فهى إذا إنما وضعت فى منزلة أدبية واحدة تلى
منزلة المعلقات الأدبية بالنظر إلى خصائصها الفنية الأدبية وحدها ، ويكاد
الناقد الأدبى يقف أمام تشابه شاعرية هؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية

في هذه القصائد ؛ فهذه القصائد السبع يشبه بعضها بعضاً في النواحي الفنية والفطرة الأدبية وفي خصائص الشعر والشاعرية ، وتكاد تكون متساوية في حكم النقد الأدبي ، وهي على أى حال تلي المعلقات في الجودة والمكانة الأدبية . وتستخلص من ذلك كله أن النقاد لاحظوا الفروق الفنية الكبيرة بين القصديتين فوضعوا الأولى في صف المعلقات والثانية مع المجهرات ، وفي الحق أن شاعرية عمرو في معلقته أقوى وأبين من شاعرية أمية في مجهرته ؛ سواء في الأسلوب أو المعاني أو الأغراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر .

-- ٤ --

ويرى الدكتور طه حسين في كتابه « الأدب الجاهلي » ، أنه لا يمكن أن تكون معلقة عمرو أو أكثرها جاهلية ، وقد شك الرواة في بعضها ، ويرجح أن تكون المعلقة منتحلة ، ونحن لا نذهب هذا المذهب ، فالمعلقة تمثل حياة جاهلية لقبيلة تغلب ، وتمثل شاعراً جاهلياً ، وتصور حياة عمرو الفنية والاجتماعية نفسها ، وهي شبيهة بالآثار الباقية من شعر عمرو ، وإن كان هذا لا ينفي أن تكون قد زيدت عليها بعض الآيات ؛ وقصيدة أمية نفسها تؤيد أن قصيدة عمرو جاهلية وأنها لم تنتحل بعد الإسلام على أيدي الرواة .

ونلاحظ على مجهرة أمية خلوها من الصبغة الديلية التي اشتهر بها أمية ، ويبدو أنه نظمها في شبابه قبل أن يقف نفسه وحياته وشعره على الجانب الديني وحده ، وتقليده فيها لعمرو بن كاثوم يؤكد ذلك وأنها نظمت قبل أن تكتمل شخصية أمية الفنية ، وقد يكون السبب الذي جعل أمية ينظم بمجهرته محتذياً فيها عمراً هو إعجابه بمعلقته أو روايته لشعره أو تشابه موقف الفخر الذي وقفه الشاعران ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن الرواة أدخلوا على المجهرة أمية بعض الآيات من معلقة عمرو وتشابه الوزن والقافية والخيال والموضوع في القصديتين ؛ ذلك لأن مجهرة أمية ليست طويلة ولأنه إذا حذف منها

الآيات المتشابهة لا يبقى منها في مقام الفخر إلا القليل من أبياتها، ولا يعقل أن ينظم الشاعر قصيدة في الفخر معانيها فيه بحدودة أو شبه محدودة . . ورواية أبي زيد للقصيدتين في كتابه دليل على إيمانه بصحة القصيدتين أولاً، وبأن المعاني المتشابهة فيهما نتيجة لاتفاق الشعارية أو للتقليد الأدبي ثانياً، وأبو زيد المتوفى عام ٢١٤ هـ راوية ثقة .

وبعد فلستطيع أن نقول : إن أمية قلد في مجمرته عمرو بن كلثوم في معلقاته تقليداً فنياً واضحاً ، فأخذ من المعلقة كثيراً من معاني الفخر وأسااليه ، وصاغ قصيدته على موسيقى وقافية معلقة عمرو . وهذا التقليد الفنى ليس بمعجيب بين الشعراء في شتى العصور وليس بغريب في الشعر الجاهلى نفسه فأنت ترى أن الشاعر الجاهلى كثيراً ما يتفق مع شاعر قبله أو معاصر له في أسلوب أو معنى أو بيت ، وأنت تعرف قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وقول طرفه :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد
وتعرف غير ذلك مظاهر التشابه الفنى أو التقليد الأدبي بين الشعراء الجاهليين .

بين الجاهليين والمخضرمين

الشعراء الجاهليون هم الذين عاشوا طول حياتهم في الجاهلية ، أى قبل ظهور الإسلام ، أو كان إنتاجهم كله في العصر الجاهلى أو متأثراً بروح العصر الجاهلى وحده وإن عاشوا بعده قليلاً أو كثيراً ، فليبد جاهلى وإن عاش بعد الهجرة أربعين سنة لأنه لم ينظم بعد إسلامه شعراً قط ، وأمىة بن أبى الصلت على ما ترجح جاهلى ، وإن عاش بعد الهجرة تسع سنوات لأنه لم يحى حياة إسلامية قط ، ومثله قيس بن الخطيم

والمخضرمون هم الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام ، وتأثروا في شغرفم
بجاهلية والإسلام معا ، مثل حسان والخطيئة ومعن بن أوس وكعب بن
زهير والخنساء وسواهم . .

وأصل المخضرم أن يجعل الشيء بين بين ، ومن ذلك أن أهل الجاهلية
كانوا يسمون نعمهم فيقهطعون جزءا من أطراف آذانها ويتركونه ينوس (١)
فتسمى مخضرمة لأن آذانها صارت بين الوافرة والناقصة ، فلما جاء الإسلام
أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم
أهل الجاهلية حتى تمتاز نعمهم من نعم مخالفيهم لأنهم أهل حرب فكانت
خضرمة أهل الإسلام بائنة من خضرمة أهل الجاهلية ، ثم قيل لكل من أدرك
المخضرمين مخضرم وأكل من كان نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام
لأن حياته بينهما ومنه الشاعر المخضرم الذي أدرك الجاهلية والإسلام
كحسان بن ثابت وكعب بن زهير ؛ ومن هذا المعنى قول الشاعر كما رواه
صاحب اللسان :

إلى ابن حسان لم تخضرم جدوده كبير الثنا والخيم والفرع والأصل
والظاهر أن استشهاده بهذا البيت غير سديد لأن سياق البيت يدل على
أن معنى لم تخضرم جدوده ليسوا أدعياء لا على أنهم ليسوا بين بين اللهم إلا
أن يريد معنى يؤول إلى هذا ، وذلك أنه يقال رجل مخضرم أي أبوه أبيض وهو
أسود فيكون بين أبيض وسوداء أو معموز النسب وهو يناسب قوله ؛ إلى
ابن حصان ؛ ومنه الطعام المخضرم وهو كما قال ابن سيده الذي ليس بمملو ولا
حر ، أو كما قال ابن فارس بين الثقيل والخفيف وعلى كل حال بين بين ، وراء
المخضرم ما لفتح على الأرجح ولكن قال ابن بري أن أكثر أهل اللغة على
كسر الراء لأن الجاهلية لما دخلوا في الإسلام خضرموا آذان إبلهم
ليكون علامة لإسلامهم إن أغير عليها أو حوربوا ؛ ويقال لمن أدرك

(١) أي يتحرك

الجاهلية والإسلام مخضرم ، وقال ابن خالويه : خضرم خلط ، ومنه المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، والظاهر ما قلناه لأن اسم المفعول أصله بالنعم الموسومة فيكون اسم الفاعل لو اسمها (١) وقد وجه ابن ررى رأى من فتح الرأ فقال تأويله عنده أنه قطع من الكفر إلى الإسلام وأما أقول إن هذا التأويل غير وجهه لأنه يستدعى أن يكون كل المخضرمين مسلمين وليس كذلك فإنهم عدوا كعب بن الأشرف اليهودى الهجاء من المخضرمين مع أنه مات على دينه ، ولو أنه وجهه بأنه قطع من حال من الشعر إلى حال أخرى كان أجود لأن كثيرا من الشعراء وجهوا تيار شعرهم إلى الحكم والمواظ والاخلاق وترفعوا عن الهجاء بل تغالى بعضهم كليد بن ربيعة العامرى وهو من أصحاب المعلقات فترك قول الشعر وبدل به الكتاب العزيز .

وقد توسع الناس بعد في هذه التسمية فسموا بها كل من أدرك مدين فقالوا في مثل بشار بن برد مخضرم لأنه أدرك بنى أمية وبنى العباس . بيد أنهم لا يذكرون ذلك من غير إضافة خوف اللبس ، ولذلك يقولون من مخضرمى الدولتين ، وعلى ما قدمنا لا يختص اسم الدولتين بالشاعر وإن اشتهر فيه ولا بزمان البعثة . وبعضهم يشترط في نعت الشاعر بالمخضرم أن يكون قد قال الشعر في الزمانين ولهذا لا يسمى لييدا شاعرا مخضرم بل بعده من شعراء الجاهلية وإن كان مسلماً ويعد كعب بن الأشرف مخضرم ما وإن كان يهودياً .

صور من الشعر الجاهلى

قال حاتم الطائى :

أماوى قد طال التجنب والهجر وقد عذرتنى (٢) فى طلابكم عذر (٣)

(١) ومعناه أنه فى عصر الخضرمة

(٢) عذرتنى : أى رفعت عنى اللوم ، ومحت الإساءة وطمستها .

(٣) العذر : جمع عذير ، والعذير هو الحال ، وأصله العذر ، ويخفف فيقال عذر

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إني لا أقول أسائل إذا جاء يوما : خلى في مالنا النزر (١)
أماوى إما مانع فبين وإما عطاء لا ينهيه (٢) الزجر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت (٣) يوما وضاق بها الصدر
أماوى إن يصبح صدأى (٤) بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا نحر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضائرى وأن يدى مما بخلت به صفر
أماوى إني رُب واحد أمه أخذت فلا قتل عليه ولا أسر
وقد علم الأفوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
أماوى إن المال مال بذلته فأوله شكر وآخره ذكر
وإني لا آلو (٥) بمالى صليعة فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العانى (٦) ويؤكل طيبا وما إن يعر به القداح (٧) ولا القمر (٨)
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى شهودا وقد أودى بإخوته الدهر
غنيانا (٩) زمانا بالتصملك والغنى وكلا سقانا بكأسيهما الدهر
فما زادنا بأوا (١٠) على ذى قرابة غنانا ، ولا أرى بأحساننا الفقير
وما ضر جاريا بنة القوم فاعلمى يجاورنى ألا يكون له ستر
بعضى عن جارات قومي غملة وفى السمع منى عن أحاديثها وقر

وقالت أم الصريح الكنديّة ترى بعض قومها :

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعوا بجيشان من أسباب يجد تضرعوا

(١) النزر : القلة (٢) نهيه : منعه .

(٣) الحشرجة . الغرغرة عند الموت

(٤) الصدأ : ما يبقى من الميت فى قبره . (٥) لا آلو : لا أقصر .

(٦) العانى : الأسير (٧) القداح : قدام الميسر . (٨) القمر : المقامرة .

(٩) غنيانا : غنى بالمكان ، أقام به . (١٠) البأو : الكبر والفخر .

- ٤٦٩ -

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
فلو أنهم فروا لكانوا أعزة (١) ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

- ٣ -

وقالت أمية بنت عبد شمس بن عبد مناف فيمن قتل من قريش في
حرب الفجار :

أبي ليلى أن يذهب ونيط الطرف بالكوكب
ونجم دونه الأهوا ل بين الدلو والعقرب
وهذا الصبح لا يأتي ولا يدو ولا يقرب
بمقر عشيرة منا كرام الخيم والمنصب
أحال عليهم دهر حديد الناب والمخلف
فإن أبك فهم عزى وهم ركبي وهم منكب

- ٤ -

وقالت فاطمة الخزاعية في رثاء إخوتها :

إخوتي لا تبعـدوا وابلي والله قد بعدوا
لو تملتهم (٢) عشيرتهم لاقتناء العز أو وولدوا
هان من بعض الرزية أو هان من بعض الذي أجد
كل ما حيى وإن أمروا وارد الحوض الذي وردوا

- ٥ -

وقال عنبرة من معلقته :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم (٣)

(١) أى لا يلامون لوضوح عذرهم - (٢) أى لو عاشوا مليا من الدهر
(٣) يتذامرون : أى يحض بعضهم بعضا على القتال ، متذذعطة عليهم غير
مذموم على عمل بل مدوحا عليه .

- ٤٧٠ -

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بثر في لبان الأدم (١)
 ما زلت أرميهم بشقرة نحره ولبانه ، حتى تسربل بالدم (٢)
 فاذور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم (٣)
 لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى أو كان يدرى ما جواب تكلمى (٤)
 والخيل تقتحم الخبار عوابساً ما بين شيطمة وأجرد شيطم (٥)
 ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم (٦)
 ذل جهالى حيث شئت مشابعى لى ، وأحفره رأى مبرم (٧)
 لاني عداني أن أزورك ، فاعلى ما قد علمت وبعض الم تعلمى (٨)

- ٦ -

وقال لقيط بن يعمر الإيادى وهو شاعر جاهلى قديم مقل ، ذكر ابن

(١) عنتر : أى ياعترة حذفت التاء للرخيم ، وروى المبرد أنه كان يسمى
 عنترا أيضا . والأشطان : جمع شطن ، وهى الحبال الطويلة الشديدة الفتل .
 واللبان ، الصدر . والأدم : فرسه . (٢) أى بنقرة نحره .
 (٣) العبيرة : تردد البكاء فى الصدر قبل أن تفيض الدمعة ، والتحمحم : الصوت
 المنقطع دون الصهيل ، ويكون من الفرس إذا طلب العطف عليه والرفة لحاله .
 (٤) المحاورة : الخطاب . ويروى : ولتان لو علم الكلام مكلمى .
 (٥) الخبار : الأرض اللينة ، والشيطم : الطويل . والأجرد : القصير الشعر ،
 وهما صفتا حسن للفرس الكريم .
 (٦) ويك مركبة من (وى) وكاف الخطاب . ووى تعجب كأنهم قالوا :
 عجبا لك ! أقدم : أوهى مخففة من ويك ، أو ويحك .
 (٧) الدلل : جمع ذلول ، وهو من الإبل وغيره أضعف الصعب الحرون . ومشابعى
 قلبى أى متابعى ومشجعى . وأحفره : أدفعه . والمبرم : المحكم . المعنى : يصف نفسه
 بأنه رجل أسفار ، وأن جماله لله ، لتعودها السير ، لا يصعب أن يوجه إلى أى أرض .
 ويصف نفسه أيضا بأنه حاضر العقل لا يعزب عقله فى أى حال من الأحوال ، بل هو
 أيضا يدفعه ويقويه برأى محكم .
 (٨) المعنى : صرفنى عن زيارتك ما قد علمته من الأسباب ، وما لم تعلمه .

الشجرى أنه كان كاتباً في ديوان كسرى؛ ولم يكن بيد الناس من شعره في زمن صاحب الأغاني إلا قصيدة كتب بها إلى قومه يحذرهم ما اعتزمه كسرى من غزوم وقتالهم، وقطع أخرى لطاف متفرقة، فإذا صحت زواية ابن الشجرى - وفي ما قاله أبو الفرج ما يقويها وإن لم يصرح وكان لقيط قد خدم الأكامرة وكتب لهم - فهو أقدم من بلغنا خبره من أئقن الفارسية من من العرب وأجدرهم بأن يتأثر بها شعره. وليس من المستطاع اليوم وقد ضاع شعر لقيط تعيين ما كان لعله بالفارسية واتصاله بخدمة الملوك من أثر فيه، ولكن القصيدة التي بقيت له وانتهت إلينا تتميز من شعر ذلك العهد بأنها نسق واحد لا خلل فيه ولا اضطراب، وأنها لا تبدأ معنى حتى تنه وتستوفيه ولا تلتقل عنه إلى آخر حتى يكون هو الذي أدى إليه واقتضاه. ولعل خير ما يدل على مذهب الشاعر ويكشف عن طريقته إثبات أبيات منها، تجمع إلى وضوح الدلالة كثيراً من الفائدة، وهذه القصيدة قالها لقيط يحذر فيها قومه عاقبة أمرهم إذا قهرهم الفرس، ويذكروهم بما يحل بالأمم إذا دارت عليهم الدائرة وغلبهم الأجنبي على سلطانهم، ويوصيهم باجتماع الكلمة والتشمير للحرب وتقليد زمامهم من توفرت فيه خلال القيادة وتمت له أداتها:

هيات لا مال من زرع ولا إبل	يرجى اغابركم إن أنفكم جدعا
لا تلهمكم إبل ليست لكم إبل	لأن العدو بعظم منكم قرعا
لا تئمروا المال للأعداء لهم	إن يظفروا يحتموكم والتلاد معا
يا قوم إن لكم من إرث أولكم	إن ضاع آخره أو ذل واتضعا
ماذا يرد عليكم عز أولكم	بعد أقدم أشفقت أن يفنى ويتفعا
فلا تغرنكم دنيا ولا طمع	أن تنعشوا بزماح ذلك الطمعا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا	على نساءكم كسرى وما جمعا
يا قوم بيضنكم لا تفجعن بها	لأن أخاف عليها الأزم الجذعا
هو العناء الذي تبقى مذلتة	إن طار طائركم يوما وإن وقعا
هو القناد الذي يجتث أصلكم	فن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعا

— ٤٧٢ —

قوموا قياما على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا ، قدينال الأمن من فزعا
وقلدوا أمركم الله دركم ربح الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هم تكاد حشاه تعظم الضلعا
مسهد النوم تعنيه أموركم يروم منها إلى الأعداء مطلعا
ما انك يحلب در الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا
وليس يشغل له مال يثمره عنكم ولا ولد ينبغي له الرفعا
قد استمر على شزر مريرته مستحکم السن لا قهما ولا ضرها

— ٧ —

وقد كان من أعلام شعراء العصر الجاهلي طائفة كانت تنظم الشعر في
السيب وحده ، وهم كثيرون ومنهم : المرقش الأكبر م ٥٥٢ م ، وعبدالله
ابن العجلان م ٥٦٦ م ومالك ، وعنترة ، ومسعود بن خراشة القميمي وقد
أدرك الإسلام ، ومنظورين زبان الفزاري . ولهم شعر رائع وقصائد كثيرة
قصروها على الغزل وحده كما في قصيدة المرقش الأكبر : سرى ليلا خيال
من سليمي . وقد يبدو أن السيب فن إسلامي بدأه عمر بن أبي ربيعة
وجميل وكثير وطبقتهم ، والحقيقة أن هؤلاء كانوا يحتذون مثالا لمن
تقدمهم ، وما أظن أحدا بلغ من صفة النساء ما بلغ النابغة حين سأله النعمان
أن يصف امرأته المتجردة ، أو ما بلغ المنخل اليشكري والمرار العدوي
وسويد بن أبي كاهل وشعر المرقشين الأكبر والأصغر وعبدالله بن العجلان
النهدي وقيس بن الحداية ، من صدقوا الحب ونسبوا في لفظ عفيف ومعنى
نزيه مشهور معروف . . . قال المرقش الأكبر :

سرى ليلا خيال من سليمي فأرقى وأصحابي هجود
فبت أدير أمرى كل حال وأرقب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفي لنار يشب لها بذى الأرطى وقود

حواليها مها جم التراقي
نواعم لا تعالج بؤس عيش
يرحن معاً بطاء المشى بدا
سكن ببلدة وسكنت أخرى
فما بالي أني ويحان عهدي
ورب أسيلة الخدين بكر
وذو أشرفتيت النبت عذب
لهوت بها زماناً من شباني
أناس كلها أخلقت وصلا

وآرام وغزلان رقود
أوانس لا تروح ولا ترود
عليهن المجاسد والبرود
وقطعت الموائق والعمود
وما بالي أصاد ولا أصيد؟
منعمة لها فرع وجيد
نقى اللون براق برود
وزارتها النجائب والقصيد
عناي منهم وصل جديد

وقال :

نواعم أبكار سرائر بدن
يهدن في الأذان كل مذهب
نشرن حديثاً آنسا فوضعه

حسان الوجوه لينات السواف
له ربذ يعيا به كل واصف
خفيضاً فلا يلغى به كل طائف

ولعبد الله بن العجلان :

ألا أبلغاً هنداً سلامي فإن نأت
ولم أر هنداً بعد موقف ساعة
أنت بين أتراب تمانيس إذ مشيت
أشارت إلينا في خفاء وراءها
وقالت تباعد يا ابن عمي فإنني

فقلبي مذ شطت بها الدار مدنف
بأنعم في أهل الديار تطوف
ديبب القفا أو هن منهن أطف
سراة الضحى منى على الحى موقف
منيت بذى صول يغار ويعنف

وقال :

خليلي زورا قبل شحط النوى هنداً
ولا تعجلاً لم يدر صاحب حاجة
ومرا عليها بارك الله فيكما

ولا تأمنا من دار ذى لطف بعدا
أغيا يلاقى في التعجل أم رشدا
وإن لم تكن هند لوجهي كما قصدا

وقولا لها ليس الضلال أجارنا ولكننا جرنا لنلقاكم عمدا

وقال قيس بن الحداية من قصيدة طويلة :

أجذك إن نعمت نأت أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع
قد اقتربت لو أن في قرب دارها نوالا ولكن كل من ضن مانع
وقد جاورتنا في شهور كثيرة فما نولت والله راء وسامع
وظئ بها حفظ لغبي ورغبة لما استرعت والظن بالغيب واسع
فقلت لفاء بعد حول وحجة وشحط النوى الا الذى العهد قاطع
وقد يلتقى بعد الشتات ألو النوى ويسترجع الحى السحاب اللوامع
ومنها :

كان فؤادى بين شقين من عصا حذار وقوع البين والبين واقع
يحث بهم حاد سريع نجاؤه ومعرى عن الساقين واللوب واسع
فقلت لها يا نعم حلى محلنا فإن الهوى يا نعم والعيش جاعم
فقلت وعيناها تفيضان عسيرة بأهلى بين لى : متى أنت راجع
فقلت لها : تالله يدرى مسافر إذل أضمرته الأرض ما الله صانع ؟
فشدت على فيها اللثام وأعرضت وأمن بالكحل السحيق المدامع
وإنى العهد الود راع وانى بوصلك ما لم يطونى الموت طامع
فتمصيب هذا العصر من الدسيب كما رأيت أوفرو أجود بما توهم الأدباء ؛
وهو أصل يلتمى اليه بارع الدسيب الاسلامى من قريب (١).

(١) راجع الشعراء العشاق في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان

حول الادب الجاهلي

حول العصر الجاهلي

- ١ -

عندما نقسم تاريخ الأدب العربي إلى عصور لندرسه على ضوءها فننظر
بجد إلى تاريخ الأدب العربي الذي هو تاريخ لقومية الأمة العربية وأخلاقيها
وعاداتها وحياتها وآمالها وآلامها ولكل ما تأثرت به من مؤثرات حياتها
الفكرية والاجتماعية والسياسية والأدبية . ننظر إلى تاريخ الأدب على أنه
ليس علما جافا بل فنا أساسه الذوق ودراسة الفنون الأدبية في الأمة دراسة
واسعة . ومؤرخ الأدب يعني بأن يدرس أسباب رقي الأدب وانحطاطه
وتأثير الأدباء بها أو تأثيرهم فيها ، وأن يدرس صلات المحدثين بالقدامى أدباء
وشعراء وكتابا وخطباء ونقادا ، وأن يتعمق في فهم المذاهب والمدارس
الأدبية العامة وصلاتها ببعض والعوامل التي أدت إلى قيام كل مدرسة وميزاتها
وخصائصها ومدى تأثيرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس والمذاهب
الأدبية العامة . فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دورا هاما في
الأدب ، ولها من الأهمية في دراسة تاريخ الأدب ما لا يقل شأنًا عن دراسات
كثيرة في الأدب ، فتاريخ الأدب ليس سرداً لنصوص أدبية وتراجم
عامة ، بل يوضح لما الصلات بين المذاهب الأدبية ويربط كاتباً بآخر وجماعة
بجماعة ومدرسة بمدرسة ، كما يدرس أسباب الانقلابات الأدبية المختلفة
في عصور الأدب وتأثير تحول الكتاب في نهضة الأدب والشعر وتوجيهها
وجهة جديدة . هذا كله فوق دراسة تاريخ الأدب الآثار الأدبية نظما وشعرا
ولشخصيات الأدباء شعراء وكتابا وخطباء والإمام بلشأتهم وحياتهم
ونزعاتهم وغير ذلك من مكونات شخصيتهم وطابع كل منهم وسماته التي
يتميز بها عن غيره ، فكل كاتب كبير أو شاعر عبقري يأتي إلى هذا العالم
بشيء جديد كل الجدة ذلك هو نفسه ، كما يقول بعض النقاد الغربيين : وكثير
من الكتاب الأفذاذ والشعراء الملهمين يخلقون ذوقا جديدا ومرحلة جديدة

فى الأدب، وكما يتأثر الأديب بعصره فهو يؤثر فيه . فالأديب ابن عصره وبيئته ، فكل ما يبعث اتجاهها جديدا فى الرأى أو فى منهجى الحياة أو فى مجرى السياسة والشعور العام يؤثر فى تكوين الأداب إلى حد كبير ويجب ألا ننسى ظروف الزمان والمكان والبيئة عند دراستنا لأى نص أدبى ، كما أنه لابد من معرفة العوامل التى أثرت فى فن الشاعر والكاتب والأديب وفى ذوقهم وإنتاجهم الفنى وجعلت لهم طابعا خاصا فى أدبهم . ومهما نكسّن شخصية الأديب بالغة منهاها فان روح جلسه وعصره لابد من أن يظهر فيه . وعلى ذلك فتاريخ الأدب يتأثر بمؤثرات قومية كما يتأثر بمؤثرات شخصية ، فظهور الإسلام مثلا له من الأثر البعيد فى الأدب العربى ما لا يستطاع حصره .

ومع ذلك فلا يقتصر تاريخ الأدب على دراسة المخلّعات الأدبية لمختلف الأديباء والشعراء ، كل كاتب على حدة ، بل لابد فيه من دراسة أدب الأمة جملة واحدة وإظهار مميزاته العامة باعتباره إنتاجا لعقلية هذه الأمة التى هى جماعة واحدة ، لها تفكير خاص وشعور خاص وذوق خاص : فكل ماله أثر فى تكوين الأمة له أثر فى نسج أدبها ، فأدب الأمة هو تاريخها الذى دونته بقلوبها ليصور لنا رقيها العقلى والخلقى فوق تقدمها الأدبى .

وقد اعتاد مؤرخو الآداب أن يقسموا الأدب إلى عصور مختلفة ، ولم يلجأوا إلى ذلك لسهولة الدرس فحسب ، ومن قبيل تقسيم الموضوع المتشعب إلى أبواب وفصول . . وهناك ما يبرر هذا التقسيم ، فالعصر التاريخى عبارة عن فترة زمنية يسود فيها نوع من الذوق العام ، وعلى ذلك فان أدب ذلك العصر يتسم بصفات خاصة من حيث المادة والفكرة والأسلوب ، وقد تختلف آثار الكتاب البارزين بقدر ما تختلف شخصياتهم ، ولكن تلك الصفات العامة تظهر فيهم جميعا . ولا ينتهى عصر ويخلفه آخر ، إلا بعد تغيير حاسم فى الذوق العام . ولكننا يجب أن لا ننزع الحواجز المتينة بين عصر وعصر ، فليس تاريخ الإنسان أبواباً وفصولاً ، ولكنه تيار واحد متدفق يسير حيناً ذات اليمين وحيناً ذات اليسار ، ليس له بداية معينة ، ولا نهاية

- ٤٧٨ -

محدودة والعصور التاريخية في الواقع آخذ بعضها بتلايب بعض ، وقد يبدأ الرجل عمله في عصر من العصور ، ولا ينتهي منه إلا في عصر آخر ، كالخضر من بين الجاهلية والإسلام ، وكبشار وابن المقفع بين العصر الأموي والعصر العباسي . ومع ذلك فإن لتقسيم الأدب إلى عصور أهميته الدراسية لأنه يوجه أنظارنا إلى المراحل التي اجتازها الأدب وتميز في كل مرحلة منها بميزة خاصة ، وهو أهم ما يعنى به مؤرخ الآداب .

-- ٢ --

وهناك سؤال لا بد من إirاده ، وهو : ماذا نعني بالعصر الجاهلي ؟
لأنه العصر الذي سبق الإسلام ، فإذا جعلنا حادث الهجرة هو الفاصل بين الجاهلية والإسلام ، كان عام ٦٢٢ م الذي هو بدء التاريخ الهجري نهاية هذا العصر الجاهلي ، وإذا اتسع أفقنا أكثر من ذلك كانت نهاية العصر الجاهلي عام ٦١٠ م ، وهي السنة التي بعث فيها الرسول صلوات الله عليه إلى قومه وإلى الإنسانية عامة .

أما مبدأ العصر الجاهلي ، فهو غير معلوم تماماً ، والقرآن الكريم يشهد للعرب بمحضرات سالفة بائدة ، كما يقول الأستاذ إبراهيم مصطفى فقد وردوا إبراهيم وكانوا على دينه ، لأنه أبو العرب ، وقد أرسل إلى العرب من الرسل هود وصالح وشعيب ، وسكل رسالة دين ، وفي كل دين حضارة وقد شهدت الجزيرة العربية قبل الإسلام حضارات ذات شأن ، وعلى هذا الأصل نحاول أن نحدد أول الجاهلية العربية قبل الإسلام ، وسبيل ذلك أن نعرف آخر حضارة قامت بالجزيرة ونحدد نهايتها فتكون بدء هذا العصر الجاهلي . فإذا اقتصرنا على العصر التاريخي وعلى ما كشف من آثار حضاراته ذكرنا حضارة الأنباط ، وقد كانت في شمال الجزيرة وامتدت من العراق إلى مصر ووصلت في الجنوب إلى وادي القرى وورثت حضارة ثمود وأبقت آثارها خالدة وصمدت للروم في حروب شديدة مريرة - ثم حان حينها

فأنقضى أمرها على يد « تراجان » سنة ١٠٦ من الميلاد وورثت مكانتها تدمر
ووسع سلطانها الشام ومصر وما بين النهرين والآناضول إلى أنقرة وجاء
يومها فأنقضى ملكها سنة ٢٧١ م على يد أريان الروماني أيضا .

وكانت الحروب الطويلة القاسية بين الروم والفرس سبب انقطاع التجارة
بينهما ، وكان لابد للتجارة أن تشق لها مجرى ، فاتخذت سبيلها في مفاوز البلاد
العربية البعيدة عن سلطان الدولتين ، وكان الروم أشد حمرة لانصراف
التجارة إلى أيدي العرب .

ولهذا تجشموا الأهوال في القضاء على بطرة وعلى تدمر وحاولوا
القضاء على دولة اليم أيضا وأرسل أغسطس حملته المشهورة بقيادة قائده
الياس جلاس فهلك في الصحراء جيشه وعاد بخيبة سجلها رفيقه وصديقه
استرايون ، وأورثتهم ياسا أبديا من أن يتألوا بلاد اليم عن طريق شمال
الجزيرة . وفي القرن الرابع كانت المسيحية قد انتشرت وصالحتها الدولة
الرومية البيزنطية واستعانت بها على مد سلطانها ، وكان رسل هذه الديانة قد
وصلوا إلى الحبشة وبشروا فيها بدينهم فقامت بها دولة مسيحية بحشية تقابل
في البلاد العربية دولة اليم اليهودية ، وقامت العداوة بين الاثنين ، فأحباش
هذه الدولة من أصل عربي يمني ، ولكن المنافسة في التجارة والعداوة في الدين
أججت نار الحرب بينهما ، ومن آثار تلك العداوة حديث الأخدود والنار
ذات الواقود ، وأرسلت بزنطة رسلها وسفنها إلى الأحباش فكنتهم من
القضاء على الدولة الحميرية باليمن بعد حروب سجال ، وانتهى بذلك عهد آخر
دولة مستقلة قامت قبل الإسلام في الجزيرة العربية وكان ذلك سنة ٥٢٥ م ،
كما يقول ابراهيم مصطفى ، وقد خلت بلاد العرب من دولة تهيم عليها ،
وتؤمن سبلها وتحمي تجارتها ووقعت في فوضى نرى بعض صورها في شعر
كشعر الحارث بن حلزة إذ يقول :

هل علمت أيام يذهب النا س غواراً لكل حي عواء
لا يقيم العزيز بالبلد السم ل ولا ينفع الذليل النجاء

ليس ينجمي موافلا من حذار رأس طود وحررة رجلا.

فهذا حد المضر الجاهلي العربي ، وقد كانت آثار المعامل اليمنية موجودة في شتى أرجاء الجزيرة العربية . فبنو الحارث بن كعب في جنوب الحجاز ، وكانوا يلقبون ملوكا ، والأيوس والخزرج في شماله ، وفي نجد طيء وكلب وملوك كندة ، وفي عمان الازد ، وفي تخوم العراق المناذرة ، وفي مشارف الشام الغساسنة ، وكلهم يلتسبون إلى اليمن ، وقد نشبت الحروب بينهم كل يريد الملك لنفسه ، كما فعل قواد الاسكندر في ملكه الراسع من بعده ، وثار العرب من غير اليمن وهم العدنانيون ، وتطلعوا إلى الاستقلال والنفوذ والسلطان واشتعلت الحرب بين العدنانيين واليمنيين ، بل بين بعض العدنانيين والبعض الآخر ، ومضى شعراؤهم يتغنون بفضائع الحرب :

وحليل غانية تركت بجذلا تمكو فريسته كشدق الأءلم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع يلشنه يقضن حسن بنانه والمهصم

يقول ابراهيم مصطفى : إن حياة العرب تعتمد على التجارة ورزقهم منها ولا بد لهم أن يتجروا ليعيشوا ، والاثار الوارد : تسعة أئشار الرزق من التجارة ، والرسول كان منذ الصبا تاجرا وأبوه وعمه وجده تجار وزوجه خديجة ترسل في التجارة أموالها .

فالعصر الجاهلي إذن يبتدىء بفقد حكومة البلاد وضياع أمنها ، واضطراب نظامها في سنة ٥٢٥ ، ويلتئى بقيام الحكومة التي تقرر السلام وتلشر الأءمن في سنة ٦٢٢ . وما بينهما عصر الجاهلية والفوضى والتناحر على السلطان .

فالفساسنة كانوا يتاخون الروم في الشام قبيل الإسلام ، ولهم مع الدولة البيزنطية صلات مدونة معروفة . وكان أقدم اتصال للفساسنة ببيزنطة في زمن

الحارث الأكبر من سنة ٥٢٩ م إلى سنة ٥٦٠ م إذ أنعموا عليه ، ثم على ولده من بعده ، بلقب بطرق ، وهو لقب حكام الأقاليم عندهم ، ومن ذلك نعلم أن الفساسنة ، وهم يمنيون ، كانوا يستمدون سلطانتهم من دولتهم اليمنية ، ويمجرون الروم فلما زالت دولة اليمن وجاءهم الحرب من حيث كانوا يلتصقون العربون ، اضطروا إلى الاستماعة بالروم واستمداد السلطان منهم... وفي بلاد تخوم العراق كان المناذرة ملوك الحيرة ، وكان لهم اتصال بملوك الفرس من آل ساسان . ونقرأ من أخبارهم أن (يزدجرد) أرسل ولده (بهرام) إيرى فى بلاط المنذر بالحيرة ؛ وأن (يزدجرد) لما مات ثار الفرس راوضين أن يتولى أحد من أولاده لما كانوا يكرهون من حكمه ، وأن بهرام استعان بالمنذر وولده النعمان فى جيش قدره بثلاثين ألفاً ، وبهم تمكن من الجلوس على عرش أبيه ، ولا أرى فى هذا صورة التابع الخاضع ، وقد كان ذلك سنة ٤٢٠ م ؛ ولكن فى زمن كسرى أنوشروان نرى المنذر الثالث يتولى السلطان من يد كسرى ، وحكم كسرى من سنة ٥٣١ م إلى سنة ٥٧٨ م ، والمنذر قتل فى واقعة محددة التاريخ سنة ٥٥٤ م ، واستمر الأمر على ذلك يولى الفرس حاكم الحيرة من المناذرة ، وربما ولوه من غيرهم كما ولوا عليها إياس بن قبيصة العلأى . فهذه أسرة يمنية أخرى تبدلت طبيعة اتصالها بجارتها ، بعد أن سقطت دولة اليمن سنة ٢٤١ هـ .

وفى داخل الجزيرة كان امرؤ القيس آخر ملوك كندة ، وقد حاربه المنذر الثالث وحارب أسرته نزاعاً على الملك ، وقتل كثيراً من أمراء كندة صبراً ، وبيكهم امرؤ القيس فى شعره :

فلو فى يوم معركة أصيبوا ولكن فى ديار بنى مرينا

فلم يغسل جماجمهم بغسل ولكن فى الدماء مرملينا

وإذا كان المنذر يستند إلى سلطان الفرس فإن سبيل امرئ القيس أن

— ٤٨٢ —

ليستعين بمنافسيهم الذين ينازعونهم الرغبة في التسلط على البلاد العربية ،
وهم الروم ، ويقصد في ذلك إلى الحارث بن جبلة ، والحارث قد ولى من
سنة ٥٢٩ م إلى سنة ٥٦٩ م ، وهكذا نرى أن ما ذكر من تاريخ الحوادث
يؤيد هذا التحديد .

فالعصر الجاهلي الذي هذه بدايته وتلك نهايته ، هو العصر الذي
ندرسه ، ونعنى بتتبع الأدب شعره ونثره فيه ، وحسبنا ذلك الآن .

آراء حول النثر الجاهلي

— ١ —

النثر أحد ألوان الأدب وأقسامه ، وهو بخلاف الشعر لا يقيد به وزن أو
قافية ، ويعتمد غالباً على الحقائق ، ويركن إلى صدق التعبير ، وجمال التلوين
وجلال التأثير . فإذا اعتمد النثر على الخيال ، وتعتمد إثارة العواطف ،
وصيغ في أسلوب الشعر فذلك هو الشعر المنشور ، والنثر أول ما ينشأ يستخدم
في أغراض المعيشة العادية ، ووسائل الحياة الاجتماعية . ثم لا يلبث أن يكثر
الاهتمام به ، والإقبال عليه ، وتعظم الحاجة إليه ، ويقبل الكتاب يسجلونه
بالكتابة ، فيكثر ذبوعه ، ويزداد انتشاره ، ويؤدي مطالب الحياة وأغراضها
الكثيرة . فإذا ارتقت الحياة ، وتقدمت المدنية ، ازدادت أهمية النثر ،
واتخذ وسيلة إلى أداء بعض الموضوعات التي تؤدي بالشعر ، فيستخدم في
وصف العواطف وإثارة المشاعر . ووصف مظاهر الطبيعة ، وفي الاستمتاع
والعتاب والشكر فينشأ النثر الفني الذي يقصد به الفن ، ويبحث على الاتزان
والأريحية ؛ ويعتمد فيه تنظيم الفكرة ، وتدقيق المعنى وجودة السبك وجمال
الرصف وحسن الأداء .

فإذا ازداد العقل نماءً ، والثقافة انتشاراً ، والعلوم سعة ، أخذ العلماء

يدونون بالنثر قواعد هذه العلوم المختلفة ، فينشأ النثر العلمي الذي يعنى به الأدب عناية خاصة ، لأنه منهل من مناهل الثقافة الأدبية ، وأثر من آثار العقلية التى تنشأ الأدب ، ولأن الكثير من هذا النثر العلمى أدب جيد . حيث تزدى الحقائق فيه بلغة النثر الفنى ، كما فى مؤلفات النقد والتاريخ والسياسة والاجتماع ، ولذلك يعد كثير من مؤلفات هذه العلوم أدبا فنيا رائعا لاشتماله على مميزات الأدب الفنى وخصائصه ، فوق أن هذا النثر العلمى يصقل مواهب الأديب ويمكّنه ويوسع أفقه ويمده بزاخر الأفكار والمعاني والموضوعات .

وأخير أفاضل النثر الفنى ينقسم إلى خطابة وكتابة فنية ، والكتابة تشتمل الوصف والقصص فى رأى بعض الكتاب الأوربيين ، ويقسمها بعض كتاب العرب إلى رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . . أما قدامة بن جعفر فيقسم النثر إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث (١) .

والأدباء يختلفون فى نشأة النثر الفنى هل وجد فى العصر الجاهلى أو تأخر فى المشأة الأدبية إلى العصر الأموى ؟ :

أما أدباء العربية المتقدمون ، والكثير من الأدباء المعاصرين ، فيرون أن العصر الجاهلى عرف النثر الفنى ، وأجاده العرب القدماء قبل الإسلام إجادة مألغة ، ونزل القرآن بلغة النثر الفنى مفهما لهم ومعجزا (٢) .

وأما المستشرقون ومن تابعهم فيرون أن عرب الجاهلية لم يعرفوا هذا النثر ، كما يشهد عصر صدر الإسلام ، ويقررون إنه إنما نشأ على يد ابن المقفع المتوفى فى صدر الدولة للعباسية عام ١٤٣ هـ ، ومن ذهب إلى ذلك

(١) ص ٩٣ نقد النثر ط ١٩٣٩ .

(٢) ومن ذهب إلى هذا رأى كذلك صاحب كتاب « الفن ومذاهبه فى النثر

العربى » وكذلك زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى » .

المسيو مرسية الفرنسي (١) ، والمستشرق جب الإنجليزى (٢) .

أما الدكتور طه حسين فيقرر أنه لا يستطيع بحال من الأحوال أن يطمئن إلى أن العصر الجاهلى كان له نثر فنى (٣) وإن كان له نثر خاص لم يصل إلينا لضعف الذاكرة وخلوه من الوزن (٤) هذا النثر هو الخطابة ، وأن أول القرن الثانى الهجرى هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية وهو الذى شهد مظهر هذه الحياة العقلية وهو نشأة النثر الفنى (٥) ، أما القرآن فى رأيه فليس نثراً كما أنه ليس شعراً ، وإنما هو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (٦) ، فالنثر العربى الذى ليس هو لغة التخاطب ولا الأحاديث العادية والذى لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هما عاطفة أو شعور بل من حيث هما صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير ، هذا النثر فى رأيه هو أثر من آثار الحياة الحوية الإسلامية الجديدة (٧) ، فقد وجد فى هذا العصر كما يقول الدكتور النثر بألوانه المختلفة ، فوجد نثر عربى خالص فى التاريخ ، وفى مناقشة الفرق المتكلمة ، ووجد نثر عربى خالص فى الدين ، ثم وجد نثر عربى تشوبه الشذافة الأجنبية فى هذه الكتب التى طلب العرب إلى الروم أو الموالى نقلها إلى العربية (٨) .

واسكننا على أى حال لا نقر هذه الآراء المختلفة التى تجد وجود النثر الفنى فى العصر الجاهلى ، وإن كنا نؤمن بأن القرآن الكريم لا يماثله نثر فنى فى لغة العرب ، كما نؤمن بأن النثر الأدبى بعد الإسلام أخذ ينمو وينهض

(١) ٣٨ ج ١ النثر الفنى لوكى مبارك ،

(٢) ص ٧ و ٩ مجلة الأدب والفن عدد نوفمبر ١٩٤٥ من مقال للاستاذ

جب بعنوان خواطر فى الأدب العربى .

(٣) ص ٢٥ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .

(٤) ص ٢٩ المرجع (٥) ص ٣٥ المرجع

(٦) ص ٢٥ المرجع (٧) ص ٢٨ المرجع

(٨) ص ٣٦ المرجع .

- ٤٨٥ -

منذ مطلع القرن الثاني الهجري . وبلغ منزلة عالية على يد عبد الحميد الكاتب ومن جاء بعده من أفذاذ الأدباء وأنتمهم كابن المقفع والجاحظ ورواهما .
ويقول ابن رشيقي في عمدته : وكان الكلام كله منشورا . فاحتاجت العرب إلى التفتي بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها العالقة ، وأوطائها النازحة ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام . فلما تم لهم وزنه سموه شعرا (١) .

- ٣ -

هذا ولا يعني الأدب من النثر الجاهلي إلا ما حق بأجنحة من الخيال والعاطفة والحكمة حتى ليعده من قبيل الشعر المنشور . ولما كان الحفظ والرواية لا التدوين - هما أساس التواتر في العلم بفرائد النثر الجاهلي ، فقد ضاع الكثير منه ، بعكس المنظوم الذي ساعدت أوزانه وقوافيه على حياته واستيعابه والتغلب أقرب إلى الاستقرار في الحافظة والتردد على الشفاه .

ونحن نعرف بين الشعر الجاهلي نماذج بديعة سلسلة رقيقة بعيدة كل البعد عن الوحشية، فلماذا لا توجد نماذج مثلها من النثر الجاهلي ؟ ولماذا تتعسف وننسب اليها الاتهام ولا ننسبه إلى ذلك الشعر المأثور الذي لولا اطلاعنا السابق لتصورنا أنه من إنتاج عصرنا الحاضر ؟ ومن السهل أن نتفق مع مؤرخي الأدب ونقادهم ، على أن النثر الجاهلي الفني يتنوع إلى حكمة ، ومثل ، وخطابة ووصايا ومحاورات ومنافرات وسجع وكهان . فن أشهر حكماء العرب الجاهليين :

أكرم بن صيفي التميمي ، وعامر بن الظرب العدواني ، واقفان الحكيم الذي اشتهرت حكمه القصصية في العالم اشتهار أساطير أيوب في الغرب ، وقد طبعت ودرست في أوروبا منذ أكثر من قرن ، ومن مظاهر سردها اتباع الجمل

الاسمية بدل الدهلية المألوفة في الأسلوب العربي . ومن أشهر خطباء العرب الجاهليين : قس بن ساعدة الإيادي ، وله كلمات بديعة مأثورة مشهورة بحكمها وأمثالها ، وكان العرب يتبعها كمون اليه في خصوصياتهم كما كانوا يتهاذلون على خطبه في سوق عكاظ ، ومن الخطباء أيضا : هاني . بن قبيصة الشيباني .

ومن أشهر الموصين البلغاء الجاهليين من العرب : ذو الأصبع العداني ، والأوس بن حارثة . ومن أشهر المحاورين والمنافرين العرب في الجاهلية : قس بن ساعدة الإيادي ، وعامر بن الطفيل ، وعائقة بن علاثة ، وكانا يتناحان الرياضة على بني عامر ، وكانا يتنافران بالمهارة والمناظرة البليغة ، وأقوالهما في ذلك مشهورة .

ومن أشهر الحكماء العرب في الجاهلية : الكاهنة زبراء .

هذه صور شائعة بعلو كعب الأدباء العرب النافرين في العصر الجاهلي . ونثرهم الفني في روعته ، لا يقل جلالا وجمالا عن شعر الجاهلية المنظوم ، وهو تراث قيم بالنسبة إلى عصره ، جدير بأن نعتبه ، وأن نلتفت إليه كل الالتفات في تاريخ الأدب الجاهلي ودراسته .

وفي هذا المقام ننوه بحكمة لقمان الحكيم ، الذي يجعله كثير من المراجع العربية القديمة عربيا ، ومن بينها كتاب (الأمثال) للبيداني ، وفي كتب التفسير ذكر للقمان ، وإشارة إلى اختلاف الآراء فيه هل هو عربي أو سرياني أو حضري أو حبشي أو يوناني ؟ وهل هو حكيم أو نبي أو رسول ؟ وقد ذكرت ذلك في كتاب (الذكر الحكيم) . . . ويذهب المستشرق الإنجليزى رندل هريس في كتابه (قصة أحيقار) - طبع لندن سنة ١٨٩٨ ص ٧٥ من المقدمة - إلى أن القرآن الكريم قد أشار إلى أحيقار في سورة لقمان وأن لقمان هو أحيقار نفسه ، إذ أن كلا من لقمان

وأحيقار يوصف بالحكمة ، وأن كلا منهما كان يلقي ابنه حكماً يهوداً بقوله « يا بني » ، وأن بعض حكم أحيقار تشبه بعض الحكم التي جاءت في القرآن على لسان لقمان ، فالآية الكريمة : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) (١) يناظرها ما جاء في وصية أحيقار لابنه : (يا بني احن رأسك ، ورقق من صوتك ، وكن بشوشاً وامش في الطريق المستقيم ، ولا تك أحق ، ولا ترفع صوتك بالضحك فإنه لو كان البيت يبني بالصوت المرتفع لبني الحمار بيتين في يوم واحد) . ولا شك أن التشابه قوى وواضح ، وقصة أحيقار مشهورة ، وترجمت إلى كثير من اللغات ، وهي إحدى القصص التي كانت شهرزاد ترويها للملك شهریار ، والتي عرفناها في كتاب ألف ليلة وليلة . وقد وردت في أقدم نصوصها بترجمة آرامية قديمة يرجع أن تاريخ تأليفها قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، ويروي كتيافس الاسكندراني - وهو من كتاب القرن الثامن بعد الميلاد - أن ديمقريطس - الذي كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد - قد ألف كتاباً في المواعظ الاخلاقية البابلية ، تناول فيه ما في قصة أحيقار من حكمة . ويوجد شبه بين قصة أحيقار وبعض أسفار العهد القديم كأسفار الاثنا عشر ، بل وبين بعض أجزاء العهد الجديد . وقد ترجم السريان قصة أحيقار ، والنص السرياني هو أصل جميع التراجم التي ظهرت للقصة بعد ذلك ويشير عدي بن زيد إلى أحيقار في شعره :

عصفن على الحيقار وسط جنوده ويبتن في لذاته رب مارد

وكان أحيقار وزيراً حكماً للملك أشور ونيوى ، وهو سحاريب .

وكان أحيقار يتوق إلى أن يرزق بولد يرث حكمته وثروته ، ولكنه لم ينجب من ستين امرأة تزوجها ، لذلك بادر بترك الوثلية إلى عبادة إله واحد ، ولما تضرع إلى الله سمع صوتاً يقول له : « خذ نادان ابن أخنك واجعله لك ولداً ، وعلمه علمك وأدبك » ، وكان رضيعاً ففعل ذلك ، وكبر الغلام وكبر أحيقار ، واستخلف سنحاريب الشاب نادان في الوزارة . كان أبيه وعند ذلك أخذ أحيقار في بذل النصيح لابنه ، وفي تعليمه تجارب الحياة وعبر الأيام التي مرت به ، وكل وصايا أحيقار تبدأ بكلمة « يا بني » ، وفي القصة بعد ذلك أحداث ومآس كثيرة ، منها فساد نادان في سياسته وسوء أخلاقه واسترداد أبيه ما وهب له من ثروة ووشاية نادان بأبيه عند الملك واختباء أحيقار في سرداب ووقوع الملك في أزمة سياسية وظهور أحيقار ، وظهور براءته ، وانتحار نادان . وقد ذكر المسعودي لقمان ورجح أنه كان حكيماً من الحكماء ، ولا أستبعد أن يكون هو أحيقار نفسه .

(١) راجع ٢٣ - ٤١ من كتاب تاريخ الأدب السرياني تأليف مراد كابل وعبدالكردى .

الحياة الادبية في العصر الجاهلي (١)

نرانا أمام نهضة جليلة في الأدب العربي تناولت أعرق مدارسه كدار العلوم والأزهر : فبرى في الأولى جهوداً أصيلة موفقة داعية الإعجاب بها كذلك التي يقوم إبراهيم أنيس وحامد عبد الغادر في فقه اللغة ونلسفتها وعلم النفس الأدبي ونرى في كلية اللغة العربية بالأزهر نظيراً لها كمثل ما يقوم بها محمد عبد المنعم خفاجي الذي شغل بعلم الأدب وبالنقد الأدبي خاصة

والاستاذ خفاجي ظاهرة فذة شائقة في الوراثة والاطلاع والاستقراء والإنتاج ، فهو سبط الأديب الكبير الشيخ نافع الخفاجي ، وهو من أسرة بنى خفاجة التي تنتمي إلى أصول عربية قديمة ومنهم الأمراء الخفاجيون في إقليم الكوفة . والأسماء الخفاجيون بحلب ، ومنهم الأمير ابن سنان الخفاجي الحلبي ، ومن أشهر النابتين في مصر من الخفاجيين الشهاب الخفاجي المصري

وهذا الرجل الذي يحمل أعلى شهادات الأزهر العلمية (وهي شهادة الاستاذية في الأدب والبلاغة - التي تعادل الدكتوراه ، من الجامعات السامية كالسوربون مثلاً - ، والذي أخرج حتى الآن نحو مائة كتاب في فنون الأدب ، والذي يتولى الاستاذية بكلية اللغة العربية في الأزهر ، والذي يشغل ليل نهار بالتأليف والمطالعة حتى إنه لم يعرف عن أزهري قديماً أو حديثاً أنه اطلع مثل اطلاعه على مئات الكتب القيمة من مخطوطة ومطبوعة ، هذا الرجل العلامة الموهوب الذي لا يكتفي بترانه العربي فيتعلم الفرنسية والإنجليزية ليقف بنفسه على أمهات التصانيف والمراجع

(١) دراسة لهذا الكتاب بعد ظهور الطبعة الأولى كتبها الدكتور المرحوم احمد زكي أبو شادي ، وأذاع بها من صوت أمريكا ، ونقلته عنها محطة الإذاعة البريطانية العربية

الأوربية والأمرىكية وليتذوق الأدب العالمى من مناهله الأولى ومنابعه الأصلية ، أصبح الآن مناط آمال الأزهرين فى التجديد الادبى .
ولنه لعسير أن يختار المرء كتاباً من كتبه للعرض فى مجال الحديث عن الأدب العربى ، نظراً لكثرتها وتنوعها ولتناولها لجميع فروع الأدب .
والاستاذ خفاجى ليس لغوياً ولا أدبياً فحسب ، بل هو شاعر أيضاً ، شأنه فى ذلك شأن طه حسين ، ولذلك - إلى جانب ثقافته الواسعة التى تلتهم كل معرفة ميسورة - كان طابع كتابته شاعرياً جميلاً مع الحرص على الدقة العلمية فى الوقت ذاته . ولذلك نالت تصانيفه احتراماً عاماً فى جميع الأوساط الأدبية ببلاد العرب وفى دوائر الاستشراق ، بغض النظر عن موافقتنا على آرائه أو مخالفتنا له فيها .

وأمامنا الآن كتابه « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » وهو الحلقة الأولى من تاريخ الادب العربى المشغول بإخراجه تباعاً ، وقد صدق حين قال : إن تاريخ الادب العربى هو تاريخ لقومية الامة العربية وأخلاقها وعاداتها وآمالها وآلامها ، ولكل ما تأثرت به من مؤثرات حياتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والأدبية . ثم استمع إلى قوله : إن تاريخ الادب ليس علماً جافاً . بل أساسه الذوق ودراسة الفنون الأدبية فى الامة دراسة واسعة . . . فعلى مؤرخ الادب أن يدرس أسباب رقى الادب وانحطاطه وتأثر الادباء بها أو تأثيرهم فيها ، وأن يدرس صلات المحدثين بالقدماء أدباء وشعراء وكتاباً وخطباء ونقاداً ، وأن يتعمق فى فهم المذاهب والمدارس الأدبية العامة وصلاتها بعضها ببعض ، والعوامل التى أدت إلى قيام كل مدرسة وميزاتها وخصائصها ومدى تأثيرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس والمذاهب الأدبية العامة . فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دوراً هاماً ، ولها الأهمية الكبيرة فى دراسة تاريخ الادب الذى ليس سرداً لنصوص أدبية وتراجم عامة ، ولكنه يوضح لنا الصلات بين المذاهب الأدبية ويربط كتاباً بآخر وجماعة بجماعة ومدرسة بمدرسة كما يدرس أسباب الانفصالات

الادبية المختلفة في عصور الادب وتأثير لغول الكتاب في نهضة الادب
والشعر وتوجيههما وجهة جديدة ،

إن هذا الاسلوب المنرسل الناصع النافذ لا يعرف بين الازهرين إلا
في أفذاذ أدبائهم كالمرصفي ومحمد عبده وسعد زغلول وعلى عبد الرازق
ومصطفى عبد الرازق ،

وهذا الكتاب الضخم الذي أتى لنا بتحليل جديد عميق للحياة الادبية
في العصر الجاهلي هو أساس متين صالح للدارس الباحث في موضوعه ، ولو
أنه أساس قابل للتعديل حتما في ضوء البحوث والكشوف والاستنتاجات
المستمرة وليس مثل الاستاذ خفاجي بالذي يتعالى على شيء من هذا ، بل
بالعكس نجده الحريص على الاستقصاء والتحقيق وتعديل نظراته ونقدهاته
على ضوء العلم .

وهكذا سيكون كلامنا عن الحياة الادبية في العصر الجاهلي دائماً على
عمادين : أحدهما كتاب الاستاذ خفاجي إن لم نقل كتبه في هذا الموضوع
الجليل ، إذ له كتب أخرى مكمله أو شارحة مثل (أعلام الشعر الجاهلي)
(الشعراء الجاهليون) وغيرهما ، والآخر الكشوف العلمية الحديثة التي يجب
على ضوءها تنقيح نظرياتنا القديمة وتعديلها . وبذلك نخدم تاريخ الادب
الجاهلي الخدمة الحققة ونتمكن من حسن دراسة ذلك الادب والاستمتاع به

الحياة الادبية في العصر الجاهلي

بقلم الاديب الحجازي الكبير عبد الله عبد الجبار

محمد عبد المنعم خفاجي ، اسم لامع في دنيا الادب في العالم العربي
الحديث وشخصية عجيبة محببة ، هي مزيج من الكبرياء ، والتواضع ، تواضع
النفس الكبيرة التي تجامل ، وتفرق في المجاملة حتى ليحسبها الغبي ضعفاً وما
هي من الضعف في شيء ، إنما هي سمة الإنسانية المهذبة المؤمنة بالخير

والفضائل ، والتي تعتقد أن القوة هي أن يتواضع المرء حيث يجب التواضع ، ويتكبر حيث يجب التكبر ، والذين لم يعرفوا أصحابنا الخفاجي ، أو يخاطبوه عن كتب سيد هشون حين يرون هذا الحمل الوديع ، وهو ينقلب إلى أسد هصور إذا مامست كرامته أو كرامة بلده ، أو كرامة العروبة ، أو كرامة الأحرار في أى مكان ، وكيف يزود من هذه الكرامة بلسانه وفلسه ، ويعلمها حريا كلامية شعواء ضد الطغاة والطغيان ، ويصب عليهم النسم والقذائف ، لا يبالي ما قد تجرعه عليه هذه الجرأة من وبال ، لأنه ترى على أن لا ينحس في الحق لومة لائم .

وصاحبنا الخفاجي يمتاز بالإنتاج الغزير ، ولا أعرف أديباً في السلم العربي يدانيه في هذه الغزارة ، فقد بلغت كتبه التي ألفها وحققها أكثر من مائة كتاب ، وهو لم يتخط الأربعين إلا بقليل .

وقد سمعت صديقتنا الناقدة الجهير الأستاذة طاني السحرتي يقول عنه ذات يوم : « لو أن هذه الكتب التي أنتجها الخفاجي ، لم يكن له فيها من عمل إلا أنه نسخها وحسب ، لأصابتنا الدهشة ، وقلنا له : كيف تأتي لك الوقت الذي نسخها فيه ، فكيف وقد ألفها تأليفاً ورجع إلى العدد الكثير من المصادر والمراجع ؟ » .

فالخفاجي - إذن - مكثار . وهذه المزية يقابلها أصدقاؤه بالدهشة والقبضة - ويقابلها منافسوه - وهم قلة - بالحق والחסد .

وأنا أقول للذين يعميرون على الخفاجي هذا السيل الغزير من الإنتاج ، ويتهمونونه بالسرعة في بعض الأحيان : ألا يكفيكم أن تحتوى هذه المائة كتاب على خمسين كتاباً جيدة جداً ، أو عشرين أو عشرة أو خمسة كتب ممتازة بلغت الذروة في البحث الأكاديمي ، وكل منها يصلح لأن يكون رسالة دكتوراه ، ممتازة ؟ ألا يكفيكم مثلاً كتابه « ابن المعتز » ، أو « الحياة الأدبية في العصر العباسي » ، أو « رائد الشعر الحديث » ، أو « قصة الأدب في مصر » ، أو كتابه هذا « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » ، أو كتابه مذاهب الأدب ،

أو سوى ذلك من العديد من كتبه ودراساته ؛ وإن باحثاً منصفاً لا يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة أبداً ، فالحفاجي دكتور مضروب في عشرة أردنا أم لم نرد . . وهو بهذا الصنيع قد فعل ما يفعله عادة أساتذة الجامعات في كل حياتهم الجامعية التي يخصصونها غالباً لموضوع واحد ، ومادة واحدة . وزاد عليهم مائة كتاب أخرى في التاريخ والأدب والتصوف والاجتماع والتراجم ، والبحوث الإسلامية والعربية والوطنية ، وأيا كان رأى النقاد فيها ؛ فهي - في نظري - تحتوى على الجديد العميق من الفائدة العلمية والأدبية ، وألا يكفي أن يطرى بعض هذه الكتب أدباء لهم مكانتهم الأدبية : كالسحرتي ، وسلامة موسى ، وأبي شادي ، ووديع فلسطين ، وروكس العريزي ، وأحمد عارف الزين ، والشيخ محمد رضا الشيباني ، وسواهم من أعلام العالم العربي ، والإسلامي عامة .

واعتدقنا الحفاجي فضل كبير على الأدب المعاصر بدراساته ومحوته عنه ، وبما جمع ودون من نصوصه ، ومن آراء النقاد والباحثين فيه ، كما فعل في كتابه « صور من الأدب الحديث » .

وقد نشر عن الحفاجي ثلاثة كتب كبيرة للأسانذة : حلیم هنري ، ومحمد رضوان ، وفكري أبو النصر ، وكتبت عنه مئات البحوث والدراسات والمقالات .

والحفاجي أديب ، شرق الأسلوب تمنحني في قراءته دون أن تمل ؛ وهو قادر على تذليل الموضوعات الجافة وتطويعها بقلبه الحي حتى تعدو عذبة سائفة في النفوس . . وهو ذكي لماح ، سرعان ما يستشف الفكرة الجديدة ، ويتمثلها ويلتمس لها المراجع والمطابق ، فإذا هي بعد زمن تقدير أو طویل كتاب جديد .

والحفاجي - قد أسهم مع المسهمين في تغذية الفكر العربي الحديث بالدراسات البكر التي لم يسبق إليها ، وحسبك أن تعلم أن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الحسالي طلب من رجال إدارته كتباً عن تاريخ الأزهر

ورجاله ، لتقديمها إلى هيئات ثقافية أجنبية فلم يجدوا كتاباً - في صميم الموضوع - غير كتاب الخفاجي (الأزهري في ألف عام) ، وهو يقع في ثلاثة مجلدات أما كتابه (مواكب الحرية في مصر الإسلامية) فهو صورة حية لروح التاريخ المصري حين يحلوها أديب وطني حر ، وهو جديد في موضوعه . وما أجدته أن يقرر في المدارس الثانوية ، فهو خير من عشرات كتب التاريخ الجافة التي تعتمد على السرد ، وليس وراءها أى هدف أو أية غاية وطنية أو قومية . وفي هذا المجال أجدني حائزاً بين كتبه ، أذكر : (الإسلام وحقوق الإنسان) ، أم (الإسلام رسالة الإصلاح والحرية) ، أم (الإسلام دين الإنسانية الخالد) ، أم (صور من الفكر العربي وتاريخ الإسلام) ، أم كتابه (قصة الأدب في الاندلس) ، أم (قصة الأدب المعاصر) ، أم (الذكر الحكيم) ، أم تفسيره للقرآن الكريم ؛ أم (قصص من التاريخ) الذي نشره محتويًا على سبعة كتب من تأليفه ، أم غير ذلك من دراستاته ؟ .

أما كتاب (الحياة الأدبية في العصر الجاهلي) الذي يقدمه الخفاجي إلى القارئ العربي بعد تسع سنوات من طبعته الأولى في طبعة جديدة فريدة ، فهو كتاب واف في موضوعه . استقصى فيه كل البحوث الهامة التي لا يستغنى عنها دارس هذا العصر ، سواء كانت تمهيدية ، أو أساسية ، ونظرة في الكتاب تلك على أهميته ، فبعد التمهيد الشافي الذي عقده لموضوع « الأدب بين الذوق واللغة » ، تحدث عن المؤثرات في الأدب الجاهلي ، ووصف الجزيرة العربية وأقسامها ، وأصل العرب ، والشعوب العربية وطبقاتها . ثم تناول الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية ، وعقد فصلاً متمماً للنخط العربي في الجاهلية ، ثم تحدث عن أيام العرب وأثرها في الأدب ، مستشهداً بما أنارت به من أشعار حماسية ، ودرس اللغة العربية أصلها ونشأتها وأثر الاسواق العربية في تهذيب اللغة وترقية الأدب ، واختلاف اللهجات العربية ، وخصائص اللغة العربية ، وعوامل نموها ، وفصاحة لغة قرينش ،

ثم تناول تطور المناهج في دراسة الادب العربي وتاريخه ، ونقسم الادب إلى إنشائي ووصفي . . كل ذلك في الباب الاول من هذا الكتاب القيم حتى إذا كان الباب الثاني يتحدث عن معنى الجاهلية ، وناقش آراء القائلين بأسبقية الشعر على النثر ، وأثبت أن النثر أقدم من الشعر ، ثم يتحدث عن النثر وقسمه إلى : مرسل ، ومزدوج ، ومسجوع ، وذكر خصائص النثر الجاهلي في معانيه وأغراضه وأساليبه ، وعزى كل ذلك بأثرة فنية من النثر الجاهلي ، ثم تكلم عن الحكم والامثال ، سواء كانت نثرية أو شعرية حتمية أم فرضية . ثم تناول الوصايا ونماذجها ، والخطابة ودواعيها ، وأغراضها وأساليبها ، وأشهر الخطباء ، وتحدث عن المحاورات والمنافرات والمفاخرات ، والكهانة وسجع الكهانة ، ثم عرض صوراً جميلة من القصص الجاهلي .

فإذا انتقل إلى الباب الثالث الذي عقده للشعر الجاهلي ، استهل حديثه بالحديث عن الشعر عامة وتعريف القدامى والمحدثين له ، وروى لنا كيف نشأ الشعر عامة ، وتدرج من دور البساطة إلى دور السجع ، ثم إلى دور الوزن ، ثم كيف تطور الشعر الجاهلي من الأبيات القليلة حتى تفقه — يد للقصائد الطوال ، وتحدث عن تأثير الشعر في النفوس ، وهزلة الشاعر ، والتكسب بالشعر ، وشاعرية العرب . ثم قسم الشعر إلى : تمثيلي وقصصي ووجداني ، وبين الغنائية الغالبة على الشعر الجاهلي ، ثم تكلم عن تنقل الشعر في القبائل ، وشياطين الشعراء ، وطبقات الشعراء الجاهليين ، ورواية الشعر الجاهلي ، وعقد فصلاً ممتعاً للشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد ؛ وتناول موضوع الصنعة والطبع في الشعر الجاهلي ، ودافع بحماسة مدعمة بالأدلة عن الشعر الجاهلي ؛ ثم أوضح لنا كيف كان الشعر الجاهلي سجلاً صادقاً لأخلاق العرب وعقائدهم ومعارفهم وحياتهم الاجتماعية ، وعزز آراءه بشواهد بليغة من روائع الشعر الجاهلي .

ثم درس المعالقات وسبب تسميتها بذلك وفصّل الآراء المتضاربة ورجح

رأى التبريزى القائل : بأن وجه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ، ومرءوسهم وروسائهم ، وذلك لشدة اعتنائهم بها . ثم تحدث عن منزلة المعلقات وشراحها ، وتناولها بالعرض والنقد ، معلقة معلقة .

وعقد فصلا لأغراض الشعر الجاهلى كالمديح والهجاء والفخر والثناء والحماسة والعتاب والاعتذار والحكمة والاخلاق والوصف والاسباب . ثم فسر ولا يمانى الشعر الجاهلى ، وأخيلته وألماظه وأساليبه ، وتحدث عن الرجز والقصيد ، وكانت لفظة بارعة من مؤلفنا تحدثه عن الشاعرات العربيات فى الجاهلية . ومن أقوى فصول الكتاب الفصل الذى عقده لأرباب علماء الادب فى الشعر الجاهلى قديما وحديثا ، وقد ناقش فيه مناقشة بارعة آراء الدكتور طه حسين وطائفة من المستشرقين . ولم يلبس المؤلف أن يتحدث عن النقد الادبى فى الجاهلية . ثم تناول الحكومة الادبية بين قصيدتى علقمة وامرئ القيس وعقد فصلا جديلا عن الموازنة بين الشعراء ، ثم قام بتطبيق بارع حين وازن بين شاعرين جاهليين هما زهير والاعشى ، ووازن بين قصائد جاهلية مشهورة ، وعرض صنورا من الشعر الجاهلى . . وختم الكتاب ببحث عن المصور الادبية وتحديد العصر الجاهلى ، إلى غير ذلك .

وبعد ، فهذا عرض سريع لموسم الموضوعات فى هذا الكتاب القيم ، وأشهد أن هذا البحث على كثرة ما قرأت فى هذا الموضوع - يعتبر من أحفل البحوث ؛ وأكثرها شمولا واستيعابا ، وتجلية للحياة الادبية فى تلك الحقبة السخيفة من التاريخ العربى ، ولا يسفى فى ختام هذه الكلمة القصيرة إلا أن أحيى الاستاذ الخماجى على جهاده الادبى المتصل ، وجهوده الثقافية المشكورة فى سبيل دعم القومية العربية الوائبة ؟

عبد الله عبد الجبار

القاهرة ١٩ يوليو ١٩٥٨

خاتمة الكتاب

هذه هي الطبعة الثانية لكتاب « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » ،
التي تشتمل على زيادات كثيرة تكاد تبلغ مائتي صفحة ، والكتاب أوسع
دراسة للأدب الجاهلي وفنونه ، وسماته ، وقد لقيت الطبعة الأولى منه
كثيراً من اهتمام الدارسين والباحثين .

وبحسبي أن أكون قد مهدت بهذا الكتاب لفهم أصول الأدب
ومذاهبه ، وأن أكون قد وضعت المناهج الحقة لدراسة الأدب العربي
عامة والجاهلي خاصة ، وفي ذلك ما فيه من زيادة نصيبنا من الثقافة الأدبية ،
ومن بعث الاهتمام بهذه اللغة الأصيلة ، لغة القرآن الكريم .

ولست في حاجة إلى القول بأن العناية بالأدب القديم ثمانية بكتاب الله
الخالد ، ومؤازرة قوية في سبيل فهمه والتأثر به . . ومن الله السداد
والنوفيق .

محمد عبد المنعم خلفا جى

فهرست الكتاب

صحيفة	صحيفة
٩٢ يوم حليلة	٣ مقدمة
٩٣ يوم الزيرين	٤ تمهيد
٩٣ يوم شعب جبلة	٥ تاريخ كلية أدب
٩٤ يوم خوزي	١٨ تاريخ أدب اللغة
٩٥ أيام الفجار	٢٠ علاقته بالتاريخ العام
٩٧ يوم ذي قار	٢١ تقسيمه إلى عصور
٩٩ - ١٢٥ اللغة العربية	٢٣ - ١٣٠ الباب الأول : المؤثرات
٩٩ أصلها	في الأدب الجاهلي
١٠٣ نشأتها	٢٤ موطن العرب
١٠٦ أطوار تهذيبها	٢٧ أصل العرب
١٠٧ - ١١٦ أثر الأسواق	٢٩ الشعوب العربية
١٠٩ عكاظ	٣٠ القبائل العربية
١١٦ بحنة	٢٥ حياة العرب
١١٦ ذو المجاز	٣٥ مدلول كلمة عرب
١١٦ اختلاف اللهجات العربية	٢٧ حياة العرب الاجتماعية
١١٩ خصائص اللغة العربية	٤٢ حياتهم السياسية
١٢٠ عوامل نمو اللغة العربية	٥٥ حياتهم الدينية
١٢٣ فصاحة لغة قريش	٦٥ معارف العرب في الجاهلية
١٢٤ اللغة العربية ومزاتها بعد نزول	٧٢ الخط العربي في الجاهلية
القرآن	٧٧ - ٩٨ أيام العرب
١٢٦ - الأدب العربي ودراساته	٧٩ حرب داحس
١٣١ - ٢٠٣ الباب الثاني : النثر الجاهلي	٨٥ حرب البسوس
١٣١ معنى الجاهلية	٩٢ يوم بعث

صحيفة	صحيفة
٢١٦ الشعر في الجاهلية	١٣١ الشعر والنثر
٢١٧ تأثيره	١٣٧ ميزات النثر الجاهلي
٢١٨ منزلة الشاعر	١٣٩ أمثلة للنثر المأثور في العصر الجاهلي
٢١٩ التكسب بالشعر	١٤٥ أقسام النثر : الحكم والأمثال
٢٢٠ شاعرية العرب	١٤٥ نماذج لها
٢٢٢ لون الشعر الجاهلي	١٤٧ ماهي الحكمة
٢٢٥ تنقل الشعر	١٤٨ ماهو المثل
٢٢٦ شياطين الشعراء	١٥٠ الوصايا والنصائح : نماذج
٢٢٩ طبقات الشعراء	١٥٢ ماهي الوصايا
٢٣٤ رواية الشعر	١٥٢ الخطابة : نماذج
١٣٥ رواة الشعر الجاهلي	١٥٧ ماهي الخطابة
٢٣٧ الشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد	١٥٨ الخطابة عند الجاهليين
٢٤١ الشعر الجاهلي بين الطبع والصنعة	١٥٩ دواعيها - أغراضها
٢٤٧ الطبع والصنعة في الشعر الجاهلي	١٦٠ أسلوب الخطابة
أيضا	١٦١ المأثور منها
٢٥١ دفاع عن الشعر الجاهلي	١٦١ الخطابة والخطيب
٢٥٨ صلة الشعر الجاهلي بالتاريخ	١٦٢ أشهر الخطباء : قس الإيادي
٢٥٩ تصويره الأخلاق	١٧١ أكنم
٢٦١ تسجيله للعقائد	١٧٢ عمرو بن معد يكرب
٢٠٢ معارف العرب في الشعر الجاهلي	١٧٤ من خطباء العرب
٢٦٣ الشعر والحياة الاجتماعية	١٨٦ المحاورات
٢٦٨ المعلقات ومنزلتها من الشعر الجاهلي	١٨٧ سجع السكبان
٢٧٧ معلقة طرفة	١٩٠ صور من القصص الجاهلي
٢٨٤ معلقة امرئ القيس	٢٠٤-٧٤ الباب الثالث : الشعر الجاهلي
٢٩١ معلقة عمرو بن كلثوم	٢٠٤ ماهو الشعر
٢٩٥ معلقة زهير	٢٠٦ آراء في الشعر
٥٩٨ معلقة عنتره	٢٠٧ نشأة الشعر

صحيفة	صحيفة
٣٦٤ الرجز في العصر الجاهلي	٣٠٤ معلقة ليبيد
٣٦٥ الشعر الجاهلي بين الرجز والقصيد	٣٠٧ معلقة الحارث
٣٦٧ العربيات الشاعرات في العصر الجاهلي	٣٠٩ أبواب الشعر الجاهلي
٣٧٦ آراء علماء الادب في الشعر الجاهلي	٣٠٩ المدح
٤٠٤ الحكومة الادبية بين قصيدتين	٣٠٢ المهجاء
٤٢٥ الموازنة بين الشعراء	٣١٣ الفخر
٤٣٧ الموازنة بين شاعرين جاهليين	٣١٥ الرثاء
٤٥٨ قصيدتان جاهليتان	٣٢٣ الحماسة
٤٦٥ بين الجاهليين والنخضرمين	٣٢٧ العتاب
٤٦٧ صور من الشعر الجاهلي	٣٢٨ الاعتذار
٤٧٥ حول الادب الجاهلي	٣٢٩ الحكمة والاخلاق
٤٧٦ حول العصر الجاهلي	٣٣١ الوصف
٤٨٣ آراء حول النثر الجاهلي	٣٣٣ النسيب
٤٨٩ خاتمة الكتاب	٣٤١٠ النقد الادبي في الجاهلية
٤٩٠ الحياة الادبية - ١	٣٤٥ فنون الشعر الجاهلي أو أغراضه
٤٩٢ الحياة الادبية - ٢	٣٤٩ معاني الشعر الجاهلي
٤٩٨ - ٥٠٤ ملاحق	٣٥٢ أخيلة الشعر الجاهلي
	٣٥٧ أغماظه وأسلوبه

مؤلفات وتحقيقات د. محمد عبد المنعم خفاجي

- ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان
الادب الجاهلي (نصوص ودراسة)
الادب العربي وتاريخه في العصرين الاموي والعباسي
الادب العربي في الاندلس
الآداب العربية في العصر العباسي الاول
اعجاز القرآن (تحقيق)
الاقتصاد في الاسلام
البديع (تحقيق)
الحياة الادبية في العصر الجاهلي
الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام
الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث
دراسات في الادب الجاهلي والاسلامي
دراسات في الادب العربي الحديث
دراسات في الادب المعاصر.

للباقلائي

لابن المعتز

سعيد

الفكر الاسلامي بين الاصاله والتجديد
قصة الادب في مصر
القصيدة العربية : دراسات ونقد
المختار في الحديث النبوي الشريف
من تراثنا الخالد.



Organization of the Alexandria
Bibliotheca Alexandrina

